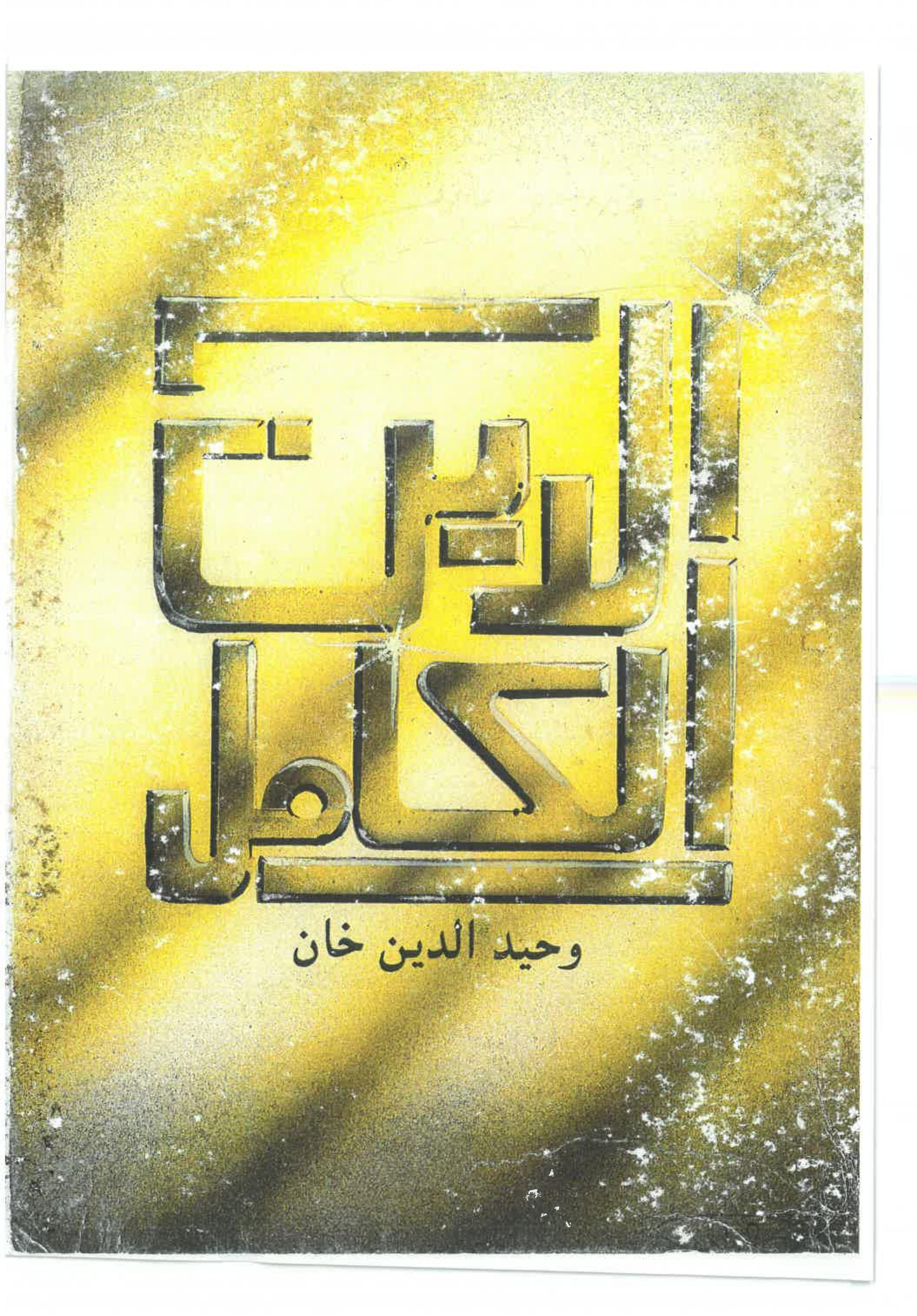
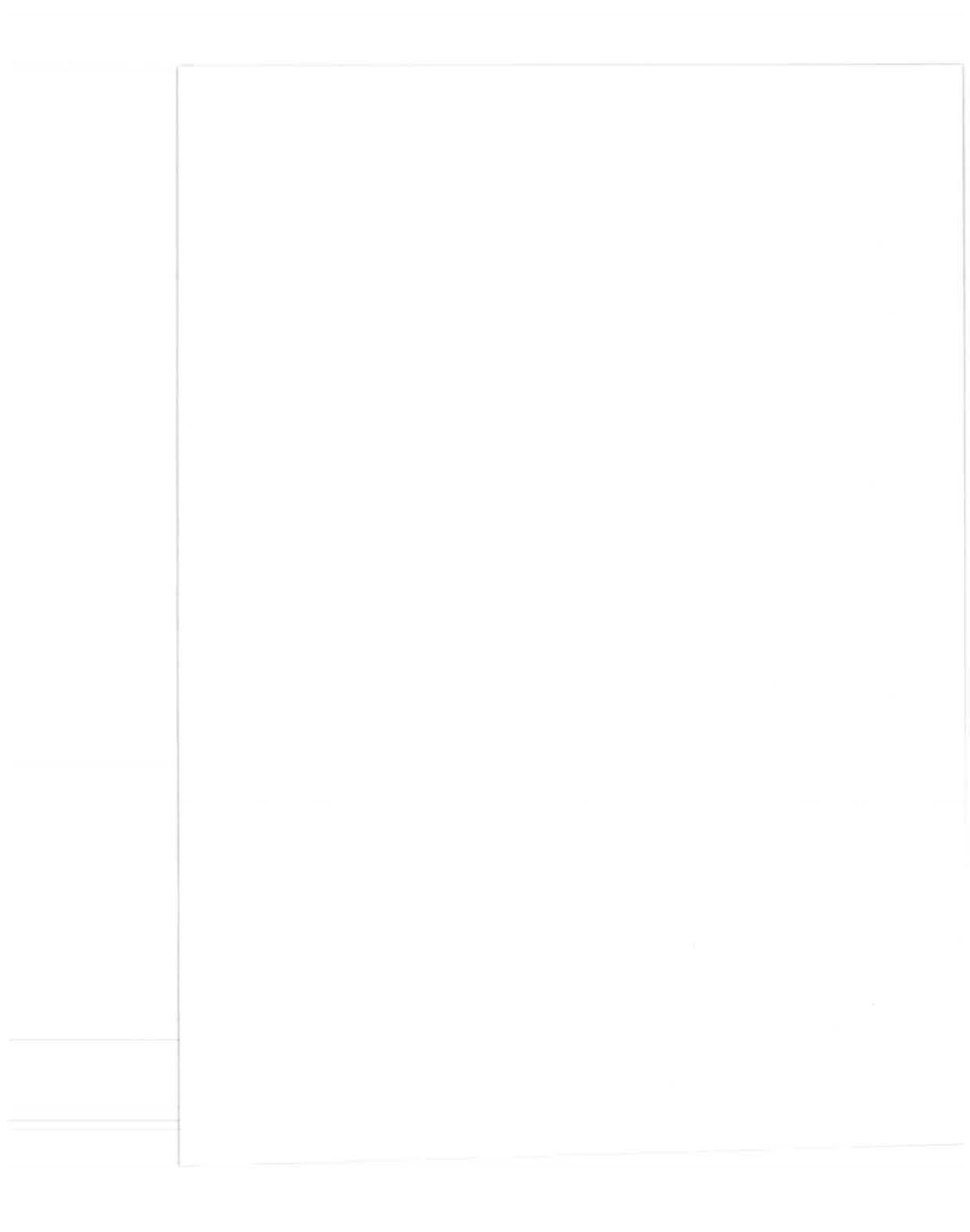

الدين الكامل
وحيد الدين خان



الدين الكامل

الطبعة العربية الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الناشر

الرسالة للإعلام الدولي

٧ ش الشيخ محمد النادي ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر

✆ ٢٦٢٣١٠٥ - ٢٦٢٨٤٩٩ - ٢٦٢٢٨٤٠

وحيد الدين خان

الدين الكامل

الناشر
الرسالة للإعلام الدولي
٧ ش الشيخ محمد النادي ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر



الإيمان

ليس الإيمان اسماً لعقيدة تقليدية ، الإيمان اسم لشعور حي . ومعناه اللفظي (الإقرار والتصديق) . إن المرء إذا أقر بوجود الله ، وبكل ما اتصف به من صفات الكمال ، وصدق بالوحي ، والآخرة ، والملائكة . وما إلى ذلك مما جاء من عنده تعالى ، ورضي بما قسم الله له ، واطمأن إليه حق الاطمئنان فذلك ما يسمى « الإيمان » .

هناك إحدى الكيفيات للإيمان بهذه الأشياء ، وهي أن يؤمن بها تقليداً للآباء والأجداد ، ولكن مثل هذا الإيمان ليس مطلوباً عند الله ، إنه إيمان يخلو من الروح والحيوية والفاعلية ، مثله كمثل أن يكون لدى أحد خنصر زائد ، فهو في ظاهره شبيه بالإصبع ولكن لا عمل له ولا جدوى منه ، بعض الناس يتركونه والبعض يجرون عليه عملية جراحية .

كذلك الأمر بالنسبة للإيمان التقليدي ، فهو جزء من حياة الإنسان ، ولكنه يظل كعقيدة جامدة ليس له أثر في حياة المرء ، ولا يكون له أي سلطان عليه ، ولا يتمتع بصلاحية التحكم في سلوك المرء ، وتصرفاته ، إن حياته تظل بجميع شئونها ومراحلها في منأى عن إيمانه ، حياته في جانب وإيمانه في جانب آخر .

الإيمان الحقيقي هو نوع من رحلة شعورية ، إنه بعبارة أخرى أن يكون المرء قد رأى الإلـه الذي لا يرى ، وأن يكون قد شاهد الحقيقة التي لا تزال في عالم الغيب . ومن هذا الاعتبار نستطيع القول بأن الإيمان هو

(اكتشاف) بل هو (أعظم اكتشاف) ! والشيء الذي يدخل حياة المرء عن طريق الاكتشاف ، فإن دخوله لا يكون مجرد دخول شيء بسيط أو عادي ، بل هو انقلاب أو زلزلة أصابت أرضاً ساكنة ، أو طوفان حل بمياه راكدة .

وعندما يظفر أحد بمثل هذا النوع من الإيمان ، فإنه لا يلبث أن يحدث تغييراً في تفكيره ، وتطوراً في طبيعته ومزاجه . إنه يقوم بتغيير وجهة نشاطاته من جهة إلى أخرى .. ولا يبقى المرء بعد ذلك على ما كان عليه من قبل ، بل يصبح جديداً في أقواله وأفعاله .. وينبثق من كيانه إنسان جديد بمزايا وسمات جديدة .

ولتوضيح هذا سنورد بعض الأمثلة من قصص القرآن الكريم :

الإيمان ينشيء الإنسان تنشئة جديدة :

١ - **المثال الأول** : ويتعلق بسحرة مصر في زمن موسى عليه السلام . كانت عصا موسى تتحول إلى ثعبان كبير بمعجزة من الله ، وكان فرعون ملك مصر - آنذاك - قد جمع السحرة ليتغلب على موسى ، وعندما جاء السحرة إلى فرعون قالوا متملقين : ﴿ **إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين** ﴾ [الأعراف : ١١٣] . إن موقف السحرة هذا كان قبل ظهور الحقيقة ، فلما جرى بينهم وبين موسى ما جرى في ميدان فسيح ، وأمام حشد عظيم من الناس ، ورأى السحرة أن عصا موسى قد التقفت حياتهم ، تبين لهم أن موسى رسول الله ، وأن مثل هذا الحادث العظيم لا يصدر إلا ممن كان مرسلاً من قبل الله ، فلم يلبث السحرة أن خروا في الحال ساجدين لله وقالوا : ﴿ **آمنا برب العالمين** ﴾ [الأعراف : ١٢١] .

إن اعتناق السحرة لدين موسى عليه السلام ، كان بالنسبة لفرعون بمثابة هزيمة ذاتية ، فجزع من ذلك وقال غاضباً متوعداً : ﴿ **فلأقطعن**

أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ [طه : ٧١] .
فردّ السحرة قائلين :

﴿ **فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾ [طه : ٧٢] .

انظروا إلى هذا المثال يبدو لنا من خلاله ما يطرأ على الإنسان من تطور وانقلاب داخلي بعد فوزه بالإيمان . وكيف أن إنساناً جديداً ينبثق من داخله ، فأولئك السحرة الذين كانوا قبل لحظات يخافون من فرعون ويخضعون له ، أضحوا بعد الانقلاب الإيماني لا يعبأون بسخط فرعون وبما هددهم به من التعذيب والتنكيل .. في الظاهر هم نفس الأشخاص ، ولكنهم - باطنياً - أصبحوا أشخاصاً جدداً يخشون الله فقط ، ولا يهتمون إلا بالآخرة « فكل شيء ما عدا الآخرة لا قيمة له عندهم » .

الإيمان معرفة :

٢ - **المثال الثاني** : لقد جاء وصف الإيمان في القرآن الكريم بـ « المعرفة » ﴿ **مما عرفوا من الحق** ﴾ [المائدة : ٨٣] كما وصف الإيمان في الحديث النبوي بـ « العلم » حيث قال عليه الصلاة والسلام : « **من علم أنه لا إلـٰه إلا الله ، دخل الجنة** »(*) رواه مسلم .

إن « المعرفة » و « العلم » عبارة عن إدراك شيء على وجه الشعور ، والمرء عندما يدرك شيئاً على وجه الشعور ، فلا يكون مثل هذا الإدراك محض عقيدة أو نظرية جامدة لا أثر لها ، بل هو يتغلغل في أحشائه ، ويأخذ من كيانه كل مأخذ ، ويهز شخصيته من سائر جوانبها .

(*) وقد جاء وصف الإيمان بـ (العلم) في القرآن أيضاً في مواضع منها : قوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إلـٰه إلا الله** ﴾ [محمد : ١٩] .
وقوله تعالى : ﴿ **إلا من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾ [الزخرف : ٨٦] (المترجم) .

وقد ذكر القرآن في سورة المائدة قصة تمثل هذا النوع من الإيمان : قدم إلى المدينة وفد يتألف من عشرة رجال من نصارى نجران لزيارة رسول الله ﷺ ، فقرأ عليهم شيئاً من القرآن الكريم ، وما أن سمعوا ذلك ، حتى انحل ما كان قد انعقد في أذهانهم ، فعرفوا الله حق المعرفة ، وانكشف لهم أن القرآن كتاب الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقد صور القرآن ما طرأ عليهم من الكيفيات بعد انكشاف الحقيقة لهم . يقول الله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ [المائدة : ٨٣] .

هؤلاء عندما ظفروا بشعور الإيمان ، لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء ، والبكاء ليس حادثاً بسيطاً ، إنه تعبير خارجي عن طوفان داخلي ، إذ يحرك إدراك الحقيقة أوتار القلب ، ويتصدع صدر المرء بانكشاف عظيم ، وتضيء دنيا العبد المظلمة باتصاله بالله ، وحينئذ تنبعث في قلب الإنسان عواطف مثيرة ومهيجة ، والعين إحدى القنوات أو المنافذ التي تنساب هذه العواطف من خلالها .. فيأخذ سيل الدموع بالتدفق من العين ، لكي يؤكد المرء أنه قد مر بتجربة القرب الإلٰهي ، وأن المرء قد ناله نصيب من تلك النعمة الربانية التي تسمى « الإيمان » .

الإيمان ينشيء خشية الله :

كتب المفسر (ابن كثير) وهو يشرح الإيمان : « الخشية خلاصة الإيمان[1] . إن هذا التفسير يحمل مغزى بالغ الأهمية ، فالإنسان يؤمن بشيء ما ويختاره ويجعله في درجة الإيمان ، وطبقاً لذلك تحدث فيه تغييرات ، مثلاً : أنت تقر بوجود النمل أمامك ، وسيحدث في نفسك تغيير تبعاً لذلك ، لكن

---

(١) تفسير ابن كثير (جـ١ ص) .

الأمر سيكون مختلفاً تماماً حين يتعلق الأمر بالأسد ، فأنت ستقرّ به أيضاً ولكن التغيير الذي سيحدث في نفسك هو مختلف تماماً ، فوجود النملة لا يحدث في نفس المرء يقظة ما ، بينما وجود الأسد يوقظ الإنسان من رأسه إلى أخمص قدميه .

« كنت يوماً في زيارة إلى حديقة الحيوانات ، فإذا بالزائرين يتسارعون في اتجاه المدخل الرئيسي ، وبعد أن استطلعت الأمر ، عرفت أن أسداً قد فر من قفصه ، وشاع هذا الخبر بين الزائرين » إنه لم ير أحد منهم الأسد ولكن بمجرد سماعهم للخبر أصبح هذا حالهم . فإذا كان الإحساس بوجود الأسد يبلغ بالمرء إلى هذه الحال ، فكيف بمن يحس بوجود خالق الأسد !

لو كان الإيمان بالله إيماناً حيّاً ، بمعنى أن يكون بمثابة اليقين بذات الله تعالى ، فلا بد أن يرتجف فؤاد المرء ويهتز كيانه ، ويهيمن عليه الخوف والخشوع لله حتى يخفت صوته ، وتتوقف قدماه ، وتنضبط حياته ، وسيشعر بمراقبة الله له في ليله ونهاره ، وأنه مسيطر عليه بصفة كلية .

وقد عرّف بعض المفسرين (المؤمنين) بهذه الألفاظ فقالوا : « يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة »[1] .

فحال المؤمن في الدنيا شبيه بحال غير المؤمنين حين يرون ربهم يوم القيامة ، فهذه الحال يكون عليها المؤمن في الدنيا دون أن يرى الله ... وعندما يرى غير المؤمن ربه يوم القيامة يخضع ويصيبه الهلع والخوف ، بينما يعيش المؤمن نفس الحالة في الدنيا .

ويوم تقوم الساعة توقف الملائكة الناس في ميزان العدل الإلٰهي ، أما المؤمن فيوقف نفسه في هذا الميزان في الدنيا . والحقيقة أن كل ما يجري مع

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٤٧ .

غير المؤمن يوم القيامة يجري مع المؤمن في الدنيا . وهذه التجربة التي تهز كيان المرء في ما يسمى بـ (الإيمان) .

الإيمان يزيد وينقص :

لقد شبّه إيمان المؤمن بـ (الشجرة) قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾ . هناك ميزة خاصة بالشجرة تتجلى في نموها المستمر بداية من البذرة إلى الجذع ومن الجذع إلى الأغصان ثم تنبت الأوراق فتصبح شجرة كاملة . وما تتمتع به الشجرة من خاصية النمو هو ما يتمتع به المؤمن أيضاً ، فهي صفة مشتركة بين المؤمن والشجرة ، إن إيمان المؤمن ينمو ويزداد ، يبدأ من البذرة حتى يصل شجرة كاملة ، ولكن كيف ينمو الإيمان ؟ إن صورة نمو الإيمان شبيهة بصورة نمو الشجرة ، فالشجرة تتغذى وتنمي كيانها عن طريق المعادن والغازات والماء وكلها منتشرة في الأرض والفضاء .. والعجيب أن غازاً ضاراً كثاني أكسيد الكربون يدخل أيضاً في الشجرة فتحوله في مصنعها الإلٰهي إلى غذاء لها ، فيخرج منها بعد أن تحوله إلى أكسجين نافع ومفيد . وهذا هو حال المؤمن في الدنيا .

إن المؤمن يظل يستمد غذاءه مما حوله أو مما يقع تحت بصره ، وكل ما يلج داخله على شكل صوت عبر أذنيه أو مشاهدة من خلال عينيه أو من طريق آخر فإنه يتحول إلى غذاء ، والإيمان هو السبب . ولكن كيف يتّم ذلك ؟ .

إن المؤمن حين تنزل به مصيبة يصبر عليها ، بدل الجزع منها ، فالمصيبة تتحول في داخله إلى صبر ، وتفسير ذلك أن المصيبةُ في ظاهرها إنما تثير خبايا النفس ، لكن مصنع المؤمن يحول هذه الخبايا الكامنة في النفس إلى حالة إيجابية . وكذلك حين ينجح المؤمن في الدنيا ، لا يفخر بهذا النجاح ، بل

يسجد لله شاكراً له على عطائه ، ومعترفاً بأنه من عند الله ، وليس من عند نفسه ، فالنجاح الذي يدفع الناس إلى الافتخار عندما يلج مصنع المؤمن يتحول إلى « شكر » بدل « الافتخار » لأن نفسيته تحول النجاح إلى شكر .

إذن كل الأشياء التي تبعد الإنسان العادي عن الله تقرب المؤمن من الله ، فلو أساء إليه أحد يقابله بالعفو والصفح ، وكل حادثة تحرك نار الانتقام عند عامة الناس توصل المؤمن إلى ظل رحمة الله ، وعندما ينظر المؤمن إلى السماء والأرض وما بينهما من كائنات ومخلوقات ، تلج تلك المشاهدات إلى ذهنه ثم تتحول إلى آيات الله ، كل تلك الأشياء مادية في ظاهرها ، لكنها عندما تدخل إلى ذهن المؤمن تتحول إلى آيات الله فيرى المؤمن من خلالها الخالق في مرآة المخلوقات . إذن فكل مشاهدة تخلق عند عامة الناس ذهنية مادية أو نفعية ، عندما تدخل في مصنع المؤمن تتحول إلى ذكر الله تعالى . وهكذا كل مشاهدة تعطي للمؤمن غذاء ربانيّاً ، وتقوي إيمانه ويقينه

وفي سورة « إبراهيم » التي قرأت آنفاً صورة أخرى للإيمان ، حيث شبه المؤمن بالشجرة الطيبة التي تثمر ثماراً في كل موسم : ﴿ **تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾ [إبراهيم : ٢٥] . هناك قاعدة للشجرة المثمرة ، وهي أنها تثمر عندما يحين موسم الإثمار ، كذلك الحال بالنسبة للمؤمن في دائرة العمل والأخلاق . فشعور المؤمن الحي ، وإقراره بحضور الله ومراقبته إياه ، ويقينه بوجوب الوقوف أمام العدالة الإلٰهية بعد موته ، كل هذا يجعله ذا حساسية ومسئولية حتى أنه لا يفعل إلا ما يقتضيه إيمانه ، فعندما تعترضه أية واقعة فإنه لا يظهر منه إلا ما يظهر من رجل مؤمن بجلال الله تعالى . وبلفظ آخر فحسن سيرة المؤمن كسيرة حكيم ، تجعله يتنبأ - قبل حدوث شيء ما - بكيفية التصرف في حالة معينة .

وعندما تظهر الحقيقة للمؤمن فإنه يقر بها ويقبلها بصدر منشرح ،

ويمنعه إيمانه من إنكار الحقيقة بعد ظهورها ، ويدفعه إلى القبول والاعتراف والإقرار بالحقيقة والعمل بمقتضاها . وهكذا عندما يرفع النداء لعبادة الله يسجد أمام ربه تاركاً كل شيء ، وناسياً حتى نداء نفسه ، وتجارته ، ولا يمكنه عدم تلبية نداء الله بل يستجيب له بمجرد سماعه . إن إيمانه ضمان لتلبيته نداء الله وسعيه نحوه . كذلك الأمر بالنسبة للمال فعندما تطلب من المؤمن حصة الله في ماله يؤديها دون تأخير ، وعندما يطالبه صاحب الحق بحقه يعطيه إياه بكل إنصاف وعدل ، وعندما يعد شخصاً ما يفي بوعده ، ولا يشعر بالطمأنينة والاستقرار بدون ذلك .

وهكذا يظهر إيمان المؤمن على شكل نور رباني ، ويتجلى في كل معاملة ربانية ، وفي كل حين يفعل ما ينبغي أن يفعل ولا يقوم بما لا ينبغي أن يقوم به . والخلاصة أن الإيمان ليس حقيقة جامدة ، وإنما هو طوفان فكري ، وكرامة ربانية تستقر في صدور عباد الله ، هذا هو الإيمان الذي يتلقاه الإنسان فيمتزج بحياته ويكون نوراً ينير جسده بكامله ، وصبغة تصطبغ بها جميع معاملاته . فالإيمان أن يستغرق الإنسان في عظمة الله ، والإيمان هو ميل شعور الإنسان إلى حمد ربه ، ووصول الإنسان إلى الله في حياته الدنيا ، وهو الزلزلة التي تتحرك في داخل الإنسان بوصوله إلى معرفة الله . الإيمان هو الوصول إلى معرفة الله ، والوصول إلى معرفته كالحصول على كل شيء . فماذا يمكن أن يفقد الإنسان بعد ذلك ؟؟

مزاج التذكر والاعتبار :

من الإيمان ما لا يعدو أن يكون عقيدة جامدة ، وشيئاً من الأشياء الكثيرة المتراكمة في مستودع ذهن الإنسان ، وهو لا يكون كل حياة المرء بل مجرد جزء منها . أما النوع الآخر من الإيمان فهو الذي يبلغ من النفوذ والتمكن في أعماق المرء بحيث يصير فكره ونظره ، لينظر بعد ذلك لكل شيء

من هذه الوجهة الخاصة ، ويلمح في كل شيء إشراقة لإيمانه .. إن إيماناً من هذا النوع يكون شاملاً لكيان المرء وليس جزءاً منه ، وعندما يدرك المرء حقيقة ما – بعمق – لا تلبث أن تسيطر على تفكيره ، والإيمان حقيقة عظيمة من هذا النوع ، ولا يمكن أن يدخل الإيمان نفس أحد من الناس كحقيقة حية ، ثم لا يتمكن بعد ذلك من الاستحواذ على تفكيره وعواطفه .

ولقد كان إيمان الصحابة – بنفس الشكل – إيماناً حيّاً ، فاستحوذ على جميع قواهم الفكرية وملكاتهم التخيّلية ، فكانوا يجدون أثره في كل شيء ، وكل شيء يقع تحت أبصارهم كان ينصاغ في قالب إيمانهم . وكل مشاهدة تلج أذهانهم لا تلبث أن تتحول إلى مادة للدرس والاعتبار الإيماني .

روي أن صحابياً كان جالساً على باب منزله ، إذ مرت أمامه عربة يجرها ثوران ، وأثناء السير توقف أحدهما ، فضربه صاحب العربة بالسوط . فقال الصحابي : (إن في هذا لمعتبراً) . يعني أن الثور الذي واصل سيره دون توقف ، نجا ، أما الذي قعد وتوقف عن السير ، عوقب وضرب .. ونفس القضية تحدث مع الإنسان في الآخرة فمن يقوم بتأدية واجباته نحو ربه يظفر بالنجاة ، ومن يقصر ولا يؤدي واجبات الله سيعاقب ويعذب .

ففي الظاهر كانت واقعة العربة حدثاً دنيوياً ، إلا أن الصحابي استطاع – ببصيرته الإيمانية – أن يلمح في هذا الحدث الدنيوي حقيقة الآخرة .. إن مشاهدة مادية كهذه عندما تدخل ذهن الصحابي لا تلبث أن تتحول إلى واقعة أخروية ، وهذا التحول الفكري هو الذي يطلق عليه اسم « التذكر والاعتبار » .

روح الاعتراف :

من أصعب الأشياء على الإنسان في هذه الدنيا ، أن يعترف بفضل غيره وكماله . فكل إنسان يكون – عادة – مأخوذاً بما في نفسه ، لدرجة

أنه لا يكاد يرى ما عند سواه من فضائل ومحاسن ، إلا أن المؤمن الصادق الإيمان ، يكون سليماً معافى من ذلك الضعف البشري . إن الإيمان – في الحقيقة – هو اكتشاف لعجز أنفسنا إزاء قدرة الله وكبريائه ، وعندما يظفر المرء بهذا الإيمان ، فالنتيجة اللازمة لذلك أن تصبح ذاته لا قيمة لها في نظره ، حيث يسلب منه إيمانه أنانيته وإعجابه بنفسه ، ولهذا السبب يصبح المؤمن متسع الصدر إلى أقصى حد حتى أنه يعترف بكل ما يستحق الاعتراف به . إن أنانية المرء هي التي تحول دون اعترافه بما عند غيره ، فإذا انمحت أنانيته وتلاشت ، فما الذي يمنعه من الاعتراف بما عند غيره من الفضل والكمال ؟!

كان لبيد من أصحاب النبي ﷺ ، وكان من فحول شعراء العرب ، وعندما سمع القرآن ، لم يلبث أن آمن به ، واعترف بعظمته ، ثم رغب بعد ذلك عن قرض الشعر ، سأله أحدهم عن ذلك فقال : (أبعد القرآن ؟!) .

ولكي ندرك مقالة لبيد هذه ، علينا أن نعود إلى ما قبل أربعة عشر قرناً ، فحين قال لبيد هذه المقالة ، ما زال القرآن يتنزل ، والمؤمنون بالقرآن مضطهدون ، والقرآن لم ينل بعد العظمة التاريخية التي نالها فيما بعد ، فقولك في ذلك الوقت (أبعد القرآن ؟) كان أمراً في غاية الصعوبة ، إنما يتطلب إيماناً كإيمان الصحابة ، يسلب المرء أنانيته ليتمكن من رؤية الحقائق بصورة موضوعية مجردة .

تذكر الله في جميع الأمور :

حدث ذات يوم ، أن أبا مسعود الصحابي الجليل ، ثار على غلامه فضربه بالعصا . وبينما هو كذلك إذ مر عليه النبي ﷺ ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام يضرب غلامه ، خاطبه قائلاً : (اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام) وما إن سمع أبو مسعود هذا التنبيه من النبي ﷺ حتى سقطت العصا من يده على الأرض . والسؤال الذي يطرح

نفسه هنا ، ماذا حدث للرجل الذي كان يضرب غلامه ، حتى سقطت العصا من يده ؟ الجواب : أن أبا مسعود إنما كان ينظر من قبل إلى الأمر على أنه قائم بين عبد وآخر ، لكنه بعد التنبيه أصبح ينظر إليه على أنه قائم بين الله وبين العبد ، وعندما نظر إلى الأمر في إطار علاقة الإنسان بالإنسان وجد نوعاً من التفاوت والفروق بينه وبين غلامه ، كأن لسان حاله يقول : أنا الآمر وهو المأمور ، أنا القوي وهو الضعيف ، أنا الغني وهو الفقير ، أنا ذو الجاه والمنصب وهو الوضيع . ولكن عندما تغيرت نظرته للأمر ونظر إليه على أنه قائم في إطار علاقة الإنسان بالله ، علم أنه لا فرق بينه وبين غلامه . فوجد نفسه في نفس الموضع الذي وضع فيه غلامه من قبل ، حيث لا فرق بينهما عند الله تعالى .

إن الناس يتفاوتون فيما بينهم ويختلف بعضهم على البعض الآخر في المراتب والدرجات ، فإذا نظرنا إلى الأمر على أنه قائم بين العبد والعبد نجد تفاوتاً وفرقاً بين الواحد والآخر ، وهذا الفرق هو الذي يتسبب في وقوع كل حالات الظلم والعدوان ، لأنه من يجد نفسه أقوى وأكبر يأخذ من هو أصغر وأضعف منه بالاضطهاد والظلم . وإذا نظرنا إلى الأمر على أنه قائم بين الله وبين العباد تلاشت كل الفروق والاختلافات في نظرنا ، لأنه ما من أحد إلا وهو ضعيف وحقير إزاء الله تعالى . وهذا النوع من التفكير كفيل بأن يقضي على نزعات الظلم والقهر والعدوان عند بني الإنسان .

وهذا هو حال الصحابة ، كانوا يعدون كل قضية قضية الله ، ويظنون أنهم حين يتعاملون مع الناس كأنهم يتعاملون مع الله ، لذا كفوا أيديهم وأرجلهم عن الظلم والعدوان ، إنهم كانوا يحسون بأن الله واقف إلى جانب كل إنسان . والمسلمون الآخرون ، لا يكون إيمانهم حقيقيّاً إلا إذا بلغ هذا المبلغ من الحيوية والفاعلية ، واستحوذ على نفوسهم الشعور بعظمة الله

وكبريائه ، وعاملوا العباد وكأنهم يتعاملون مع الله ، لأن العبد وإن كان ضعيفاً فإن الله عزيز ذو انتقام .

العفو والصفح :

من بين الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ غزوة تسمى « بني المصطلق » وقعت في السنة الخامسة للهجرة . وإثر العودة من الغزوة ، جعل منافقوا المدينة من حادث بسيط لا غضاضة فيه ، ذريعة للطعن في عرض السيدة عائشة (رضي الله عنها) والافتراء على عفتها ونزاهتها . وقد أنزل الله فيما بعد آيات من القرآن المجيد في سورة (النور) تبريء السيدة عائشة براءة كاملة .

وكان في المدينة إذ ذاك مسلم من المهاجرين ، يدعى مسطح بن أثاثة ، تأثر هو الآخر بدعاية المنافقين ، فكان من اللاغطين في حديث الإفك . وكان أبو بكر (رضي الله عنه) ينفق على مسطح لفقره وقرابته منه ، ولما كانت عائشة بنت أبي بكر ، تأثر أبو بكر من موقف مسطح فأقسم ألا ينفق عليه شيئاً أبداً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ [سورة النور: ٢٢] .

فقال أبو بكر : (بلى إني لأحب أن يغفر الله لي) وأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه ، بل وتفيد بعض الروايات أنه زاد عليها . إن هذه الحادثة تكشف لنا عن أسوة الصحابة فيما يتصل بالشكاوى الذاتية ، فشكواهم لا تصل إلى درجة البغض والانتقام ، وليست متأصلة في قلوبهم ، فلا يصل بهم الأمر إلى ظلم المسيء إليهم أو الانتقام منه ، إنهم كانوا (رضوان الله عليهم) ينظرون إلى كل أمر بنظرة الآخرة ، فكانوا يعفون عن خطايا الآخرين ، ليعفو الله عن خطاياهم ، وكانوا يصفحون عن تقصير

الآخرين لكي يصفح الله عن تقصيرهم . إن قضية الآخرة كانت تسيطر على عقولهم وأذهانهم لدرجة أن كل قضية تبدو لهم في مقابلها هينة وبسيطة . لقد كانوا على استعداد للتخلي عن كل شيء ، حتى همومهم وأحزانهم وشكواهم ينسونها لأجل الآخرة .

وبهذا الاعتبار أمكن للصحابة أن يتحلوا بهذا الخلق العظيم ، إنهم أحسنوا إلى من أساء إليهم ، ودعوا لمن آذوهم ، وأصبحوا معين الرحمة والرأفة للذين اضطهدوهم وأذاقوهم صنوفاً من العذاب ، هذا هو إيمان الصحابة . والإيمان المطلوب ، والذي يحظى بالقبول عند الله تعالى ، هو الذي يكون مثل إيمان الصحابة . فمن أراد أن يتقبل الله إيمانه يوم القيامة ، عليه أن يحتذي بالصحابة وأن يتأسى بهم وأن يقلدهم في أمر الإيمان .

الإنصاف في كل الأحوال :

حدث خلاف بين الصحابيين الجليلين عبد الرحمٰن بن عوف وخالد ابن الوليد في أمر من أمور الدنيا ، واستمر ذلك أمداً طويلاً ، وأثناء ذلك جاء رجل إلى عبد الرحمٰن بن عوف رجاء إرضائه والتودد إليه ، وأخذ يسب خالداً ويغتابه ، وحاول أن يشعره بأن خالداً أضعف منه في الدين وأقل إخلاصاً في الإسلام ، وما إن سمع عبد الرحمٰن بن عوف هذا الطعن في دين خالد حتى أخذه الجد ، وخاطب الرجل قائلاً : « مه ! فإن ما بيننا لم يبلغ ديننا » يعني أن ما حدث بيننا من خلاف ونزاع في أمر دنيوي ، لا يجب أن نجعله مقياساً نقيس به إسلامنا فيطعن أحدنا في دين صاحبه .

وهذا يدل على ما طبع عليه الصحابة من الإنصاف في كل الأحوال ، بمعنى أنهم إذا وجدوا في أنفسهم على أحد في أمر ما ، كانوا يحصرونه في ذلك الأمر بالذات ، ولا يجرهم ذلك إلى التنديد ببعضهم البعض في الأمور كلها . إنهم (رضوان الله عليهم) كانوا شديدي التمسك بهذا التعليم القرآني :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : ٨] وعلى المسلمين كافة أن يسلكوا في شؤون حياتهم كلها هذا المسلك الإيماني الذي كان يتمتع به الصحابة رضوان الله عليهم .

* * *

وخلاصة الأمر أن الإيمان – طبقاً للقرآن الكريم – ينقسم إلى قسمين :

الأول : إيمان مثل إيمان اليهود .

الثاني : إيمان مثل إيمان الصحابة .

مثل إيمان اليهود هو بعبارة أخرى « إيمان تقليدي متوارث » يخلو من الروح والفاعلية ، وهو شبيه بالحجارة الصماء ، لا تنبجس منها ينابيع الرقي الروحي ، ولا تتفرع عنها دروب العمل الصالح والسلوك الحسن . إن مثل هذا الإيمان لا يتغلغل في أحشاء المرء ، ولا يستقر في صميم قلبه ، إنه إيمان يظل بمعزل ومنأى عن حياة المرء ، إيمانه في واد وحياته في واد آخر .

وعلى العكس من ذلك ، إيمان الصحابة ، فهو معرفة واكتشاف ، وهو ثورة فكرية ، وعندما ينشأ في أعماق الإنسان لا يلبث أن يهز كل وجوده ، فيشرق كيانه بنور الله ، وينكشف عن تطور جذري يفرض نفسه على دنيا تفكيره وعمله ، فيتسامى بنفسه عن المحسوسات والمظاهر ، ويبصر الحقيقة في صورتها المجردة ، ويتحول كل ما حوله إلى غذاء دسم لإيمانه ، ويكون الإيمان عنده شيئاً عظيم الشأن لدرجة أن كل شيء يفقد قيمته في نظره ويظل تابعاً لإيمانه ، ثم بعد ذلك يرتفع عن دوافع البغض والانتقام ، ويجبره إيمانه أن يظل قائماً بالقسط ملتزماً العدل والإنصاف ، وألا يحيد عن جادة الحق والصراط المستقيم .

بركات الإيمان

أولاً : إنك تجد الأشياء في هذا العالم على نوعين ، إما جامدة وإما نامية ، فالجامدة هي تلك التي تبقى على حالة واحدة ، أما النامية فهي تلك التي تتمتع بخاصية النمو ، ومثال ذلك الحجر والشجر .

ويتضح من القرآن أن الإيمان ليس من النوع الجامد ، بل إنه يزيد وينمو كالشجرة تماماً ، إلا أن الفارق بينهما أن الشجرة تنمو باعتبار وجودها المادي ، بينما ينمو الإيمان باعتبار وجوده المعنوي الشعوري .

إن نمو الشجرة هو أن تنبت مزيداً من الفروع والأوراق ، أما نمو الإيمان فهو أن يتسع نطاق المعرفة ، وتتطور مراتب اليقين ويتنامى الاعتماد على الله ، ويتضاعف ويتعمق الاعتقاد بالله .

وهناك سبيلان اثنان لتنامي الإيمان ، الأول : (سبيل الفكر) ، والثاني : (سبيل الصبر) إن الإنسان حين يتذكر الله ويستحضره ، وحين يفكر ملياً في خلق الله وبديع صنعه يزداد شعوره الإيماني زيادة مطردة ، ويحس بمعارف جديدة تختلج قلبه ، كذلك حين يقاسي آلاماً في حالات غير مواتية تعترض حياته أو يلاقي ألوانا من الأذى ، ثم يصمد أمام كل ذلك وفاء لمتطلبات الإيمان من صبر ومكابدة فهو يزيد إلى إيمانه قوة ويزداد إيمانه صلابة .

زيادة الإيمان عن طريق الفكر :

لقد ذكر القرآن في أماكن عديدة أن الإنسان يزيد إلى إيمانه إيماناً .

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه**

إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ [التوبة : ١٢٤] .

إن القرآن يحمل في ثناياه المعطيات المعرفية التي تعرف الإنسان بالله وتوقظ أحاسيس العبودية الكامنة في أعماقه ، وترسل إلى الناس إشارات تستيقظ بها هممهم وعقولهم ، وتنقل اللاشعور إلى مرحلة الشعور ، كما تنشيء أواصر الصلة بين العبد وخالقه ، وهكذا فإن الاستماع إلى القرآن وتلاوته يزيدان فى حساسية الإيمان والشعور به حتى تنشأ علاقة وطيدة بين العبد وخالقه .

يروى أن ابن عمر رضي الله عنه كان يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول : تعالوا حتى نزداد إيماناً . وروى البيهقي عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له : تعال حتى نؤمن ساعة ، قال : أولسنا بمؤمنين . قال : بلى . ولكننا نذكر الله فنزداد إيماناً . ومعناه : تعالوا نسبح الله ونقدسه ، ونذكر فضائله وكماله وآلاءه ، وبذلك تكون قلوبنا قد أفعمت بأحاسيس الإيمان بالله كما نضفي إليها حيوية ونشاطاً ، ونزيد إلى يقيننا يقيناً ، ونطور معارفنا وننميها .

إن تلاوة القرآن قد كونت لدى الصحابة عقلية متطلعة إلى الذكر والتفكر اللذين يزيدان إلى إيمانهم إيماناً ، ويعملان على تنميته وتطويره بشكل مستمر ، وقد وصف القرآن النبي ﷺ بأنه يزكي أهل الإيمان ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

هذا هو الجانب البارز في التزكية ، وقد ذكر ابن جرير رواية قال فيها : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب الطائر في جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً (تفسير ابن كثير : ج٢ ، ص ١٣١) .

وهذا مثال حي يبين كيف أن الذكر والتفكر يضيفان إلى إيماننا إيماناً

إن حجم أرضنا طبقاً لمعطيات العلوم الحديثة كبير للغاية وقد توصل العلماء بعد بحوث ودراسات إلى القول بأن كوننا هذا فسيح جدّاً ، ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (186000) ميل في الثانية الواحدة وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن . إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (100,000000) سنة ، شريطة أن تكون الطائرة وطاقمها على قيد الحياة .

وفي هذا الكون الرهيب عدد لا يحصى من النجوم ، إن عددها مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها ، وأن حجم هذه النجوم كبير للغاية ، حتى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النجوم في مثل حجم الأرض التي نعيش فيها ، وسوف يبقى فيه مع ذلك متسع . كما يوجد في مجرتنا حوالى (100,000) مليون نجم .

إن هذه النجوم عبارة عن بحار مشتعلة من النار يستحيل نشوء الحياة فيها وفي مثل هذا الكون الفسيح نظام شمسي واحد ، ويخلو تماماً من كوكب آخر مثل أرضنا ، تتوفر فيه المياة والكلأ والخضرة والحياة ، كما لا يوجد أيضاً في أي كوكب آخر هذا النظام الدقيق والمتوازن وهذه المتطلبات الضروية لنشوء الحياة .

لقد توصل العلماء إلى اكتشافات لا حصر لها مما يتعلق بكرتنا الأرضية ، لو تأملها المرء وأمعن النظر فيها فإن قلبه سيرق ويحس بعظمة الله وكبريائه، وسيتبين له كيف أن الله قد هيأ للإنسان هذا الكون الرهيب وأوجد تلك الأنظمة والقوانين التي تضمن بقاءه واستمراره . وهكذا فإن إمعان الفكر في ذلك كله يجعل قلب الإنسان مفعماً بأحاسيس الشكر والامتنان ، كما تضيف هذه الأشياء إلى أفقه معارف جديدة .

وحين كنت منكباً على تأليف كتابي (الإسلام يتحدى) ومنهمكاً

في دراسة علوم الفلك وعلوم الأرض كان يساورني الإحساس بأنني في هذا المصنع الكوني أشاهد الله عياناً . وفي تلك الأثناء قد حدث أن سألني (شاه نصير أحمد) وهو من أعظم كره : هل بإمكان الإنسان أن يرى الله؟ فخرج من لساني بشكل عفوي : (أولم تره بعد ... !) .

والواقع أنه لو فكر الإنسان وتدبر حقّاً لبدا له وكأنه يرى الله ، وبذلك يتقدم إيمانه خطوة إلى الأمام حيث يتخطى مرحلة (الإيمان بالغيب) ويصل إلى (مرحلة الشهادة) .

زيادة الإيمان عن طريق الصبر :

هناك وسيلة أخرى لزيادة الإيمان وهي الصبر . والصبر يعني (الصمود) حين يواجه الإنسان ظروفاً قاسية لا يستطيع أن يتمسك فيها بدينه إلا بعد تضحيات بالغة ، أو أن الظروف تتطلب منه أن يقمع حماسه ، أو يجبره خوف الله على أن يغير منهج تفكيره ويحوله إلى تفكير رباني ، فكل عمل يتسم بهذه السمات يعد من الصبر ، وحين يقوم به الإنسان فإنه يزيد إلى إيمانه إيماناً ، ويحس بأن هناك علاقة جديدة قد نشأت بينه وبين الله .

إن صلح الحديبية الذي تم إبرامه في أوائل صدر الإسلام يحمل مؤشراً إلى مثل هذا النوع من الصبر . حيث إنه قد تم عقد هذا الصلح بعد الخضوع إلى كافة شروط العدو ، وقد عارضه الصحابة بشدة ، حيث لم تسمح عقليتهم بقبول مثل هذا الصلح الذي يعبر عن انتقاص من شأن المسلمين في باديء الأمر ، إلا أنه بمجرد ما أخبرهم الرسول ﷺ بأن إرادة الله تقضي الإقدام على مثل هذا العمل لم يلبثوا أن خضعوا - رغم حماسهم المتقد - للأمر الواقع ، وبذلك استطاعوا أن يحطموا قالب عقليتهم بأنفسهم ، وقد أفادوا من ذلك فائدة عظيمة وهي أنهم قد ازدادوا إيماناً مع إيمانهم . وقد قال القرآن في شأنهم : **﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين**

ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ [الفتح : ٣] .

إن العدو قد أملى شروطاً قاسية بموقعة الحديبية ، وحين قبل الصحابة تلك الشروط نزولاً عند إرادة الله فإنهم بذلك جربوا حلاوة الإيمان الجديد . إنهم خضعوا لإرادة الله على حساب نفي ذاتهم .

كما أنهم أثبتوا أو جربوا – بواسطة هذه الحادثة – إيماناً جديداً وهو أنهم قد خضعوا لحكم الله رغم ذهاب عظمتهم ومكانتهم ، ورغم قمع حماسهم وكبح جماح شهواتهم ، ورغم تمزيق نسيج عقليتهم ، وهذا هو معنى زيادة إيمان إلى إيمانهم .

حديث قدسي :

وقد وضحت قضية زيادة الإيمان في حديث قدسي ، تضمن مثالاً توضيحياً على ذلك . ونص الحديث : « **إذا ابتليت عبدي المؤمن فصبر فلم يشكني إلى عواده أطلقته من إسارى ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل** » . رواه الحاكم عن أبي هريرة .

إن الصبر على الابتلاء يعني أن يظل الإنسان صامداً ثابتاً على الحق رغم وقوعه في حالات متأزمة ، وحين يثبت الإنسان مثل هذا الصمود فإنه يحس – (بحق) – بأن الحق الذي توصل إليه هو أكبر لديه من الأشياء الأخرى ، فهو بمقدوره أن يفقد الأشياء الأخرى إلا أن الأمر يختلف تماماً في شأن الحق فلن يضيعه أبداً .

كان الحق قبل تلك التجربة الروحية مغموراً بين الأمور الأخرى ، لكنه الآن أصبح أثمن وأغلى شيء لديه . فالذي يبرهن على صبره وصموده في مثل هذه الحالات المتأزمة فإن شخصية جديدة تنشأ فيه ، ويحس في كيانه بولادة إنسان جديد ، يجري فيه دم غير دمه وينشأ فيه لحم غير لحمه ، وبذلك يحس بحيوية وانتعاش في كل أنشطته ، وتصبح أعماله أعمال إنسان

جديد .

١) كان لدى سيدنا يعقوب عليه السلام زوجة قد أنجبت له ولدين اثنين ، أحدهما يوسف والآخر يامين ، توفيت وهما صغيران ، ومن قبل تزوج سيدنا يعقوب بأخرى أنجبت له عشرة أبناء ، وكان هؤلاء العشرة يشكون من أن يوسف كان أحب إلى أبيهم منهم ، فاتقدت فيهم نار العداوة ضد يوسف فكادوا له كيداً لينالوا ويتخلصوا منه . وكان يوسف آنذاك يناهز من العمر ست عشرة سنة ، فاصطحبوه إلى الغابة وألقوه في غيابات الجبّ ، وجاءوا إلى أبيهم بدم كذب وقالوا : إن يوسف قد أكله الذئب وهذا قميصه .

إن سيدنا يوسف كانت له مكانة في قلب أبيه ، إذ كان ينزله منزلة لا يتمتع بها إخوته ، لذا كان من الطبيعي أن يصاب بصدمة عنيفة حتى أن عيناه ابيضت من شدة الحزن والبث ، إلا أنه لم يبد أية ردة فعل إزاء هذه الحادثة الأليمة ، بل إنه التزم الصبر شاكياً حزنه إلى الله ﴿ **إنما أشكو بثي وحزني إلى الله** ﴾ [يوسف : ٨٦] .

إن ما لقيه يعقوب من الحزن والغم كان من قبل البشر إلا أنه توجه بشكواه إلى الله بدلاً من البشر . وهكذا فإنه قد جرب حقيقة كبرى وهي أن الحوادث إن كانت في ظاهرها تأتي من قبل البشر إلا أنها في حقيقتها تتم تحت إرادة الله فهو وحده القادر على تعويض ما يفقده الإنسان .

٢) في السنة الثالثة من الهجرة كانت موقعة أحد ، وقد كان النصر حليف المسلمين في بداية الأمر إلا أن خطأ قد حوّل النصر إلى هزيمة راح ضحيته أرواح وممتلكات ، وقد صور القرآن هذه الحادثة في قوله تعالى : ﴿ **فأثابكم غمّاً بغمّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

إن الهزيمة التي نزلت بالمسلمين كانت مع وجود النبي ، والله كان يعرف ذلك أزلاً إلا أنه أراد حدوثها لغرض إضافة الشعور الإيماني لدى المسلمين ، يريد أن تنشأ فيهم قوة قادرة على تحمل الحرمان ، فرغم أنهم قد فقدوا شيئاً إلا أنهم يملكون ما هو أكبر منه ألا وهو الإيمان .

إن أعلى درجات الإيمان (هي ما كان المرء فيها لا يتخلى عن الله رغم حرمانه من الدنيا) ، بل يجد في الحرمان ذريعة يحس خلالها بتجربة جديدة خلاصتها أن هناك من بين الأشياء الفانية شيء لا يفنى أبداً ولا يضيع من الإنسان أبداً . فالصبر على الحرمان من الدنيا يعني خلق الإحساس الذي يمثل نوعاً من الرحلة العقلية ، إنها تدفع المرء خطوة إلى الأمام ، ومن قدر له أن يحظى بهذه النعمة غير الفانية سوف لن يساوره الإحساس بالحرمان من الدنيا الفانية .

٣) بعد غزوة بني المصطلق (٦ هـ) قد شوه بعض الناس في المدينة واقعة بسيطة وأعطوها تفسيراً خاطئاً ، فوجهوا تهمة زائفة إلى عائشة – رضي الله عنها – وهي زوج النبي ﷺ وبنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وكان من الطبيعي أن يصاب أبو بكر – رضي الله عنه – بصدمة عنيفة ، إذ ليس هناك شيء أعمق أثراً في قلب الأب من أن تتهم ابنته البريئة .

وفي غمرة هذه الموجة من التهم الكاذبة تورط مسطح بن أثاثة في اتهام عائشة ، ومسطح هذا إنسان بسيط كانت تربطه بأبي بكر صلة قرابة ، وكان أبو بكر يمده بمعونة مالية شهرياً ، وحين علم بأمره أقسم تحت تأثير الصدمة ألا يقدم له أية معونة . إلا أنه لم يلبث أن نزل القرآن : ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتو أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ [النور : ٢٢] . فقال أبو بكر فور سماعه للآية : (بلى والله إنا نحب أن تغفر

لنا ياربنا) .

قبل هذه الحادثة كان سيدنا أبو بكر يؤتي قريبه مسطحاً دون أن تساوره أحاسيس الصدمة التي لحقته فيما بعد بسبب الحادثة . أما الآن وقد لحقه ما لحقه من آثار الصدمة فهو يقدم إلى مسطح المعونة المالية مجاهداً انفعالاته النفسية نزولاً عند إرادة الله ورضاه ، بينما كان يقدمها من قبل بكل عفوية وبساطة . وهكذا فقد تعلم كيف يمكنه أن يتجرد من تسلط المشاعر الغاضبة ، وكيف يتعامل مع الآخرين بكل تسامح ، كما أدرك أن الأخلاق الإيمانية لا تترقى أو تنمو في ظل الظروف العادية فقط ، بل هناك منفذ قوي لتصعيد المشاعر والأخلاق الإيمانية وذلك في بوتقة الظروف والحالات المتأزمة والصعبة وإن هذا الأمر قد دفع إيمان أبي بكر خطوات إلى الأمام .

٤) إن التهم التي وجهت – والعياذ بالله – إلى عائشة قد تبعتها سلسلة من الأحداث في المدينة ، منها ما روي عن أفلح مولى أبي أيوب ، قالت له امرأته أم أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى . وذلك كذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت : لا والله . قال : فعائشة والله خير منك .

إن الذين تورطوا في اتهام عائشة الطاهرة كان موقفهم موقف من ينقل الأخبار دونما روية أو بصيرة ودونما أي تحقيق ، ولكن أبا أيوب قد سما بنفسه عن مثل هذا الموقف الساذج ، إذ تناول الأمر بتفهم وتعقل وواقعية ، وقد أحس في أعماق قلبه أنه لا يستطيع أن يقبل على مثل هذه الرذيلة ، لذا أصدر حكمه بأن عائشة أولى أن لا تقبل على مثل ذلك .

إن هذا نموذج لقلب قد امتزج بالصبر الشعوري ، لذا حين قام أبو أيوب بهذا العمل فإنه كما نص الحديث : بدل لحمه بلحم خيراً من لحمه ودمه بدم خيراً من دمه . وأبدع في كيانه تلك الشخصية المثالية التي تملك

الاستعداد لتنظر إلى الآخرين بنفس النظرة التي تنظر بها إلى نفسها ، والتي يمكنها تقصي الموقف وتحريه مع مراعاة الموضوعية والواقعية .

الخلاصة :

إن نظرة سطحية إلى مظاهر خلق الله تذكر الإنسان ، إلا أنه لو استطاع الإنسان أن يعبر هذه المظاهر الخارجية ويمعن نظره في العجائب الكامنة وراءها فإنه سيصبح مغموراً في تلك الموسوعة المعرفية .

إن تحسن الأخلاق وزيادتها في الحالات المعتادة أمر لا يمكن الاستغناء عنه إلا أن الإنسان حين يتعامل مع أحد برقة ولين جانب رغم انفصام العلاقة بينهما ، فإنه يحس في مثل هذا الوضع بإيمان جديد لم يكن يحس به من قبل . ومراعاة الإنصاف مع من له صلة بك يعد من العدل ، ولكنك حين تنصف رجلاً قد ساءت علاقته بك وكنت تعده خصماً لك فإن إنصافك له في مثل هذه الحالة ليس عملية إنصاف بالمعنى العادي البسيط ، بل إنه وسيلة لأن تخلق في نفسك أواصر الترابط الوطيدة مع الله .

وهذا هو تغدية الإيمان وتنشيطه أثناء القيام بعمل ما في الحياة العملية ، وهو ما نطلق عليه (إضافة الإيمان) ، فالإيمان يزداد دوماً إلا أن نسبة الزيادة تكون حسب استعداد المرء وتقبله .

ثانياً : الإيمان هو الحقيقة الكبرى على وجه الأرض ، فكما أن الإيمان يصوغ نفسية الإنسان لئلا يظل في بؤرة الجمود في الدنيا بل يدفعه ويحثه لينساق نسق الأشجار في تكوين ذاته وتطويرها نحو الأعلى والأفضل ، كذلك يخلق الإيمان في نفسه تلك الصفة العليا التي تكمن فيها أسرار النجاح والتي هي الوسيلة الوحيدة للنصر والفلاح ألا وهي صفة (الصبر) . ورد في القرآن الكريم : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ كما ورد في الحديث قوله ﷺ : « **اعلم أن النصر مع الصبر** » . أي أن الله تعالى له الكبرياء والقوة ، وأن

نصرته هي وسيلة دونما أدنى شك إلا أنه لا تفتح أبواب النصرة على مصراعيها إلا لشخص أو طائفة تبرهن على الصبر والتمسك به في حالات غير مواتية وفي أوضاع متأزمة . إن النصرة تأتي من الله إلا أن العباد لا بد وأن يبتغوا في الصبر وسيلة للحصول عليها .

ليس ذلك من نوع الكلام العقدي المعقد ، بل إنها سنة الله في الكون وقد تمت بلورة هذا القانون بمزيد من الوضوح في سورة الانشراح ، حيث وضح الله هذا الأمر بقوله : ﴿ **إن مع العسر يسراً** ﴾ أي أن الله جعل من سنته أن ربط اليسر بالعسر ، فمن يتوخى الوصول إلى مرحلة اليسر لزاماً عليه أن يعبر أولاً الطريق المملوءة بالأشواك والعقبات ، تلك سنة الله في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

إن مع العسر يسراً :

إن سورة الانشراح نزلت حين كان النبي ﷺ في طوره المكي ، وكانت مكة تعيش أوضاعاً سيئة ومتأزمة حيث كانت السيادة فيها للمشركين الذين ألحقوا بالنبي والمسلمين أشد وأقسى أنواع الأذى فلم يبق شكل من أشكال الاضطهاد إلا وقد مورس عليهم .

يروي طارق بن عبد الله المحاربي : أنه رأى النبي في سوق ذي المجاز لأول مرة في بواكير بعثته ﷺ وهو يمضي بين الناس ويقول : « **يا أيها الناس قولوا لا إلـه إلا الله تفلحوا** » بينما كان هناك من يتبع النبي ﷺ وهو يرميه بأحجار ويقول : (يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب) .

يقول عروة بن الزبير : (طلبت من عبد الله بن عمرو بن العاص ذات مرة أن يحكي لي بعض ما كان يلاقي المسلم من الأذى من قبل المشركين فرد قائلاً : بينما كان النبي ﷺ ذات يوم يصلي في الحطيم. فجاءه عقبة بن أبي معيط فطوق عنقه بثوب كان معه وجره حتى كاد النبي ﷺ أن يختنق .

هذا اللون من ألوان التعذيب والاضطهاد تزخر به كتب السيرة والتاريخ ، وهو يحمل مؤشرات صريحة على العقبات التي كان يتعرض لها المسلمون .

وفي الفترة المبكرة من البعثة المحمدية كان يشق على المشركين تحمل قراءة القرآن أو السماح للمسلمين بالصلاة ، يروي ابن هشام في سيرته : (كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم) ص ٢٧٥ .

ولم يكتف المشركون في مكة القديمة بتوجيه السبّ والشتم للمسلمين بل كانوا يتعرضون لهم بالضرب والتعذيب الجسدي القاسي ، كما يستخذمون الذرائع المختلفة للنيل من المسلمين وقمعهم وتحطيمهم مما تزخر به كتب السير والتاريخ .

هذه هي الأوضاع القاسية والظروف الصعبة التي عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ **فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً** ﴾ . وقد أورد ابن جرير هذه الرواية : خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً يضحك وهو يقول : « **لن يغلب عسر يسرين ، لن يغلب عسر يسرين ، فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً** » .

إن الآية تشكف لنا عن سنة إلهية وضعها الله في الكون ، فقد صاغ الدنيا حين صاغها بحيث إذا أراد أحد أن يحقق شيئاً فإنه يتعرض لشتى أنواع المشاكل والمصاعب ، ولن يتمكن من تحقيق ما يتوخاه إلا إذا التزم برباطة الجأش في التصدي للمشاكل ومواجهتها ، وهناك جانب اليسر يكمن في كل عسر أو مشكلة ، لذا ينبغي على الإنسان المتعقل أن يتفحص ذلك الضلع الكامن وراء العسر . هذا هو سر النجاح في الحياة ، فمن يتمكن من كشف ذلك السر فإنه سيحقق الفوز والنجاح ومن لا يتمكن من ذلك فإنه سيمنى

بالفشل والإخفاق .

مصداقية العلوم الإنسانية :

إن هذه الحقيقة الحياتية الواقعية التي وضحها القرآن حقيقة بارزة إلى درجة أن الباحثين في علم النفس الذين انصبت جهودهم على دراسة الإنسان دراسة علمية تتسم بالموضوعية والتجرد ، قد توصلوا إلى هذا السر وأفصحوا عنه بأساليب مختلفة .

إن الدكتور الفرد ايدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٧) يعد أول من استخدم مصطلح (الشعور بالنقص) وقد رفضه رفضاً قاطعاً . أمضى حياته عاكفاً على دراسة حقيقة الإنسان وماهيته وكيفية استعمال قواه واستعداداته ، وقد كان من أبرز علماء النفس ، فقد أسفرت دراسته المضنية التي أفنى عمره فيها عن تأليف كتاب اسمه (The individual psychology علم النفس الفردي) سجل فيه تجاربه عن الإنسان ، وقال فيه : إنني قد عثرت في الإنسان على خصوصية مدهشة وقوة مذهلة ، وهي :

(Their power to turn a minus into a plus

(مقدرتهم على تحويل النقص إلى تفوق)

فالأمر الذي عبر عنه الفرد ايدلر بأنه استعداد إنساني هو في الواقع هبة إلٰهية قد ميز الله بها الإنسان ، فالإنسان لديه مقدرة على تحويل (لا) إلى (نعم) ، إلا أن هذه المقدرة - أو قل المعجزة - لا تنتمي إلى ذات الإنسان نفسه ، ولا تحدث بناء على طاقة كامنة في كيان الإنسان ، بل إن سبب حدوث ذلك إنما يرجع إلى أن الله قد صاغ الكون وشكله على نمط يذخر بإمكانات هائلة ، والتي تسعف الإنسان لئلا يتورط في أوضاع غير مواتية بشكل نهائي ، بل يبقى في كل (لا) ضلع من (نعم) فإذا استخدمه الإنسان ضمن نجاحه وبلغ أهدافه المنشودة .

وسنعرض بعض الوقائع من سيرة الرسول ومن التاريخ الإسلامي ، والتي نلمس فيها مثالاً حيّاً لهذه المسلمة ، وهي وقائع تكشف لنا أن كل عسر تعرضت له هذه النخبة قد وضع الله فيه جانباً من اليسر ، وقد استشفت هذه النخبة – الخالية من النزعات السلبية – جانب اليسر الكامن من وراء أستار العسر . وعن طريق استخدامهم لهذا الجانب قد تمكنوا من أن يغيروا مجرى التاريخ ويحولوا ما كان يمثل (لا) بالنسبة لهم إلى (نعم) .

رفع الذكر :

لقد ذاع صيت الإسلام في مكة بفضل تبليغ النبي ﷺ ، وبدأ الناس يتناقلون أحاديثه في جلساتهم وتجمعاتهم . يقول ابن هشام : (ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس) سيرة ابن هشام : ص ٢٧٤ .

وعندما أحست قريش بسرعة انتشار الإسلام وذيوع صيته عقدت جلسة في بيت الوليد بن المغيرة ، وبعد تشاور فيما بينهم وصلوا إلى نتيجة مؤداها أن موسم الحج قد قرب أمده ، وسوف يتجه العرب من كل حدب وصوب إلى مكة ، وقد يتأثر هؤلاء الحجاج بكلام محمد . لذا علينا أن نأخذ حذرنا قبل فوات الأوان ، إذ يتوجب علينا أن نبث بين هؤلاء الحجاج قولاً من شأنه أن يشين بمحمد ويجعلهم يسيئون الظن به ، ولكن ما هو هذا القول الذي يحمل في ثناياه هذا النوع من التأثير النافذ ، لقد اتفقوا على أنهم سيقولون : (بأن محمداً هذا قد نهض بدعوة من شأنها أن تنشب التفرقة القومية) . وقد طبقت قريش هذا القرار على أرض الواقع .

لقد حدثت هذه الواقعة والإسلام لا يزال في مهده ضعيفاً غريباً ، وقيام قريش – في مثل هذا الوضع – بدعاية واسعة النطاق للحيلولة دون انتشار الإسلام وذيوع صيته كان يشكل خطورة قصوى ، إذ أن قريشاً

كانت تملك نفوذاً ومكانة مرموقة لدى العشائر والقبائل الأخرى ، وقيامها بمثل هذا العمل الخطير يعني تنفير الناس من الإسلام وصدّهم عنه .

إلا أن هناك جانباً آخر من الأهمية بمكان ، وهو أن دعاية قريش تلك قد ساهمت بشكل مباشر في التشهير بالإسلام وإذاعة صيته ، حيث تعرف على عدد هائل جداً ، الأمر الذي لا يمكن أن يقوم به النبي في ذلك الحين . فرغم أن نشاط تلك المعارضة كان يرمي إلى الإساءة للإسلام والنيل منه ، إلا أن كيان الإنسان مصاغ على نحو فيه نزعة حب الاستطلاع (Curiosity) التي بموجبها يتطلع الإنسان إلى استشفاف سر كل جديد يعرض له . ومن ثم فإن دعاية قريش قد جعلت الناس يتوقون إلى الكشف عن سر هذه الدعوة الجديدة ، وإزالة النقاب عنها .

إن النبي ﷺ بحكم طبيعته البشرية قد أصابه الحزن والغمّ الشديدان ، إلا أن القرآن قد تناول الجانب الآخر لهذه الواقعة الأليمة ، حيث نزلت هذه الآية : ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ . فمبادرة قريش تلك ، والتي كانت في صورة دعاية ترمي إلى الإساءة للإسلام هي جانب سلبي بدون شك ، لكن المبادرة نفسها تحوي جانباً إيجابيًا كان له أهميته القصوى في التاريخ الإسلامي وهو نشر الإسلام ، والقرآن تناول هذا الجانب الأخير وركز عليه وأشار إلى أن هناك ضلعاً مضيئاً بارزاً يكمن في خضم الظلمة القاتمة . فالشيء الذي يعد من جهة دعاية مضادة ومعادية هو نفسه ، من جهة أخرى ، يعد عاملاً بارزاً في مهمة رفع الذكر ، فأدركوا هذا الجانب الكامن واستخدموه حق الاستخدام .

فلم يلبث المسلمون أن استشفوا هذا التيار الإيجابي ، إذ أحسوا أنه قد أصبح بإمكانهم انتهاز الفرصة التي خلقتها قريش وهي حب الاستطلاع الذي نشأ عند الحجاج والوفود القادمة إلى مكة ، فنشطوا وتشجعوا أكثر

من ذي قبل .

فالذين أصبحوا بفضل دعاية قريش ، في حالة شوق ولهفة للتعرف على هذا الدين الجديد متسائلين (ما هذا الدين الجديد ؟) وضح لهم المسلمون حقيقة الدعوة وماهيتها . وبهذا الأسلوب قد انتشر الإسلام وذاع صيته ، فدعاية قريش تلك قد جعلت الإسلام – في أيام قلائل – يشتهر بسرعة فائقة وهو أمر لا يتحقق بفعل المسلمين أنفسهم .

التأخير يصبح نعمة :

من بين التدابير التي وضعها المشركون في مكة القديمة ضد الإسلام أنهم أوفدوا إلى المدينة شخصين بارزين ، وقد التقيا بأحبار اليهود ووضحا لهم حال النبي ﷺ ، وقالا أثناء الحوار معهم : إنكم أهل كتاب جئناكم لنستفسركم عن هذا الرجل الذي ظهر فينا . فرد الأحبار : اسألوه عن بعض الأشياء فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول .

ومن بين الأسئلة التي طرحت على النبي ﷺ كان السؤال حول ذلك الرجل الذي ذهب من مشرق الأرض إلى مغربها ، كما سئل عن هؤلاء الفتية أصحاب الكهف .

وبعدما وجهت إلى النبي ﷺ تلك الأسئلة كان رده : (سأخبركم غداً عما سألتم عنه) إلا أن النبي لم يعقب قولته تلك بكلمة (إن شاء الله) فهو كان يظن بأن جبريل سيحضر إليه في الغد فيسأله ثم يجيبهم عما يسألون ، لكن جبريل لم يأت في الغد كعادته حتى مضت خمسة عشر يوماً .

هذا الأمر كان يمثل خطورة بالغة ، فالشخصيات التي دارت حولها الأسئلة هي بعيدة عن متناول الإنسان العادي ، إذ أنها ذكرت في كتب اليهود ، وفي ذلك العصر لم تظهر الطباعة بعد ، فكانت تلك الكتب حكراً

على بعض علماء اليهود ، ولم يكن عامة الناس يعرفون شيئاً عنها ، كذلك الحال بالنسبة للنبي فهو لا يعرف شيئاً عنها .

وبدأ المشركون يترددون على النبي كل يوم يطالبونه بالإجابة عن أسئلتهم ، والنبي بدوره لم يكن يستطيع الإجابة عنها ، الأمر الذي جعل المشركين يستهزءون بموقف النبي هذا ويتقولون عليه : إن محمداً ليس نبياً صادقاً ، إذ لو كان كذلك لبين له ربه وأجاب عن الأسئلة التي طرحت عليه .

إن هذه الواقعة كانت ضد الإسلام في باديء الأمر ، وكان من شأنها أن تضع علامات استفهام حول الإسلام ، ولكن كان هناك جانب اليسر في خضم العسر . إذ أن توقف الوحي ودعاية المشركين أصبحت موضع تساؤل في كافة أنحاء مكة ، لا يخلو بيت إلا وقد بلغه هذا الأمر . وهكذا نشأت الرغبة في التطلع للاستماع إلى أجوبة الإسلام في كافة أرجاء مكة .

وبعد مرور خمسة عشر يوماً نزل جبريل بسورة الكهف التي فصلت الإجابة عن الأسئلة . والأمر الجدير بالملاحظة هنا هو أنه لو نزلت السورة في ظروف عادية لما كان نزولها يلفت أنظار الجميع كما هو الشأن الآن ، حيث نزلت والآذان صاغية تتوق للاستماع إلى مضمون السورة والإجابات المنتظرة ، ومن ثم لم يلبث أن انتشرت السورة في كافة أنحاء مكة ، كل يتطلع ويتلهف إلى معرفة الإجابة التي أجاب بها محمد . وهكذا فالأمر المعادي للإسلام أصبح مؤيداً له .

التبليغ بواسطة الهجرة :

إن الإسلام استمر في انتشاره رغم معارضة المشركين له ، وإن المحاولات التي دبرت للنيل من الإسلام قد زادت من انتشاره . وعندما لاحظ المشركون هذا الأمر ازدادوا في سخطهم وتمردهم وبدأوا يمارسون مزيداً من

القسوة على المسلمين . وفي مثل هذا الوضع العصيب قال رسول الله ﷺ لأتباعه : « **تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم** » وحين سئل عن الوجهة التي يمكن الاتجاه إليها أشار النبي إلى الحبشة لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد .

والحبشة دولة إفريقية تجاور العرب ، ويحول بينها وبين العرب البحر الأحمر ويضيق هذا البحر في عرضه من ناحية اليمن ، مما جعل العرب يتخذون هذا الجانب كنقطة عبور ، فاستخدموا السفن لعملية العبور هذه سواء عند الذهاب إلى الحبشة أو عند القدوم منها .

وطبقاً لما أشار به النبي توجه وفد مكون من اثنى عشر نفراً إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة ثم أعقب ذلك قافلة أخرى تضم أكبر عدد من المهاجرين قاصدة الحبشة ، وكما ذكر ابن هشام كان عددهم ستّاً وثمانين نفراً . وهكذا وصل إلى الحبشة ذلك البلد الأفريقي ما يقرب من مائة مسلم .

إن هذه الحادثة تحمل – في باديء الأمر – نوعاً من الهزيمة ، إلا أن الله بفضله أراد أن يكشف لنا عن جانب النجاح والانتصار فيها . فالقافلة حين وصلت لم تكن تمثالاً متحجراً بل هي جماعة من المبلغين تغمرهم الحيوية والنشاط ، ويتدفق فيهم الإيمان الحي ، لذا كانت هجرتهم تلك بمثابة تجوال المبلغين من مكان إلى آخر . لقد بدا صوت الإسلام ينفذ إلى الآذان فور عبورهم للبحر ، وبدأ الناس – إثر ذلك – يتفاعلون ويتأثرون بفضل أخلاقهم السامية والنشاط الحيوي لدعوتهم ، إلى أن ذاع صيتهم ، فاستدعى النجاشي ، ملك الحبشة ، هؤلاء الدعاة ، وقد كان يتخذ من مدينة أكسوم – وهي مدينة قديمة بالحبشة – مقراً له .

وكان جعفر بن أبي طالب يرأس – آنذاك – القافلة الإسلامية ، فألقى خطاباً أورد فيه تعريفاً بمباديء الإسلام . والجدير بالملاحظة هنا ، أن من أوذي وعذب واضطهد لكي يقلع عن هدفه الذي يصبو إليه ، وهو مع ذلك

صابر صامد وقد قدم تضحيات بالغة لا يثنيه عن ذلك شيء ، فإن كلامه يقطر من الحزن والأسى الذي تراكم مع الأيام ، وسيكون له أثر عميق ينفذ إلى قلوب السامعين ، لأن كلماته تخرج من أعماق قلبه وقد تفجرت فيها عاطفة أحزانه وآلامه .

وهذا ما حدث لجعفر بن أبي طالب حين ألقى خطابه ، لقد دهش الحاضرون لسماع كلماته ، وبدأت قلوبهم ترق له وآذانهم مصغية إليه ، حتى أن النجاشي لم يستطع أن يوقف دموعه التي اخضلت لحيته . إن جعفر بن أبي طالب كان مضطهداً ، إلا أن ذلك قد خلق في كلامه تلك القوة والتأثير العميق الذي جعل القاعة تهتز وقلوب السامعين ترقّ .

إن أحداث هجرة الحبشة تحفل بذكرها كتب التاريخ والسير ، وهي تشير إلى حقيقة هامة وهي أن الهزيمة قد تحولت إلى نصر ، وأن الدعوة قد اجتاحت المسالك منطلقة من آسيا إلى أفريقيا ، وبدأت تترعرع وتنتشر فيها حتى دخل أكثر من نصف أفريقيا في ظل الإسلام . لقد ذاع صيت الدعوة الإسلامية وتحولت إلى دعوة عالمية ، حتى أصبحت أرتريا دولة ذات أغلبية مسلمة ، كل ذلك كان بفضل الهجرة .

البداية في النهاية :

إن كل عسر يحمل في ثناياه إمكانات اليسر . وهذه الحقيقة ظهرت بوضوح في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فهي تبدو في بادىء الأمر وكأنها أسوأ القصص ، لكنها أصبحت أحسن القصص كما نص على ذلك القرآن ﴿ **نحن نقصّ عليك أحسن القصص** ﴾ . ففي الوقت الذي حاول فيه خصومه إنهاء تاريخه ومحوه للأبد ، بدأت تظهر إمكانات خلق تاريخ جديد لامع بكل مقوماتها . كيف كانت هذه الإمكانات ؟ وما هي مقوماتها ؟ . نجد الإشارة حول ذلك في القرآن الكريم : ﴿ **ادخلوا مصر** ﴾ ﴿ **وجاء بكم**

من البدو ﴾ . هذه الآيات تشير إلى أنه كان من فضائل الله على يوسف وأسرته إخراجهم من البداوة وإسكانهم في عاصمة مصر المتحضرة آنذاك ، وتهيئة كافة الأسباب للقيام بذلك .

إن سيدنا يوسف ولد في أحد أرياف فلسطين ، ولولا فضل الله ورحمته لقضى حياته هناك ، الأمر الذي كان يمثل عائقاً في سبيل إبراز إمكاناته واستعداداته الفطرية . وقد حدث أن ساد جو عدائي بين يوسف وإخوته من أبيه ، وقد بلغت بهم نزعتهم العدائية تلك إلى أن دبروا حيلة للتخلص منه ، فألقوه في غيابات الجب ، وجاءوا إلى أبيهم بدم كذب .

إن هذه الحادثة تبدو وكأنها هزيمة ليوسف وانتصار لإخوته ، ولكن هذا العسر الذي مني به كان فيه جانب مضيء يكمن فيه اليسر . إذ صادف أن عثرت عليه قافلة تجارية متجهة إلى عاصمة مصر ، وحين رأوا مظهره الجذاب لم يلبثوا أن حملوه معهم ، ورأوا أن يبيعوه في سوق مصر ليحصلوا على قدر من المال ، فباعوه لأحد موظفي الحكومة .

إن إلقاء يوسف في بئر مظلمة لا شك أنها قصة مؤلمة غاية الإيلام ، إلا أن فيها جانباً محبباً للغاية ألا وهو خروج يوسف من بيئة ريفية بدوية إلى مدينة متحضرة ، حتى يتمكن من استخدام إمكاناته بأكبر قدر ممكن ، وهذا ما حدث فعلاً . فيوسف إنما كان يرعى الأغنام في ريفه بينما وصل إلى بلاط الملك حين وصل إلى مصر .

إن واقعة يوسف توضح لنا أنه يمكن أن تتحول أسوأ القصص إلى أحسن القصص بشرط أن يثبت الإنسان صبره وتقواه ، فالتقوى تجعل المرء جديًّا للغاية ، بينما الصبر يخلق في الإنسان استعداد الانتظار لأمر قد يقع . وهذان الأمران بمثابة الفيصل في قضايا الإنسان ، فالجدية تساعد المرء على إقامة رأي صائب ، واستعداد الانتظار يجعل المرء قادراً على تجنب المبادرة

العاجلة ، حتى يبلغ غايته سليماً محفوظاً .

ضرورة الشعور الإيجابي :

الحقيقة أن كل وضع غير موات تكمن فيه إمكانات مواتية ، وهذه مسلمة لا مناص من إقرارها ، إذ لا يتأتى أن نتصور الإنسان مغموراً في حالات غير مواتية له بدون أن تتاح له فرصة للخلاص منها .

إلا أن استشفاف هذا الجانب الإيجابي واستخدامه يتطلب من المرء أن تكون لديه مشاعر إيجابية . فحين يتورط في حالات غير مواتية وتحيط به من كل جانب فهو يتأثر بها أعمق الأثر حين يبدو غير قادر على التفكير بمنأى عن هذه الأوضاع . ونتيجة لهذا العمل فإن تلك الأوضاع غير المواتية تحفزه على الاندفاع إلى ردة فعل قاسية ، وحين يخضع المرء إلى هذه النفسية العدائية فهو لا يتغذى من تلك الأوضاع سوى البؤس واليأس ، وسيظل عاجزاً عن استخلاص أفكار إيجابية منها .

إن استشفاف الإمكانات المواتية الكامنة في ثنايا الأوضاع غير المواتية واستخدامها استخداماً سليماً يتطلب من المرء أن يسمو بتفكيره بعيداً عن تلك الأوضاع ، وأن يجرد أفكاره من كل أنواع التأثر والانفعال حتى يصل بفكرته إلى مرحلة يمكن أن يقيم فيها الرأي على أساس من الموضوعية والتجرد .

في كل ظلمة نور يمكن أن يلمسه الإنسان ، ويمكنه أن يكشف الإمكانات المواتية في ركام الحالات غير المواتية ، بشرط أن يكون محباً للحق بعيداً عن نفسية رد الفعل ، ناظراً إلى أعدائه كنظرته إلى أصدقائه ، قادراً على تمحيص نفسه وتحليلها تحليلاً موضوعياً .

هذا ما يطلق عليه (المنهج الفكري الإيجابي) ، ولا شك في أن سر النجاح والرقي يكمن في هذه الشاكلة من الفكر الإيجابي .

الأخـــلاق

الأخلاق الإسلامية هي المعيار السامي في الإسلام . وقد ورد في الحديث الشريف : « **إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً** » . ويكمن جوهر وروح الأخلاق في التواضع ، وهي اسم آخر لكل ما يفعله الإنسان المتواضع ، ورد في القرآن الكريم : ﴿ **وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ [الفرقان : ٦٣] ومفهوم الآيه أن عباد الرحمٰن المخلصين حقاً إنما يمشون على الأرض متواضعين ومنكسرين وعاجزين ، أما الذين يضمرون في صدورهم أحاسيس الاستكبار والغطرسة على الله فيظلون أذلاء ومنحطين بين الناس أيضاً . إن ما نسميه بـ (رضى الله) هو ما نطلق عليه (الخلق الإسلامي) عند ظهوره من الإنسان .

يروي مسلم عن عياض بن حماد قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد** » .

من أجل عطاء الله :

ويتصل الخلق الإسلامي اتصالاً وثيقاً وعميقاً بمعرفة الله تعالى ، فالذي يحظى بمعرفة الله حقيقة يكتشف بأنه لا يستطيع أن يعمل كل ما يشتهيه أو يهواه قلبه ، ويعتبر نفسه في قاعة الامتحان ، قد حدد الله له الزمن الذي سيقضيه هاهنا . كما جعل الموت مسيطراً عليه حتى يعود إليه ، وحينئذ فإما أن يمنحه الجنة الحافلة بالنعيم وإما أن يقذفه في نار الجحيم . والذي تنكشف

عنده هذه الحقيقة التي لا مناص منها يكون في حالة من الخوف واليقظة حتى أن جميع خططه تتجه إلى العمل من أجل ألا يقع تحت قبضة الله في الآخرة ، ويعمل – كذلك – للحصول على مغفرته ورحمته وهذه الأحاسيس عندما تجد طريقها إلى قلب رجل حتى تصبح مزاجه ، عندئذ يكون قلبه في غاية الرقة والتواضع ، ويعفو عن الناس حتى يعفو الله عنه ، ويعامل الناس برفق لكي يعامله الله بالرحمة والمغفرة .

وهذا السلوك الإيماني ورد ذكره في الأحاديث بأبعاده المختلفة ، ونذكر في هذا الصدد طرفاً منها : « **إنما يرحم الله من عباده الرحماء** » « **اسمحوا يسمح لكم** » . « **ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء** » « **من لا يرحم لا يرحم** » . ووردت في حديث طويل مروي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – هذه الكلمات : « **من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه** » .

وعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يرحم الله من لا يرحم الناس** » وهذا مثال نورده بالمناسبة : هب أن رجلاً استأجر سيارة وحددت الأجرة خمسون ديناراً مثلاً ، فهو عندما يصل إلى مكانه المقصود سيبدأ في المجادلة إذا لم يكن في جيبه إلا خمسون ديناراً ، لأنه لو دفع المبلغ المحدد لبقي جيبه فارغاً ، وسيدلي بتبريراته أمام صاحب سيارة الأجرة . (إنك زدت في الأجرة) . أما إذا كانت محفظته منتفخة مملوءة بالنقود فسوف لن يبالي بخمسين ديناراً بل سيدفعها وينصرف .

دعنا نمعن النظر في هذا المثال إن الذي حصل علي شيء عظيم سوف لن يجادل على أمر صغير . ومما لا شك فيه أن الله تعالى هو الحقيقة العظمى وهو مركز الفضائل والكمال . فمن وجد الله فكأنه وجد كل شيء ونتيجة

لذلك يصبح منشرح الصدر يساوره الإحساس بأنه قادر على اتباع أسمى الطرق في المعاملة والأخلاق ، كما يزول من قلبه مزاج الانقباض والاكتئاب ويجده الناس على درجة عالية من حسن المعاملة ، منشرح الصدر ، يدرج من عداد الذين بلغو الذروة في أخلاقهم ومعاملاتهم . لقد ورد في القرآن عن النبي ﷺ : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ . والأخلاق السامية لا تأتي عن طريق رد فعل انتقامي لما يفعله الطرف الآخر ، كما لا يحفل صاحب هذه الأخلاق بسلوك الآخرين تجاهه بل يفكر دائماً كيف يمكن أن تكون أخلاقه باعتبار مبادىء السلوكيات وضوابطها ، كما لا يقوم خلقه على محاكاة الآخرين بل ينبثق من نفسه وبكل إخلاص ، وهذا معنى ما ورد عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا ظلمنا . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا** » وفي حديث آخر عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة** » قال : بلى قال : « **تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك** » ولذلك فسرت الآية ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ : بمعنى أن يكون العبد على المستوى الخلقي الذي توحي به الآية ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٨] أي سامحوا الناس في الموقف الذي ينتقم فيه الآخرون ، وانشروا المعروف في المكان الذي ينشر فيه الآخرون المنكر ، وفي المكان الذي يمارس فيه العنف فعليكم أن تمروا دون أن تلتفتوا إليه .

أقسام الأخلاق :

وتنقسم الأخلاق من وجهة نظر الإسلام إلى قسمين :

١) الأخلاق على المستوى (الأعلى) .

٢) الأخلاق على المستوى (الأدنى) .

وليس للقسم الثاني أي ضوابط يمكن مراعاتها ، بل تختلف من حالة إلى أخرى . عندما يشعر المرء بدافع نفسي معين في بيئة معينة يظهر سلوكاً معيناً تعبيراً عن هذا الدافع ، فلو رأى من هو أقل منه درجة احتقره ، ولو رأى من هو أعلى منه درجة أضمر في قلبه الحقد له ، ولو وجد أحداً يمكن أن ينتفع به جعله صديقاً له ، فإن لم يجد أية إمكانية لجلب المنفعة منه انصرف عنه ، كما يعامل بالسيئة من يعامله كذلك ، وبالحسنى من يعامله بالحسنى ، وإذا شغل منصباً عالياً تجده يفتخر به ، وعلى العكس من ذلك فإنه إذا لم يحصل على منصب أو مكانة عالية كان في حالة من البؤس واليأس ، وإذا فرح بأحد ورضي عليه فتح له أبوابه ، أما إذا لم يرض عليه أغلق أبوابه دونه ، وحين يجد من يوافقه في آرائه يمدحه وحين يجد من لا يوافقه يذمه حتى تظن أن لا أحد أكثر دناءة منه .

هذه الصورة تدلنا على خلق من هو على المستوى الأدنى من الأخلاق ولكن المؤمنون مأمورون بالارتقاء من هذا المستوى إلى المستوى الأعلى .

عظمة الأخلاق :

إن النبي ﷺ كان على خلق عظيم ، ورسالته أيضاً كانت تتجه إلى إيصال هذا النوع من الأخلاق إلى البشرية وقد ورد في حديث نبوي : عن مالك أنه بلغه أن النبي ﷺ قال : « **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » . وقد ورد هذا الحديث بروايات مختلفة ، ورد في بعضها كلمة (حسن الأخلاق) وفي بعضها (الأخلاق الصالحة) وفي بعضها الآخر (مكارم الأخلاق) ولكن ما مفهوم مكارم الأخلاق التي جاء النبي لاتمامها واكمالها ؟ إننا نجد رواية أخرى توضح هذا المفهوم وهي : « **ثلاثة من مكارم الأخلاق عند الله : أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من**

قطعك » . فكأن مكارم الأخلاق هي : أن يرتقي المرء بنفسه معرضاً عن زلات الطرف الثاني ولا يتأثر بغريزة انتقامية بل يعمل على قمع هذه الغريزة ، ويعامل الطرف الثاني معاملة ودية وحسنة .

التنبؤ بواسطة الأخلاق :

إذا قام مهندس بوضع تخطيط لبناء جسر من الحديد فلا شك أنه سيكون على يقين بمدى قدرة الحديد على تحمل الأثقال التي سوف تمر عليه ، لأنه توجد في الأشياء المادية كلها خواص معينة ، ووجود تلك الخواص ضروري للغاية بحيث يمكن التنبؤ المسبق حولها بكل دقة ، وإذا ما فقدت الأشياء المادية تلك الخواص فلن يكون للنظم الحضارية أي وجود .

إن الأهمية التي تمثلها تلك الخواص في المادة هي الأهمية ذاتها التي تمثلها الأخلاق بالنسبة للإنسان . وإن القوة الأخلاقية هي العنصر الوحيد الذي يتوقف عليه نظام الحياة الاجتماعية ، وكل ضعف في المعايير الأخلاقية كفيل لأن يقود الحياة الإنسانية إلى الهلاك .

إن الحياة الاجتماعية الفاضلة تتطلب وجود أفراد يمكن التنبؤ بما سيفعلونه ، حتى إذا عملت مع أحد لفترة ما يمكنك أن تكون على يقين بأنه سوف يفعل ويطبق ما قاله . وإذا وضعت حقيقة ثابتة أمام أحد يمكنك أن تتنبأ يقيناً بأنه سوف يقبلها ، وإذا تشاجر شخصان أو حدث بينهما شقاق فلا بد أن تكون لنا بينة تسمح لنا بالتيقن أنهما لا يحيدان عن الإنصاف ، وإنسان هذا النمط من المجتمع كأنه إنسان حديدي يحمل الأعمال الحديدية ويوجد فيه كل ما نتوخاه ، وإذا كان أفراد المجتمع على هذا النمط فلا شيء يمكن أن يحول دون رقيه وازدهاره .

وإذا كان الأمر عكس ذلك فإنه سيكون مجتمعاً فاسداً ، حيث لا

يفي أفراده بالعهود التي قطعوها على أنفسهم ، ولا يقبلون الحق إذا ما اتضح لهم ، ويظهرون ردود فعل ضد غيرهم رغم أن ذلك بعيد عن الإنصاف والأخلاق الإنسانية .

فإذا كانت أخلاقية المجتمع على هذا الطراز فإن مثله مثل ذلك العالم الذي فقد فيه الحديد خاصيته وتحولت فيه الحجارة إلى خشب يأكله الدود .

العفو عند المقدرة :

إن المرء يفوز في امتحان صعب ومعقد عندما يفرض سيطرته على الطرف الثاني . وفي هذا الموقف يبذل المرء قصارى جهده لقهر الطرف الخصم ولايأبه لأية مسئولية أخلاقية . وفي المقابل نجد الرجل التقي في حالة خوف من الله تعالى فهو يشعر بأنه يقف أمام الله تعالى ، وتسيطر عليه هيبته وقدرته فيتغلب على ضعفه البشري ويسامح عدوه في مثل هذه الظروف وقد ورد حديث نبوي : عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « **قال موسى بن عمران يارب من أعز عبادك عندك قال : من إذا قدر غفر** » .

خطر الغضب :

إن الغضب يشكل خطراً قاتلاً للأخلاق ، فالإنسان يظل سهلاً وليناً ولكن حين يستثار غضبه يهيج وينتفض فيفقد توازنه وتخرج نفسه من سيطرته ، وينسى أن هناك بعض قوانين الأخلاق التي يجب مراعاتها في كل الظروف . والشيء الوحيد الذي يحدّ من ثورة الغضب ، ويضمن للإنسان عدم الوقوع في دائرته هو خوف الله تعالى . فالإنسان عندما يخاف الله ويتقيه حق تقاته تسيطر عليه رهبته وعظمته فهو يتذكر أنه سيحاسب على ما فعله ، وهذا الخوف يلقي عليه لجاماً حتى لا يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، ولذلك جاء وصف المؤمنين في القرآن بأنهم : ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ . فالمتقون حين يستثار غضبهم من قبل الآخرين يقمع غضبهم

خوف الله تعالى . وبحكم الغريزة البشرية فإن التقي يتقد غضبه وينتفض أيضاً ولكن لا يلبث أن يبرد نتيجة خوف الله . وسنذكر هنا بعض الأحاديث التي تعالج موضوع الغضب . عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني ، قال : « **لا تغضب** » فردد ذلك مراراً ، قال : « **لا تغضب** » . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب** » (صحيح مسلم) وقال أيضاً : « **إذا غضب أحدكم فليسكت** » (الجامع الصغير) . إن المؤمن إذا أغضبه أحد أجاب بالسماحة والعفو ، فهو لا يتبع شهوات نفسه ولا يثور غضباً بل يقمع غضبه قبل أن يتمكن من الظهور ، إذ المؤمن كوردة في هذه الحياة لو سبه أحد منحه رائحته الزكية ، ولو رجم أو أوذي فلن يتقد غضبه .

بعد زلات القوم :

إن الإنسان تصدر عنه الأخطاء – مهما كان مثاليًّا – ما دام يعيش مع الآخرين ، ورغم محاولته الوفاء بالناس فقد يصدر عنه ما يخالف ذلك ، وفي مثل هذا الموقف يأمر الإسلام بمباشرة الخير بعد صدور الشر فوراً ، حتى تزول آثار الشر . ورد في حديث شريف : « **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** » .

وهناك صور عديدة يمكن القيام بها بعد أن نرتكب السيئة مثلاً ، طلب العفو ممن صدرت ضده الإساءة ، والدعاء له بالخير ، وتقديم الهدايا إليه ، وذكره بين الناس بكلمات طيبة ، وإرادة الخير له في شتى المجالات إلى غير ذلك ...

أصحاب الجنة :

ورد في القرآن : ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً** ﴾ . فقد علم أن بيئة الجنة ستكون متميزة بمكارم الأخلاق ، حيث

لا يوجد الكذب ، والتهمة ، والغيبة ، واللغو ، والشتم ، والسخرية .. ويكون تمني الخير والسلامة دافع كل واحد من سكانها ، فلا أحد يتفوه إلا بما يحسن أن يتفوه به ، والجنة هي مجتمع الإنسان الكريم وليست مأوى للإنسان الشرس . إن التخلق بخلق حسن في هذه الدنيا - في الأصل - هو بمثابة إقامة بيئة الجنة ، أما سائر الناس فسيرمى بهم في قاع النار حيث يذوقون جزاء ما ارتكبوا من الشرور والمعاصي .

إن الأخلاق قوة لا تفوقها قوة ، فهي تجعل من العدو صديقاً ، وذلك حين يعامل معاملة حسنة ، وقد يؤثر كلام لين - بفعالية - في المتغطرس فيخلع عنه غطرسته ، وقد تنطفيء نار الحرب - التي لم تفلح العبارات النارية أو العصي في إخمادها - بسلوك الصداقة والمحبة ، وقد ورد نفس المعنى في القرآن في قوله تعالى : ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : ٣٤] .

وكما نعلم فإن الإسلام قد عني بتأليف القلوب ، وأولى هذا المبدأ عناية خاصة وأضفى عليه صفة أخلاقية . والقرآن حين يذكر مصارف الزكاة يدخل المؤلفة قلوبهم أيضاً ، ويدخل تحت هذه العبارة هؤلاء الذين يراد تأليف قلوبهم ، ولذلك نرى أن النبي ﷺ قد خصص نصيباً من الزكاة لهؤلاء الرؤساء المتغطرسين مما أسفر - فيما بعد - عن إسلامهم ودخولهم تحت ظله ، وهذا دليل صريح على أن الله تعالى قد أودع في الأخلاق قوة سحرية عالية . والتاريخ مملوء بأمثلة عن الخلق فما من أمة أو فرد قد صعد إلى القمة إلا ونرى أن عامل الخلق يكمن وراءه بكل فاعلية . وسأقوم بسرد بعض تلك الوقائع التاريخية .

العدو يصبح صديقاً :

إن صفوان بن أمية بن خلف هو ابن أحد رؤساء القريشيين

وأشرافهم ، وأثريائهم وأصحاب النفوذ فيهم ، كان والده قد حارب الرسالة مع طائفة من أصحابه بعد بعثة النبي ﷺ وأظهر عناداً وعنفاً شديدين وقد خاض الحرب ضد المسلمين في موقعة بدر سقط إثرها قتيلاً على أيدي المسلمين ، وإثر فتح مكة لجأ صفوان إلى جدة بعد أن خرج من مكة ، والجدير بالذكر أن عمرو بن سهل ابن عم صفوان قد تقدم بطلب الأمان إلى النبي ﷺ لصفوان ، فقبل النبي منه ذلك ، وزوده بردائه دليلاً على الأمان ، وحين وصل عمرو إلى جدة قدم رداء النبي لصفوان وقال له : هذا أمان رسول الله ﷺ وقد جئتك به . فرجع معه إلى مكة ولكنه لم يعلن عن إسلامه ، وطلب المهلة من النبي لمدة شهرين ، فأمهله لمدة أربعة أشهر .

وحين حصل المسلمون على مغانم كثيرة في موقعة هوازن ، وخصص النبي لصفوان مائة من الإبل وأعطاها إياه ، واستمر النبي في سلوكه الخلقي مع صفوان إلى أن اعتنق الإسلام ، وقد قال مخبراً عن معاملة النبي ﷺ : (لقد أعطاني الرسول وإنه لأبغض الناس إلي فما زال يعطيني وإنه لأحب الناس إلي) ولقد بدا من هذه الواقعة أن الخلق قد أرغم العدو ليصبح صديقاً حميماً ، فالشخص الذي فقدت معه القوة المادية القدرة على إخضاعه قد خضع فعلاً أمام قوة الخلق .

فتح باب القلعة :

إن قضية حنين والطائف لم تحسم بعد فتح مكة . لقد كان يقطن هاتين المدينتين هوازن وثقيف ، وكان أهل حنين يفتخرون بتفوقهم وقوتهم الحربية ، فلم يسلموا لسيطرة الإسلام رغم فتح مكة . وأخبر النبي ﷺ بوجهة جيش مالك بن عوف ، فتوجه إليه مع اثنى عشر ألف مجاهد والتقى الفريقان في وادي حنين ، وهزم المسلمون في أول الأمر ، ولكن بعد أن أجمعوا أمرهم تحول النصر الحاسم لصالحهم ، وأسر ستة آلاف من

المشركين ، ولجأ مالك بن عوف وأصحابه بعد فرارهم من موقعة حنين إلى الطائف فترك النبي ﷺ الغنائم في مكان بارز وسير جيشه إلى الطائف حيث لقي منهم الغطرسة المفرطة ، والجدير بالذكر أن الطائف كانت مدينة محصنة آنذاك ، فصعد الرماة فوق القلعة واستهدفوا المسلمين بالنبل ، فاستشهد منهم اثنى عشر مسلماً ، وكان خالد يقود جيش المسلمين فناداهم لينزلوا ويقاتلوا وجهاً لوجه ، فرفض أهل الطائف دعوة خالد – رضي الله عنه –قائلين : (نحن لسنا في حاجة إلى النزول ، فعندنا ما يكفي لعدة سنوات وعند انتهائها سوف ننزل بسيوفنا) .

وقد شارك النبي ﷺ بنفسه في حصار الطائف ، وتذكر كتب التاريخ والسير بأنه قد أوفد مجموعة من المسلمين يرأسهم الطفيل بن عمرو إلى الشام حيث كان مركزاً للأسلحة الحديثة المتطورة ، ذات الكفاءة العالية ، فرجع الوفد بدبابة ومنجنيق ، ووصلوا إلى الطائف متأخرين أي بعد مضي أيام على محاصرة الطائف ، ويقول ابن كثير في هذا الصدد : (حدثني من أثق به أن النبي ﷺ أول من رمى بالمنجنيق على أهل الطائف) ومع ذلك كله لم يقبل أهل الطائف التنازل عن موقفهم ، وبدأوا يرمون المسلمين بسكك الحديد المحماة بالنار ، مما أسفر عن مقتل العديد في صفوف المسلمين ، ودامت محاصرة الطائف ثمانية عشر يوماً على التوالي لم تسفر خلالها عن نتيجة تذكر . وطلب عمر – رضي الله عنه – من الرسول ﷺ الدعاء على أهل الطائف فأجابه النبي ﷺ قائلاً : « **لم يؤذن لي** » . وبعد ذلك رفع الرسول ﷺ يده وقال داعياً : « **اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم** » . والذي يدعونا إلى التفكير هو أن دعاء إنسان لآخر ليس أمراً هيناً إنما هو آخر ما يتمناه المرء للطرف الذي يريد مصلحته ، وحين يدعو المرء من أجل هداية شخص آخر فإن هذا دليل على قمة الصداقة بينهما ، وهو تعبير عما يكمن في الناس من مشاعر الحب والصداقة ، وتمني الخير للآخرين . أما الذي يدعو على الآخرين

فلا يدعو إلا وهو منكوب نفسياً أو يعاني من اضطرابات نفسية خطيرة ، لذلك فلا يمكنه أن يتصور مباديء الخلق السامي أو يطبقها في حياته .

لقد شعر الصحابة باليأس في حصارهم لأهل الطائف ومحاولة إخضاعهم ، فاتفقوا على الانسحاب . ولعل العقبة التي حالت دون تحقيق هذا الهدف هو استخدامهم لقوة السلاح ، ولا شيء يقف دون الخلق وفعاليته ، لذلك لجأ النبي إلى استخدام سلاح الخلق ، فعندما بلغ النبي الجعرانة حيث كان هناك أسرى قبيلة هوازن الذين يبلغ عددهم ستة آلاف أسير ، أطلق ﷺ سراحهم جميعاً بدون استثناء وزودهم بالمراكب والمؤن فضلاً عما قدم لهم من مساعدات .

ولنتأمل قليلاً في هذه المعاملة التي أظهرها النبي ﷺ والتي لم تكن مألوفة في المجتمع آنذاك ، إذ المتعارف عليه أن يتم تعبيدهم أو تقتيلهم لا غير ، وإذن فلا يمكن أن يمضي هذا الخلق الذي صدر من الرسول ﷺ بدون أي أثر ، فقد أظهر تأثيره وفعاليته بشكل واضح . وغنم المسلمون إثر حرب هوازن حوالي أربعة وعشرين ألفاً من الإبل وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة . والجدير بالذكر مما فعله النبي في هذا الموقف هو أنه لم يأخذ شيئاً من هذه الغنائم ، ولم يقسمها بين المسلمين وكان هذا أيضاً مخالفاً للعرف المتبع في المجتمع آنذاك ، لذلك لا يمكن أن يمضي هذا العمل بدون أثر ، إذ أقبل كثير من الناس على الإسلام إثر ذلك ، وبسبب هذه المعاملة الطيبة امتلك النبي ﷺ زمام نفوسهم . ونذكر هنا أن استخدام العنف والقهر ضد المهزومين لا يزيدهم إلا عنفاً وتمرداً على المنتصرين ، بينما معاملتهم بخلق و ود تسفر عن نتيجة مشجعة للغاية ، وهو انضمامهم إلى المنتصرين ، وتضاعف القوة بكسب قوتهم .

وكان من نتائج ما فعله النبي ﷺ مع المشركين حينذاك أن أهل

الطائف قد أصبحوا في عزلة تامة ، فقد تخلى عنهم حلفاؤهم من هوازن وغيرهم . فرأوا عدم قدرتهم على قتال النبي ﷺ ، وأرادوا الخضوع لسيطرة الإسلام .

وفي شهر رمضان سنة تسع هجرية وفد أهل الطائف إلى المدينة ودخلوا تحت ظل الإسلام . يقول ابن هشام في هذا الصدد رواية عن محمد ابن إسحاق : (ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا) ج ٤ – ص ١٨٣ . وهذا يدل بوضوح على أن استخدام القوة المادية قد حال دون الفتح أو النصر لصالح المسلمين في بداية الأمر ، بينما شق الخلق طريقه إلى الفتح ، وفتح باب القلعة من جديد وتم النصر ، إذ لا شيء يحول بين الخلق وقوته النافذة ، وتبلغ فعالية الخلق إلى حد لا تصله القوة المادية . وإذا كانت القوة المادية كمثل الحجارة في فاعليتها فإن الخلق مثله مثل الريح في فاعليته تماماً ، ومعلوم أن الريح لا شيء يقف في طريقه حتى السدود .

إنهاء الأنشطة التخريبية :

إن النبي ﷺ انطلق في بداية دعوته من مبدأ التوحيد ، وكان هذا واضحاً وضوح الشمس ، ولكن أهل مكة أصبحوا أعداء لهذه الدعوة ولقي النبي وأصحابه منهم صنوفاً من الأذى إلى حد أنهم تآمروا على قتله مما تسبب في هجرة النبي من مكة إلى المدينة ، ولم يقف المشركون عند هذا الحد بل استمروا في قتالهم ضد هذه الدعوة دون توقف واستمروا في سلوكهم على هذا النحو حتى فتحت مكة ، ولكن ماذا فعل النبي آنذاك ؟ لقد صفح عنهم بدون قيد أو شرط . ويروي أصحاب السيرة خطاب النبي ﷺ الذي وجهه إلى الجمهور وهو واقف قبالة باب الكعبة حيث قال : « **يا معشر قريش**

ما تظنون أني فاعل بكم » . قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : **« فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء »** ونحن نعلم أن مظهراً خلقياً كهذا لا يمكن أن يمضي بدون أثر ، لقد أثر بكل أبعاده في أعماق المجتمع ، وبدا الناس يقبلون على الإسلام بشكل هائل حتى دخلوا جميعاً في الإسلام .

والجدير بالتأمل في هذا الموقف هو أنه لو بدأ النبي ﷺ بالقهر والعنف مع أهل مكة بدلاً من التسامح ، لما كان دخولهم إلى الإسلام ممكناً ، بل ربما وقفوا ضد النبي لمحاربته أو على الأقل للقيام بأعمال الشغب ، ولعملوا على التآمر ضد المسلمين والنيل منهم ومحاولة إسقاطهم ، حتى يفقد المسلمون قدرتهم على المقاومة ، ولو حدث كل ذلك لانشغل المسلمون بمواجهة أعدائهم والعمل على إخضاعهم ولما كان بإمكان المسلمين أيضاً التوجه إلى عملية بناء مجتمع جديد .

العثور بعد الفقدان :

إن سمرقند مدينة في آسيا الوسطى ، خضعت لسيطرة العرب في مطلع القرن الثامن الميلادي ولقد استهدفت هذه المدينة من قبل حملات عدة ، وظهرت فيها ثورات بين الحين والآخر إلى أن جاءت روسيا وفرضت عليها سيطرتها سنة (١٨٢٤م) .

ونذكر – هنا – أن والي خرسان قد استولى على هذه المنطقة في عهد معاوية رضي الله عنه ، وحينئذ طلب رؤساؤها من المسلمين أن يوفروا لهم الأمن فحصلوا على ذلك مقابل (٧٠٠٠٠٠) درهم سنوياً . أما الديانة السائدة فيها فهي البوذية ، وبعد أن غادرها المسلمون حكمت من قبل أهلها لكن تحت حماية المسلمين .

وفي سنة (٨٦هـ) أخذ زمام الخلافة الوليد بن عبد الملك ، وتم تعيين

قتيبة بن مسلم الباهلي والياً على خرسان ، بينما كانت أعمال الشغب والتمرد تجري على الضفة الأخرى من بحر الجيحون ، وأسندت لقتيبة مهمة قمع التمرد ورفع الصلح الذي ينص على توفير الأمن لهم مقابل المبلغ المحدد ، وإرغامهم أيضاً على الخضوع تحت سيطرة الخلافة الإسلامية . وعندما علم رؤساء سمرقند بوجهة جيوش قتيبة أعدوا جيوشهم لقتاله ، ونشبت الحرب بين الفريقين فكان النصر لصالح قتيبة ، ولجأت جيوش سمرقند المتبقية إلى مدينة محصنة وأغلقوا بابها ، فاستخدم قتيبة المنجنيق لإحداث شق في جدران المدينة وتحقق له ذلك ، مما أوقع حاكم سمرقند في الخوف والهلع ، لأن دخول المسلمين يشكل خطراً عليهم ، لذلك فكر في عقد صلح مع قتيبة ، وجلس الفريقان على مائدة المفاوضات وتم التوقيع على اتفاقية الصلح ، هذه بنودها :

١ – سيتم دفع مليون ومائتي ألف درهم سنوياً إلى القيادة الإسلامية .

٢ – سيؤسس مسجد في داخل المدينة ، يصلي فيه قتيبة وجيشه ثم يغادرون المدينة .

وبعد ذلك اقتحم قتيبة المدينة برفقة أربعة آلاف مقاتل وفق الاتفاقية التي تنص على ذلك ، وأنجز كل بنود المعاهدة سوى أنه لم يغادر المدينة بل مكث فيها قائلاً : سوف لن نغادر المدينة ، وسيبقى جميع المقاتلين كذلك ، فتضايق أهل سمرقند من ذلك إلا أنهم التزموا الصمت ولم يفصحوا عن مشاعرهم حتى أخبروا أن عمر بن عبد العزيز قد تولى الخلافة ، وهو يعدل بين الناس ويراعي حقوقهم ، فأوفدوا إليه وفداً يخبره عن موقف قتيبة من الاتفاقية التي أبرمها معهم ، وانتهاكه لبند المغادرة ، علماً بأنه قد انقضى سبعة أعوام على هذه الحادثة ، توفي خلالها قتيبة وخلفه رجل آخر من قواد جيشه .

وثمة أمر – هنا – ينبغي أن نتأمله ونمعن النظر فيه ، وهو أنه لو وقعت

هذه القضية في عالمنا المعاصر لقيل : إن فتح ملف لمثل هذه القضايا يعني التنازل عما استولى عليه المسلمون ، وذلك سيفتح الطريق أمام الوفود من أنحاء البلاد ليطالبوا بحل قضاياهم المماثلة . لكن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً تقياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، وكان يضع نصب عينيه قضية الأخلاق لا السياسة . لقد وافق على طلب أهل سمرقند ، وكتب إلى والي خرسان يأمره بتنفيذ مطالبهم ، وأمر جمحي بن حاذق والي خرسان بالتحقيق في هذه القضية ، فوجد أن الشكوى صحيحة ، وبعد ذلك أصدر عمر بن عبد العزيز حكمه لجيش المسلمين بمغادرة المدينة . وما هذه الخطوة التي أقدم عليها المسلمون إلا تنازلاً كلياً عن أرض سمرقند ، لكن المعاملة الخلقية أيضاً لا تنقضي بدون تأثير بل إن قوة عظيمة تكمن وراءها .

لقد أظهر المسلمون في هذا الموقف بأنهم قانونيون إلى حد بعيد حتى أنه كان بإمكانهم التخلي عن جميع مصالحهم تنفيذاً لحكم صادر من القيادة المركزية . لقد تخلوا عن المدينة رغم أنهم كانوا قادرين على قفل الملف الذي مضى عليه ثماني سنوات ، ولقد رضوا بمغادرتها بكل عفوية رغم أنهم كانوا منتصرين خضوعاً لأمر القيادة الإسلامية . عندما رأى أهل سمرقند هذا الموقف من المسلمين أخذتهم الدهشة وأيقنوا أن المسلمين على درجة عالية من الأخلاق والعدل ، فرقت قلوبهم لذلك وقالوا : لا تتركونا بل نريدكم أن تبقوا في أرضنا ونحن راضون عن بقائكم معنا .

ويبدو من قرار عمر بن عبد العزيز أنه سيفقد منطقة قد فتحها المسلمون ولكن الأخلاق حالت دون وقوع هذه الخسارة .

الأخلاق من طرف واحد :

إن الأخلاق تنطوي على قوة النصر والفتح ، وهي تلك التي تكون من طرف واحد كأن يسيء إليك شخص وأنت في المقابل تعامله بسلوك

الصداقة والمحبة . فإذا صدر الخلق من طرفين كان الأمر بينهما متساوياً ، أما حين يصدر الخلق من طرف واحد فالأمر ليس كذلك بل يظهر فعاليته وتأثيره على الطرف الآخر فيخضع أمام الأخلاق حتماً .

وعندما تكون متأهباً لإظهار الخلق من جانبك فأنت في موقف المنتصر بدون استخدام أي سلاح ، وسوف يستسلم أمامك الطرف الآخر دون إراقة قطرة من الدم . وبعد ذلك فلا أحد أكثر حمقاً من الذي وجد فرصة لإظهار الخلق من طرف واحد فقط ولم ينتهزها .

الاتحـاد

جاء في القرآن والسنة ذكر الاتحاد كثيراً . وإذا كان « الإيمان » هو أهم شيء بالنسبة للإنسان على المستوى الفردي ، فإن « الاتحاد » هو أهم شيء بالنسبة للجماعة المؤمنة ، إذ لا قيمة للفرد بدون إيمان ولا قيمة للجماعة بدون اتحاد .

لقد ورد في القرآن قوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . فالآية تؤكد على الاتحاد بالنسبة لأهل الإيمان ، لأنهم لا يقدرون على القيام بشيء كبير بدون الاتحاد ، فهو مهم وضروري لكل عمل إسلامي .

ولا تنحصر أهمية الاتحاد في الإسلام في القضايا الاجتماعية العامة فحسب ، بل تتعداها إلى نظام العبادة الخالصة التي يؤديها المسلمون في جماعة ، فالصلاة – في ظاهرها – عمل فردي ، يعني أن يكون المرء خاضعاً لله تعالى ، وذاكراً له ، إلا أن الحكم قد صدر بخصوص هذا العمل الفردي ليؤدي في جماعة خلف إمام واحد . والزكاة – أيضاً – تبدو عملاً فردياً ، فإذا أراد المرء تزكية أمواله أخرج منها قدراً ، وهذه هي الزكاة ، إلا أن هناك حكماً يقضي بألا تصرف الزكاة بصورة فردية ، بل تجمع في بيت المال وتصرف بصورة جماعية . كذلك الصوم وهو عمل فردي وكيفية روحانية ، إلا أنه لم يطلب من كل واحد أن يصوم بمفرده ثلاثين يوماً في

السنة ، بل خصص شهر معين ، وأمر المسلمون جميعاً بصومه والإفطار فيه بصورة جماعية أما الحج فهو سعي العبد لتلبية نداء ربه ، فهو عبادة فردية ، إلا أنها تؤدى في صورة لقاء إجتماعي كبير ، فقد أمر المسلمون في أنحاء العالم بأن يتوافدوا إلى أماكن الحج لأداء المناسك في صورة جماعية ، فالجانب الاجتماعي في عبادة الحج يبدو بارزاً ، وقد سجلت دائرة المعارف البريطانية اعترافاً بذلك .....

"Apout 2,000,000 person perform the Hajj each year, and the rite serves as unifying force in Islam by bringing followers of divers background together in religous celebration" (vol. IV,P.844)

« يحج في كل عام ما يقرب عن مليوني شخص ، وهذه العبادة تجمع المسلمين الوافدين من بلدان مختلفة في احتفال ديني واحد ، وتعمل على تقوية الاتحاد في الإسلام » .

أثر الاختلاف في الدين :

روى البخاري عن عبادة بن الصامت قال : (خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت) . تفسير ابن كثير / المجلد السابع ، ص ٣٣٨ . – وعقب نص الحديث كتب المفسر ابن كثير قائلاً : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع ، كما جاء في الحديث « **إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** » .

والحقيقة أن علاقة الاتحاد بالمعاملات والعبادات الإسلامية عميقة للغاية ، فعلى سبيل المثال : لو حدث نزاع حول الإمامة في أحد المساجد ، فإن ذلك سيؤدي إلى تعذر العبادة فيه ، أو قيام جماعتين للصلاة في آن

واحد ، وربما تطور الأمر إلى إغلاق المسجد بصورة نهائية ، ولو حدث نزاع بين مسؤولين في إحدى المدارس الدينية ، فإن ذلك سيؤدي إلى اضطراب في الحياة التعليمية ، وستنصرف جهود المسؤولين إلى الخلاف القائم بينهم ، والنزاع بين الدول الإسلامية ربما ينعكس على سفر الحجاج إلى بيت الله الحرام ، فكثير من الحجاج يحرمون من السفر إلى الحجاز ، والذاهبون سوف يتم التشديد عليهم وتفتيشهم بدقة ، إلى غير ذلك مما يبعث الخوف في قلوب الراغبين في أداء فريضة الحج ، ويجعل أداء مناسك الحج أمراً صعباً للغاية .

والفرقة التي تحدث بين الدول الإسلامية نتيجة النزاع والخلاف تنعكس على المسلمين أنفسهم ، حيث ينقسمون إلى جماعات ، كل جماعة تنضم إلى دولة من الدول ، وهكذا تتكون جبهتان كل جبهة تبذل ما بوسعها لفضح الجبهة الأخرى وكشف أسرارها ، وفي وسط هذا الجو المفعم بالتوتر والنزاع يصبح إيذاء الآخرين أمراً لا حرج فيه ، وبذلك يقضى تماماً على الجو الديني في الأمة ليحل محله جو الفوضى والاضطراب .

ولقد ذكر القرآن بعض الأضرار الناجمة عن نزاع الناس واختلافهم فيما بينهم ، كانحطاط مكانة المسلمين في أعين الآخرين حتى أنهم لا يتورعون عن النيل منهم والجرأة عليهم ، قال تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ [الأنفال : ٤٦] وهذا المعنى قريب من الآية من سورة آل عمران ، والتي تتحدث عن غزوة أحد ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، أي عندما نقول قولاً فإن كل واحد يأخذه حسب وجهة نظره ، وهذا هو التنازع "CONTROVERSY" وهو نفس الأمر الذي حدث في غزوة أحد حين كلف الرسول ﷺ خمسين من الرماة بالمرابطة على جبل أحد حتى لا يهاجمهم العدو من الخلف ، وجعل

عبد الله بن جبير أميراً على هذه الجماعة ، وقال له : « **انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك** »[1] . وكاد المسلمون أن ينتصروا لولا الخلاف الذي جرى بين أفراد هذه الجماعة ، حيث قال بعضهم : لا ضرورة لبقائنا هنا ، وقال آخرون : بل نبقى مكاننا ، وازداد الخلاف بينهم حتى ذهب الكثير منهم ولم يبق سوى عشرة أفراد ، وحينئذ هاجمهم العدو من الجبل ، فتحول النصر إلى هزيمة .

وتظهر لنا – من خلال هذه الواقعة – حقيقة الاختلاف ، وكيف يحدث بين الطرفين ، وذلك حين يبدي واحد رأيه في قضية صدر فيها الأمر من القيادة المركزية ، ويصرّ على رأيه إلى درجة أنه لا يستطيع التنازل عنه ، إنه يحقّ لكل فرد أن يظهر رأيه في قضية اجتماعية ، ولكن لا يصح له الإصرار عليه ، أي عندما يبدي رأياً عليه أن يكون مستعداً للتنازل عنه ، والحقيقة أن التضحية بالرأي هي أساس الاتحاد ، ومن لا يتصف بهذه الخصلة سوف لن يقدر على إقامة اتحاد بينه وبين الآخرين .

والمرء له حرية الرأي في أموره الخاصة فحسب ، مما ليس له علاقة بالجماعة ، أما فيما يتعلق بالجماعة فعلى المرء أن يتقيد بأمر القيادة المركزية دون أن يحدث أمراً جديداً انطلاقاً من رأي فردي . إن النتيجة اللازمة للخلاف هي ضعف العزيمة ، فلو اتحدت جماعة يبلغ عدد أفرادها مائة ألف شخص لأحس كل واحد منهم بأنه يساوي مائة ألف رجل وهكذا تقوى عزيمته ، بينما لو ظلوا متفرقين كل فرد على حدة ، فإن اليأس سيتمكن منهم وستضعف عزيمتهم ، ويعجزون عن الإقدام في المواقف الحاسمة ولو اتحد مائة ألف شخص فإن عدوهم سينظر إليهم بنظرة تناسب قيمة عددهم ويدبّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام . ج ٣ / ص ١٧٠ .

في قلبه الذعر والخوف ، فلا يجرؤ على القيام بأية محاولة ضدهم ، وعلى العكس من ذلك لو تفرق أفراد الجماعة فإن عدوهم سيجرؤ عليهم ولن يهابهم .

سبب الاختلاف :

إن الخطر الذي حذر منه النبي ﷺ ، والذي ورد في الأحاديث الشريفة ، هو حدوث التصدع والانشقاق في صفوف المسلمين ، وقد تحققت مصداقية تلك النبؤة بشكل كامل . والحقيقة البينة أن الأمة المسلمة هي الأمة الوحيدة التي تعاني من التصدع أكثر من غيرها ، فلا ينفك أبناؤها يتناحرون ويتقاتلون فيما بينهم .

إن هذا الضعف المحدّق بالمسلمين له سبب نفسي خاص ، وهو الشعور بالغطرسة الكاذبة ، والمسلمون ينخرطون في هذا النوع من الغطرسة حين ينسلخون من خوف الله وخشيته ، وحين يصبحون فريسة لعواطفهم الحماسية . إن المسلم يرى أن الحق كل الحق لديه ، ومن جهة أخرى تجبره عقيدته على الإيمان يقيناً بأن الله هو القوي وحده وأن الناس كلهم ضعفاء ، وهكذا يصبح المسلم متأرجحا بين إحساسين متناقضين - إحساس بالكبرياء ، باعتبار إنسانيته ، وإحساس بالعجز باعتبار عبوديته لله ، فعبارة (إن الحق لديّ وحدي) تخلق في الإنسان - طبقاً لفطرته - شعوراً بالكبرياء وعبارة (الله هو مالك كل شيء والإنسان لا يملك شيئا) تخلق في المرء إحساساً يثير فيه عاطفة الضعف والعجز ، وهكذا تحدث الكفة الثانية توازناً مع الكفة الأولى . ومن ثم يعيش المسلم - رغم ما يساوره من إحساس بأنه من « خير أمة » كأنه ضعيف عاجز وسط الآخرين .

إلا أنه حين ينشب الفساد في أوساط المسلمين ، فإن الشيء الذي ينسلخ منهم هو خوف الله ، وهكذا يتبنى المسلمون عقيدة مجردة من

الشعور ، وتصبح قلوبهم خاوية من عظمة الله وكبريائه . وهذه هي النفسيّة التي تخلق جو التناحر والاختلاف ، وتغرس النزعة العدائية بين المسلمين .
« لو جف البحر فإن الملح سيبقى مكدساً في القاع » . هكذا يحدث للإنسان حين ينسلخ من الشعور بالضعف ، ويسيطر عليه الإحساس بأنه هو صاحب الحق ، فإنه لن يبقى فيه سوى الإحساس بالكبرياء وحينئذ يظل يتخبط في الفساد والتناحر مع إخوانه من المسلمين .

أهمية الصبر في الاتحاد :

كيف يمكن الابتعاد عن الاختلاف ، والقيام بالاتحاد ؟ .

يمكن ذلك بالصبر ، كما ورد في الآية القرآنية الكريمة ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ [الأنفال : ٤٦] ... والصبر هو ما يعرف في العصر الحديث بـ (DISCIPLINE) . أي قواعد لضبط السلوك أو العمل ، والمراد منه ضبط النفس والانقياد للحق والعمل به ، فهذا هو الصبر ، وهو – في الحقيقة – اسم آخر لعمل منظم ، فحين لا تنفعل مشاعر المرء الذاتية ، واضعاً أمامه كل الأمور الخارجية وفق عملية منظمة ، فهذا هو « الصبر » .

إن الصبر شرط لازم للاتحاد ، فحيثما وجد الصبر وجد الاتحاد ، وحيثما انعدم الصبر انعدم الاتحاد .

الاتحاد والدعوة :

لقد جمع النبي ﷺ أصحابه يوماً وحثهم على نشر رسالة التوحيد قائلاً : « **إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدّوا عني ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم** » وفي رواية « فقال المهاجرون : يا رسول الله إنا لا نختلف عليك في شيء أبداً فمرنا وابعثنا » .

يبدو لنا من هذه الروايات أن الاتحاد أمر هام للغاية ، وضروري لتبليغ الدعوة ، ودعوة الحق عمل عظيم يلزم على المسلمين القيام به ، إلا أن الاتحاد والتعاون المتبادل أمر ضروري للقيام بهذا العمل ، فلو قام أربعة أشخاص بتبليغ دعوة الإسلام ، ثم حدث بينهم شجار ، فإنهم لن يصلوا إلى الآخرين بل سيتفرقون قبل ذلك ، ولو اشترك مجموعة من الناس في عمل الدعوة ، فإنه بمجرد تنازعهم يتعطل عملهم التنظيمي ، وتضيع أوقاتهم في الخلاف القائم فيما بينهم . ومثل ذلك لو قامت هيئة بتنظيم عمل الدعوة ، وأقامت لها فروعاً في أماكن مختلفة ، ثم قام المسئول الفرعي بالتصرف في أعمال الدعوة انطلاقاً من آرائه الذاتية محاولاً الاستقلال عن الإدارة المركزية ، فإنه بذلك سيصرف كل طاقاته في حل قضاياه الداخلية ، وبذلك يتعطل عمل التبليغ في الخارج .

فالاتحاد لازم وضروري لعمل تبليغ الدعوة ، ولا يمكن القيام بعمل الدعوة في جو النزاع والخلاف .

التقوى أساس الاتحاد :

والسبب الرئيسي للاختلاف هو « الأنانية » ، فالذين يخافون من الله لا يصل بهم الخلاف إلى حد يهلك فيه العباد ، إن التقوى هي التي تقتل الخلاف ، فإذا كان هناك تقوى فسوف لن يكون هناك خلاف ، وإذا كان هناك اختلاف فلا تقوى .

لقد شاركت مرة في اجتماع للعلماء المسلمين ، وكان النقاش حول شئون الأمة ، فأدلى كل واحد برأيه الخاص بطريقة مستفيضة ، حتى كان عدد الآراء بعدد المتكلمين ، وكل واحد منهم كان متمسكاً برأيه لا يقبل التنازل عنه ، كنت أتابع حديثهم صامتاً ، وقد أصاب الغمّ قلبي من جراء ذلك ، إلا أن بعض الحاضرين قد ألحوا عليّ بالتدخل ، فقمت وتحدثت عن

الموضوع المطروح ليس بطريقة مباشرة بل بطريقة أصولية ، قلت : إنّ مشكلة أمتنا الأساسية هي فقدان التقوى ، فنفسية الأمة كلها مصابة بعدم الخوف ، ولعل هذا المشهد الذي حدث هو من نتائج فقدان التقوى ، ثم قلت : لو كانت قلوبنا تخاف الله لانتهت الآراء المتعددة ، وطوفان البحوث ، فشدة الخوف – دون شك – هي التي تنهي تعدد الآراء .

وهذا مثال على ذلك ، هب أنّ بعض الناس رأوا شيئاً يشبه الثعبان ، فإذا لم يتحرك هذا الشيء وليس به خطر في الظاهر ، فإن كل واحد منهم بعد رؤيته سيدلي برأيه الخاص حوله ، منهم من يقول بأنه ثعبان ميت قتله شخص وتركه هنا ، ومنهم من يقول بأنه مصنوع من البلاستيك ثم يدلي بمعلوماته حول البلاستيك ومكوناته ، ومنهم من يقول بأنه جلد ثعبان قد ملىء بالتبن ، وهكذا تنشأ هذه الآراء المتعددة عندما لا يتحرك هذا الذي يشبه الثعبان ، ولكن إذا تحرك هذا الثعبان وأخرج لسانه المخيف ، عندئذ تتحول الآراء المتعددة إلى رأي واحد ، وينطق الجميع بكلمة واحدة ثعبان . ثعبان !!

وبهذا الكلام نصل إلى الحقيقة التي أشرنا إليها سابقاً ، وهي شدة الخوف تنهي تعدد الآراء ، وقد جاء في الحديث : « **رأس الحكمة مخافة الله** » . والحقيقة أن قوة النفس تتجلى في خشيتها وخوفها ، وأن إصلاح الإنسان ينتج عن الخوف أكثر من أي شيء آخر ، فإذا كان هذا الخوف من الله ذي الجلال فهو أعظم أثراً .

إن الأنانية أمر طبيعي في كل إنسان منذ الولادة ، حيث ترى كل إنسان يطمع لأن يكون عظيماً ، وأن يكون قوله ظاهراً على قول الآخرين ، وهكذا تسبب هذه الطبيعة الإنسانية الخلاف وتعدد الآراء ، لأنه حين يتطلع كل إنسان إلى أن يكون عظيماً ، فإن الآراء سوف تتعدد بعدد هؤلاء ،

وفي هذه الحالة كيف يمكن إقامة الاتحاد والاتفاق بين الناس ؟! .. إن امرء سيضع حداً لأنانيته حين يكون إيمانه بالله عميقاً إلى حدّ التقوى ، وذلك بأن يصل به الإيمان إلى الخوف من الله ، فتنشأ فيه نفسية التواضع بدل التكبر ، ويحاسب نفسه أكثر من محاسبة الآخرين ، وينظر إلى نفسه كما ينظر الله للناس ، فيجد نفسه صغيراً ، كما أنه لا أحد كبير في نظر الله ، والمؤمن الحقيقي يعيش بمثل هذه الإحساسات ، التي تكون نتيجتها قيام الاتحاد ، وما ورد في القرآن والسنة مما يدل على أن الناس الذين يتمتعون بصفة الخوف من الله فإن الله سيمدّهم بعونه ونصرته ، يشير إلى أن الخوف من الله ينشيء في نفوس الناس خصوصيات تقويهم في حياتهم الدنيا ، كما يغرس فيهم أخلاقاً ضرورية لبناء حياة أفضل ، فيهابهم الآخرون ولا يجرءون عليهم أبداً .

من بين الانتصارات التي حققها المسلمون في التاريخ الإسلامي ذلك الانتصار العظيم الذي حققه صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ – ١١٩٣) على الأوربيين المسيحيين وذلك حين أراد الأوربيون احتلال فلسطين وقد تمّ لهم ذلك فعلاً ، وظلت فلسطين تحت سيطرتهم مدة ثمانية وثمانين سنة ، إلا أن صلاح الدين الأيوبي قد استعاد فلسطين وضمّها إلى السلطة الإسلامية ، والسرّ في نجاح صلاح الدين الأيوبي هو الاتحاد .

يقول كاتب الموسوعة البريطانية في مقال له حول هذا الموضوع : –

''Saladin succeeded in turing the military of power in his Favour -more by uniting and disciplining a great number of unruly forces than by employing new or improved millitary. techniques'' (16/177).

لقد نجح صلاح الدين في قلب الميزان العسكري للقوة في صالحه عن طريق الاتحاد ، وضبط العدد العظيم من القوى المشتتة أكثر من استخدام

التكنيك العسكري الحديث أو المتطور .

إن الاتحاد حقيقة اجتماعية تقوم على التضحية الفردية ، فالجماعة التي يرضى أفرادها بالتنازل عن مصالحهم الشخصية وأهدافهم الذاتية هي الجماعة التي تتقدم وترتقي في هذا العالم بقوة اتحادها ، فتقدم الجماعة وازدهارها رهين بتنازل أفرادها عن آرائهم الذاتية .

إن ترك الاعتراض والشكوى ، وعدم الخروج على الجماعة رغم وجود مبرر لذلك ، وترك المتطلبات الفردية أمام متطلبات الجماعة ، وترجيح مصلحة الجماعة على المصالح الفردية ، والتنازل عن الرأي الشخصي لصالح الجماعة ، كل هذه الصفات هي المميزات التي تخلق الاتحاد بين أيّة جماعة .

التسامي عن الشكاوى الذاتية :

كان خالد بن الوليد قائداً عظيماً في تاريخ الإسلام ، وكان له دور كبير في الفتوحات الإسلامية في أوائل العصر الإسلامي ، ولم يكن عمر بن الخطاب راضياً عليه لعدة أسباب ، لذا فإنه عندما تولّى عمر الخلافة قام بعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش ، وعين أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، بينما أصبح خالد جندياً كغيره من الجنود تحت إمرة أبي عبيدة . وكان خالد — في ذلك الوقت — في جبهة القتال مع الروم والفرس ، وكانت الانتصارات تتوالى على يديه واحدة تلو الأخرى ، وبذلك صار بطلاً يذكر واكتسب شعبية بين جنوده ، ولعل عزل القائد في مثل هذا الوقت يحدث التفرق والتمرد بين صفوف الجيش كما هو معتاد ، إلا أن خالد بن الوليد لم يقم بأية حركة ضد قرار الخليفة بل سلم زمام القيادة إلى أبي عبيدة بكل هدوء وسكينة ، ورضي لنفسه بأن يكون جندياً عادياً تحت إمرته . وعندما انتشر الخبر بين الجنود حدث نوع من الاضطراب والتململ بينهم ، واجتمع إثر ذلك عدد كبير من الجنود في خيمة خالد وطلبوا منه ألا يقبل حكم الخليفة في هذا

الأمر ، وأن يرفضه وأنهم سيكونون تحت أمره لمساعدته ، إلا أن خالد بن الوليد ردّهم جميعاً بقول صريح فقال لهم قولته المشهورة التي سجلها التاريخ بكلمات ذهبية : .. « إني لا أقاتل في سبيل عمر ولكن أقاتل في سبيل رب عمر » .

فلو رفض خالد بن الوليد أمر الخليفة عمر في الموقف الحرج لوقعت الحرب بين المسلمين ، وحدث الاختلاف بين صفوفهم ، وتوقفت الفتوحات الإسلامية ، لكنه بقبوله قرار الخليفة وعدم اختلافه معه ، دفع الفتوحات إلى الأمام ، وإذا وقفنا قليلاً أمام هذا الحدث العجيب لرأينا أن التلفظ بهذه الكلمات في مثل هذا الموقف الحرج شيء عظيم ، أثقل من حمل (جبال الهملايا) إلا أنه الثمن الحقيقي للاتحاد . وإذا رأينا الموقف من جانب آخر عرفنا أنه يعني تفويض الأمر لله تبارك وتعالى في كل حادثة تحدث من قبل الإنسان ، ومن وجد الله أكبر من كل شيء وأحس أنه القوة السامية الأعظم من كل قوة ، يستطيع أن يتكلم بمثل هذه الكلمة العظيمة . والذي ينال أمراً عظيماً وحظاً وافراً يغض الطرف عن الأشياء الحقيرة ويتساهل فيها ، وبذلك يستطيع التضحية بكل غال ورخيص في سبيل إقامة الاتحاد والحفاظ عليه .

هكذا كان إيمان الصحابة رضي الله عنهم ، كان الإيمان أغلى وأثمن شيء عندهم ، فاستطاعوا بذلك تحمل أصعب المشاكل ، وقبول أكبر الخسائر ، وتجنب الشكوى والاعتراض ، وصغرت أكبر التضحيات أمام ناظريهم ، إن إيمانهم بالله قد صغر كل شيء دونه في نظرهم ، فلا يحزنهم فقدان أكبر وأعظم الأشياء من أجله ، ويمكن أن نجد الاتحاد بين جماعة إذا وجد فيهم إيمان مثل إيمان الصحابة رضي الله عنهم ، وتضحية مثل تضحياتهم في سبيل الحفاظ عليه .

قوة الاتحاد :

إن الاتحاد قوة عظيمة لا تساويها أية قوة ، وعدة جسيمة لا توازيها أية عدة ، وسلاح ليس له مثيل ، وهذا مثال من التاريخ الإسلامي يؤكد هذه الحقيقة : حين بويع علي كرم الله وجهه للخلافة ، لم يبايعه معاوية رضي الله عنه ، وكان حينذاك والياً على بلاد الشام ، وحدث بينهما خلاف حول بعض القضايا ، فانقسم المسلمون بذلك إلى فريقين نشبت الحرب بينهما ومن جهة أخرى فإن الفتوحات الإسلامية قد شملت مناطق واسعة من بلاد الروم ، وكانت المناطق الشرقية من بلاد الروم تسمى (المملكة البيزنطية) التي أسست سنة ٧٣٠م ، واتخذت من القسطنطينية عاصمة لها ، وقد توسعت هذه المملكة في القرن الخامس والسادس الميلادي ، بينما فتح المسلمون في القرن السابع الميلادي جزءاً كبيراً منها ، ابتداء من مصر والشام إلى شمال أفريقيا ، حتى بقيت بيزنطة محصورة في القسطنطينية وما حولها ، وظلت في تلك الجهة الساحلية مدة طويلة حتى فتحها الأتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣م ، تلك هي نهاية المملكة البيزنطية ، ولما علم قسطنطين ملك بيزنطة أن المسلمين يتقاتلون ، وأن كلمتهم قد تفرقت ، فكرّ في استرداد بلاده التي أخذها المسلمون ، وذلك بانتهاز الفرصة السانحة وبدأ يجهز جيشاً كبيراً لمحاربة المسلمين ، والإغارة على مناطق الشام وفلسطين ، لكن سرعان ما بلغ الخبر معاوية فكتب إليه كتاباً قال فيه : « أيها الأحمق الرومي ، إنك تقصد قتال المسلمين منتهزاً خلافهم ، فلو تقدّمت للقتال فاعلم أن معاوية – عندئذ – سيكون أدنى جندي في جنود علي ضدك » . أي إذا أقدمت على قتال المسلمين ، فإننا سنترك الخلاف الذي بيننا ونغضّ الطرف عنه ، ونتحد لقتالك ومواجهتك ، ونكرّ عليك كرة رجل واحد . وبعث بهذا الكتاب مع رسول إلى القسطنطينية ، فلمّا وصل الرسول إلى ملك الروم وسلم

الرسالة إليه تزعزت همّته وضعفت قوته ، وتخلّى عن قصده ، وأمر بإيقاف الاستعدادادت العسكرية التي أعدّها لقتال المسلمين .

إن هذه الحادثة تشير إلى أن مجرد خبر عن الاتحاد له أثر عميق ، كما يتمتع بنفوذ قوي في نظر الآخرين ناهيك عن الاتحاد نفسه ، فقسطنطين أحجم عن حرب المسلمين لمجرد خبر سمعه عن الاتحاد . إن الاتحاد دائماً يقوم على أيدي رجال ذوي همم عالية ، يضحّون بآرائهم الشخصية ، ويتخلون عن الشكاوي الذاتية من أجل الجماعة .

التوحد رغم الخلافات :

الحقيقة أن الاتحاد عبارة عن اتفاق مع وجود الخلاف والتعارض بين أفراد الجماعة ، ذلك أنه لا يمكن أن يقوم اتحاد بدون اختلاف . وهذا مثال تاريخي آخر : من الغزوات التي وقعت في عهد رسول الله ﷺ غزوة (ذات السلاسل) ففي جمادي الآخرة للسنة الثامنة للهجرة سمع رسول الله ﷺ بأن قبيلة بني قضاعة تريد قتال المسلمين ، وكانت هذه القبيلة واقعة على حدود الشام ، فوجه الرسول سرية بقيادة عمرو بن العاص لمواجهتها ولما وصلوا إلى منطقة (سلسل) علموا أن عدد الكفار كبير لا يمكن مقاومته بهذا العدد الضئيل ، فنزلت السرية بهذا المكان وأرسلت رافع بن مكيت إلى رسول الله يطلب المدد ، فأرسل إليهم جماعة من المهاجرين يبلغ عددها مائتي مجاهد من بينهم أبو بكر وعمر ، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وحين وصلت الجماعة إلى منطقة (سلسل) طرأت قضية حول القيادة ، فقال المهاجرون الذين كانوا مع أبي عبيدة لعمرو بن العاص ليكن أبو عبيدة قائدنا ، وأنت قائد الجماعة الأولى ، فقال عمرو بن العاص : أنا قائد الجماعتين ، لأن الجماعة الثانية أرسلت لمساعدتي ، فقال أبو عبيدة : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا

ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك . وسلّم زمام القيادة إلى عمرو ، وبذلك صار عدد المسلمين خمسمائة مجاهد ، ولو لم يتنازل أبو عبيدة عن حقه ، ولم يضح برأيه لوقع الخلاف بين المسلمين ، ولقاتل المسلمون بعضهم بعضاً ، ولفعلوا بأيديهم ما يريد الأعداء بهم ، ولكن لمّا دفن أبو عبيدة رأيه الذاتي وسلّم القيادة إلى عمرو ولم يختلف معه ، صارت جماعة المسلمين مكوّنة من خمسمائة مجاهد ، ويروي لنا التاريخ أن هذه الجماعة المتحدة حين قدمت إلى ميدان المعركة أصاب الذعر والفزع الأعداء فولّوا هاربين بدون حرب أو مواجهة .

إننا نجد أمثلة كثيرة في التاريخ عن اختلاف الصحابة في الآراء ، إلا أنهم بالرغم من ذلك ظلوا متحدين بقوة إيمانهم وعزيمتهم ، وحافظوا على هذا الاتحاد عن طريق تضحيتهم بآرائهم الشخصية .

هدف الاتحاد الإسلامي :

لا ريب أن الاتحاد قوة عظيمة ، ولكن ليس معنى هذا أن يتحد المسلمون من أجل قتال الآخرين بدون حق ، بل الهدف من إقامة الاتحاد بين المسلمين هو أن يرهبهم الآخرون فيمتنعوا عن حربهم ، وقد أمر الله تعالى المسلمين بإعداد العدد والعدة ، فقال : ﴿ **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ . ثم أشار في الآية نفسها إلى الهدف من إعداد القوة فقال : ﴿ **تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم** ﴾ . فالمراد من القوة في الإسلام القوة المرهبة ، وليس القوة الجارحة ، فالآية تنصّ على أن إعداد العدة والقوة إنما يكون لإرهاب الآخرين حتى يكفّوا عن قتال المسلمين .

إذاً ليس هدف الإسلام من إظهار القوة القتال والحرب ، بل الغرض منه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وإزالة العقد من قلوب الناس حتى يفهموا

الدين الحق ويسلكوا الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لهم ، ولا تتحقق هذه الغاية إلا عندما يسود الأمن والسلام ، وذلك عن طريق الدعوة والإقناع والتفاهم ، وليس عن طريق القتال والحرب ، فالإسلام يريد من أتباعه أن يجمعوا القوة ويعدوا العدة بقدر ما يستطيعون ليرهبوا عدوّ الله وعدوّهم ، فيخافونهم ويمتنعون عن إيذائهم ، وبذلك تستمر الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه دون أيّ عائق .

إظهار القوة بدون استخدامها :

جاء في الحديث النبوي أن رسول الله ﷺ قال : « **نصرت بالرعب على مسيرة شهر** » . والمقصود به : أن ما علمه الله تعالى لرسوله من طرق ووسائل حكيمة لكفيل بأن يُرهب الأعداء سواء أكانوا قريبين منه أم بعيدين ، فلا يقدرون على مواجهة هيبته وعظمته ، وإن نبوة محمد ﷺ مستمرة باقية ، أي أن صفاته وميزاته تصير إلى أمته على مدى الدهر ، وأن ما أنعم الله به على رسوله أجراه وأبقاه في أمته أيضاً .

وإليكم واقعة من عصر بني أمية : لمّا كان الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق علم أن قبيلة على الحدود تنوي الخروج على الخليفة فقال أحد مستشاريه : لابد من إرسال جيش لمقاومة تلك القبيلة ، فردّ الحجاج : لا . بل كتاب ينوب عن كتائب ، ثم وجّه كتاباً شديد اللهجة إلى زعيم القبيلة وهدّده فيه تهديداً قويًّا ، فلما وصل الكتاب إلى زعيم القبيلة خاف وامتنع عن الخروج ضدّ الخليفة ، وقال الشاعر بهذه المناسبة :

إذا أرسل الأمراء جيشاً　　　إلى الأعداء أرسلنا الكتابا

وكانت تلك الهيبة في المسلمين عندما كانوا متحدين وصادقين في دينهم وإيمانهم ومخلصين ، حتى أن الأعداء كانوا يعرفون أن أدنى حركة ضد المسلمين كانت تعني إعلان الحرب عليهم كلهم .

ولما حدث الخلاف بين المسلمين ، وضعفت قوتهم ، وانمحت هيبتهم من قلوب أعدائهم ، أقدم عليهم أعداؤهم غير مبالين ولا مهتمين بهم ، مثلما حدث في أسبانيا التي حكم فيها المسلمون حوالي ثمانمائة سنة ، وأسسوا فيها الحضارة الجديدة المتقدمة التي أقاموا فيها اللبنة الأولى للعلوم الحديثة والمعاصرة . أما حين وقع الخلاف والنزاع بينهم ، وقام الولاة ضد الحكومة المركزية بغية الاستقلال عنها ، بادرت المسيحية باستغلال فرصة التصدع الداخلي لشن الهجوم على المسلمين وكانت الخلافات قد استفحلت بين المسلمين إلى حدّ أنهم دعموا المسيحيين للإحاطة بالحكومة المركزية ، وكانت النتيجة المحزنة لذلك العمل هو خروج المسلمين من أسبانيا وبقائها تحت سيطرة المسيحيين .

الاختلاف خطر عظيم :

نقل الحافظ ابن كثير تحت تفسير الآية رقم (٦٥) من سورة الأنعام ، عن خباب بن الأرت أنه قال : وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها ، حتى كان مع الفجر ، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ، فقلت يا رسول الله : لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها ، فقال الرسول : « **أجل إنها صلاة رغب ورهب ، سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي عز وجل أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل أن لا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنيها** » ويفهم من الحديث أن المسلمين إذا ارتكبوا أية خطيئة فإن الله يغفرها لهم فينجون من شر عاقبتها ، إلا إذا اختلفوا وتفرقوا فإن الله لا يغفر لهم ذلك ، ولا ينجون من شر عاقبته .

فالله سبحانه وتعالى يعصم المسلمين من خطايا كثيرة ولكنه

لا يعصمهم من شر عاقبة الاختلاف والتفرق ، فعلى المسلمين أن يتجنبوا الاختلاف ، ويبتعدوا عن كل ما يؤدي إليه ، لأن عواقبه وخيمة في الدنيا ، فضلاً عن وقوع المسلمين بسببه في العذاب يوم القيامة . كما يتضح لنا من الحديث السابق أيضاً أن الله تعالى قد أحكم الإسلام على يد الرسول وأصحابه فلا يؤثر فيه كيد الكائدين ، ولا ينال منه الأشرار إلا أن ينال منه المسلمون أنفسهم ، وذلك باختلافهم ووقوع الشقاق بينهم ، مما يعين على هدم بنية الإسلام وقطع أوصاله . لذلك نجد أحاديث كثيرة تمنع النزاع وتؤكد على حرمته ، كما نجد صورة مثالية لذلك في شهادة عثمان رضي الله عنه ، أنه إذا جاءك أحد المسلمين ليقتلك فلا تقاتله ، وما ذلك إلا خوفاً من اختلاف المسلمين فيما بينهم .

خلاصة الدين :

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » فهذا الحديث هو خلاصة الدين كله ، وقد ذكر فيه شيئان مما يتصل بالاتحاد ، فالله يريد منا :

● **أولاً** : – أن نعبده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نركع أمامه ونلجأ إليه .

● **وثانياً** : – أن يعتصم المسلمون جميعاً بحبل الله ولا يتفرقوا ، ويتفقوا على مباديء الدين وتعاليمه ، والمراد بحبل الله : تعاليم دينه ومبادئه ، فلا يجوز إخراج مسائل فرعية على مائدة البحث ، لأن ذلك يؤدي إلى الشقاق بين الجماعة المسلمة .

● **وثالثاً** : – وسيلة الاتحاد والاتفاق ، أن يطيعوا ولي الأمر فيهم وأن يناصحوه ولا يعاندوه فيحدث النزاع بينهم ، فلا يجوز للمسلمين أن يخرجوا

على النظام الاجتماعي القائم في كل الأحوال ، وإن كانت لديهم مبررات وتأويلات جميلة ، فالخروج على هذا الحاكم المسلم عمل لا يعترف به الإسلام لا سيما إذا ارتكب باسم الدين فهذا ممنوع قطعاً .

وإذا طالعنا كتب التاريخ فإننا نجد أن السبب الوحيد وراء الصراعات والحروب التي حدثت بين المسلمين إنما هو ما ذكرنا سابقاً ، كأن يتآمر بعض الناس على الحكومة القائمة أو يخرجوا على الحاكم ويجاهدوا! من أجل الإطاحة به ، بحجة أن هذه الحكومة لا تقوم على الدين الصحيح ، وأن الحاكم لا يطبق الإسلام ولا يحكم بالكتاب والسنّة ، ولو عرف المسلمون حقيقة ما حذر منه الحديث الشريف ، وساد بينهم الوفاق والاتحاد وتركوا أمر إصلاح الحكومات القائمة ، لكان ذلك خيراً للإسلام والمسلمين جميعاً ، ذلك أنه لا خير في كل ما نهانا وحذرنا منه الله ورسوله أبداً ، ولو ظهر أمامنا بأشكال بريئة أو وجدنا له مبررات جميلة .

الدين الكامل

إن نزول سورة المائدة كان في أواخر حياة النبي ﷺ ، وفي مستهلها بعض التشريعات القانونية ، يلي ذلك قوله تعالى : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [المائدة : ٣] .

ترى ما المقصود بإكمال الدين في الآية ؟ في كتب التفسير تفسيران لهذا السياق :

الأول : (الدين المستحكم) ، والثاني : (الدين الكامل) . وذهب العلامة أبو البركات النسفي إلى ترجيح التفسير الأول حيث قال : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا** ﴾ يئسوا منه أن يبطلوه أو يئسوا من دينكم أن يغلبوه ، لأن الله تعالى وفّى بوعده من إظهاره على الدين كله ﴿ **فلا تخشوهم** ﴾ بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين بعد ما كانوا غالبين ﴿ **واخشون** ﴾ أي أخصلوا لي الخشية ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ بأن كيفتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم ، كما يقول الملوك : (اليوم كمل لنا الملك أي كفينا من كنا نخافه)[1] .

ويعرب القاضي محمد ثناء العثماني المفسر المتوفي سنة (١٢٢٥هـ) عن رأيه حول إكمال الدين بقوله : (وقيل أظهرت دينكم على الأديان كلها وأمنتكم من الأعداء)[2] .

---

(١) تفسير النسفي / ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) التفسير المظهري / مجلد ٣ - ص ٢٥ .

إن الإكمال والتكميل ليس بالمعنى العددي أو الحسابي بل يمكن أن يكون بمعنى تحقيق الأهداف التي وردت في عبارة الحديث : « **من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان** » رواه أبو داود . واستكمال الإيمان ، كما ورد في الحديث لا يمت بأية صلة إلى الاستكمال العددي أو الحسابي ، إذ أن النبي ﷺ قال – كما يروي البخاري ومسلم – : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة** » . فلو كان المراد باستكمال الإيمان الاستكمال العددي لكان على النبي أن يعد تلك الأشياء في شكل أرقام حتى يصبح بإمكان من يرغب في استكمال إيمانه أن يطبقها في حياته . والحديث الذي نحن بصدده يشتمل على أربعة أشياء فقط ، وينص على أنها دليل على كمال الإيمان ، وهذا يدل على أن استكمال الإيمان يعني استكمال الحقيقة ، وليس استكمال عددي أو فهرس وأرقام ، كذلك فإن إكمال الدين المذكور في آية سورة المائدة يعني إكمال حقيقة الدين وليس إكمال فهرس الدين .

دلالة اللغة العربية :

يذكر (لسان العرب) القاموس المشهور ، في معرض شرحه لمادة « كمل » النص التالي : وقال الله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ... ﴾ الآية ، ومعناه – والله أعلم – : الآن أكملت لكم الدين بأن كفيتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم ، كما تقول : الآن كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد بأن كفينا من كنا نخافه[٣] .

ويشير نص ﴿ **أكملت لكم دينكم** ﴾ إلى أن إكمال الدين هذا ليس المقصود به مطلق الدين أي الذي انطلق منذ آدم عليه السلام وتتابع نزوله على سائر الأنبياء من بعده ، بل المقصود به المسلمون فقط ، أي دينكم –

(٣) لسان العرب : لابن منظور – بيروت .

القرآن – الذي بدأ نزوله في غار حراء واستمر ثلاثة وعشرين عاماً حتى وصل إلى كماله في ميدان عرفة . فقد كمل الكتاب الآن ولم يبق أي مجال للإضافة إليه .

والكمال أو الغلبة التي تنص عليها الآية لا تعني الغلبة السياسية البحتة التي حدثت في الجزيرة العربية ، بل إنها تعني التغيرات التي طرأت على الأوضاع العالمية والتي كانت بمثابة ضمانة للإسلام بألا تعتريه أية شائبة ، كما أظهرت الإسلام في أرقى مستوى من الناحية الفكرية . وليس المراد منه ، إقامة الحكومة الإلهية في الجزيرة العربية بل المراد هل تلك التغيرات البعيدة المدى التي أحدثت موجة الثورة الفكرية على المستوى العالمي ، وكانت ضماناً لاستحكام دين الله للأبد .

دلالة السياق :

إنه لمن الخطأ أن نعد المراد بإكمال الدين في سورة المائدة هو الإكمال من حيث قائمة الأحكام وفهرسها ، إذ أن فائدة الكمال الذي تشير إليه الآية لا تمت بأية صلة إلى الكمال بمعنى قائمة الأحكام ، إن فائدة الكمال – طبقاً للآية – هي فك ربط علاقة (الخشية) من الناس ، وربطها بالله ، حيث تكون الخشية من الله فحسب . وأما ما يتعلق بقائمة الأحكام فإنها قد نزلت وتم نزولها وكذلك حفظها للأبد ، ولن يلحقها أي نقص أو حذف . غير أن إمكانية لحاق النقص ما زالت قائمة فيما يتعلق بخشية الله دون قائمة الأحكام .

إن الآية تنص على أن الدين بعد أن كمل ونضج سوف لن يلحقه خطر من أهل الكفر بل كل الخطر يكمن في أن تصبحوا – أيها المسلمون – لا تخشون الله ، ولا تعيرون أي اهتمام إلى مقتضيات الدين . فسياق الآية يدل على أن المراد بالدين الكامل الدين المستحكم ، فالله تعالى قد جعل دينه

مستحكماً بمدده الخاص ، لا يستطيع أحد إلحاق أي ضرر به ، غير أن هناك احتمالاً ما زال قائماً وهو أن يلحق المسلمون - بغفلتهم وتمردهم - الضرر بدينهم .

﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم ... ﴾ إن هذا السياق يشير إلى أن التكميل له صلة باعتداء الكفار ، لأن الدين في الزمن القديم كان معرضاً للخطر من قبل الكفار ، أما الآن فأصبح في وضع مختلف تماماً ، فليس أمامه أي نوع من تلك المخاطر .

إذا نصب أحد كمسئول على غابة أو حارس فيها ، وطلب منه الالتحاق بميدان عمله بدون أن يزود بأسلحة دفاعية فإنه سيصبح فريسة للوحوش في باديء الأمر ، ولكن حين يتم تزويده بالأسلحة اللازمة فإنه سيصبح قادراً على تأدية مهمته على أحسن وجه .

إن معنى « الدين الكامل » يظهر بوضوح من خلال هذا المثال الآنف الذكر ، إذ أنه يوحي بأن قافلة الدين التي كانت تتخوف من الناس قد دخلت مرحلة خشية الله فحسب . إن أعداء الدين في الماضي كانوا ينجحون في إلحاق الأضرار بدين الله ، أما الآن فقد أصبح ذلك حلماً لا يتحقق ، بل كل ما في الأمر أنه ما زال هناك احتمال لحاق الضرر بالمسلمين بسبب ما يقترفونه من أخطاء .

إن التحول الذي تم تحقيقه بواسطة النبي ﷺ قد جعل الدين مستحكماً وقادراً على البقاء للأبد ، فالله سبحانه وتعالى - بفضله الخاص - قد جعل من دعوة التوحيد شيئاً بعيداً عن متناول أيدي الأعداء ، فعجزوا عن وضع أية عراقيل في سبيل الدعوة . إن الإسلام بعد أن صار محفوظاً في صورته الأصلية ، حظي بالمكانة التي جعلته دين الله الوحيد للأبد ، فمن

نهض بالإسلام فكأنه نهض – ولا شك – بالحق الكامل ، ومن كان هذا شأنه فمصيره ليس سوى الفلاح والنجاة .

والحقيقة أن الثورة المحمدية كانت بطبيعة الحال ، حداً فاصلاً بين طورين من أطور الدين ، إذ أنها كانت بمثابة القضاء على المخاطر التي كان يتعرض لها دين الحق ، حيث إن المخاوف كانت تلازمه من قبل الأعداء أينما حل ، أما الآن فأصبحت الخشية من الله فحسب ، ولا سبيل لخوف أهل الحق من معارضيهم . وإن خشية الله تعني أن أهل الحق في الطور الجديد يلزم عليهم أن يقوموا بمهامهم دون أن يساورهم أي نوع من المخاوف والمخاطر ، ويلزم عليهم أن يظلوا داعين إلى الحق ، دون أن يجعلوا أشياء أخرى محط أنظارهم ، كما ينبغي عليهم أن يعرضوا عن المدعويين ولا يخوضون معهم حرباً ، ولا يثيرون معهم قضايا تنشيء جو الصدام ، إنه يلزم عليهم أن يعاملوا الآخرين كمدعويين وليس كمعارضين أو متمردين ، وهذا كله يندرج تحت خوف الله وخشيته ، فلو أن المسلمين استمروا في التمسك بمقتضيات تلك الخشية فلن يتمكن الأعداء من تحقيق ما يبغونه من المسلمين ولا يقدرون على إلحاق أي ضرر بهم .

مثال توضيحي :

في القرن الثامن عشر كان النظام الملكي (الإمبراطوري) سائداً في أوربا كلها ، وقد ظهرت الثورة الديمقراطية بفضل جهود أقلام بعض كبار المفكرين ، كان من أبرزهم المفكر الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) . وقد أحدث مؤلفه المشهور (العقد الاجتماعي) ثورة فكرية في أوساط الفرنسيين ، إذ عالج في مؤلفه قضية ديمقراطية الشعوب مقابل الملكية أو الإمبراطورية الفردية . ولكنه أضحى ضحية للنظام الملكي القائم آنذاك حيث بدأ يعارضه بكل قسوة ، حتى اضطر روسو إلى الهروب إلى سويسرا ،

إلا أنه لم يحظ بالطمأنينة هناك أيضاً ، فبدل اسمه وعاد إلى فرنسا ، ولكن دون أن يحالفه الحظ ، مما اضطره إلى أن يعيش حالة التنقل من مكان إلى آخر حتى بلغ الأمر بزوجته إلى حد الجنون من شدة ما لحق بها من توتر نفسي ، بل حتى روسو نفسه لم يستطع الصمود طويلاً أمام التحديات الموجهة إليه إلى أن استسلم للقدر المحتوم ، وضاع في عالم البؤس واليأس حتى توفي في ١٧٧٨/٧/٢م .

إن مؤلفات روسو وأمثاله من المفكرين قد أحدثت موجة من الثورة الفكرية الديمقراطية ، وكان الملك لويس السادس عشر آخر ملوك فرنسا يحارب تلك الثورة بكل قوة وقد ذهب ضحية ذلك خمس وثلاثون ثائراً فرنسيًّا ، واضطر الكثيرون الآخرون للهروب إلى خارج فرنسا إلى أن جاء موعد الثورة الديمقراطية في فرنسا سنة ١٧٨٩م ، ومنها انتقلت إلى أنحاء أوربا .

إن الديمقراطية قبل مائتي عام كانت نظرية بحتة ، قد واجهت شتى أنواع العراقيل ولقيت مختلف الصعوبات ، إلا أنها اليوم أصبحت حقيقة قائمة ، فنتج عن ذلك أنها ظلت تنتشر ذاتياً . وهذا الشأن نفسه يصدق على الدين أيضاً ، إذ أن الدين هو الآخر يبدأ في انتشاره الذاتي بعد أن يصير حقيقة قائمة سواء بذلت الجهود في سبيل نشره أم لا .

وهو ما حدث مع الإسلام ، حيث لم يكن ديناً قائماً في طوره النظري في مكة ، مما اضطره إلى اقتحام العراقيل والصعوبات بشتى أنواعها ، إلا أن الإسلام اليوم قد أصبح حقيقة قائمة وأصبح كتابه محفوظاً للأبد ، فهو حقيقة تاريخية لا يعتريها أدنى شك ، وأتباعه يعدون بمئات الملايين من سكان المعمورة . إن حقائق كهذه جعلت الإسلام شيئاً يلمع بنفسه ، ويتسع مداه في حركة ذاتية ، إنه يجذب الناس إليه بقوة ساحرة ، وهذه العملية ما زالت

تلازم الإسلام عبر القرون .

الدعوة إلى الدين وإظهار الدين :

هناك مصطلحان يدل الواحد منهما على عكس ما يدل عليه الآخر وهما : (١) الدعوة إلى الدين (٢) إظهار الدين . إن الدعوة إلى الدين حكم عام يعني : إعلام الشعوب بدين الله عز وجل وتبليغه إليهم حتى يصل إلى مرحلة إتمام الحجة ، ومثل هذا النشاط الدعوى قد قام به الأنبياء على اختلاف الزمان والمكان ، والذي أصبح اليوم مهمة ملقاة على عاتق الأمة المحمدية إلى يوم القيامة .

أما إظهار الدين فلا يعني إقامة الحكومة وتنفيذ القوانين الشرعية ، إنه أمر يخص النبي ﷺ بصفته خاتم النبيين حيث لا نبي بعده . إن الإسلام والتوحيد قبل بعثة النبي محمد ﷺ كان في كنف الحقيقة النظرية و لم يكن قد بلغ بعد إلى مرحلة الثورة الفكرية والنظرية أي أن دين التوحيد كان شأنه شأن النظرية الديمقراطية التي ذكرناها آنفاً ، فالنبي ﷺ بفضل الله الخاص قد جعل التوحيد يجتاز مرحلة الحقيقة النظرية ويصل إلى مرحلة الثورة الفكرية .

إن إظهار الدين هو ما عبر عنه في موضع آخر بإكمال الدين (المائدة) ، وقد وصلت تلك المهمة إلى ذروتها بفعل النبي ﷺ وأصحابه ، ولم يبق أمامنا من خيار إلا أن نوصل رسالة الله إلى عباده عن طريق استخدام الوسائل المتاحة والأوضاع المواتية .

التكميل الأبدي :

هناك مفهومان لآية (إكمال الدين) مفهوم مؤقت خاضع لزمن معين ، ومفهوم لا يقيده زمان ولا مكان . إن المفهوم المؤقت للآية هو أن المعارضة القاسية التي نشأت ضد دعوة التوحيد قد انكسرت شوكتها للأبد

خلال ثلاثة وعشرين سنة من النبوة ، حيث أصبح الشرك مغلوباً على أمره إلى الأبد ، والنصر أصبح حليف التوحيد إلى الأبد .

إلا أن القرآن هو كتاب الله الأزلي الذي سيظل كما هو إلى يوم القيامة ، وبهذا الاعتبار يكون للآية مفهوم فضفاض ، كأن الله يخاطب البشرية جمعاء بغض النظر عن حدود الزمان ، وكأنه يلقي خطابه الأبدي عبر القرون . إن دعوة التوحيد التي يتضمنها القرآن هي نفسها التي كان الأنبياء الأوائل يقومون بها ، وكما واجه النبي مختلف الصعوبات والعقبات وكان هدفاً لإضطهاد معارضية ، كذلك الحال بالنسبة لسائر الأنبياء ، والنجاح الذي تمكن المعارضون من تحقيقه هو أنهم أغلقوا الباب أمام دعوة التوحيد حتى لا تصبح تاريخاً ، إذ أن جميع الكتب المنزلة قبل القرآن قد ضاعت أصالتها واندثرت ، واعترتها الشكوك حتى فيما يتعلق بتصور الله فلم يبق في صورته الأصلية ، كما تم محو أسماء الأنبياء من صفحات التاريخ الإنساني .

ومن يضع نصب عينيه هذا السرد التاريخي ويدخل في تحليل آية المائدة المذكورة آنفاً ، يحس بأن الآية تلقي ضوءاً على ما قام به المعارضون من أعمال عدائية ، وتوحي بأن أعمالهم تلك قد فقدت فعاليتها في تحقيق هدفها المنشود ، إذ أنه لا مناص من إخفاقها وفشلها ، ذلك لأن دعوة التوحيد دخلت طوراً جديداً من أطوارها ، حيث لا يلحقها أي ضرر ، وقدرت الغلبة لرسالة التوحيد . فإذا كان هناك أي سبيل للحاق الضرر بها فإنه يكون بسبب لا مبالاة المسلمين أنفسهم ، وليست خطط الأعداء وأنشطتهم المعادية بقادرة على إلحاق أي ضرر بها .

نهاية الفتنة :

لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين**

شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ [البروج : ٤ - ٩] .

وقد ورد في الحديث أن دعاة التوحيد قبيل الإسلام قد واجهوا أوضاعاً سيئة للغاية ، بحيث لو قام أحد للدعوة إلى عبودية الإلـه الواحد ، فإنه سيلقى العذاب والفتنة والاضطهاد بشتى الوسائل ، حتى أن أحدهم كان يوضع نصفه تحت الأرض ويقطع نصفه الآخر بالمنشار فتتمزق أوصاله وتنفصل أعضاؤه .

إنها قصة ليست خاصة بشخص أو أثنين بل هي قصة تعكس عصراً بكامله ، وتصور لنا تلك الأوضاع التي كانت سائدة عبر القرون قبل زمن النبي ﷺ حيث كانت فكرة التعصب الديني تسيطر على جميع الحكومات القائمة آنذاك على اختلاف أنواعها ، وكانوا يعتبرون أن لصاحب السلطة الحق في أن يرغم الآخرين على أن يتدينوا بدينه ، والإثم كل الإثم لمن يعلن انفصاله عن دين أصحاب السلطة ، بل كان يعد بمثابة التمرد على السلطة ، فيجب قمعه بكل الوسائل الممكنة واضطهاده وتشريده وقتله أخيراً .

وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ . لقد كان ذلك سائداً في الزمن القديم ، وهو ما أطلق عليه (الاضطهاد الديني Religious Persecution) . أن الموسوعة الدينية (Encyclopadya of Religiunand) تشتمل على مقال بعنوان (الاضطهاد Persecution) في ثلاثين صفحة ، وقد أشارت - بعد تقييم موضوعي لأوضاع المجتمع البشري القديم - إلى أن ذلك المجتمع في أساسه كان يتبنى التعصب الممقوت فيما يتصل بالدين .

(Ancient Society was Essentially Intolerant P 743)

(إن التعصب والاضطهاد الديني في الزمن القديم قد قضى بشكل

نهائي على حرية الديانة والعقيدة) وإن الأوضاع لم تكن مواتية لنشر الدين إلى حد أن من يجرؤ على التصدي للدعوة إلى دين غير ذلك الذي يدين به أصحاب السلطة فكأنه – بعمله هذا – يقود نفسه إلى أخدود ملتهب بالنار أو يعرض نفسه لخطر المنشار ، وهكذا عاشت رسالة التوحيد في خضم تلك المفاهيم المضللة التي راجت على نطاق واسع في الزمن القديم ، مما عرقل سبيل انتشار رسالة التوحيد التي فرض عليها الحصار ، فلم تتجاوز مراحلها الأولى حتى تم استئصال دعاة التوحيد بشكل سافر ومروّع فحرقت كتبهم ومحيت أسماؤهم من سجل التاريخ .

إن سلسلة الاضطهاد هذه استمرت مئات السنين حتى كان موعد بعثة آخر الأنبياء في شبه الجزيرة العربية . فقد أعطى الله النبي ﷺ – لحكمة خاصة – مهمة استئصال هذا النوع من القهر أو الاضطهاد ، ولو تطلب الأمر خوض حرب ضد الظالمين ، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .

إن كلمة « الفتنة » مرادفة لما يطلق عليه في الإنجليزية (Persecution) أي الاضطهاد . وإنهاء الفتنة في الآية يعني إنهاء التعذيب والاضطهاد الديني . وقد انطلق النبي ﷺ وصحابته الكرام من هذا المبدأ المستقبلي ، حيث إن مبدأ أساسياً كانت تتضمنه دعوة النبي ﷺ وهو أنه : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ وهو لا يعني أن الأديان كلها صحيحة بل يعني أن كل فرد له حرية التدين ، وباستطاعته أن يعتنق الدين الذي يرضاه ، والمرء إذا لم يطمئن إلى الدين الموروث من الآباء والأجداد له كامل الحرية في أن يرتد عن دينه الموروث أو القديم ليعتنق ديناً جديداً يطمئن إليه ويرضاه .

إن نبي الإسلام كان يدعو الناس – رفقة صحابته الكرام – إلى دين الله الذي ثبتت مصداقيته عنده ، ومن جهة أخرى كان يبذل كل ما

في وسعه في سبيل استئصال هذا الوضع الذي يسوده التعصب الديني ، وإزالته من أرض الواقع عمليًّا ، مما اضطره إلى الصدام مع الحكام والزعماء آنذاك ، كما اضطره إلى خوض حرب دفاعية في مواجهتهم ولرد اعتدائهم .

ولقد حقق النبي ﷺ – رفقة صحابته الكرام – نجاحاً ملموساً في مهمتهم تلك ، لما كانوا يتمتعون به من نصرة ومدد إلٰهي خاص ، مما أسفر عن اختفاء تلك الإمبراطوريات في كل من آسيا وأفريقيا ، والتي كانت متمسكة بالسلطة وكان يسودها جو التعصب الديني .

إن حادثاً كهذا ، في التاريخ الإنساني ، جعل المؤرخين ينظرون إليه من زوايا مختلفة ، إذ يرى المؤرخ الفرنسي (هنري برين) أنه نقطة التحول الأساسي بين القديم والجديد (Essential Break) وأنه عبارة عن نهاية الإمبراطوريات المطلقة ، ولقد عبر عن رأيه حول ذلك التحول الانقلابي بقوله : لقد أحدث الإسلام تغييراً في صورة الأرض ، حيث استأصل النظام التقليدي للتاريخ .

(Islam changed the face of the globe. The traditional Order of history was overthrown)

إن هذا التحول الكبير في مجرى التاريخ قد فتح الباب على مصراعيه أمام رسالة التوحيد لتشق طريقها في أجواء غير متوترة ، إذ أن دعوة التوحيد بدأت تسير في أجواء مواتية بعد أن كانت تسير في أجواء متوترة ، بفعل التعصب والتشدد الديني ، إن هذا جانب بارز من جوانب إكمال الدين وهو ما عبر عنه القرآن بانهاء الفتنة .

إن الانقلاب الذي أحدثه وصعده النبي وأصحابه كان انقلاباً هائلاً ، كما شمل نطاقاً واسعاً إلى حد أنه اصطبغ بصبغة التاريخ . إنه أصبح عنصراً محركاً ومؤثراً في الفكر الإنساني والحركات الإنسانية ، إذ تحول مجرى التاريخ

واتخذ مساراً جديداً غير الذي كان من قبل حتى حان الوقت لولادة عصر جديد يعترف على مستوى عالمي بحرية الديانة وأنها حق مشاع ينبغي أن يتمتع به كل فرد في هذه المعمورة .

بل وأصبحت حرية الديانة من بين البنود النظرية الأساسية في دليل المدنية الحديثة ، وكافة الدول ثبت توقيعها على وثيقة الأمم المتحدة فيما يتعلق بهذا البند ، حتى بلغ الوضع الآن إلى أن أحداً لا يجرؤ على تجاهل أو إنكار هذه الحرية .

التشدد لا يجدي :

إن أحداث الربع الأخير من القرن العشرين توحي لنا بأن سلسلة التاريخ البشري قد دخلت مرحلة ليس للتشدد فيها أي تأثير من حيث نوعيته ، حيث انتهى ذلك النوع من الاستراتيجية السياسية والعسكرية الذي كان سائداً من قبل ، وفقدت القوة العسكرية مقدرتها على حسم القضايا ، فالحرب العالمية الثانية كانت آخر حرب شهدها العالم ، ولقد تركت مؤشراً دامغاً على أن الحرب لا يمكن أن توصل إلى نتيجة حاسمة .

إن حرب فيتنام دامت زهاء إحدى عشر سنة (١٩٦٥ – ١٩٧٥) إلا أن أمريكا قد اخفقت بشكل سافر واضطرت إلى الانسحاب رغم استخدامها لقوتها العسكرية الهائلة . كما شنت الاتحاد السوفيتي هجوماً على أفغانستان في ديسمبر ١٩٧٩م واستمرت جحافلها العسكرية في تخريب وتدمير أفغانستان مدججة بأحدث أنواع الأسلحة ، إلا أن النجاح لم يحالفها فاضطرت إلى سحب قواتها العسكرية سنة ١٩٨٨م . وفي سنة ١٩٨٠م اندلعت الحرب العراقية الإيرانية واستمرت طيلة ثماني سنوات حرباً مروعة أسفرت عن خسائر فادحة ، إذ أن ضحاياها يقدرون بمليون نسمة ، وذهبت عشرات الملايين من الدولارات في سبيلها ، إلا أن الطرفين قد أخفقا في تحقيق

هدفهما و لم يجنيا منها شيئاً ، فاضطر الطرفان إلى إيقاف الحرب تنفيذاً لقرار الأمم المتحدة . بينما تقدم لنا اليابان أوضح نموذج لفهم عالمنا المعاصر ، إذ أن اليابان قد اصطدمت مع أمريكا في ساحة الحرب خلال الحرب العالمية الثانية ، وكان النجاح إلى جانب أمريكا ، ولحقت الهزيمة المنكرة باليابان في الميدان العسكري ، فأحست اليابان بأن الطريق قد سد أمام رقيها العسكري والسياسي فانسحبت من هذين الحقلين وركزت كل اهتماماتها في ميادين العلم والاقتصاد ، وقد نالت محاولاتها تلك قسطاً وافراً من النجاح ، حتى أنها استطاعت – خلال أربعين سنة – أن تغير مجرى تاريخها ، بل وأصبح لها تاريخ غير ذلك الذي كان من قبل .

هناك واقعة رائعة تتعلق بهذا الموضوع : وهو أن مجلة (التايم) أصدرت مقالًا بعنوان (Super Japan اليابان الراقية) وقد أبرز الكاتب فيها التطور الاقتصادي المطرد لليابان الذي دفع بأمريكا إلى الترتيب الثاني بالنسبة للدخل الاقتصادي ، بل إن أمريكا الآن في موقف الدفاع في مواجهة هذا التدفق الاقتصادي الياباني ، وقد بعث (Brian Mirsky براين مرسكي) – بعد الاطلاع على هذه المقالة – بتعليق إلى مجلة (التايم) . وقد نشر في عددها الصادر في ١٩٨٨/٧/٢٥م . ورغم أن التعليق كان موجزاً إلا أنه كان حافلاً بالعبر ، حيث قال :

Your article on Japan's economic success makes it obvious that although the U.S. won the war, Japan won the peace (p. 2)

إن مقالتك عن الرقي الاقتصادي لليابان توضح أنه بالرغم من أن أمريكا كسبت الحرب إلا أن اليابان قد حازت الأمن .

التيسير :

إن البيئة المواتية للدعوة ، والتي نشأت بفعل إنهاء الفتنة (Persecution) قد عبر عنها القرآن بالتيسير ، حيث ورد في القرآن : (ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى) الأعلى : ٨ ، ٩ . كما علم القرآن الصحابة دعاء كانوا يدعون به في مناجاتهم لربهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ فإنهاء التشدد الديني القديم هو وفاء من الله بوعده واستجابة منه لدعاء الصحابة الكرام .

والحقيقة أن الله تعالى لم يلق على عاتقنا مهمة الدعوة فحسب ، بل إنه يسر السبل أيضاً لتبليغ هذه الدعوة ، وهو لم يكتف بتكليفنا بهذه المهمة بل زودنا بمدده الخاص ، وهيأ لنا سائر الأسباب التي تسهل لنا الوصول إلى الغاية المنشودة ، بل إنه من أجل تيسير الطرق وتعبيدها غير مسار التاريخ البشري .

إتمام الحجة :

إن مهمة الدعوة ليست هينة إذ أنها ترتبط بشكل مباشر بخطة الله من وراء الخلق (Creation plan) . لذا فإن أهميتها لا تقتصر على العباد فحسب ، بل هي ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى الله أيضاً .

إن الدنيا هي بمثابة قاعة الامتحان بالنسبة للإنسان ، إذ ينص القرآن بأن الله : ﴿ **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ [الملك : ٢] إن هذا الجانب من الخطة الإلٰهية في الخلق يتطلب إيضاح مخاطره للإنسان ، كي لا يلجأ أحد في الآخرة إلى التذرع بأنه تورط في حساب عن أشياء لم يكن يعرف عنها شيئاً .

فلو أصبح بمقدور الناس أن يطرحوا هذا السؤال ، فهذا يعني أن الحجة

لم تعد ملقاة على الناس بل على الله ، هذا هو الهدف الوحيد الذي رتب الله من أجله نظام الوحي والرسالة ، فاصطفى أناساً بمحض مشيئته ، وجعلهم المندوبين المعتمدين ، وزودهم بعلم الحقائق بوسائل مخصوصة ، وألقيت على عاتقهم مهمة تعريف الناس بالحقائق ، قال الله تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وهذه المهمة ذاتها ألقيت على عاتق أمة النبي ﷺ فور انتقاله إلى رحمة الله ، وبهذا الاعتبار يصح لنا القول بأن المسلمين في مقام النبوة بعد ختم النبوة ، وإن أهم ما آل إليهم من المسئوليات هو النهوض بفريضة تبليغ الدعوة إلى شعوب العالم مع مراعاة كافة أنواع الشروط والواجبات ، وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ [الحج : ٧٨] .

إن هذا هو الأمر المطلوب في نظر الله ، وإذا اضطلع به أحد فإن الله يزوده بضمانات وقوة لازمة للقيام بذلك ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ [النساء : ١٦٥] .

حفظ الدين بواسطة الدعوة :

إن القرآن ينص على أن النبي ﷺ كانت بعثته بصفته داعية إلى الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] . وأن الدعوة هي جل مهمته ومحورها ، إذ أن رسالته هي اضطلاع بدعوة التوحيد وتبليغه إلى الجنس

البشري بأسره ، أما الأمور الأخرى فهي تدور حول هذا الأمر العظيم ، فإذا ما قام بمهمته على وجه أكمل وأرقى تيسرت له الأمور الأخرى بتأييد من الله ونصرته ، وإذا لم يقم بتلك المهمة المحورية لم تتيسر له الأمور الأخرى أبداً . إن أهم ما يعول عليه الفرد أو الجماعة ويولونه اهتماماً خاصاً ، هو حفاظهم على أنفسهم ووقايتها لئلا يلحق بهم أي ضرر ، والناس – عامة – يضعون نصب أعينهم تمرد المعارضين وخطط الأعداء ، ويخيل إليهم أن جل ما يستطيعون القيام به هو بذل أقصى الجهد في سبيل قمع تمرد المعارضين وكبح جماحه ، إلا أن الله تعالى يخاطب نبيه في القرآن بأنه ليس في حاجة إلى بذل الجهد في سبيل تلك الأشياء ، بل يأمره بالتعلق بالدعوة والنهوض بها بشكل دائب ، وهو ما يسفر عن خلق الله لأوضاع مواتية تحل فيها قضية الحفاظ والوقاية بشكل تلقائي ، وهذا ما تلفتنا إليه الآية : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فهي تبين بوضوح أن سر العصمة من الناس يكمن في تبليغ ما أنزل الله ، ونحن ينبغي ألا نركز على تلك الأسوة النبوية – أعني الدعوة الدائبة إلى الله – في الأوقات العادية فحسب ، بل يجب علينا أن نلتزمها حتى في الحالات المتوترة وفي الأوضاع غير المواتية ، فحين يحيط بنا خطر الأعداء من كل جانب ، وحين تصبح قضية الدفاع من أخطر القضايا ، في مثل هذه الحالات ينبغي أن تكون الدعوة هي المحور الذي يركز عليه المسلم ، فيبذل كل إمكاناته المتاحة في إطارها المشروع ، أما الأشياء الأخرى التي ينشدها فتكمن في القيام بهذه المهمة .

الدين الفطري :

إن السيد عبد الأحد عمر الذي اعتنق الإسلام مؤخراً ، هو من سكان

كندا ، كان يدعى قبل إسلامه (جاري ملر Garey Miller) وكان أستاذاً للكتاب المقدس حين قرأ القرآن مصادفة ، تأثر به بشكل مثير ، حيث نفذت تعاليمه إلى صميم قلبه ، فاعتنق الإسلام بكل رضى وطمأنينة :

He likes to call himself a "REVERT" to Islam. "I haven't converted to Islam but merely reverted to my birthright deen (religion). The Prophet Said, every child is bron a Muslim.

(Muslim Journal, Chicago. June 21, 1985)

(إنه يفضل أن يطلق عليه « العائد إلى الإسلام » إنه يقول : إنني لم أعتنق الإسلام بل كل ما فعلته أني عدت إلى ديني الفطري . قال النبي ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة** » [أي الإسلام]) .

والقرآن ينص على أن الإسلام هو دين الفطرة ، وأن خلق الإنسان وإنشاءه تم وفق تلك الفطرة ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ . والإنسان بحكم طبيعته يبحث عن دين لملء فراغه الروحي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الدين السماوي الذي جاء به الأنبياء في مختلف العصور لحقته أنواع من التحريفات المضللة والانحرافات المفسدة ، عدا الإسلام الذي ظل محتفظاً بأصالته ، وبقي كما هو . وبالتالي فإن كل من يتلهف ويتطلع إلى الدين — والإنسان بطبعه هذا دأبه — لم يبق أمامه خيار سوى اشباع نزعته الفطرية باعتناق الإسلام .

إن الأساس الوحيد لفلاح دينوي هو (الاحتكار Monopoly) والإسلام بالنسبة إلى الديانات الأخرى هو الذي يملك الاحتكار ، إنها ميزة اتسم بها الإسلام دون سواه من الأديان .

المسلمة التاريخية :

إن الدكتور (نشي كانت جتوباديا) هندي الأصل ، يقطن في حيدر آباد ، وكان يتمتع بمستوى عال من الثقافة والعلم ، وقد اعتنق الإسلام سنة ١٩٠٤م وغير اسمه إلى (عز الدين) ألقى محاضرة في حيدر آباد بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٩٠٤م بعنوان : Why have I accepted Islam?

لماذا اعتنقت الإسلام ؟

وكان الدكتور يجيد عدة لغات محلية وعالمية ، حيث ذهب يقول في محاضرته بأنه نشأ وترعرع وسط بيئة هندوسية وأنه كان يحس بخواء هذا الدين منذ نعومة أظفاره ، وبمجرد ما أنهى مراحل تعليمه انشغل في البحث عن الدين الحقيقي (True faith) . إذ أجرى دراسات واسعة حول الأديان المتداولة وجال من أجل ذلك أنحاء العالم . إلا أن عقليته المتدبرة ومنهجية بحثه قد رفضت كل الأديان والفلسفات إلى أن وضع أمامه الإسلام وأخذ يحلله ، فخرج بنتيجة ألا وهي أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينسجم تماماً مع المعايير العلمية ، ومن ثم اعتنق الإسلام . ومن الجوانب التي كان لها تأثير كبير في الدكتور : أن الإسلام دين تاريخي بكل معنى الكلمة ، وأن كل ما جاء به مسلم به تاريخياً . وأضاف الدكتور قائلاً :

In the Prophet of Islam there is nothing vague and shadowy, mythical or mysterious, as, for instance, in Zoroaster and sreekrishna, or or even in Buddha and Christ, The very existence of those Prophets has been seriously doubted and even totally denied; but nobody, as far as I am aware, has ever ventured to reduce the Prophet of Islam either into a "Solar myth" or into "fairy tale" as some eminent Savants of Europe have done with Buddha and Christ, Oh! what a relief to find, after all, a truly historical Prophet to believe in!

(بالنسبة لنبي الإسلام ليس هناك أي شيء غامض أو مبهم أو من قبل الخرافات والأساطير التي تحيط كل من سرى كريشنا – أحد الأنبياء الهندوس – وبوذا والمسيح . إن حياة كل من هؤلاء الرسل كان يحيطها نوع من الشك والغموض أو الرفض التام أحياناً . إلا أن شخصاً لديه ذوق علمي مثلي لا يتجرأ على إلحاق أي نقص إلى نبي الإسلام سواء أكان ذلك من حيث الأسطورة الشخصية أم القصص الخرافية كما فعل بعض اللامعين من أوربا ببوذا أو المسيح . ليس أروع وأحلى – بغد كل هذا – من اكتشاف نبي تاريخي والإيمان به .

إن الأديان المعاصرة كلها تمتد جذورها إلى الماضي السحيق ، وإن مقاييس مصداقية تلك الأديان وواقعيتها هي معايير التاريخ فقط . والأنسان العصري اليوم حين يحاول اختيار دين ما يحلله أولاً من زاوية مصداقية التاريخ ، إلا أنه حين يفعل ذلك يكتشف أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينسجم ويتناسق مع المعايير التاريخية المسلمة ، وما عداه من الأديان يظهر بوضوح عدم تطابقها من تلك المعايير ، لذا فهي مرفوضة رفضاً باتاً ، وليس أمام صاحب العقلية المحللة والذوق العلمي من خيار إلا أن يعتنق الإسلام ، لأنه هو الوحيد الذي يتناغم وينسجم بشكل عجيب مع المعايير التاريخية) .

التأييد العلمي :

من بين الأشياء التي تزيد الإسلام قوة ورسوخاً، الاكتشافات العلمية الحديثة التي أصبحت تؤيد مصداقية الإسلام وواقعيته . فعند ظهور الإسلام لم تكن هناك اكتشافات للحقائق العلمية كما هو الأمر الآن ، فإذا ما بدأت تكتشف تلك الحقائق واحدة تلو الأخرى دون أن يحدث أي تعارض بينها وبين التعاليم الإسلامية ، فإن ذلك يؤكد أن الإسلام هو كلام الله الذي لا يعلم الغيب إلا هو . في حين أن الأمر على العكس من ذلك تماماً بالنسبة

للأديان الأخرى ، إذ إن محتوياتها قد اصطدمت مع الاكتشافات الحديثة وهذا يحمل مؤشراً إلى أنها ليست منزلة من عالم غيب السموات أو إنها مزيج من كلام الله وكلام البشر . وكلا الأمرين يرفضهما المنطق والعقل ، ونذكر هنا مثالاً توضيحياً على وجه المقارنة : إن الكتاب المقدس يذكر حادثة خلق آدم وذلك بذكر الأيام والسنة بعينها ، كما يذكر كافة الأنساب والعشائر من آدم إلى موسى ويذكر أعمارهم أيضاً بالتحديد ، وقد حاول علماء الكتاب المقدس من خلال تلك الاعداد والتفاصيل تعيين عمر السلالة البشرية على وجه الأرض ، إذ تم طبع تقويم عبري (Herbraic calender) وكان عمر الأرض طبقاً لذلك ٥٧٣٦ سنة وقبل أن يظهر العلم ويأخذ مساره كانت الأمور تقاس حسب المعتقدات المفترضة وتوزن بموازينها ، وحتى ذلك الحين لم تظهر أية وجهة نظر مخالفة لتلك البيانات الواردة في الكتاب المقدس . ولكن حين برزت في العصر الحديث الأبحاث الجيولوجية واكتشف العصر الحجري الذي عاشه الإنسان القديم ، استنتج بأن عمر الإنسان أو الأرض أكثر بكثير مما توصل إليه علماء الكتاب المقدس بعد تمحيص بيانات الكتاب المقدس في هذا الصدد .

إن كلًّا من جيمز هنن وتشارلس لابل وايدورد بلاتيه قد أجروا بحوثاً وافية في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ووصلوا إلى نتائج تبطل زعم الكتاب المقدس فيما يتصل بحياة الأرض والإنسان[١] .

والقرآن يعكس لنا صورة مختلفة عن ذلك تماماً ، إذ أنه يحتوي كثيراً من المواضيع التاريخية والطبيعية وما يتصل بالفلك وخلق الأرض . إلا أنه

---

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

(Fred Hoyle, The Intelligent) Univers, London 1983, p, 28-30

يخلو – بشكل مدهش – من أية نقطة تصطدم مع نتائج الأبحاث العلمية المعاصرة . ولنأخذ مثالاً على ذلك : فالقرآن يتناول قصة فرعون موسى ويذكر في هذا الشأن : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ [يونس : ٩٢] . وحين نزل هذا النص القرآني كان الناس يجهلون مدلوله ، إذ لم يكن أحد يدري أن جثة فرعون لا تزال موجودة في مكان ما . إلا أنه حين تم اجراء الفحوصات على الأهرامات المصرية ، اندهش العلماء حين اكتشفوا أن جثة فرعون ما زالت في الهرم الصحراوي المصري(٢) .

إن القرآن حافل بمثل هذه الشواهد التي تدل حسب منظور علمي خالص على واقعية القرآن وحقيته ، والتي تعطي الإسلام مزيداً من القوة والرسوخ .

إن تلك الجوانب من استحكام الإسلام على المستوى الفكري والعلمي المذكورة آنفاً ليست هي كل ما في الأمر ، بل هي مجرد أمثلة ليس القصد منها الحصر ، ولعله قد ظهر لنا من خلالها أن ذلك الانقلاب الذي فجره النبي ﷺ لم يكن خاضعاً لوقت بعينهِ ، أو كان انقلاباً سياسياً ، إنه انقلاب تاريخي بعيد المدى ، قد أثر في الفكر والتاريخ الإنساني إلى حد أنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الإنساني ، وبعد ذلك قد طرأت على العالم تلك التغيرات التي فتحت الباب على مصراعيه ليلجه الإسلام والدعوة الإسلامية ، ويجد الإسلام بعد ذلك كل الإمكانات ليشق طريقه إلى الأمام . وهذا معنى « الدين الكامل » .

---

(٢) التفصيل في (عظمة القرآن) وحيد الدين خان ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

سنة الرسول

إن أهمية السنة في الدين بالغة جداً ، فكل ما قاله النبي أو عمل به هو معيار للمسلمين ومقياس لعملهم ، إذ يلزم علينا – نحن المسلمين – أن نطبق سنته ﷺ في كافة ميادين الحياة ، وأن نقلده في الأمور كلها ، ففي اتباع سنته يكمن سر النجاة في الدنيا والآخرة .

وفي أوساط المسلمين وفاق حول تلك الأمور ، فليس هناك من يخالف في حجية السنة في التشريع الديني ، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هي حقيقة هذه السنة ؟ هناك مفاهيم خاطئة قد تبناها المسلمون – بطريق شعوري أو غير شعوري – فيما يتعلق بالسنة . فالسنة – في حد ذاتها – هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل ، ولكن – في الواقع – قد صاغ المسلمون بأنفسهم فهرساً للسنة يتضمن بعض الأشياء الثانوية نسبياً في حياة النبي ﷺ ، فمن يهتم بذلك الفهرس يطلق عليه بأنه متبع للسنة ، بينما الشقة بعيدة بينه وبين أتباع السنة الحقيقية الأصلية ، ولنضرب لذلك مثلاً يكشف القضية بوضوح :

روي عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان في بيتها فدعا وصيفة له أو لها فأبطأت فاستبان الغضب في وجهه فقامت أم سلمة إلى الحجاب فوجدت الوصيفة تلعب ، ومعه سواك فقال : لولا خشية القود يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك[1] .

---

(١) الأدب المفرد ، باب قصاص العبد : ص ٢٩ .

هذه الرواية تشير إلى أن النبي ﷺ حينما كان جالساً في بيته كان يحمل في يده سواكاً ، وقد استنتج بعضهم من هذا أن السواك كان محبباً إلى النبي ﷺ إلى حد أنه لا يفارقه حتى لحظة واحدة . وتحت وطأة هذا الحماس لأتباع السنة ، جعلوا يعولون على السواك ويولونه اهتماماً بالغاً وذلك بوضعه في الجيب حتى يتمكنوا من استخدامه متى أرادوا ، ولكي لا تفوتهم سنة السواك ولو مرة واحدة .

إن هذا الاهتمام المبالغ فيه بالسواك ، اهتمام لا يوجه إليه أي نقد أو اعتراض . فالسواك سنة حقاً ، حتى أن النبي ﷺ بيّن أنه : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك** » . ومن ثم فمن اهتم بالسنة فقد اتبع السنة حقاً ، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل الحديث المذكور آنفاً يحتوي على أمر السواك فقط ؟ الحقيقة أنه يتضمن سنة أخرى لا تقل أهمية عن السواك ، بل هي أكثر أهمية من السواك ، والمؤسف أن الناس تمسكوا بالسواك ونحّوْا الأخرى جانباً . شأن المسلمين في ذلك شأن ذلك الرجل الذي حصل على فاكهة ، فأخذ قشرتها ورمى بلبها .

لنقف قليلاً ، ونتأمل هذا الحديث . إنه يحتوي على أمرين اثنين :

● **أولهما** : أن النبي ﷺ كان جالساً في بيته وكان بيده سواك .

● **وثانيهما** : أنه استبان الغضب في وجهه ﷺ وكان على وشك أن يضربها بالسواك لولا أنه تذكر فوراً قبضة الله في الآخرة ، ومن ثم أعرض عن إلحاق الأذى بها . فاستعمال السواك لتنظيف الأسنان سنة ، وكذلك تغليب خوف الله على العقل إلى حد أنه رغم حدة الغضب عند المرء ورغم مقدرته على تحقيق ما يريد ، فهو يعزف عن إلحاق الأذى بالآخرين ، ويتجنب الضرب ولو بأبسط الأشياء كالسواك ، فهذا سنة أيضاً . ولكن المؤسف أن المسلمين يجهلون هذا الجانب البارز من الحديث ويتمسكون بالسواك فحسب .

وهناك مئات الآلاف في أوساط المسلمين ممن يتبعون سنة السواك ، أما سنة كظم الغيظ وكبح جماح الغضب ، والصبر على الأحوال غير المرضية ، والإعراض عن الأنشطة القمعية مع القدرة عليها ، قد أصبح شيئاً نادراً ، لا نجده إلا في قلة من الناس .

إن القرآن – من خلال آياته العديدة – يحث ويحض الناس على اتباع سنة الرسول إلا أن الأمور التي تحظى باهتمام بالغ من قبل المسلمين باسم السنة ، لا يحمل القرآن أدنى إشارة إليها ، بينما الأنواع الأخرى من السنة والتي وردت في القرآن بغزارة قد أخرجها المسلمون من قائمة اتباع السنة ، وهذا مثال على ذلك .

إن جانباً من سورة الأحزاب يلقي ضوءاً على غزوة الأحزاب التي حدثت سنة (٥ هـ) وقد استنفر مشركو مكة ما يقرب من اثني عشر ألف مقاتل تحركوا صوب المدينة قاصدين الهجوم عليها ، ورغم أنه لم تنشب الحرب بين الطرفين إلا أن الحصار المشدد حول المدينة ظلّ قرابة شهر . وقد ورد في القرآن : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١] .

في مثل تلك اللحظة الحرجة بدا الضعف بين كثير من ضعفاء الإيمان ، إذ لم يستطيعوا البرهنة على الصبر والاستقامة ، وتتناول السورة شأن هؤلاء الأفراد أيضاً ، وورد فيما يتعلق بهذا الشأن : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ .

إن الآية توضح أن الحالات المتوترة التي لحقت بالمسلمين أثناء الحصار الذي فرضه الأحزاب ، والشدائد التي كانت تشكل خطراً على المسلمين لم يكن النبي بمعزل عنها بل كان في وسطها مشاركاً فيها ، بل كان الوضع

بالنسبة للنبي أكثر خطورة ، فهو الهدف والغاية الأصلية لذلك الحصار . إلا أن النبي كان صابراً مثابراً متصدياً لكل ما يعترضه بكل ثبات ورباطة جأش ، لقد صبر على كل رخيص وغال نازلاً تحت إرادة الله ابتغاء مرضاته . إن هذا العمل الجبار الذي يقدمه النبي ﷺ ينبغي أن يتبناه المسلمون في حياتهم ، كما يلزم عليهم أن ينهجوا نفس نهجه .

كأن السنة التي تضمنتها الآية هي سنة الصبر والمثابرة ، أي تحمل كافة أشكال المعاناة في سبيل الدين والصمود أمام كل الصعوبات ببذل أقصى ما يملك المرء من جهد . إلا أن الوضع اليوم قد انقلب رأساً على عقب ، فإنك لو أخذت تذكر سنة الصبر والمثابرة ، لرأيت الوجوه مندهشة مبدية إعجابها ، كأنها لا تكاد تصدق أن ذلك من السنة .ولعل ذلك يرجع إلى الدعاية الخاطئة التي جعلت السنة قاصرة على أمور محددة كاللحية والسواك ، وشرب الماء باليد اليمنى ، والدخول إلى المسجد بالرجل اليمنى ، وتقديم اليسرى عند الخروج منه ، إلى غير ذلك .. ومثل هذه الأمور قد اشتهرت في أوساط المسلمين باسم السنة ، وهم يتمسكون بها ويولونها اهتماماً بالغاً ، بينما الأمور الأخرى لا تتمتع بأية أهمية لديهم . بل إنهم قد أخرجوها من خارطة أذهانهم ، ومن ثم هم لا يحسون بضرورة وضعها في فهرس أتباع السنة .

إنك تجد كثيراً من الناس ممن يهتمون بأمر اتباع السنة ويولونها اهتماماً بالغاً ، ولكنك تجد الأشياء التي يجدر أن تحظى بالأهمية الرئيسية والتي تمثل محور وجوهر الدين ، وقد فهمها المسلمون على أنها خارج قائمة السنة – سواء أكان ذلك بطريق شعوري أو غير شعوري – مما أسفر عن عدم ظهور فائدة اتباع السنة رغم الاهتمام البالغ بها .

وسأعرض هنا تجربة شخصية قد حدثت لي يتضح من خلالها الفرق

بين هذين النوعين من السنة .

لقد كنا في حاجة إلى كاتب آخر لمجلة الرسالة الشهرية ، ووقع الاختيار على رجل للقيام بتلك المهمة ، وأكد أنه سوف يقوم بكتابتها في بيته ثم يزودنا بها شيئاً فشيئاً . فأعطيناه بعض الموضوعات ، وتعهد على أنه سيكمل المهمة خلال خمسة عشر يوماً ثم يأتينا بها .

وحين حضر هذا الكاتب إلى مكتبي كان موعد تناول الطعام قد حان ، فتمّ إحضار الطعام ووضع على المنضدة ، وطلب من الضيف تناول الطعام ، لكنه كان متردداً كأنما تورّط في مأزق ما ، وعندما سألناه عن سبب امتناعه ، صرح قائلاً : إن الأكل على المنضدة أمر مخالف للسنة ، لذا بدا متردداً ممتنعاً عن الأكل ، واستجابة لرغبته أحضرنا له سجادة فجلس وتناول الطعام ثم ذهب بموضوعات المجلة .

كنا نعلّق عليه الأمل ، على أن يكمل المهمة في مدة لا تتجاوز أسبوعين ليوافينا بها في الموعد المحدد ، وقد انتظرناه ونحن متلهفين حتى مضى شهران متتاليان ، ثم كلفنا رجلاً بمهمة البحث عنه وانتشال الموضوعات التي أعطيناها له من بين يديه ، وحين وصل الرجل بصعوبة إلى مكانه في غرفة كان يقطنها مع زميل له ، عثر على زميله في الغرفة فأعلمه بأنه غير موجود ، وأنه ذهب إلى منزله في الريف ليشارك في قتال جرى بين قبيلته وقبيلة أخرى ، فأصيب بجروح خطيرة مما أسفر عن نقله إلى المستشفى ، وهو الآن تحت العلاج .

وواصلنا البحث ، فبعثنا برسالة إلى عنوانه الأصلي في الريف ، وعلمنا بأن المعلومات السابقة كانت صحيحة ، وأخيراً ، وبعد عدة شهور عثرنا على بيته الريفي ، والتقى به الرجل المكلف من قبلنا ، فأعاد الموضوعات كما أخذها دون أن يكتب منها سطراً واحداً .

والآن نقف قليلاً .. لنمعن النظر في هذه الحادثة . رغم أني لا أشاطره الرأي في أن الأكل على المنضدة هو مخالف للسنة ، إلا أنه لو سلمنا بذلك لوجدنا كاتبنا قد طبق سنة وترك سنتين هما أهم منها بكثير . وطبقاً لما خيل إليه ، فإن الأكل على السجادة من السنة ، وقد أدى تلك السنة ، إلا أنه في نفس الوقت ، لم يحفل بالسنة البالغة الأهمية ، ألا وهي سنة الوفاء بالوعد وسنة الصبر . فهو حسب ما قطع على نفسه من وعد على أنه سيكمل مهمته خلال أسبوعين ليوافينا بها إثر ذلك ، كان لزاماً عليه أن يفي بوعده ، وفي حالة عدم قدرته على ذلك لعذر أو حادث عرض له ، كان يجب عليه أن يحيطنا علماً بذلك ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، فلم يف بوعده ولم يبلغنا بعذره أيضاً . وإذا كان هناك بعض الخلافات بينه وبين قبائل أخرى كان بإمكانه أن يصل إلى حلول سلمية عن طريق تبني أسلوب الصبر والإعراض ، إلا أنه لم يفعل ذلك أيضاً ، مما أسفر عن إصابته بجروح وملازمته للمستشفى عدة شهور .

إن أخانا الكاتب هذا ، قد تخرّج من مدرسة إسلامية أهلية . وكان يملك رصيداً معرفياً هائلاً حول السنة ، إلا أن العقلية التي نشأت لديه حول السنة ، كانت تضم بعض الأشياء الفرعية والجزئية كإعفاء اللحية قدر قبضة اليد ، والأكل على السجادة ، وشرب الماء باليد اليمنى ، وكان بمعزل عن شعوره أن الوفاء بالوعد ، والصبر ، والإعراض عن خوض الصراعات أيضاً من السنة . وهذا هو السبب الذي جعله متشدداً في تطبيق سنة الأكل على السجادة ، بينما لم يشعر بحاجته إلى تطبيق سنة الوفاء بالوعد والصبر والإعراض .

هذا هو المأزق الذي تورطت فيه الأمة بكاملها ، إذ هناك العديد ممن يقرّون بأهمية السنة ويتلهفون إلى اتباعها ويبدون عزيمة صارمة إزاء التمسك

بها . إلا أن الأشياء التي يُخيّل إليهم بأنها من السنة هي في الحقيقة بعض الآداب ، فهم يتلهفون إلى اتباع تلك الآداب الجزئية ويولونها اهتماماً بالغاً ، وما عدا ذلك من السنن التي أضفى عليها النبي ﷺ تأكيداً مبالغاً وحضّ على التمسك بها لا تجد أي صدى أو اهتمام لدى متبعي السنة ولعل سبب ذلك يعود إلى أنهم لا يعرفون تلك الأشياء باسم السنة .

لو أنك ذكرت في إحدى التجمعات تلك السنن المعروفة فلا أحد يحسّ بغرابتها ، أمّا إذا خضت في ذكر السنن الأخرى ، كسنة التفكّر ، وسنة الاعتبار ، وسنة الصبر ، وسنة الإعراض ، وسنة النصح ، وسنة الدعوة ، ترى الإعجاب قد بدا في عيون الناس ، كأنك تعرض عليهم أمراً غريباً .

يقول النبي ﷺ : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء** » .

إن هذا الحديث يتناول غرابة الدين ، وليس المراد بذلك أن الناس جميعاً سيتركون الصلاة ، أو سيختفي المؤدّون لفريضة الحج ، كيف ذلك وقد ثبت عن طريق أحاديث أخرى ، بأن مقيمي الصلاة والمتمسكين بالصيام سيظلون على وجه الأرض إلى أن تأتي القيامة . ولكن المراد بغرابة الدين ذلك الذي كشفنا عنه في المثال الذي أسلفنا ذكره ، أي أن تصبح سنة الأكل على السجّادة أو الحصير معروفة لدى الناس ، بينما سنة الوفاء بالوعد وسنة الصبر والإعراض غريبة لديهم .

وهناك بعض الأمور التي تعد سنة بالنسبة إلى حقيقتها وجوهرها ، وليست سنة بالنسبة إلى مظاهرها الخارجية ، وفي هذه الحالة تمسك المسلمون بهيكلها الظاهري معتقدين أنهم يطبقون السنة ، بينما السنة في هذه الحالة تكمن في الحقيقة وليس في الصور الخارجية .

لنضرب مثالاً على ذلك ، هناك كثيرون – في أوساط المسلمين – ممن

يستحضرون بعض الكلمات ويرددونها صباح مساء ، معتقدين أنهم بذلك يمارسون الأذكار المسنونة ، في حين أن الأذكار المسنونة اسم للكيفيات المسنونة وليست بعض ألفاظ أو جمل معينة . إن ذكر النبي ﷺ نفسه ، كان عبارة عن تذكر الله ، وكان قلبه مفعماً دوماً بذكر الله . ونتيجة لتلك الحالات النفسية التي يعيشها ﷺ كانت تخرج على لسانه بعض الكلمات المعبرة عن ذلك القلب المفعم بخشية الله ورجاء رحمته ، إنها تشبه الذكر إلا أنها كانت من صميم قلبه وأعماق فؤاده ، وليست ترديداً لفظياً ظاهرياً فحسب .

إن النبي ﷺ كان يتمتع بمعرفة عميقة فيما يتصل بالله ، جاء في الحديث أنه كان دائم التفكر ، أي أنه كان مستغرقاً دوماً في التفكر وتذكر الله . إنه كان يذكر نعم الله التي لا تحصى عدّاً ، وتغمر قلبه عاطفة الشكر ، وكان يستحضر عظمة الله وهيبته ، وقلبه مفعم بالإحساس بكبرياء الله . فإذا كان كذلك كان يجري على لسانه تلقائياً ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . وهكذا كان ذكر النبي ﷺ ، كان كل ذكر ترجمة لما يجيش في أعماق قلبه . هذه هي حقيقة الأذكار التي يطلق عليها الأذكار المسنونة .

المحبة أم الطاعة :

كان هناك شاعر باللغة الأردية ، بارع في وصف النبي ﷺ ينظم القصائد المطولة الشيقة بعد أن يزينها بألفاظ مزخرفة فضفاضة ، وكان يلقيها في الحفلات ليكسب إعجاب الحاضرين ، إلا أنه لا يقيم الصلاة ولا يؤدى فريضة الصيام والزكاة رغم غناه المفرط ، ولم يؤد فريضة الحج أيضاً ، لكنه يطلق على نفسه عاشق الرسول بكل فخر واعتزاز رغم لا مبالاته فيما يتصل بطاعته للرسول .

وتجد كثيراً في أوساط المسلمين ، مثل هذه النوعية ، ممن يبرعون في وصف النبي ومدحه بألفاظ شيقة وجذابة ، ويقيمون لذلك حفلات المولد الشريف ويولونها اهتماماً بالغاً ، إلا أنه لا تبدو فيهم أية رغبة في اتباع الرسول وطاعته ، ومثل هذه المحبة لا قيمة لها في الدين ، حيث يرحب الدين بتلك المحبة التي تصحبها الطاعة والاقتداء ، يقول الله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقد عقب المفسرون على هذه الآية بقولهم : إن إظهار الحب لله ولرسوله لا يكفي وحده بل يجب على المحب أن يسير سير من يحب وينهج نهجه . (فمن ادعى المحبة مع مخالفة الرسول ﷺ فهو كاذب)[1] .

حدث لي مرة أن ألقيت محاضرة في لقاء أقيم بمناسبة السيرة النبوية وقد سلطت الضوء خلالها على نمط حياة النبي ﷺ ومنهجها وأسلوبها ، وقد لقيني أحد المستمعين معرباً عن وجهة نظره حول محاضرتي قائلاً : إنك لم تذكر شيئاً حول السيرة النبوية أثناء المحاضرة ، فأجبته بأني قد أوضحت أسلوب حياة النبي ﷺ ومنهجه ، وهذا كل ما يعنى بالسيرة ، إلا أنه رفض ذلك قائلاً : كلا . السيرة أن تبين معجزات النبي ﷺ وكراماته ، وتبين قصص عشق النبي وغير ذلك ، وقد خلت محاضرتك من هذه الأشياء تماماً .

إنه خطأ فاحش ، هذا الذي تورط فيه المسلمون ، لقد فهموا غير السيرة سيرة وغير السنة سنة . إن كل ما يعنى باتباع النبي أن نجعل حياته أسوة وقدوة لنا، أما الكلمات المزخرفة والجذابة فهي لا تجدي شيئاً وليست كافية بالنسبة للايمان بالرسول .

ورد حديث في كتب السنة مع اختلاف الروايات من حيث اللفظ ، هذا جزء منه : (استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم :

---

(١) التفسير المظهري / ج ٢ : ص ٣٧٠ .

والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم فغضب النبي ﷺ حتى رئي في وجهه ، ثم قال : « **لا تفضلوا بين أنبياء الله** »)[2] .

إن تفضيل نبي على آخر أمر يتعلق بالله فقط ، ولا دخل لنا فيه ، إنه لا يدخل في إطار مهمتنا إثبات أفضلية نبي على آخر لنفتخر ونعتز به ، إن كل ما يهمنا أولاً وأخيراً هو أن نطبق أوامر الرسول ، وأن نجعله أسوة لمسار حياتنا . إن النعم التي نرجو حصولها ستكون نتيجة لاتباع الرسول وليس بناء على ما ألقينا من محاضرات فخرية وشيقة حول عظمة الرسول ، ولا على اعتباره عنواناً لاعتزازنا وفخرنا القومي .

سأعرض هنا بعض الأحاديث التي تبرز منهج وأسلوب حياة النبي ، والنموذج الذي تركه لنا في كافة ميادين الحياة :

عن أنس قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل** ، ثم قال : **يا بني وذلك من سنتي ومن أحب سنتي فقد أحبني** » .

إن صلتنا بسنة الرسول ﷺ ليست باللباس أو الشعر أو السواك فحسب ، بل يتجاوز مداها إلى كافة مجالات الحياة .

ما هو الأسلوب أو النمط الذي يمكن اختياره للتعايش مع الناس ؟ السنة هي التي تدلك على ذلك . فهي تؤكد على أن نفسيتك ينبغي أن تكون طاهرة وخالية من النزاعات العدوانية ضد الآخرين ، وأنه لا شك حين يكون المرء بين الآخرين فإنه سيواجه أنواعاً من المعاملات والسلوكيات ، والذي

---

(٢) جامع الأصول / ج ٨ : ص : ٥١٣ ، ٥١٤ .

قد يؤدي إلى استيائه وتضايقه وغضبه ، فلا غرابة في ذلك ، فهو أمر طبيعي ، لكن سنة النبي ﷺ في ذلك هي أن تكبح جماح تلك النزعة وتتغلب عليها ، وتحدّ من سطوتها .

إن الإعراض عن الشكوى ، وقمع نفسية الاستياء ، وغضّ الطرف عنها ، والعفو والصفح عن الأخطاء ، وتحمل المشاقّ ، والصبر عليها ، بدلاً من إلقاء المسئولية على الآخرين ، هذه هي السنة النبوية ، فمن أحبّ سنته ﷺ يكون معه في الجنة .

أمّا الذين يبدون لا مبالاتهم حول نمط وأسلوب حياة النبي ، ويقتفون رغبات النفس وهواها ، والذين يغرسون في أنفسهم نزعات سلبية بدلاً من النزعات الإيجابية ، فإنهم سوف يبعدون عن المكان الذي يقطنه الأنبياء والصالحون ، لأنهم لم يحسنوا حين تبنّوْا أساليب غير تلك التي تبناها الأنبياء والصالحون .

الفلاح في سنة النبي :

« **لازلتم منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتي فإن خرجتم عن سنتي سلّط الله عليكم من لا يخافكم ولا يرحمكم حتى تعودوا إلى سنتي** » رواه مسلم .

إن الدين الذي تركه النبي ﷺ لا يعتريه أي نقص حتى يتطلب إلى إكمال ، وعلينا أن نتناوله كما هو . إن الجرأة على إضافة أو إنقاص شيء منه يسفر عن نشوب خلافات وصدامات بيننا وهو ذات الضعف والهزيمة .

إن النبي ﷺ علّمنا العقائد وما يتصل بها ، وعلّمنا أن الله واحد أحد ، وأنه هناك جنة وجهنم بعد الموت ، وأن الله سبحانه يوحي إلى أنبيائه بواسطة الملائكة وما إلى ذلك ، وهي عقائد يلزم علينا أن نتبناها ، كما نصّ على ذلك القرآن والسنة ، ولو خضنا فيها بأفكارنا البشرية وأدخلنا المباحث

اللاهوتية أو الكلامية المبتدعة لنشأت آراء متضاربة ومتناقضة مما يؤدي إلى تدافع أصحاب رأي معين مع أصحاب رأي آخر وهكذا .. كما دلّنا ﷺ على الأحكام المتعلقة بالعبادات ، وقد طبّقها في حياته ، ليكون لنا – في ذلك – أسوة ومنهاجاً ، ولم يبق لنا من خيار إلا أن نتمسك بها كما هي دون زيادة أو نقصان . ولكن الأمر ينقلب رأساً على عقب حين نذهب نخترع المسائل والأساليب الجديدة في العبادة ، لأن ذلك يؤدي حتماً إلى التفرقة والتشيّع وهو سبب ضعف الأمة واضمحلالها .

وقد أمرنا ﷺ أيضاً ، بالصبر والصفح عمن أسآء إلينا أو تسبب في مضايقتنا ، ففي مثل هذه الظروف لو قام أحد لينتقم ويأخذ الثأر من الخصم لأدّى إلى إذكاء نار العداوة والتناحر بين الطرفين مما يسفر في النهاية عن ضعف الأمة الإسلامية . أمّا فيما يتعلق بالحكومات والسلطة ، فقد علّمنا ﷺ ألا نتطلع إلى المناصب ولا نطمع فيها ، لأن الناس حين يتطلعون إليها فإن ذلك سيؤدي إلى نتائج سيئة للغاية ، حيث تتقد نار العداوة بين المتنافسين وتنشأ جبهات متعارضة في أوساط الأمة المسلمة . مما يؤدي إلى انهيار الأمة المسلمة وتقلصها بأيدي أفرادها . كما علّمنا النبي ﷺ بأن نجعل الآخرة هدفنا ونَعدّ الدنيا عابرة فحسب ، ولو جعل أفراد الأمة الإسلامية الدنيا هدفهم المنشود لتعدد المطالبون لشيء واحد ، فينشأ التنافس الذي يؤدي في النهاية إلى التناحر والصراع مما يثير الحسد والبغض وتأجيج نار العداوة والانتقام .

كيف كان يتكلم النبي ؟ :

إن نمط كلام النبي ﷺ وأسلوب تعبيره كان بيّناً واضحاً تقول عائشة رضي الله عنها : (ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ولكن يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه) . وفي رواية أخرى : (إنّ رسول الله

ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم كان يحدّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه) (متفق عليه) .

إن كلام المؤمن هو كلام يخرج من أعماق قلبه مفعماً بخوف الله وخشيته موقناً أن كل كلمة يبوح بها سوف لن تفلت من سجل الملائكة الذين كلفهم الله بهذا الأمر ، ويحسّ أنه سيلاقي ربه ليسأله عن كل ما تفوّه به . إن مثل هذه المشاعر المرهفة تغرس في الإنسان الإحساس بالمسئولية ، ومن ثم حين يرغب في التفوّه بكلمة يساوره الخوف والشعور بأنه إنما يفعل ذلك أمام الله وملائكته . إنّ مثل هذا الإحساس يعقد لسانه ويمسكه بلجام . إنه يفكر مليًّا قبل أن يبوح بأية كلمة ، وحين يبوح بها فإنه لا يغفل من أن يزنها بميزان دقيق . إن هيمنة رهبة الله عليه تنزع عنه سرعة كلامه وحدته ، والإحساس بالسؤال والحساب في الآخرة يقف دون إلقائه الخطب الحارة .

والحقيقة أن من تجتاح قلبه مثل هذه المشاعر المرهفة فلا مناص من أن يصبح رجلاً مجداً للغاية ، ومن يصبح هذا شأنه سيكون أسلوب كلامه هو نفسه الذي ذكرته عائشة في الحديث المذكور آنفاً .

الدعاء الحسن :

كان من سنة النبي ﷺ أنه عندما يطلب منه أحد أن يدعو له ، يبادر بنفس تلك الكلمات التي استخدمها الطالب أثناء طلبه . قال أبو هريرة مرة ، طالباً من الرسول أن يدعو للأمه : (يا رسول الله ادع الله أن يهدي أم أبي هريرة) . وكان يضيف أحياناً – حسب الظروف – بعض الكلمات الرائعة ، إذ ثبت أن أبا هريرة جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين . فبادر النبي ﷺ بقوله : « **اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحببهم إليهما** » .

هذا ما كان من النبي ﷺ في الدعاء الحسن ، أما إذا طالبه أحد بدعاء سيء فكان يتخذ أسلوباً معاكساً تماماً ، فهو بدلاً من أن يدعو على أحد يبادر بالدعاء الحسن له . إن طفيل بن عمرو الدوسي قد اعتنق الإسلام على يدي النبي ﷺ حين كان بمكة ، ثم عاد إلى وطنه وباشر التبليغ في قبيلة دوس ، لكن محاولاته تلك لم تجد أي صدى بين أبناء قومه ، فعاد طفيل إلى النبي ﷺ مرة ثانية وبدأ يقول : يا رسول الله ادع على دوس . فماذا فعل الرسول ﷺ ؟ إنه لم يبحث القضية مع طفيل ، بل أخذ يدعو : « **اللهم اهد دوساً** » وعندئذ عاد طفيل إلى وطنه وأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ، فأقبل الناس عليه واعتنقوا الإسلام جميعاً ، وكان من بينهم أبو هريرة رضي الله عنه .

إن هذا المنهج الذي كشفت عنه هذه الوقائع إنما هو المزاج الأصلي للمؤمن ، إذ النفسية الإيمانية تتمنى الخير للآخرين ، ومن تم فالمؤمن يتمنى للآخر ما يتمناه لنفسه ، إنه يحرص دوماً على هداية الآخرين ، لذا حين يرى أحداً يعرض عن دعوته ولا يستجيب له فإنه لا يدعو عليه ، بل على العكس من ذلك ، فهو يدعو الله أن يفتح قلبه للإيمان .

من هو المسلم ؟ :

قال النبي ﷺ : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » .

إن من يجد الله بالمعنى الحقيقي فإن ذاته تذوب تماماً أمام قدرة الله وجلاله ، ويلقي بنفسه أمام الله مرغماً ، ويضع نفسه في ذمة الله تعالى .

إن هذا الإرشاد النبوي يوضح أنماط سلوك مثل هذا الإنسان ، فمن يكون هذا شأنه ، فهو إنسان نموذجي ، ذكر الله مسيطر على قلبه دائماً ، وإن سلوكه كله يكون تحت مراقبة الإحساس بأن الله يراه ، وأنه لو سار في طريق لا يرضاه الله فإنه سيقع يوماً تحت قبضته فيسأله ويحاسبه .

إن مشاعراً كهذه تلجم لسان المرء فتمنعه من أذى الآخرين ومهاجمتهم وتجرد يد المسلم من القوة التي يبطش بها الآخرين ، وتجبره على ألا ينطق إلا كلاماً صادقاً ، ولا يرفع يده إلا لإقامة العدل ، وأن يقف دوماً إلى جانب الحق ، وليس إلى جانب الباطل .

إن هذه الدنيا تمثل قاعة امتحان ، أودع فيها الإنسان للامتحان الذي لا يتم إلا إذا كان الإنسان مخيراً بين أمرين . أما الشمس والقمر فليستا في حالة اختبار ، لأنهما لا تستطيعان السير إلا في مسار محدد ، بينما الأمر بالنسبة للإنسان مختلف تماماً ، إنه يتمتع بحرية كاملة في اتخاذ هذا المسار أو ذاك .

وإذا حللت الحديث من هذه الزاوية فإنك تخرج بنتيجة مؤداها أن الحديث ينص على أن المسلم هو من كانت لديه فرصة ليؤذي الآخرين بلسانه ، إلا أنه رغم ذلك يمسك لسانه خوفاً من الله ، والمسلم هو من كانت لديه المقدرة على أن يرفع يده على الآخرين إلا أن خوف الله يسيطر عليه إلى حدّ أنّ يده تمتنع عن أذى الآخرين .

إن المرء في هذه الدنيا بين دفتي العدل والجور ، والمسلم من يرجّح دفة العدل رغم أن أبواب الظلم مفتوحة على مصراعيها أمامه .

كلمة واحدة تكفي للنصيحة :

لقد أتى صعصعة بن معاوية – عمّ الفرزدق الشاعر المشهور – إلى النبي ﷺ ، فقرأ عليه النبي سورة (الزلزلة) حتى بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ فقال صعصعة ، بعد أن وعيها : حسبي أن لا أسمع غيرها . رواه أحمد .

وكان من عادة النبي ﷺ أنه يلقي على عاتق أحد الصحابة مسئولية تلقين الدين لحديثي العهد بالإسلام . وطبقاً لذلك ، فقد أدخل هذا الصحابي

الجديد في ذمة علي رضي الله عنه ، إلا أنه بعد أيام قلائل من تردده على علي رضي الله عنه ، انقطع عن المجيء ، وافتقده النبي ﷺ في المسجد في مواقيت الصلاة لبضعة أيام ، فسأل عليًّا عنه ، لأنه المسئول عن تعليمه ، فأجاب علي بأنه لا يأتيه أيضاً . فطلب النبي ﷺ أن يبحث عنه ويستفسر عن شأنه ، وأخيراً صادفه أحد الصحابة وهو يحمل رزمة من الأخشاب على كاهله ليبيعها في السوق ، وأخبره بأن النبي ﷺ كان يسأل عنه ، وعليه أن يذهب إليه ، فطوى الرجل طريقه إلى السوق وتعجّل في بيع أخشابه ، ثم أخذ طريقه إلى النبي ﷺ ، فسأله النبي عن سبب غيابه ، فأجابه بأنه كان يظن بأن تعليمه قد انتهى . فاستطرد النبي قائلاً ما معناه : **لم يمر عليك إلا بضعة أيام فحسب فكيف تظن أن تعليمك قد كمل** . فقال الصحابي : إنني حين عثرت على الآية : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ قد تغير وضعي وأصبحت أشعر بأنني سوف أتحمل مسئولية كل ما أكسبه من حسنة أو سيئة ، صغيرة أو كبيرة . فإذا حدثني قلبي بأن هذا العمل خير وأنه سوف يجلب لي الثواب في الآخرة بادرت بفعله دون تردد ، وإذا وقعت في تردد إزاء عمل ما فإني أعرض عنه ولا أفعله . وبعدما سمع النبي منه ذلك قال له ﷺ : « **يكفيك هذا ..** » .

١ - إن تابعياً كان يتحدث إلى تلاميذه حول خصال الصحابة وصفاتهم وأساليب حياتهم ، فقال : إن الصحابة لم يكونوا يبالغون في الصلاة أو الصوم مثلما تفعلون أنتم ، ولكنه شيء وقر في قلوبهم ألا وهو خوف الله وخشيته . فإذا ما أحس أحد بخوف الله في أعماق قلبه فكأنه استجمع الحسنات كلها ، ومن عجز في خلق تلك المشاعر في نفسه جعل بينه وبين الحسنات حجاباً . إن الذي ترتعد فرائصه من خوف الله يرى الله في الأمور كلها ، ومن ثم يراعي التواضع والإنصاف في معاملاته ، وعلى العكس من ذلك ، من يرى الأمور من زاوية النظر الإنسانية ، التي لا تمت بصلة إلى الله ، فلا شيء يمكن

أن يعوق طريق ظلمه وتمرده .

الحياة الإسلامية حياة مسئولة :

يقول النبي ﷺ : « **مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته** » .

إن الحيوانات تربط بالحبال ، بينما الإيمان ليس حبلاً في ظاهره ، لكنه حبل غير مرئي . والحيوان أن يظلّ رهين حبله لا يتجاوز الدائرة التي يبلغها الحبل ، وهو العمل نفسه الذي يقوم به المؤمن بإرادته الحرة ، وخوفه من الوقوع في قبضة الله الصارمة يمثل بالنسبة إليه حبلاً معنوياً يحدّ من أنشطته ويمسك به دوماً ، فلا يجرؤ على تجاوز الحدود التي رسمها له ربّه ، فيصبح عبداً معقوداً وليس حيواناً مطلق العنان .

إن الامتحان الحسّاس الذي يخوضه الإنسان في الدنيا ، هو أن يصبح بلا اختيار رغم تمتعه بحرية الاختيار الكاملة ، فهو رغم أنه يستطيع أن يعيش حياة غير مسئولة يقيّد نفسه ويجعلها مسئولة بكل معنى الكلمة ، وهو رغم قدرته على الانتقام . يصفح ويعفو ، وحين تلقى أمامه كلمة صادقة فهو رغم قدرته على تكذيبها يخضع لها ويتبناها ، ويعدل وينصف دوماً رغم قدرته على الظلم ، ويعيد إلى الناس أموالهم رغم قدرته على الاحتفاظ بها . إنه بإمكانه ألا يحفل بأحد إلا أن خوف الله يمنعه من ذلك .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع حدوداً للأمور كلها ، على الإنسان ألاّ يتعداها ، فإذا أراد أحد أن يقيم رأياً على شخص ما ، فإن حدّه أن يكون رأيه مبنياً على الواقع لا على المظهر الخارجي ، ولا يحسن به أن يعتمد على التخمينات والقياسات في ذلك . وحدّ البحث عن لقمة العيش أن يتمّ ذلك عن طريق الكفاح وبذل الجهد بكل صدق وأمانة ، فما اكتسبه هكذا فهو له ، ولا يجدر به أن يجعل من الخديعة والنهب والسرقة وسيلة للعيش . وحدّ

توجيه النقد للآخرين أن يتمّ ذلك في إطار أدلّة علمية واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، فلا ينبغي لأحد أن يحكم على أحد دون دليل يثبت ذلك . وحدّ الحديث أن يتحدث المرء مراعياً الجديّة في حديثه ، ولا يحقّ له أن يفعل ذلك بطريق الشتم والسبّ .

إن الفرس المربوط بالحبل حرّ في الحدود التي يبلغها الحبل ، وهو مقيّد بعد ذلك . كذلك المؤمن حرّ في حدود المباح ومقيّد في إطار الممنوعات أو المحرمات ، فمن يعش ملزماً نفسه بهذه القيود سوف يحظى بالجنة ويفوز بها ، ومن تخلّى عن تلك القيود وتجاوزها فهو مجرم في نظر الله ، وتنتظره نار الله الموقدة التي لا ترحم .

الصبر على المكاره :

تروي عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟ قال : « **لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال : يا محمد فقال ذلك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً** »[1] .

---

(١) حياة الصحابة : ج ١ ص ٢٥٤ .

إن هذه الحادثة تلقي ضوءاً على منهج النبي وأسلوبه الواقعي ، فهو مهما عانى من الاضطهاد ، ومهما لحقه من أذى ، لم يكن يستخدم النزعات السلبية ، ولم تتقد فيه نار الثأر والكراهية . إنه يبصر المستقبل البعيد بدلاً من الحال ، ويركز نظره على تلك الوقائع التي ما زالت في طي المستقبل بدلاً من أن تكون الحوادث الحاضرة والعابرة موضع اهتمامه ، وسواء أكان الأمر يهمّ الفرد أو الأمة ، فإن نبي الله ، في كل ذلك ، يتخطى مراحل الحماسة ويفكر ملياً ، ويعمل غير عابيء بما لحقه من ضرر أو أذى .

يقول النبي ﷺ في حديث شريف : « **النكاح سنتي فمن أعرض عن سنتي فليس مني** » . وإذا كان النكاح من سنة النبي ﷺ فكذلك عدم الأخذ بالثأر وعدم الانتقام والإعراض عما يواجه المرء من معاناة ومشقات ، كل ذلك من سنة النبي ، ومن أعرض عن سنة النبي فليس منه . والحقيقة المؤسفة هي أننا إذا أعرضنا عن السنة النبوية هذه فلا يحق لنا أن نكون من أمته ، ولا تشملنا شفاعته . فمن لم يستطع أن يتبع سنة النبي ﷺ في الحياة الدنيا فلا يستطيع أن يكون رفيقه في الحياة الآخرة .

نصيحة صحابي :

قال عبد الله بن مسعود : (اطلب قلبك في ثلاثة مواطن ، عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة ، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمنّ عليك بقلب فإنه لا قلب لك) .

إن القلب وضع في صدر الإنسان ليكون مهبطاً للتجليات الربانية ، كأن القلب هو بيت ذكر الله ولذا حين يتلى القرآن على المرء يلزم أن يذوب قلبه وتأخذه الرجفة ، وحين يذكر الله يلزم أن ترتعد فرائصه من شدة ما يحس به من عظمة الله ، وحين يخلو بنفسه ليناجي ربه يلزم أن تمرّ به تلك المشاعر والأحاسيس التي يحتاج إليها قلب من يذكر الله . فإذا كان هذا

شأن المرء ، فهو دليل على أن به قلباً يخفق وينبض وأنه ما زال يتمتع بالحيوية والنشاط . وإذا كان المرء على عكس ذلك ، فهو دليل على أن قلبه قد ذبل ومات ، أو أنه لا يملك قلباً يتسع لهبوط تجليات الله ، فتلك اللحظات التي تتحرك فيها خيوط القلب وأسلاكه لا يستيقظ فيها قلبه ولا تنبض فيها روحه ، وتخفق المواقف الحساسة التي تقرّب العبد من ربّه في إيقاظ مكامن قلبه . ليعلم مثل هذا الإنسان أنه فقد أغلى ما كان يملك وهو القلب ، لذا عليه – أولاً وأخيراً – أن يسأل الله أن يخلق فيه قلباً خافقاً نابضاً يتسع لتجليات الله .

حكمة الإسلام

يروي الحافظ أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي (١٦٠ - ٢٣٤هـ) في « كتاب العلم » : عن أبي عبد الرحمن أن عليًّا رضي الله عنه مر بقاص فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ، قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت (ص ٣١) .

لم يستخدم علي رضي الله عنه لفظتي الناسخ والمنسوخ لتلك المعاني الضيقة السائدة في أوساط العامة الآن ، بل استخدمها في معنى أرحب وأوسع وهو المفهوم الحقيقي لهما . وطبقاً لهذا المفهوم الواضح يلزم على الداعية والمصلح أن يتقن قضية الناسخ والمنسوخ إتقاناً تاماً ، والذي لا يدرك هذه القضية بكل أبعادها لا يمكنه أن يكون مصلحاً فعالاً بل يجدر به أن يكون مفسداً ومخرباً . فإذا وجد هذا النوع من الناس في نفسه الجرأة على القيام بأعمال الإصلاح فإنه لا محالة سيكون سبباً في تدمير نفسه ووسيلة لهلاك الآخرين أيضاً .

إن المفهوم السائد حول الناسخ والمنسوخ ، هو أنهما لفظتان تتعلقان ببعض الأحكام الخاصة ، وأن هذه العلاقة لها صفة الدوام . ولنأخذ قضية تحويل القبلة من جهة بيت المقدس إلى شطر المسجد الحرام بعد الهجرة مثالاً على ذلك : حيث كان النبي ﷺ متجهاً إلى شطر الأقصى قرابة سنة ونصف ، ثم نزلت آيات تتضمن تحويل القبلة إلى شطر المسجد الحرام ، فكان ذلك نسخاً بالنسبة لما كان عليه المسلمون من قبل فصار ذلك منسوخاً . وهكذا ساد الاعتقاد بأن الأحكام التي لحقها النسخ تظل صفة النسخ ملازمة لها لا تنفك عنها .

إن هذا المفهوم هو توهم بحت ، فليس قضية النسخ منحصرة في بعض الأحكام الخاصة ، كما أن صفة النسخ ليست ملازمة للأحكام التي لحقت بها في وقت من الأوقات . إنما قضية النسخ هي أصل شرعي له استقلاليته وذاتيته ، وصلته ليست إلا بذلك الأمر المهم الذي يطلق عليه (الحكمة العملية Practical wisdom) وهي ذات علاقة بجوانب الدين كلها ، وليست منحصرة في بعض الأحكام دون غيرها . وطبقاً لهذا . الأصل الشرعي المستقل فقد يتطلب الموقف منهج التدريج في تشريع الأحكام كما حدث بالنسبة لتحريم الخمر ، حيث جاء تحريمه متدرجاً على مراحل ثلاثة ، وقد يتطلب الموقف حكماً خاصاً قد يفقد مفعوله في ظل وضع جديد يتطلب حكماً آخر .

إن علياً رضي الله عنه بقولته تلك ، يرمي إلى أن الداعية عليه أن يعي مقتضيات الإسلام وأن يكون متقناً لتطبيق ذلك في ظل الأوضاع المتجددة بحيث تكون منسجمة معها ، وأن يقدم للناس برنامجاً يراعي فيه متطلبات العصر ويقدم المشورة طبقاً لتلك المتطلبات . فالذي أتقن قضية الناسخ والمنسوخ ، وبعبارة أخرى ، من استطاع أن يدرك عمق الحكم والمصالح العملية لديه الكفاءة لتوجيه الناس وجهة صائبة ، ومن هو بمنأى عن إدراك تلك الحقيقة الخطيرة فإنه متمسك بغير الدين باسم الدين ، وهو سيضلل الناس بدل أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ..

إن حياة النبي ﷺ نموذج عال ومثال راق لحكمة الإسلام . فالنبي ﷺ في حياته المكية ، قد تبنى مبدأ الصبر وأجرى نشاطه وفقاً له ، وفي حياته المدنية عمل على مبدأ الدفاع والقتال ، هذا هو عين النسخ الذي تبناه النبي ﷺ تلبية لمقتضيات الوقت . أي أن الظروف والأوضاع التي كانت سائدة أجواء مكة كانت تتطلب مبدأ الصبر ، ومن ثم كان النبي ﷺ صابراً

ومثابراً في حياته المكية ، إلا أن الأوضاع المتغيرة في المدينة – بعد الهجرة إليها – تطلبت مبدأ الدفاع والقتال ، وترك مبدأ الصبر في ظل هذه الظروف المتغيرة . إلا أن هذا لا يعني أن مبدأ الصبر قد لقي حتفه وأصبح منسوخاً للأبد ، بل الحقيقة أن مبدأ الصبر ما زال على قيد الحياة كحكم أصولي مع غيره من الأحكام ، وكلما وجدت ظروف مثل ظروف مكة يصبح الصبر مطلوباً بكل ثقله وأبعاده كما كان مطلوباً في مكة القديمة .

وهكذا نلحظ أن النبي ﷺ يخوض القتال في غزوة أحد وهو خارج المدينة ، ويخوض القتال في غزوة الخندق داخل المدينة . ونراه أيضاً يقاتل ضد أعدائه في موقعة بدر ، وهو نفسه الذي ينزل على كافة شروط الأعداء في الحديبية . ونراه كذلك يقطع الطرق في غزوة حمراء الأسد متظاهراً ومعلناً عن ذلك ، بينما يفضل الصمت في طريقه إلى فتح مكة . وفي حجة الوداع يعلن أن لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقوم على قوم إلا بالتقوى وهو نفسه يقول مدلياً بنصائحه حول الخلافة : « **إن الخليفة من قريش** » .

وقد ورد في القرآن الكريم حكم قتال البغاة والمتمردين في قوله تعالى : ﴿ **فقاتلوهم أو يسلمون** ﴾ . ومن جهة أخرى نرى عثمان رضي الله عنه طبقاً لنصائح النبي ﷺ لم يتخذ موقفاً معادياً ضد المتمردين عليه ، بل لقي حتفه بين أيديهم مستسلماً . وهكذا نرى النبي ﷺ يقول : « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** » . ونراه مرة أخرى يوجه أصحابه ويلقنهم بأنه سيكون من بعدي حكام ظلمة فلا تقاتلوهم ... وهلم جراً .

فالذي يرغب في الاضطلاع بمهام الدعوة ، يلزم عليه أن يكون خبيراً بقضية النسخ ومدركاً لتلك الحكم البالغة التي كانت سبباً في اتخاذ النبي لموقف ما في وقت معين ، ثم اتخاذه لموقف معاكس له في وقت آخر .

أما الذي يجهل هذا السر ثم يقف على المنصة ليلقي بخطبة أو يحرص

على أن يكون قائداً يبغي إصلاح المسلمين ، فلا ينتظر منه سوى الفساد والتخريب ، فهو يدفع الناس دفعاً ليخوضوا صداماً وتناحراً مع الحكام في حين أن الوقت يتطلب تجنب مثل هذه التناحرات ، ويقتضي السير على درب الأنشطة السلمية . وهو يحرض الناس على أن يلحقوا دماراً بالجبهة المعارضة ويسلبوا منهم حقوقهم قهراً في حين أن الإسلام يلح على أن يكونوا ذوي نفع بالنسبة للمعارضين ويعملوا على كسب ودهم وإخائهم .

إن هذا النوع من الناس يلقنون الشباب المسلم ويحثونهم على أن يتحولوا إلى خالد بن الوليد سيف الله المسلول في حين أن الظروف تتطلب تلقينهم أن يكونوا دعاة مثاليين . وهم أيضاً يلقنون الناس كيف يفتخرون بالإسلام في حين أن الواقع يلح على تلقينهم كيف يكونون على خلق المسلم المتواضع . وهم يحثونهم على الإقدام والمبادرة الحربية بينما الأحوال تقتضي أن يكون موقفهم كموقف النبي ﷺ حين طالبه عمر بالمبادرة الحربية فقال له : « **يا عمر إنا قليل** » .

هذا النوع من الناس يخوضون التناحر السياسي في بيئة تلح على الصبر والمثابرة ، وهم يبدون فحولتهم البلاغية بينما الواقع يتطلب الصمت . وإذا كان حكم الله ينص على ضرورة محاسبة النفس فهم يرفعون شعار محاسبة الآخرين . إنهم أولئك الذين قال عنهم علي رضي الله عنه : (هلكت وأهلكت) .

إن قادة المسلمين المعاصرين كلهم تقريباً ، قد أثبتوا مصداقية هذه المقولة على المستوى العملي . إنهم يجهلون ماهية الناسخ والمنسوخ ، فيتمسكون بالمنسوخ ويعملون طبقاً له ، في حين أن الموقف كان يتطلب العمل بالناسخ ، مما أسفر عن إقبالهم على المبادرات الخاطئة وغير الحكيمة التي تسبب في إلحاق الفساد والدمار بالمجتمع الإسلامي .

إن نيران الحرب التي أشعلها العلماء الهنود . ضد الإنجليز سنة ١٨٥٧م كانت من هذا القبيل ، حيث احتشد آلاف من المجاهدين المسلمين في منطقة (سهاران بور) طبقاً للخطة التي رسمها العلماء ، وبدأت المحاورات تجري حول البرنامج التفصيلي للانقضاض على الإنجليز ، ولم يكن أحد قد اتخذ موقفاً معارضاً لخطة الحرب هذه إلا الشيخ محمد حيث كان يرفض هذه المبادرة رفضاً قاطعاً . ويقول عنه مولانا حسين أحمد مدني في سيرته الذاتية : (إن الشيخ محمد الخليفة الثالث للشيخ مياجي ، كان يقطن منطقة سهاران بور ، وكان بارعاً في العلوم العربية والإسلامية ، وكان يعده صاحباه مرجعاً في المسائل الشرعية ، ومن سوء الحظ أن الشيخ محمد كان يعارض خطة محاربة الإنجليز ذاهباً إلى القول بأن الأوضاع السائدة والواقع ينبئان عن عدم جواز الحرب الآن فضلاً عن فرضيتها فشتان بين ذلك وبين القول بفرضيتها . وحين أعلن الشيخ محمد عن موقفه المعارض للحرب استدعى صاحباه كلًا من الشيخ رشيد أحمد والشيخ محمد قاسم نانوتوي ، فأجروا حواراً حول القضية المعنية ، وفي أثناء الحوار طرح مولانا قاسم نانوتوي سؤالاً على الشيخ محمد قال فيه : لماذا لا تجيز – أيها الأستاذ – محاربة هؤلاء الأعداء أعداء الوطن فضلاً عن أن تفرضه علينا ؟ فأجاب الشيخ محمد قائلاً : إننا لا نملك الأسلحة والآلات الحربية ، فنحن عزل بكل معنى الكلمة . فعقب الشيخ نانوتوي قائلاً : أليس لدينا القدر من الأسلحة التي كانت لدى الصحابة في موقعة بدر . فسكت الشيخ دون أن يبدي أي تعليق[1] .

إن موقف الشيخ محمد كان صائباً . إنها لحقيقة يؤيدها الواقع ، إن المواجهة التي جرت في سنة ١٨٥٧م لا يصح قياسها على موقعة بدر ، والسبب هو أن الفارق الذي كان بين المسلمين ومعارضيهم في غزوة بدر

(١) نقش الحياة / المجلد الثاني ص ٤١ .

فارق من حيث الكم فقط ، أما من حيث الكيف أو النوع فلا تجد فارقاً بينهما ، في حين أن الفارق الذي كان بين المسلمين ومعارضيهم في سنة ١٨٥٧م كان فارقاً من حيث الكيف . أي أن المواجهة التي جرت في موقعة بدر كانت بواسطة السيوف وسيوف مماثلة في مواجهتها . وأما المواجهة التي جرت سنة ١٨٥٧م فهي مواجهة السيوف مقابل البنادق والمتفجرات .

وإذا كان النقص في الكم يمكن تلافيه وتعويضه باضفاء الشجاعة والجرأة ، فإنه ليس من الممكن أن نكمل النقص الكيفي أو النوعي عن طريق الجرأة والبسالة .

وهذا هو السبب في أن المسلمين في موقعة بدر يحققون الانتصار بينما يلقون الهزيمة المنكرة مع الإنجليز في سنة ١٨٥٧م رغم التضحيات البالغة التي قدمها المسلمون الأتقياء .

دعونا ندرس قضية غزوة حنين والطائف حتى يتضح الأمر أكثر فأكثر . فالغزوتان وقعتا بعد فتح مكة إلا أن التاريخ قد سجل لنا على صفحاته أن النبي ﷺ قد اتخذ موقفين مختلفين تماماً إزاء الغزوتين ، ففي موقعة حنين حارب النبي المعارضين بكل صلابة ورباطة جأش ، وفي المقابل نجده ﷺ حين اقتضت الظروف في موقعة الطائف الإعراض أعرض عن الحرب وتراجع . إن هوازن وثقيف من أكبر القبائل في الجزيرة بعد قريش ، وكان يربط بينهما حلف قبلي قديم ، وحين تم فتح مكة أعلنت القبيلتان رفضهما الخضوع للسلطة المركزية الإسلامية ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل خططوا لشن الهجوم على المسلمين . إلا أنه تسربت أخبار تلك المؤامرة وبلغت أسماع النبي ﷺ ، فاستنفر جيشاً لذلك الغرض وتوجه به إلى حنين ، حيث دارت المواجهة بين هوازن والمسلمين ، وانتصر المسلمون انتصاراً باهراً وأنزلوا هزيمة منكرة بعدوهم من هوازن .

وعندما أنهى النبي ﷺ مهمته تلك ، أرسل – من فوره – جيشه إلى قبيلة ثقيف بغية إخضاعها ، إلا أن أهل ثقيف كانوا يسكنون في أرض الطائف التي كانت في مأمن من أي خطر لما يحيط بها من أسوار كانت تحول دون الوصول إليها . وقد احتشد أهل ثقيف على امتداد هذا السور والمسلمون كانوا في ساحة مواجهة له ، ورغم أن ثقيفاً قد أمطرت المسلمين بوابل من سهامها ، إلا أن ذلك لم يحل دون بسالة المسلمين وشجاعتهم ، حيث اقتربوا من السور ، مما اضطر ثقيفاً إلى إلقاء قطع من الحديد الساخن ، ذهب ضحيتها نفر من صفوف المسلمين . فأصدر النبي قراراً يقضي بانسحاب المسلمين من ساحة المواجهة .

ومن هنا نستخلص أن المواجهة التي دارت بين المسلمين وهوازن ، كانت على نفس المستوى ، فأصبح بوسع المسلمين تحقيق انتصار فيها . بينما لم تكن المواجهة بين ثقيف والمسلمين في مستوى واحد ، حيث كانت ثقيف خلف سور الحصن والمسلمون في ساحة مواجهة له ، مما ضيق سبل النصر على فريق دون آخر . هذا هو الفارق الذي جعل المسلمين يخوضون حرباً مع هوازن ويعرضون عنها مع ثقيف ، إذ الأمر الذي كان بمثابة الناسخ في موقع أصبح منسوخاً في موقع آخر .

إن معايير الفكر والعمل التي يرد ذكرها في القرآن ثابتة لا تتغير بلا ريب ، إلا أن أساليب التطبيق تتفاوت بين حين وآخر . إذ الفروق في الأمزجة والظروف الاجتماعية المتغيرة تقضي وجود فروق في أساليب تطبيق الشريعة ، ولكن هذه الفروق لا يمكن أن تكون لها صبغة الديمومة بل هي مؤقتة وآنية ، وإذا خلا الدين من هذه الحكمة فإنه لا يمكن أن يكون ديناً أبدياً له سمة الاستمرارية والدوام ، ولا يمكن أن تستمر مهامه الدعوية بشكل فعال في وسط هذا العالم المتغير .

فكان المطلوب مثلاً بالنسبة لهوازن وثقيف ، أن يتم إدخالهما في ظل الإسلام ، إلا أن النبي ﷺ قد اتخذ موقفين مختلفين تماماً تجاه القبيلتين مستهدفاً تحقيق نفس الغاية ، فإذا كانت الحرب هي الأنسب بالنسبة لهوازن كان الإعراض عنها هو الأولى بالنسبة لثقيف . فأصبحت الحرب منسوخة بالنسبة لثقيف .

كتب الدكتور رين هولد (Dr. Rein holdnieuhr) دعاء محبباً إلى نفسه وهو :

God grant me the serenity
To accept the things I cannot change,
The courage to change the things I can,
And the wisdom to know the difference.,

يا إلهي زودني بالشجاعة والصفاء حتى استطيع قبول ما لا أقدر على تحويله ، وزودني بالبسالة حتى أستطيع تغيير ما أقدر على تغييره ، وأعطني تلك العقلية التي يمكن أن أعرف بواسطتها الفروق .

إن الدكتور هولد ردد بلغة الفطرة نفس المقولة التي عبر عنها علي رضي الله عنه بلغة الدين . والعاقل في غمرة الحياة الاجتماعية هو من لديه الاستعداد للتعرف على فروق الأشياء . وأن سر كل رقي اجتماعي يكمن في معرفة هذه الفروق .

الحاجة إلى التدرج :

إذا سأل أحد مثلاً : ما هو شكل البيت ؟ فإن الإجابة تكون بوضع هيكل البيت أمام السائل بكل أجزائه ، ولكن حين يكون السؤال عن كيفية بناء البيت فلا مناص من أن تتخذ الإجابة أسلوباً آخر فتكون الإجابة بأنه يتم عن طريق تسوية الأرض ، وتأسيس الأعمدة وإقامة الجدران وهكذا . وإذا ما سأل أحد عن الشجرة . ما هي الشجرة ؟ فالمجيب بدوره يدلي بشرح

حول أجزاء الشجرة جذورها وفروعها وأوراقها ، ولكن حين يكون السؤال عن كيفية نموها وترعرعها ، فالمجيب لا بد أن يراعي هنا مراحل نمو الشجرة والمراحل التي تمر بها متدرجاً حتى يصل إلى اكتمالها ونضجها .

هذا الأمر ينطبق على الإسلام أيضاً ، فإذا كان السؤال المطروح حول أحكام الإسلام ، كأن يقال : ما هي أحكام الإسلام ؟ فإن الإجابة تكون عن طريق وضع ثبت تفصيلي لكافة تلك الأحكام التي يزخر بها القرآن والحديث النبوي الشريف ، أما إذا تغير أسلوب طرح السؤال ، كأن يقال : ما هو منهج نشر وتبليغ الإسلام ، حينئذ يتغير أسلوب الإجابة أيضاً ، فالمجيب هنا لا يطرح الأسلوب جملة أمام السائل بل يتدرج معه في شرح مراحل التبليغ ، يقدم الأولى فالأولى . فتكون الإجابة مثلاً : إن هناك أحكاماً عدة يضمها الإسلام إلا أن المطلوب في مراحل نشر الإسلام الأولى بعض أجزائه ثم يتدرج إلى الأجزاء الباقية وهكذا .

فإذا كان الأمر يتصل ببيان الأحكام يصبح الثبت أو الفهرس مطلوباً فيها ، في حين أنه إذا كان الهدف هو شرح كيفية إشاعة الأحكام فالمطلوب فيها هو الترتيب والتدرج ، فالمجيب يقدم الإسلام جملة وتفصيلاً مرة ويقدمه مرة أخرى مراعياً أسلوب التدرج والترتيب .

إن كتب الفقه في جملتها تنطوي على أسلوب (بيان الأحكام) إذ المؤلف في الفقه يحاول الإحاطة بكل جوانب الأحكام التفصيلية وحشدها في كتاب واحد . في حين أن مقتضيات الدعوة والتبليغ تختلف تماماً ، فإذا كانت فهرسة الأحكام ذات أهمية قصوى في الفقه ، فإن التدرج ينال تلك الأهمية في عملية الدعوة والتبليغ . وهو ما ورد ذكره في هذا الحديث النبوي الشريف ، على اختلاف الروايات .

قال البخاري : حدثنا حبان ، أخبرنا عبد الله عن زكريا بن

أبي إسحاق عن يحيى بن عبد الله بن صيفي ، عن أبي معبد مولى ابن عباس عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : **« إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »** .

إن حياة النبي ﷺ حافلة بالأمثلة التي تشير إلى أنه ﷺ كان يضع في حسبانه الفرق بين طرح الأحكام وبين المطالبة بأدائها وتنفيذها . فعندما يتناول الأحكام لبيانها فإنه يتناول كل الأحكام الضرورية اللازمة إلا أنه حين يطالب بتطبيقها فإنه دوماً كان يراعي أسلوب التدرج واللين .

ففي السنة التاسعة للهجرة مثلاً قدم وفد من الطائف إلى المدينة وكان يضم ستة أعضاء يرأسهم عبد ياليل ، حيث أقاموا بالمسجد النبوي الشريف وظلوا يستمعون إلى القرآن ، واستمرت مساءلاتهم واستفساراتهم حول الإسلام ومبادئه وأحكامه . فالتفاصيل التي ورد ذكرها في كتب السير والأحاديث المتعلقة بهذا الحدث ، تدل على أن النبي حين كان يبين لهم أحكام الإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا بينها ، إلا أن الأمر كان مختلفاً تماماً عندما طالبهم بتطبيقها ، حيث تدرج بهم حسب إمكانياتهم واستعداداتهم .

ويذكر الإمام أحمد رواية في هذا الصدد قال فيها : حدثنا عفان ، حدثنا محمد بن مسلمة ، عن حميد ، عن الحسن ، عن عثمان بن العاص ، أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشترطوا على رسول الله ﷺ (ألا يصلوا) وألا يحشروا

ولا يعشروا ولا يجبوا ولا يستعمل عليهم غيرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « **لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم ، ولا خير في دين لا ركوع فيه** » .

ويقول أبو داود في روايته : حدثنا الحسن بن الصباح ، حدثنا إسماعيل ابن عبد الكريم ، حدثني إبراهيم بن عقيل بن معقل بن منبه ، عن وهب ، سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت ، قالت : اشترطت على رسول الله ﷺ أن لا صدقه عليها ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك : « **سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا** » .

هذا النوع من الرخصة أو أسلوب التدرج ليس له أصول أو ضوابط معينة ، بل إنه يواكب الأوضاع والظروف ويسير على دربها . فمنهم من يعاملهم النبي بنوع من التسامح في تطبيق الأحكام ومنهم من يوضعون في التدرج المرحلي . وكل ذلك إنما يتم على ضوء استعداداتهم ووضعهم النفسي والبيئي ، ولا يتبع في ذلك قانون أو ضوابط معينة .

والبرهان الساطع على هذه النظرية ، ما كان من أمر ثقيف الذين رخص لهم الرسول في أمر الصدقة والجهاد ، بينما كان الأمر مختلفاً تماماً مع بشير بن الخصاصية الذي لم يرخص له في أمر الصدقة والجهاد . فقد روي : عن بشير بن الخصاصية رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه فقلت : علام تبايعني يا رسول الله . فمد رسول الله ﷺ يده فقال : « **تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وتصلي الصلوات الخمس لوقتها وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت ، وتجاهد في سبيل الله** » . قلت : يا رسول الله ، كلا نطيق إلا اثنين فلا أطيقهما الزكاة ، والله مالي إلا عشرة ذود هن رسل أهلي وحمولتهن . وأما الجهاد فإني رجل جبان ، ويزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله ، وأخاف إن حضرت

القتال ان أخشع بنفسي فأفرّ فأبوء بغضب من الله . فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها ، ثم قال : « **يا بشير ، لا صدقة ولا جهاد ، فبم اذن تدخل الجنة** » . قلت يا رسول الله ، ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته عليهن كلهن . (كذا في كنز العمال (١٢/٧) وأخرجه أحمد ورجاله موثقون كما قال الهيمثي) (٤٢/١) .

ومعلوم أن القرآن لم يكن قد نزل دفعة واحدة ، بل إنه نزل على مراحل وبشكل تدريجي ، واستمر في نزوله على مدى ثلاثة وعشرين سنة ، فما سبب هذا التدرج في النزول يا ترى ؟! إننا نعثر على إجابة ذلك فيما ترويه عائشة رضي الله عنها ، حيث تقول : ؛(إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار . حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبداً) . (البخاري ، باب تأليف القرآن) .

فالفهرسة والسرد التفصيلي هو المطلوب – بلا ريب – إذا كنا بصدد بيان الأحكام ، أما إذا كانت الغاية تطبيق الأحكام والمطالبة بتنفيذها فالمطلوب هو التدرج والترتيب المرحلي .

حقيقة النسخ :

نشرت مجلة (Times) الهندية رسالة (للمستر اندرسين شرما) يعقب فيها على رسالة كانت قد نشرتها المجلة تعبر عن وجهة نظر المسلمين

Syed Shahabuddin s letter is misleading. He says that an injunction in th Quran is unchangeable and could not be changed by the Holy Prophet. This is far from truth as many revelations (Ayat) were cancelled and repleced in the changed circumstances.

يقول مستر اندرسين : (إن رسالة سيد شهاب الدين تقود إلى وجهة خاطئة ، حيث يقول إن حكماً من أحكام القرآن لا يقبل أي تغيير ، حتى أن النبي ﷺ ليس بمقدوره أن يحدث فيه أي تغيير ، إن هذه المقولة بمنأى عن الحقيقة والواقع ، إذ أن كثيراً من الآيات القرآنية قد أُلغيت ونسخت وخلفتها آيات أخرى لتواكب الظروف والأحوال المستجدة) .

إن هذا النوع من التفسير المتعلق بالنسخ ليس صحيحاً ولا سند له ، إذ النسخ لا يعني الإلغاء ، بل إنه صورة من صور التدرج في التشريع (Gradation) إنه يدخل في إطار الحكم الإصلاحية ، ومن الخطأ الفادح أن نقول عنه بأنه إلغاء للأبد .

إن المنهج الذي ينتهجه القرآن في عملية الإصلاح هو منهج الإصلاح التدريجي المرحلي ، وتبعاً لذلك ، فإن القرآن حين يريد اصلاح ظاهرة ما ، فإنه يصدر حكماً أولياً يستهدف خلق عقلية تكون قادرة على تحمل العبء الذي سوف يناط بها . ومن ثم يتدرج القرآن بالمكلفين إلى حكم آخر يلمسون فيه شيئاً من التطبيق العملي . حتى يصل القرآن بعد ذلك إلى أمر حاسم ، وتنزل الآيات متضمنة الحكم النهائي في القضية المعنية . مثلما حدث بالنسبة لتحريم الخمر .

﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء : ٤٣] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة : ٩٠] .

إن هذا هو أوضح مثال للنسخ في القرآن ، إلا أن الأمر بكل جوانبه مرتبط بحكمة التدرج ، ومن ثم فسيكون من الخطأ أن نفهم بأن الحكم الأخير قد نسخ كل الآيات التي نزلت قبله فيما يتعلق بتحريم الخمر . نعم ، إن الحكم المعياري الثابت في القرآن حول الخمر هو كونه حراماً للأبد ، ولكن فيما يتعلق بتطبيق هذا الحكم القرآني ، فإنه لابد أن نضع في حسابنا البيئة الاجتماعية السائدة ، فنعود مرة أخرى - إذا تطلب الأمر - إلى أسلوب التدرج المرحلي ، كما فعل الشارع في بداية الأمر .

تطبيق الشريعة :

إن القرآن كتاب هداية ، كما أنه كتاب دعوة أيضاً ، ومن ثم فإن القرآن ينطوي على كافة الأمور التي لها صلة بفلاح الإنسان وصلاحه . والقرآن - فيما يتعلق بجانب الهداية - لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

بينما الأمر يختلف فيما يتعلق بالدعوة ، إذ أن الدعوة تقتضي مراعاة حالات المدعو ومحبطه الذي يعيش فيه ، وهذا هو الجانب الذي كان سبباً في خلق قضية النسخ . فبينما يضع القرآن معياراً ثابتاً فيما يتصل بأمر الهداية ، نجده يسلك نهجاً مختلفاً فيما يتصل بعملية الدعوة التي لا تخضع لمقاييس خاصة ، فهو لا يضع لها معياراً محدداً ، بل جعلها خاضعة لاسلوب التدرج والمرحلية حتى تناسب أمزجة الناس وتواكب أوضاعهم . ومن أجل ذلك يلزم علينا أن نراعي الفروق في أسلوب تطبيق الشريعة .

تجري هذه الأيام في معظم الدول الإسلامية المعاصرة أنشطة ومحاولات لتطبيق قوانين الشريعة بقوة السلطة والحكومة ، إلا أن كل المحاولات التي وجدت في هذا المجال فشلت وأخفقت وذهبت سدى . والسبب الأصلي وراء ذلك يعود إلى أن تلك الحركات كلها تخبطت في متاهات ودروب مضللة

دونما أن تضع في حسابها (حكمة النسخ) .

فالمنهج الشرعي الرباني في تطبيق الشريعة هو أن يركز النشاط في أول الأمر على توعية نفسية وعقلية وخلق بيئة ملائمة لها . فإذا ما استعد – على المستوى النفسي – عدد معتبر من الناس لتقبل هذا الأمر فإن قوانين الشريعة تطبق جزئياً ، فإذا زاد الاستعداد يضاف إلى ما سبق جزء آخر من القوانين ، وهكذا التدرج في الأمر شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى شكله النهائي . هذه هي الحكمة الدقيقة في الشريعة التي عبرت عنها عائشة في قولتها المشهورة : (إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبداً) . (البخاري / باب تأليف القرآن) .

هذا النمط من الحكمة يزخر به القرآن وقد كشفت عنه السيرة النبوية بكل وضوح ، إلا أن القادة الإسلاميين المعاصرين لم يدركوا عمق هذه الحكمة ولم يضعوها في الحسبان ، بل ظلوا يتخبطون في دروب ومسالك خيالية جعلتهم لا يحصدون في النهاية سوى الفشل .

في سنة ١٩٨٣م أصدر الرئيس جعفر النميري رئيس السودان السابق حكماً يقضي بمنع الخمر وفرض الحظر عليه ، فاستولى على بعض حوانيت الخمر وجمع منها قارورات الخمر التي قام بكسرها على ضاحية نهر النيل وسيل الخمر في مياهه . والجدير بالملاحظة هنا هو أن شوارع السودان لم تكن قد شهدت ذلك المنظر الذي شهدته شوارع المدينة في العصر النبوي ، بل هناك فارق بينهما ، لأن النبي ﷺ كان قد تبنى أسلوب التدرج المرحلي في تحريم الخمر ، في حين حاول القادة السودانيون إيقاف ظاهرة الخمر دفعة واحدة فأخفقوا في محاولاتهم تلك ، ولم يحضوا إلا ببعض الهتافات واهتمام وسائل

الإعلام لبضعة أيام . ولم تمر سنة حتى تلاشت الحكومة الإسلامية ، فلم يعد لها أي وجود ، وانتهت معها الأحكام الإسلامية أيضاً .

ليست السودان فحسب ، بل كل دولة إسلامية حاول فيها القادة المتحمسون تطبيق الشريعة ، قد ذهبت إلى المصير نفسه . إن هذا الفشل والإخفاق يعود إلى أن القادة لم يضعوا في حسبانهم (حكمة النسخ) ، بل اندفعوا إلى سراب أحلامهم فتلاشوا في غمرة الضجيج المؤقت .

مثال السيد أحمد الشهيد :

إن المسلمين خلال السنوات المائة والخمسين الأخيرة يكررون نفس الأعمال الفاشلة ، إنهم يندفعون إلى مبادرات عشوائية دون التفات إلى مبدأ النسخ القرآني فيقعون في هوة الفشل والإخفاق . إن أوضح مثال على ذلك نجده في حياة السيد أحمد الشهيد بريلوي (١٧٨٥ - ١٨٣١) الذي قاد حركة أطلق عليها (حركة المجاهدين) حيث حشد أتباعه وسيرهم إلى مقاطعة البنجاب ، فتمكنوا من الاستيلاء على منطقة (بشاور) وطبقوا فيها الحكومة الإسلامية فور الاستيلاء عليها .

إلا أن هذه الحكومة الإسلامية لم يكتب لها البقاء ، وسبب ذلك يعود إلى أن الذين طبقت الشريعة عليهم لم يكونوا قد تأهلوا لذلك على المستوى النفسي رغم كونهم مسلمين بالوراثة ، فتمردوا على رجال السيد أحمد واغتالوا الكثيرين منهم . وخاض السيد أحمد بدوره حرباً ضارية وغير حكيمة ضد (مهاراجة نجيب شنيفة) والتي ذهب ضحيتها أخيراً ، وذلك في السادس من مايو ١٨٣١م . وبذلك سقطت الحكومة في مهدها .

يعلق أحد المؤرخين على ما وقع فيه السيد أحمد شهيد قائلاً : (إن السواد الأعظم من المجاهدين اندفعوا بمجرد أن سمعوا هتافات الجهاد وخاضوا الحرب دون أن يكونوا مؤهلين تربوياً ، وبذلك هم ليسوا أهلاً لإدارة

الحكومة ، فلم يؤهلوا الناس نفسياً لتقبل الحكومة الإسلامية في تلك المنطقة ، ولم يراع السيد أحمد أسلوب التدرج في تطبيق الشريعة ، حيث نفذ كل القوانين الشرعية دفعة واحدة فساد الهلع والاضطراب في أوساط الشعب واستولت عليهم المخاوف من تلك المفاجاة)[1] .

والقادة الإسلاميون المتحمسون لا يأخذون الدرس من القرآن والسنة ، كما أخفقت الوقائع التاريخية في أن تفتح عيونهم ، فهم يكررون القصة القديمة الفاشلة باستمرار طيلة السنوات المائة والخمسين الأخيرة .

---

(١) تاريخ باكستان والهند ، للشيخ محمد رفيق / ص ٢٣٥ .

ختم النبوة

دار حوار بيني وبين آخرين حول العقيدة الإسلامية المتعلقة بختم النبوة فقلت لهم : إن سلسلة الرسالة قد بلغت نهايتها بمحمد ﷺ ، ولم يعد هناك أي احتمال لوجود نبي آخر إلى قيام الساعة . قالوا : هل لك من دليل على ذلك ؟ قلت : إن البراهين والدلائل المتعلقة بهذا الموضوع قد تمّ توضيحها بكلياتها وجزئياتها ، وباستطاعتكم أن تطلعوا عليها وتتبينوا النقاط الحاسمة في هذه القضية .

ما هي النبوة يا ترى ؟ إنها اسم لإبراز الأصول والقوانين الأبدية ، فكما أن العلم يكشف لنا عن قوانين الطبيعة والفطرة كذلك النبوة تكشف لنا عن القوانين الإنسانية ، وكلا الأمرين يتسمان بالأبدية . فقوانين الطبيعة قائمة بذاتها وراء الطبيعة بصفة أبدية دون أن يعتريها تغيير أو تبديل ، كذلك القوانين الإنسانية حين تنكشف بالأدلة والبراهين فهي تستقل بعدئذ بذاتها دون حاجة إلى تنقيح أو تبديل .

إن مهمة النبي الأساسية تتركز في إعلام الناس بخطة الله من وراء الخلق ، وقد قام كل نبي بهذه المهمة ، واعلنوا جميعاً بأن حياة الإنسان على شطرين : الشطر الأول ينحصر في الحياة القصيرة التي تمتد حتى الموت ، والشطر الثاني هو حياتنا بعد الموت ، والتي تمتد إلى ما لا نهاية ، إن الحياة الحاضرة ليست منزل الإنسان الأخير ، إنها مجرد مرحلة عابرة تتم فيها عملية التعبئة والتهيؤ للمنزل الأخير ، والأنبياء في مختلف العصور كشفوا لنا عن معالم الخلق وقوانين الأخلاق ، والقيم الإنسانية الخالدة التي يتمكن المرء

بواسطتها من الفوز والفلاح الأبدي ، ونبذها وإهمالها ليس له سوى الحرمان .

وطبقاً لخطة الخلق هذه ، فإن الدنيا هي دار العمل والجهد والكدّ ، وبعد الموت سنقبل على دار الجزاء . إن الدنيا هي مكان الاختبار ، والعالم الذي يأتي بعدها هو مكان الظفر بالجوائز حسب جودة الاختبار أو رداءته . والمقصد الأصلي من الرسل هو اخبار البشرية بواقعية هذه الحقيقة الثابتة ، وهو بلاغ خالد وأبدي بالنظر إلى نوعيته ، إذ لا يعتريه اختلاف أو تباين رغم اختلاف القرون وتباينها .

والسبب في كثرة الأنبياء في الزمن القديم يعود إلى أن الهدايات التي جاء بها نبي من الأنبياء لم تظل محفوظة بعده ، بل لحقتها أنواع شتى من التحريفات بسبب عناد الناس وتمردهم ، أو تمّ محوها وضياعها ، لذا كانت الحاجة ماسة إلى أن يأتي نبي آخر من جديد ليكشف عن الحقائق والمبادىء الصحيحة ، ويميّز بينها وبين المبادىء المحرّفة . إلا أن مثل هذا الإمكان قد انتهى بعد محمد ﷺ للأبد . وهذا الانقلاب الحديث الذي يجري على المستوى العالمي هو ضمان لأن تظل الهدايات الإلـٰهية دوماً دون أن يعتريها أيّ تحريف أو تغيير ، حيث أضفت آلات الطباعة قوة جديدة ، فلم يعد أي احتمال للحاق أي نوع من التحريف .

أدلة الواقع :

بالإضافة إلى البراهين النظرية هناك حقيقة تاريخية ثابتة وهي أنه لم يظهر إلى واقع الوجود أي نبي بعد محمد ﷺ ، وهي حجة دامغة على ختم النبوة ، وشهادة واقعية تثبت أن سلسلة النبوة قد قطعت حتماً بالنبي محمد ﷺ .

قلت : إن النبوة ليست عملاً ساذجاً وبسيطاً مثلما هو الأمر بالنسبة لخطيب أو شاعر . إن النبوة هي أمر خارق للغاية ، فكما أنه لم يجرؤ أحد —

على مر التاريخ البشري – على الادعاء بأنه نبي ، كذلك لم يجد أحد في نفسه الهمّة ليقول بلسانه إني نبي سوى النبي فحسب . إن النبْوة إما أن يدعيها المجنون أو من هو نبي حقاً .

يسرّني أن أحدثكم عن تجربة شخصية قد مرّت بي في يوم من الأيام ، كان هناك صوفي يدعى (باباجي)[1] يربو عدد مريديه على مائة ألف ، وقد توفى سنة ١٩٨٠م ، وقدر لي أن ألتقي ببعض مريديه ، فقالوا لي : إن أبانا هو نبي عصره (prophet of time) فقلت لهم دون تردد : هلاّ أخذتموني إليه وطلبتم منه أن يتفوه بكلمة (أنا نبي العصر) .

تمّ تحديد الموعد ، فحملوني إلى مسكنه ، والتقيت به وحوله جمع غفير من الناس ، وقضيت ساعة ونصف في مجلسه ، غير أنه لم يجرؤ على النطق بكلمة (أنا نبي العصر) . كان يذهب بكلامه مذاهب شتى دون أن يتجه به إلى هذه الوجهة ، ثم سألته : إن مريديك يقولون إنك نبي العصر ، أحقاً ما يقولون ؟ فلم يردّ علي رداً مباشراً حتى انصرفت من عنده .

إن الذين كنت في حوار معهم قالوا لي : ولكن ميزراً غلام أحمد قادياني (١٨٣٩ – ١٩٠٨) قد ادعى النبوة بكل تأكيد . قلت : نعم . إنه مصاب بخلل عقلي ، ومثل هذا الشخص يذهب بكلامه مذاهب شتى دون وعي أو إدراك ، حتى إن كلامه غير الفصيح دليل صارخ على أنه ليس بكلام نبي .

ولكن بغضّ النظر عن ذلك ، فإننا إذا اتجهنا إلى أصل دعواه ، نجده قد ادعى بأنه نبي ظلي ، أي أنه ظهور ثان (Reappearance) لنبوة محمد ، إن دعواه هذه حجة عليه ، إذ أنه طالما هو ظهور ثان لمحمد ﷺ كان لزاماً

---

(١) لقب يلقب به الصوفي الضال وهم كثيرون في القارة الهندية .

أن نحلل دعواه على ضوء تعليمات محمد ﷺ ، فدعواه تلك قد جعلت من محمد ﷺ حاكماً عليه ، وبعبارة أخرى فإن معيار فحص نبوته أصبح ذلك الرجل الذي نفى أن يكون بعده نبي أو رسول . فما أعجب قول أحمد قادياني الذي هو حجة عليه .

ولإثبات نبوة غلام أحمد قادياني سيكون الأول أن يثبت محمد ﷺ بتعاليمه بأن هناك نبيًّا ظليًّا يظهر من بعده ، لكن الأحاديث النبوية والقرآن يخلوان من مثل هذه الأدلة تماماً ، إذ ينصّ القرآن على أنه خاتم النبيين : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] . وقد صرح النبي ﷺ أيضاً بأنه لا نبي بعده ، عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « **وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي** » (أبو داود / كتاب الفتن) .

إن ادعاء غلام أحمد قادياني النبوة الظلية لمحمد ﷺ ما هو إلا رفض ذاتي ، وهو بذلك يرد على نفسه بنفسه . وطالما لم يثبت عن النبي ﷺ أنه سيظهر نبي ظلي من بعده أو سيكون له ظهور آخر ، فكيف يسوغ لنا الإقرار بأنه نبي ظلي ، وبذلك نجد أن دعوى النبوة هذه تردّ نفسها بنفسها .

وقد كانت حصيلة هذا التناقض الذاتي في دعوى القديانية ، أن برزت بوادر الخلاف والتباين في الرأي في أواسط مؤيدي القادياني ، وانقسموا إلى فرقتين : فرقة الأحمدية : وهي تقرّ بنبوته ، وفرقة اللاهوتية : وهي لا تعترف إلا بكونه مجدّداً فحسب .

مصداقية التاريخ :

يوشك أن يمضي ألف وخمسمائة عام على نبوة محمد ﷺ ، ولم تكن الدنيا قد ولدت بعد - خلال هذه السنوات - من يجد في نفسه الجرأة

الكافية ليعلن بأنه نبي مستقل . إن التاريخ يخلو تماماً من هذه الدعوى . نعم إن مسيلمة الحنفي الكذاب (٦٣٣م) كان قد ادعى النبوة إلا أن دعواه كانت قاصرة على أنه شريك محمد ﷺ في النبوة : (إني قد أشركت في الأمر معه) وما لبث النبي أن رفض دعواه تلك رفضاً قاطعاً ، فظلت دعواه خاوية لا أساس لها . والشاعر المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥م) قد ادعى النبوة إلا أنه كان يدعي النبوة الجزئية ، وثبت أنه تاب ورجع عن دعواه تلك في أواخر أيامه . ويعتقد بعض أتباع (ناناك) زعيم ديانة السيخ ، أنه كان نبيًّا ، إلا أنه هو نفسه لم يقدم نفسه باعتباره نبياً ، بل كان - حسب أقواله - مرشداً دينياً أو روحانياً . أما بهاء الله الإيراني (١٨١٧ - ١٨٩٢م) فلا يختلف شأنه عما أسلفنا ، فهو لم يتجرأ على ادعاء النبوة بل ادعى أنه المهدي الذي طال انتظاره في العقيدة الشيعية ، وهو الإمام الثاني عشر لدى الشيعة ، والذي سيكون خلفاً للرسول ، فكانت دعواه هي أنه خليفة للرسول ، كما ادعى القادياني النبوة الظلية دون أن تكون لديه الجرأة على ادعاء النبوة المستقلة .

كان النبي قد قال بأنه لا نبي بعده ، وأثبت التاريخ واقعية ذلك ببراهين قاطعة ، حين أصبح المؤرخ مضطراً لأن يسجل بخط عريض أنه لم يأت نبي بعده . وبذلك أصبحت تلك النبوة واقعاً تاريخياً ، وهل بقي بعد ذلك أدنى شك في ختم النبوة بمحمد ﷺ ؟ الحقيقة أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين لدى المسلمين على مستوى العقيدة ، وهو كذلك لدى غير المسلمين كواقع تاريخي لا يعتريه أدنى شك .

وقد أطلق القرآن على النبي ﷺ خاتم النبيين (Seal of the prophets) أي أن النبي ﷺ قد وضع الختم النهائي على سلسلة النبوة ، ولم يبق هناك أي احتمال لاضافة أي اسم إلى تلك السلسلة ، وهذا ما عبّر عنه النبي ﷺ بقوله : « **إني آخر الأنبياء** » .

ولو ألقينا نظرة فاحصة إلى التاريخ لبدا لنا أن التاريخ قد أثبت مصداقية نصوص القرآن والحديث النبوي وواقعيتها ، فلم ينهض خلال سني التاريخ اللاحقة أحد يدّعي النبوة بالمعنى الحقيقي ، إن ذخيرة التاريخ بعد النبي ﷺ تخلو تماماً من مثل هذه الشخصيات .

الحقيقة أن هناك بعض النبوءات حول نهوض بعض المصلحين في كل ملّة ، استغلّها بعض من أعجبوا بكفاءاتهم واستعداداتهم الذاتية : فالمهدي المذكور في الأحاديث والذي تناوله السنيون بدون غلو ، وأخذه الشيعيون بشيء من المبالغة والغلو ، كان منفذاً للبعض ليدّعي أنه المهدي المنتظر . كما أن المسيحية والإسلام يعترفان بعودة المسيح ، فانتهز البعض هذه الفرصة ليطلق على نفسه بأنه المسيح الموعود . ونجد كذلك عقيدة حلول الله في الناس في الديانة الهندوسية ، وقد استغلّها البعض ليعلنوا أن الربّ قد حلّ فيهم . هذه هي الصورة التي اتسّم بها كل من تصدى لادعاء النبوة بشكل أو بآخر .

إن كل الذين تمّ إدراج أسمائهم في قائمة مدّعي النبوة هم في الحقيقة لم يترعرعوا في أرض النبوة ، إنما كان ذلك خطأ في التعبير فحسب ، بل إنهم ترعوعوا في أرض غير أرض النبوة . إن أرض النبوة أصبحت ممنوعة بعد النبي ﷺ وستظل كذلك حتى قيام الساعة .

مهام النبوة :

الأمر الفيصل في هذه القضية هو أن سلسلة النبوة قد انتهت إلى الأبد ، إلا أن تسلسل مهام النبوة ما زال قائماً إلى يومنا هذا . إن اصطفاء أحد من بني البشر لمهمة النبوة وإقامة الصلة بينه وبين الله بواسطة الملائكة أمر خارق واستثنائي للغاية ، ومثل هذا الحدث يتمّ فقط عندما تصبح هدايات الله

مشوّهة تكتنفها ألوان من التحريفات ، هذا هو السبب الوحيد الذي يستدعي ميلاد نبي جديد . لكن الوضع اليوم تغيّر على ما كان عليه في الماضي ، وأصبح دين الله محفوظاً في شكل القرآن ، كتاب الله الذي تكفّل بحفظه ، ومن ثمّ لم يعد هناك حاجة لميلاد نبي جديد ، وعلى الباحثين عن الحق ألا ينتظروا ميلاد نبوة جديدة ، بل عليهم أن يؤدّوا مقتضيات عبودية الله في ضوء أسوة آخر الأنبياء محمد ﷺ .

إن الحياة ليست شيئاً راكداً ، إنما هي متجددة ومتغيرة بصفة مستمرة ، ومن ثم تتحدد مقتضيات أحكام الله حسب الظروف الجديدة والحالات الطارئة ، وحلّ مشكلة كهذه يتم عن طريق الاجتهاد وليس عن طريق النبوة الجديدة ، فالقرآن والسنة يحملان في طياتهما كافة الأحكام الأساسية والضرورية . وبقيت مهمتنا أن نفحص المستجدات على ضوء تعاليم القرآن والسنة ، وأن نستنتج حكم الفرع من الأصل والجزء من الكلّ ، فلا داعي – والحالة هذه – إلى ولادة نبوة جديدة . كل ما نحتاجه الآن هو أن تكون لدينا مقدرة علمية كافية نتمكن بواسطتها على فهم الأحكام الأصلية وكيفية تطبيقها (Application) على الحالات المستجدة .

لقد توالت بعثة الأنبياء عبر القرون : ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترا** ﴾ [المؤمنون : ٤٤] وكان القصد من ورائها في الأساس إظهار التوحيد وإعلانه ، وليس الترتيب الارتقائي لنزول الدين ، إذ الواقع أن دين الله واحد ، وإنما كانت بعثتهم لتبليغ ذلك الدين وإظهاره .

وعناد الأمم القديمة وطغيانها كان سبباً في تشويه وتحريف الصورة الأصلية لهدايات الله المنزّلة على رسله . إذ أن ألواناً من التفسيرات الخاطئة والإضافات البشرية المتنوعة تعمل على تشويه أصل الدين ، وتخلط الدين بغير الدين مما يجعل الدين تكتنفه الشبهات والشكوك ، فيعجز المرء عن معرفة

الصحيح من الباطل . وفي مثل هذا الوضع يبعث الرسل والأنبياء ليفرقوا بين الحق والباطل ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ويكشفوا عن الحقائق الإلـهية من جديد .

يقول الله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [البقرة : ٢١٣] . هذا وقد ورد المفهوم نفسه ضمن سورة الزخرف : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه** ﴾ [الزخرف : ٦٣] . وهي توضح أن ظهور النبي الثاني هو بمثابة بيان ثان للنبي الأول ، وليس بياناً ارتقائياً ، أي أن النبي الثاني يقوم بالكشف عن نفس المباديء التي نشرها النبي الأول ، بعد أن تراكم عليها الغبار ، وليست مهمته تطوير تلك المباديء حتى تحدث مرحلة ارتقائية بالنسبة للمرحلة السابقة .

وهذا الشأن ينطبق على نبينا أيضاً ، إذ أن القرآن يخاطب النبي بقوله : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه** ﴾ [النحل : ٦٤] كما ورد أيضاً : ﴿ **إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾ [النمل : ٧٦] . وطبقاً للقرآن ليس هناك أديان سماوية بل هناك دين واحد جاء به الأنبياء والرسل على مرّ العصور ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب** ﴾ [الشورى : ١٣] لكن بعض المسلمين حاولوا تحليل هذا الواقع من زوايا أخرى ، فقالوا : إن الهدف

من وراء بعثة الأنبياء وتتابعهم هو التطور والارتقاء من النقص إلى الكمال ، وحسب وجهة نظرهم فإن من أسباب بعثة النبي الجديد هو أن التعاليم والهدايات لم تصل مكتملة إلى الناس بواسطة الأنبياء السابقين ، بل كان يعتريها النقص ، لذا كانت الحاجة ماسة إلى إرسال مزيد من الرسل بغية إكمال الدين ، لكن القرآن يخلو تماماً من هذه النظرية .

يقول مؤيدو نظرية الارتقاء في تفسير مراحل النبوة وختم الرسالة واتمام الشريعة : (إن بعثة النبي ﷺ كانت متزامنة مع ذلك الدور من التاريخ الإنساني الذي يعتبر مرحلة تحوّل للنوع البشري من طور الطفولة إلى مرحلة البلوغ .. حيث بلغ العقل البشري إلى مرحلة النضج والكمال ، وعقل الإنسان كل ما كان باستطاعته أن يعقل . لذا كان القرن السابع الميلادي هو الوقت المناسب لأن تبعث فيه إلى البشرية الهدايات المكتملة والأخيرة) .

وقد أنبنت هذه النظرية الارتقائية على أمرين اثنين : أولهما : أن القرن السابع الميلادي قرن بلغ فيه العقل البشري مرحلة النضج ، وثانيهما : أن نزول الهدايات السماوية المكتملة كان على أساس هذا النضج ، ولكن كلا الأمرين ليس واقعاً ثابتاً بل أمر فرضي فحسب .

فالنضج العقلي المذكور لا يتمتع بتأييد العلم والتاريخ ، ولنأخذ الفلسفة مثالاً على ذلك ، إذ لا يمكننا أن نقول : إن الفلسفة قد بلغت مرحلة النضج والكمال ، حيث إن تاريخ الفكر الفلسفي يدلنا على أن الفلسفة – في القديم – كانت تتخبط في دائرة المنطق والقياس ، ووصلت كما يذكر مؤرخوا الفلسفة إلى مرحلة المنطق العلمي في القرن العشرين .

والوجه الآخر للنضج العقلي يتصل بصلاحية العقل ، والنظرية السالفة لا تتفق وهذا الجانب . إذ أن علم الأحياء وعلم الإنسان يوضحان أن الإنسان قبل ألف سنة لديه نفس الصلاحية والاستعداد الذي نتمتع به نحن اليوم .

الحقيقة أن نظرية الارتقاء والنضج ليست غير قرآنية وغير علمية فحسب بل إنها تافهة أيضاً . إذ لو كان الأمر كذلك ، فالبهائية والقاديانية اللتان ولدتا على أرضية ذلك التصور المذكور ، يمكنهما الادعاء بأنه ما دام التاريخ الإنساني قد قطع مراحل من الارتقاء ووصل إلى دور الحضارة الحديثة ، فمن الضروري أن تنشأ نبوة جديدة طبقاً لهذه الأوضاع الجديدة . والحقيقة أنك لو ذهبت تربط بعثة الأنبياء بتلك النظرية الارتقائية للنضج الإنساني فليس بإمكانك أن تبطل منطقياً دعوى النبوة الجديدة ، لأن الأنبياء كلهم - حسب النظرة العلمية - قد بعثوا في الدور التقليدي أو الروائي للتاريخ ، وبما أن العالم يمرّ الآن بالدور العلمي فلا شيء يمنع - طبقاً لنظرية الارتقاء - من بعثة رسول جديد .

إن ختم النبوة يتعلق في الأساس بحفظ النبوة ، ولا يمت بأية صلة إلى النضج العقلي ونظرية الارتقاء المذكورة ، حين تصبح هدايات الله ودينه محفوظاً تتوقف بعدئذ سلسلة بعثة الأنبياء والرسل ، وقد أصبح القرآن الهداية الإلـٰهية المنزّلة على النبي ﷺ محفوظاً إلى الأبد ، وهذا السبب كاف في ألا يبعث نبي جديد . وأن الاهتمام بهذا الحفظ كأنه الختم النهائي على سلسلة النبوة . فلا تبقى هناك حاجة - طبقاً لخطة الله - إلى إرسال نبي جديد .

ظهور آخر الأنبياء

يروي جبير بن مطعم – الصحابي المشهور – عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن لي أسماء ... وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر** » متفق عليه .

إن الرسل والأنبياء المبعوثين إلى البشر كانوا يحملون ديناً واحداً ، إلا أن الأنبياء الذين أرسلوا قبل النبي ﷺ كانوا يتسمون بصفة (الدعاة) أي أن مهمتهم تنتهي عند تبليغ رسالة الله إلى الناس دون نقص أو تقصير ، أما بالنسبة للنبي ﷺ فالأمر يختلف تماماً ، إذ أنه يتسم بصفتين في نفس الوقت ، صفة الداعية وصفة الماحي الذي يمحو الكفر . إنه بالإضافة إلى دعوة التوحيد فقد ألقى الله على عاتقه مسئولية أخرى يحققها بمدد الله الخاص ، ألا وهي إيصال دعوة التوحيد إلى مستوى الثورة الفكرية الشاملة ، وأن يجعل من الدين تاريخاً فضلاً عن الدعوة إليه .

إن هذه المسئولية قد تمت على أكمل وجه ، إلى أن أصبحت حادثة خارقة في التاريخ الإنساني كله ، وأصبح من المسلم به لدى المؤرخين أن الثورة التي حققها النبي ﷺ هي أكبر وأندر ثورة شهدها التاريخ البشري في مسيرته .

الإصر والأغلال :

إن صحابة النبي ﷺ كانوا بمثابة مقدمة جيش الإنسانية كلها ، وكانوا يدعون لأنفسهم وللأجيال القادمة كما ورد في عبارة القرآن : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقد رد الله على دعائهم – كما ورد في صحيح مسلم – بقوله : قد فعلت قد

فعلت . ويتضح من هذا أن ظهور النبوّة المحمدية كان إيذاناً بانطلاق طور جديد في التاريخ البشري ، يرفعُ فيه عن الإنسان للأبد ذلك الوزر الذي طالما أثقل كاهله .

إن الدين الذي جاء به نبينا هو نفسه الذي جاء به الأنبياء السابقون ، وليس هناك فرق بين نبينا والأنبياء الآخرين في جوهر الدين الذي جاءوا به ، إنما الفرق بينهما في أن الدين في عصور الأنبياء السابقين كانت دائرته قاصرة على الدعوة الخالصة إلى دين الله ولم يبلغ إلى مرحلة الثورة الفكرية الشاملة ، لكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للنبي ﷺ إذ أنه بمدد الله الخالص ، قد أوصل الدعوة إلى مرحلة الثورة الفكرية والتغيير الفعلي ، وقد وصفه الله بقوله : ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وطبقاً لهذه الآية فإن النبي ﷺ قد منح البشرية أمرين اثنين : ١) رفع الإصر . ٢) رفع الأغلال . وللإصر والأغلال صور وأشكال كثيرة قد خلص الله البشرية منها كلها بواسطة نبيه الكريم ، ونظراً للجانب الذي نحن بصدده فيكون المراد بالإصر تلك الخرافات والأساطير التي كانت جاثمة على العقل البشري في القديم والتي كانت سبباً في حرمان الإنسان مما نطلق عليه في العصر الحديث (التفكير العلمي) أو (وجهة النظر العلمية) . والمراد بالأغلال ذلك النمط من الأنظمة الإمبراطورية القديمة ، والتي عبر عنها (هنري براين) بالإمبراطورية المطلقة (Emperical Absolutism) . إن تلك الأنظمة التي تبنت سياسة القمع والقهر قد قسمت البشرية إلى طبقتين تبعد الشقة بينهما ، طبقة الحكام وطبقة المحكومين ، وبذلك سدت تلك الأنظمة أمامها كل طرق التطور والرقي . وقد وضع الله تعالى حداً لهذين الأمرين بشكل أبدي بواسطة النبي ﷺ وصحابته الكرام .

انطلاق عصر العلوم :

إن الشرك هو اسم آخر لتأليه الطبيعة وعبادتها ، وتلك الشاكلة تقف عقبة أمام التطور والرقي . إذ أن الرقي يبدأ حين يتم وضع الظواهر الطبيعية موضع الفحص والبحث ، والأمر الذي أله الإنسان وجعله في موضع التقديس ، لا يمكن أن يضعه – في نفس الوقت – موضع البحث والتحليل .

إن رحلة الإنسان إلى أسلوب التفكير العلمي أو الثورة الصناعية ، قد بدأت حين تم القضاء على غلبة الشرك وانطلق طور التوحيد ، أي عندما اكتشف الإنسان أن كل ما في الأرض والسموات إنما هو مخلوق ومسخر لخدمة الإنسان وليس خالقاً ومعبوداً ، وأن هذه الأشياء كلها هي مسخرة للإنسان وليس الإنسان مسخراً لها . هذه هي الهدية الثمينة التي قدمتها إلى البشرية مرحلة نهاية طور الشرك وانطلاق دور التوحيد . وإن هذه المهمة قد تمت لأول مرة على يد نبينا محمد ﷺ .

إن الرسالات السماوية السابقة قد جاءت لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق ، إلا أن أنشطة الأنبياء السابقين قد انحصرت في الإعلان عن التوحيد دون أن تبلغ إلى مرحلة الثورة الفكرية ، ورسالة الأنبياء على اختلاف العصور ظلت واحدة ، وهي إزالة الشرك وإثبات التوحيد ، إلا أن محاولاتهم تلك قد انحصرت في إطار الإعلان الفكري ولم تبلغ مستوى الانقلاب الفكري . وحين شاءت إرادة الله أن تكون نهاية سلسلة النبوة بمحمد ﷺ ، كان من الضروري أن يكمل مرحلة الثورة الفكرية وعلى المستوى العقلي ، بدلاً من أن تظل قاصرة على الدعوة النظرية فحسب .

إن كسوف الشمس والقمر مثلاً ظاهرة من الظواهر الطبيعية التي تحيط بالإنسان ، والتي كانت سبباً لحيرته وقلقه في الزمن القديم ، وقد حلل

الإنسان القديم هذه الظاهرة بتحليلات غريبة وواهية مستمدة من الخرافات والأساطير المروجة كقولهم : إذا توفيت شخصية بارزة كحاكم أو ملك ، فإن ذلك يكون سبباً في كسوف الشمس والقمر . وعندما أصبح زمام حكومة العرب بيد النبي ﷺ توفي نجله إبراهيم ، وقد صادف كسوف الشمس في ذلك اليوم .

وقد علق على تلك الحادثة بعض أصحاب العقول التقليدية القديمة بقولهم : إن موت نجل حاكم العرب – محمد ﷺ – كان سبباً في كسوف الشمس . وعندما بلغ النبي ﷺ هذا الخبر ، أمر بحشد الناس ووجه إليهم خطابه قائلاً فيه : « **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته** » .

وحينما وجه النبي خطابه ذلك ، فإنه قد وجهه بصفته حاكماً للعرب ، فلم يكن خطابه مجرد وعظ أو نصيحة ، بل كان إعلاناً على مستوى الحكومة ، ولم يكن مجرد إظهار للحقيقة ، بل كان إعلاناً عن انقلاب بعيد المدى حيث بدأت بوادر التغيير تظهر في الأفق حاملة في طياتها مؤشرات مستقبل زاهر .

الثورة الاجتماعية :

إن النبي ﷺ قام بإعلان التوحيد من جهة ، كما قضى على الأنظمة المعادية للتوحيد على المستوى العملي ، بمدد الله الخاص . هذه السمة الخاصة للرسالة النبوية ، يكشف عنها القرآن بألفاظ مختلفة ، فقد وجه القرآن خطابه إلى النبي وأصحابه : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ . كما يوضح في موضع آخر نوعية رسالة النبي في قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾ .

يروى عن ربعي بن عامر أنه حضر مع أصحابه إلى القائد رستم أثناء

حرب القادسية ، وأثناء الحوار معه وجه القائد رستم سؤالاً إلى ربعي بن عامر قائلاً : ما الذي جاء بكم ؟ فكان مما أجاب : (الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) .

أدوار التاريخ الثلاثة :

قسم المؤرخون الأوربيون التاريخ إلى ثلاثة أدوار متمايزة :

١) دور ما قبل سقوط الامبراطورية الرومانية . إن الشطر الغربي من الامبراطورية الرومانية قد استهدف من قبل القبائل الجرمانية **(Garmanic)** حيث ألحقوا به خسائر وأضعفوه سنة ٤٧٦م . وقضى العرب بدورهم على الامبراطورية الرومانية التي امتدت على طرفي ساحل البحر الأبيض المتوسط **(Mediterranean sea)** قضاء مبرماً في القرن السابع الميلادي . إلا أن الفرق شاسع بين الحملات الجرمانية والفتوحات العربية ، إذ الخسائر التي أسفرت عنها حملات القبائل الجرمانية كانت منحصرة في حدود السياسة والقوات العسكرية ، بينما فتوحات العرب لم تقتصر على كسر شوكة النظام السياسي بل قضت حتى على الثقافة السائدة آنذاك (الثقافة الإغريقية – الرومانية) .

٢) دور ما بعد سقوط الأمبراطورية والحضارة الرومانية إلى نهاية القرن الخامس عشر : ويطلق عليه العصور الوسطى **(Middle ages)** إنه العصر الوحيد الذي ودع فيه العالم الغربي دوراً قديماً واستقبل دوراً جديداً .

٣) الدور الجديد : ويبدأ من مطلع القرن السادس عشر حتى الآن ، إنه الدور الذي تميز بميلاد الثورة السياسية والصناعية في العالم الغربي ، والذي قفز فيه العلم إلى الدور العلمي هروباً من الدور التقليدي .

وتكشف لنا دراسة التاريخ والاجتماع عن المذهب الديني الذي كان

سائداً في العصر القديم ، والذي يتصل بالأساطير والخرافات ، حيث فرضت المعتقدات الخرافية سيطرتها على الشعوب كلها على اختلاف مواطنها ، وكانت الحكومات القائمة آنذاك تعتمد على المعتقدات الخرافية والأساطير ، من بينها أكبر وأعظم امبراطوريتين وهما : الامبراطورية الساسانية **(Sassanid Empire)** والامبراطورية البيزنطية **(Byzantine Empire)** وكلتاهما تعتمدان نظاماً يستمد حيويته ومناعته من الخرافات المحضة ، إلا أنها بمثابة ضمان لبقاء امبراطوريتهم ، فكان سائداً مثلاً الاعتقاد بأن كافة أشكال العظمة والحقوق هو من نصيب الأسرة الحاكمة ، وأن عامة الناس بمثابة الرعايا فحسب ، وشغلهم الشاغل في حياتهم هو خدمة الأسرة الحاكمة وليس لهم سوى ذلك .

فكان من اللازم أن تتكسر شوكة تلك الامبراطوريات القائمة على الخرافات والأساطير ، وأن يقضي عليها بغية خلق دور العلم والمعرفة والنور ، لأنه لا يمكن أن يعرف العالم قيمة العلم والحرية والمساواة مع وجود ذلك النوع من الحكومات . هذا هو الأمر الهام الذي تم تحقيقه – بأبعاده المختلفة – بواسطة أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم . إنهم كانوا بمثابة جيش إلهي مقدس ، قضى على تلك الحكومات وسحقها ليفتح الباب على مصراعيه من أجل التقدم والرقي في مختلف المجالات ، أمام البشرية التي طال انتظارها . فلو لم تتم عمليات التحطيم والغربلة تلك لظل العالم يغط في العصور المظلمة (Dark ages) التي كان فيها قبل الانقلاب .

إنها لحقيقة تاريخية غريبة يعترف بها باحثون غير مسلمين على اختلاف في وجهات نظرهم . ونشير في هذا الصدد إلى كتاب المؤرخ المشهور (هنري براين) المسمى (تاريخ أوربا) الذي يستحق الدراسة والبحث ، والنظرية التي قدمها (هنري براين) في هذا الصدد نجدها موجزة في مقالة

أوردتها الموسوعة البريطانية ١٩٨٤م :

وطبقاً لنظرية هنري براين التي ظلت مثار جدل ونقاش واسع فإن الحد الفاصل بين العصور القديمة والوسطى ظهر حين تم القضاء على وحدة منطقة البحر المتوسط ، وأن هذه العملية لم تتحقق بفعل القبائل الجرمانية بل بواسطة حملات العرب .

(According to) the widely discussed theory of henri pirenne, the essential break btween the ancient and medieval worlds came with the destruction of unity of the mediterranean world not by the Germanic but the Arab invasions 13/155).

إن هنري براين (١٨٦٢ – ١٩٣٥م) : كان أبرز علماء تاريخ العصور الوسطى وقد عبر عن رأيه قائلاً :

(إن الشرق في الزمن القديم كان أرضية خصبة ، إذ إن القسطنطينية كانت مركز العالم ، وإن الأوضاع الطبيعية للعالم في القرن السادس لم تكن مختلفة عن تلك التي كانت في القرن الرابع من حيث نوعيتها . وإن سبب التحول عن التقليد القديم يرجع إلى سرعة انتشار الإسلام وتوسعه غير المتوقع والذي أسفر عن الانفصام النهائي بين الشرق والغرب ، وعن نهاية وحدة منطقة البحر المتوسط) .

The orient was the fertilizing: constantinople, the centre of the world. In 600 the physiognomy of the world was not different in quality from that which it had revealed in 400. The cause of the break with the tradition of antiquity was; the rapid and unexpected advance of islam. The result of this advance was the final separation of east from west, and the end of the mediterranean unity Dr Henir Pirnne, Muhammad and Chamagne, 1937, p.284

الجراحة الإلٰهية :

إن العملية التي تم تحقيقها بواسطة الصحابة والتابعين تجاه الامبراطوريتين : الساسانية والبيزنطية يحللها بعض المفكرين الإسلاميين بأنها كانت نموذجاً أبدياً ومستقلاً . وبعبارة أخرى هي الرسالة الدائمة للأمة باعتبار مكانتها ، وإنها المهمة التي يلزم على المسلمين أن يعيدوها . ولعل ذلك هو بمثابة جعل المعجزة الإلهية الهدف النهائي للإنسان وهو ما لا يصح دون شك . فتلك الحادثة إنما كانت معجزة ربانية ظهرت في قالب سياسي وهي لا تمت إلى الرسالة الإنسانية الأبدية بأية صلة ، وتظهر وجهة نظر المفكرين المسلمين في شعر لإقبال يعبر فيه ويشيد بحشد المجاهدين وحثهم على الجهاد ودفعهم إلى ذلك دفعاً حثيثاً . وإذا ما انتهى هذا الحشد دفعهم إلى معارضة الحكومات الباطلة . وقد أعرب أحد مؤيدي هذه النظرة على أن المرحلة الأولى هي مرحلة المحاولات السلمية (Passive Resistance) والمرحلة الثانية هي مرحلة المقاومة المسلحة :

دربوا الحشد حتى إذا اتقوا

قادوهم إلى محاربة الحكام[1]

إن هذا التحليل لما حدث في التاريخ الإسلامي في صدر الإسلام ليس له أساس من الصحة . والواقع أن كل ما تم تحقيقه ضد الامبراطوريتين الرومانية والفارسية إنما كان معجزة محضة ، ولم يكن نموذجاً يلزم احتذاؤه ، إنه بمثابة الجراحة الإلهية . فالسلطات القديمة كلها كانت تقف عقبة في سبيل رقي الإنسان وتقدمه ، وتحت قهر ذلك النوع من السلطات قد خابت تلك الآمال والأحلام التي طال انتظارها فيما يتصل بالحرية الدينية والمساواة بين

(١) محمد إقبال .

البشر والتطور والتقدم العلمي ، كأنها كانت سداً منيعاً أمام فيضان التقدم الإنساني المتدفق .

إن حرية الرأي هي الباب الوحيد للولوج إلى عالم التقدم والرقي إلا أن ذلك الطراز من الحكومات قد كبل عقول الناس وكبح جماح حريتهم عن التفكير ، ويروى في ذلك الصدد أن شخصاً قد أعرب عن عدم موافقته لرأي نوشروان ملك الفرس ، مما أسفر عن غضب الملك الذي صاح قائلاً : إن هذا الوقح يبدي عنجهية وتكبراً بعلمه ، حطموا رأسه بالمحبرة . فقام بعض الحاضرين وراحوا ينقرون رأسه بضربات مبرحة بالمحبرة حتى تحطم وسقط قتيلاً .

إن هذا الوضع نفسه كان سائداً في الامبراطورية البيزنطية إذ أن إبداء أي رأي معارض كان يعد جريمة فاحشة ، وهو بمثابة تمرد صارخ ضد الملك أو الحكومة . إن أقل ما كان يلاقيه المتمرد أو كل من يجد في نفسه جرأة لمعارضة رأي الامبراطور أنه يتم رميه في قعر حفرة عميقة حيث تنهشه الأسود والنمور وتمزقه إرباً إرباً . هذا ما كان سائداً في الامبراطوريات القديمة وتبناه الامبراطور في العهد القديم ، ووسط هذا الجو المتوتر ، كان يستحيل تماماً انطلاق العلوم والثقافة الإنسانية في طريقها إلى التطور والرقي .

وقد واصل الأنبياء والمصلحون كفاحهم لاستئصال هذا الوضع الأليم عبر القرون ، إلا أن حصيلة تلك المحاولات أثبتت أنه من المستبعد أن تتم أعمال الإصلاح الإنسانية تحت تلك الأنظمة السياسية الرائجة .

وفي مثل هذه الظروف أنزل الله تعالى حكمه الفيصل ، الذي عبر عنه القرآن بقتال الفتنة : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ [البقرة . الأنفال] . وذلك بقصد إزاحة ذلك النوع من الأنظمة عن طريق عملية جراحية إلـٰهية ، تلك الأنظمة التي كانت عقبة أمام رقي الإنسانية وأمام

الأعمال الإصلاحية سواء الدينية منها أو الاجتماعية .

والحروب التي خاضها المسلمون في الدور الأول ضد الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية كانت حروباً غير متكافئة . إنها - بلا ريب - صدام المجرد من السلاح بالمدججين بالأسلحة وأسباب القوة ، وعلى الرغم من هذا كله فقد حقق المسلمون نجاحاً باهراً ، وفي أقصر وقت ، وهو ما لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري كله .

وقد أحيطت هذه الحادثة بهالة من الدهشة والاستغراب ، مما جعل ولفرد بلنت (Wilfrid Blunt) يقول: إن الواقعة المدهشة التي حصلت عن طريق انتشار الإسلام السريع لم يسبق لها أي مثيل في التاريخ الإسلامي[1] .

وبنى هنري براين رأيه على هذا الأساس ، حيث قال :

(وبمعنى ما إن انتشار الإسلام كان يرجع للحظ ، إن صح أن نطلق هذا الاسم على النتائج غير المتوقعة لاتفاق تلك الأسباب) .

In a certain sense, the expansion of Islam due to chance, if we can give this name to the unpredictable consquence of a combinstion of causes.

"Mohammed and Charlemagne, p, 148"

ويذكر المؤرخون تلك الفتوحات محاطة بهالة من الحيرة والدهشة . إلا أنها في حقيقتها ليست شيئاً يدعونا إلى الدهشة والاستغراب ، ذلك أنها في حقيقتها لم تكن وقائع بشرية ، بل وقائع إلـٰهية محضة . إنها تبدو في شكلها الظاهري حرب العرب مع الأعاجم ، ولكنها في حقيقتها كانت جراحة إلـٰهية أجريت في أجسام الامبراطوريات بهدف استئصال الفتن التي كانت تكتنفها . ومن بين النبوءات التي وردت في الكتاب المقدس حول النبي ﷺ :

---

(١) تايمس إبريل ١٩٧٦م .

(جلاله غطى السموات والأرض وامتلأت من تسبيحه وكان لمعان كالنور . له من يده شعاع وهناك استتار قدرته . قدماه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى . وقف وقاس الأرض . نظر فرجف الأمم ودكت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القدم . مسالك الأزل له) .

إن كل ما عبر عنه المؤرخون وما ورد في الكتاب المقدس ينبيء عن اعتراف صارخ بأن كل ما حدث بواسطة النبي ﷺ هو حادث إلٰهي ، وبقدرة الله وحدها يمكن أن تتم هذه الأعمال البالغة الخطورة . وليس بمقدور الإنسان أن يحقق مثل هذه الحادثة الغريبة والفريدة من نوعها .

جيش الله :

إن العملية الجراحية الإلٰهية التي تم إجراؤها بواسطة النبي ﷺ قد خصص الله لها أفراداً مثاليين ليقوموا بأعبائها الثقيلة . إنهم أفراد مثاليون ليس لهم مثيل في التاريخ ، عبر عنهم الكتاب المقدس بالقديسين (Saints) (الاستثناء . الباب ٣٣) .

في فتح مكة كان في صحبة النبي عشرة آلاف صحابي ، وقد زاد هذا العدد عند حجة الوداع حيث أناف على مائة ألف صحابي ، وقد التحق بهذا العدد المقدس من نسميهم بالتابعين . إن هؤلاء الأبطال كانوا جيش الله تعالى ، وقد أتموا مهمة الجراحة الإلٰهية متمسكين بشكل مدهش بأوامر الله ونواهيه مظهرين بطولة منقطعة النظير .

يروى أن أحدهم كان إذا بصق عليه عدوه في الحرب يعرض عنه ويتركه خوفاً من أن يكون قد قتله بدافع انتقامي ، حيث لا يباح قتل النفس إلا إذا كان ذلك طبقاً لرضى الله وحكمه . وكانوا أشداء في حربهم فإذا ما ألقى العدو سلاحه وضعوا سيوفهم في أغمادها ، وكانوا في منتهى الحذر من إراقة الدماء تحت أي دافع انتقامي ، فإذا ما خاضوا حربهم ضدّ أي أمة

ثم تعلن عن خضوعها واستسلامها فإنهم يلقون على عاتق أبنائها مهمة حكمها وإدارة شئونها ويعلنون : إنما جئنا لكسر شوكة طغيانكم فحسب ولسنا طامعين في أموالكم أو سلطتكم .

إنهم أسسوا أكبر دولة في التاريخ ، إلا أنهم حين وصلوا إلى مقاليد السلطة إنما زادهم ذلك شعوراً أو إيماناً بمسئولياتهم وثقل المهمة التي أنيطت بهم ، فتجدهم يعيشون حياة الزهد والتقشف في الوقت الذي يعيش فيه رعاياهم حياة الترف والرفاهية ، ويلبسون لباساً خشناً بينما يلبس رعاياهم الحرير الناعم ، وبينما يركب رعاياهم الخيول الفاخرة نجدهم في أسفارهم يجرّون زمام الجِمَال التي يركبها خدمهم .

إنها لحقيقة أن هذه النخبة الطاهرة كانت في غاية التزكية وطهارة النفس ، فعندما فتحت فارس وأُردي قائد الفرس قتيلاً ، كان يلبس تاجاً من الذهب مرصعاً بالمجوهرات ، وقد انتشل هذا التاج من بين ركام الجثث مجاهد من المسلمين ، والتاج يقدّر بالملايين من الدنانير ، إلا أن هذا الرجل المسلم لم يحتفظ به لنفسه . ولم يقف عند ذلك الحد ، بل كره أن يشتهر اسمه بين الناس بأنه هو من عثر على هذا التاج الثمين ، فدخل خيمة قائد الجيش الإسلامي في ظلام الليل الحالك ، وقد لفّ التاج بالقماش لفّاً ، وقدّمه إلى القائد ، وحين أزيل القماش من فوق التاج ، بدأت الخيمة تتلألأ من شدة لمعان المجوهرات المرصع بها . فسأله قائد الجيش : ما اسمك أيها الرجل ؟ فقال : نعم ، إن الذي صنعت له هذا الصنيع هو أعلم باسمي . كانت هذه إجابته ثم خرج وغاب في بطن الليل الهادىء المظلم .

إن سجل التاريخ لا يدلنا على اسم ذلك البطل المجاهد ولا على نسبه إلا أن اسمه – بلا ريب – مدرج بكل احترام وإجلال فى السجل الإلٰهي .

هذه هي النخبة المقدسة ، اصطفاهم الله ليكونوا له جيشاً مخلصاً قادراً

على تحمّل المسئوليات المناطة به ، وقد تم بواسطتهم إكمال المهمة المقدسة ، مهمة الجراحة الإلٰهية . حيث استطاعوا - بمدد الله الخاص - أن يخوضوا حروباً شاقة ضد فتن الامبراطورية ، وأن يستأصلوها استئصالاً ، وبذلك فتحوا الباب على مصراعيه أمام رقي الإنسان وسعادته الأبدية . إنهم - بلا ريب - كانوا جيشاً إلٰهياً مطهّراً ، والله تعالى انتخبهم وهم محبّبون إليه ، وأجرى بهم هذه العملية الجراحية في جسم البشرية ، وأوصل مهمتهم تلك إلى غاية النجاح في شكل معجزة إلٰهية . وليس هناك جماعة أخرى - عداهم - يمكن أن تبلغ إلى هذا المستوى من النزاهة والطهارة لتقوم بتلك العملية مرة أخرى ، أو تتصدّى لمثل هذه المهمة الخطيرة ، ولو أعلنت جماعة على أنها قادرة على قتال الفتنة ، وبدأت تخوض الحرب ، فإنها بذلك الصنيع لا تضيف إلا فساداً ودماراً في الأرض ، وشتان بينها وبين الإصلاح .

مرة واحدة :

إن النبي ﷺ كان أسوة لأمته ، إلا أن هناك بعض الأمور خاصة بالنبي ﷺ فحسب ، أي أن أمته لا تشترك معه فيها . ففي الزواج مثلاً : يجوز أن تكون في عصمة المسلم أربع زوجات فقط ، في حين أن النبي ﷺ أبيح له أكثر من ذلك العدد مراعاة لمصالح خاصة . ولا يجوز لأي مسلم أن يقتل نفساً بناء على عدم قبول الإيمان ، في حين أن النبي ﷺ كان مأموراً بأن يقول لبني إسماعيل - بعد إتمام الحجة - وهم أول مخاطبيه ، إذا لم يؤمنوا فإن مصيرهم القتل المحتوم كما أنه أبيح للنبي إراقة الدم مؤقتاً في فتح مكة داخل منطقة الحرم ، في حين أنه حرم ذلك على أمته للأبد .

والحرب التي شنّت من قبل النبي ﷺ ضدّ الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية كانت من هذا القبيل ، والعملية الحربية التي أنجزها النبي ﷺ وتبعه الصحابة بقصد استئصال الفتنة إنما كانت قاصرة على شخص النبي

ﷺ وعلى الصحابة باعتبار تبعيتهم له . إنه كان حكماً خاصاً وليس عاماً .
ولم يبق بعد النبي ﷺ سوى نموذجين يلزم على الأمة الإسلامية اتباعهما :

- **أولهما** : الدعوة إلى الله .
- **وثانيهما** : الحرب الدفاعية إذا توفرت الشروط اللازمة . أما آية : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ فليس لها علاقة بالرسالة العامة للأمة .

إن الصحابة كانوا على علم بالعملية الجراحية التي قاموا بها لازاحة النظام القاهر للامبراطوريات المطلقة العنان (Empirical Absolutism) كما عبر عنها (هنري براين) : « إنها حادثة حدثت مرة واحدة ولا يمكن أن تتكرر مرة أخرى » . أي أنها ليست عملية نبوية مستمرة يلزم على كل جيل أن يكررها . إنها جراحة مؤقتة لا تحدث إلا مرة واحدة فقط . وقد حققت نجاحاً كاملاً لضمان عدم تكرارها مرة أخرى .

تفسير الصحابة :

إن الله تعالى أصدر حكمه إلى النبي ﷺ وأصحابه بخوض القتال لانهاء الفتنة . وقد ورد هذا الحكم في موضعين اثنين في القرآن : الأول : قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ [البقرة : ١٩٣] . والثاني : قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير** ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

فلو أمعنا النظر في هاتين الآيتين يتضح لنا أن أمر القتال الذي تضمنته الآيتان إنما يتعلق بإنهاء الفتنة فقط ، فإذا زالت الفتنة خمدت الحرب أيضاً وانتهت . والمراد بالفتنة (الشرك) كما هو عند جمهور المفسرين ، ويقول بعض المفسرين ذاهباً إلى مزيد من التوضيح : إن المراد بالشرك الشرك

الجارح ، أي ليس الشرك الذي يكون مقتصراً على الاعتقاد الشخصي فقط ، بل ذلك الذي يتخد شكل الجبر والقهر ، إن مثل هذا الشرك كان رائجاً في العالم كله في الزمن القديم وهو الفتنة التي صدر الحكم لازاحتها بالقتال . وبما أن مثل ذلك الشرك لم يعد له وجود في العصر الحديث لذا لم تعد هناك حاجة لخوض ذلك النوع من القتال .

إن هذا النوع من الحكم كان واضحاً تماماً لدى الصحابة ، كما يتضح من رواية عبد الله بن عمر التي تصادفنا في مختلف كتب الحديث ، وقد جمعها ابن كثير في تفسيره ، وها نحن نورد خلاصة ما جاء في تفسير ابن كثير مما يتعلق بهذا الموضوع :

﴿ **الفتنة أشد من القتل** ﴾ [البقرة : ١٩١] . يعني الشرك أشد من القتل . هكذا ذهب إلى تفسير هذه الآية كل من أبي العالية ومجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس ﴿ **حتى لا تكون فتنة** ﴾ يعني حتى لا يكون شرك ، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم .

﴿ **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ [البقرة : ١٩٣] . يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفّوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، وهذا معنى قول مجاهد (أن لا يقاتل إلا من قاتل) .

عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي أعيّر بهذه الآية ولا أقاتل ، أحبّ إليّ من أن أعيّر بالآية التي يقول فيها الله عز وجل : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ إلى آخر الآية قال : فإن الله تعالى يقول :

﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه إما يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة .

عن سعيد بن جبير قال : خرج علينا ابن عمر رضي الله عنهما فقال كيف ترى في قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالهم على الملك .

عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أتاه رجلان في فتنة الزبير فقالا : إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت ابن صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال : يمنعني أن الله حرّم عليّ دم أخي المسلم . قالوا ألم يقل الله : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ ؟ قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

عن نافع ، أن رجلاً أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ما حملك على أن تحج عاماً وتقيم عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال : يا ابن أخي بني الإسلام على خمس : الإيمان بالله رسوله والصلاة الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت . قالوا : يا أبا عبد الرحمٰن ، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ . ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ قال : فعلنا في عهد رسوله ﷺ وكان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذّبوه . حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة . تفسير ابن كثير : ج ٣ ، ص ٣١٧ .

معجزة وليس منهج :

إن حادثة شقّ القمر كانت من بين المعجزات الإلهية التي حدثت ، فلا أحد يمكنه أن يقول على هذا الأساس إنّ حادثة شقّ القمر أصبحت رسالة للأمة المحمدية ويتحتم علينا من أجل إثبات حقيقة الإسلام للناس أن نشقّ القمر مرة أخرى . وعلى عكس ذلك فقد فهم المسلمون ما قام به النبي ﷺ وأصحابه في مواجهة الروم والفرس بأنه منهج يلزم اتباعه ، حيث قال المفكرون الإسلاميون : إننا ملزمون بمقاتلة الروم وفارس وإزاحتهما في كل عصر .

ولعل السبب في هذا التباين في تفسير الحادثتين ، يرجع إلى أن حادثة شقّ القمر حادثة تتعلق بما فوق الطبيعة ، أما هزيمة الروم والفرس فقد تمت على مستوى الطبيعة ، ولكن رغم تباين الحادثين فإن كلتيهما معجزة . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** ﴾ [التوبة : ١٤] . إن الآية لها صلة مباشرة ببني إسماعيل أما علاقتها بالروم والفرس فغير مباشرة ، علاوة على الفرق الذي يتميز به كل واحد عن الآخر وهو أن الإسلام كان مطلوباً من بني إسماعيل بشكل إلزامي ، بينما كان المطلوب من الآخرين الطاعة فحسب .

إن المعجزات التي زوّد بها الأنبياء السابقين كانت مرتبطة بما فوق الطبيعة ، لذا لم ينشأ إزاءها أيّ فهم خاطيء . إلا أن المعجزات التي جاء بها النبي ﷺ كان بعضها في شكل سياسي فاعتبرها الناس نموذجاً ومنهاجاً بدل أن يفهموها كمعجزة ، والحقيقة أنها كانت - في الأساس - معجزة وليست نموذجاً يلزم اتباعه .

إن المنهج الذي خلّفه النبي ﷺ فيما يتعلق بغير المسلمين هو نفسه الذي تركه الأنبياء الآخرون ألا وهو دعوة الحق وتبليغ الرسالة . هذه هي

المهمة الملقاة على عاتق المسلمين الآن ولا يجوز محاربة غير المسلمين إلا فى حالة الدفاع الاضطرارى الذى لا مفرّ منه، إذ الأمم غير المسلمة ليسو معارضينا السياسين بل هم بمثابة المدعوين بالنسبة لنا وتلك هى رسالة المسلمين للأبد .

مطالعة في صفحات

(البلقان) كلمة تركية تعني (الجبل) ، ويكثر استعمال هذه الكلمة في أوزبا الشرقية على الجزء الذي يضم كلاً من اليونان وألبانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا ، وقد خضعت هذه المناطق بكاملها تقريباً لهيمنة الأتراك العثمانيين في منتصف القرن الخامس عشر . وظلت تحت سيطرتهم حتى مطلع القرن العشرين .

قد نهضت هناك حركات تحرر قومية ، استمدت قوتها وحيوتها من الدول الغربية لا سيما الاتحاد السوفيتي ، حتى اضطر الأتراك إلى الانسحاب والتنازل عنها ، فتنازلوا عن اليونان وأعطوها حريتها في تقرير مصيرها سنة ١٨٢٩م . ومنذ ذلك الحين بدأوا ينسحبون عن باقي المناطق الخاضعة لها ، حيث تنازلت عن سربيا ورومانيا سنة ١٩١٢م .

والمسلمون الذين عاشوا تلك الأحداث قد بنوا لهم أوكاراً على فروع السياسة ، لذا فإنه بمجرد ما اجتاحت أخبار الأتراك وتراجعهم عن البلقان أوساط المسلمين في الهند ، فقد أسفر ذلك عن ثورة في نفوس بعض القيادات فقد سجل الشيخ علي جوهر (١٨٧٨ – ١٩٣١م) في ترجمته الذاتية التي لم يكملها بعد .

(إن حادثة البلقان قد تركت في نفسي أثراً عميقاً وبعيداً إلى حد أنه كانت تساورني فكرة الانتحار) .

My feelings durings the disastrous war in the Balkans were at one time so overpowering that I must confess I even contemplated suicide .

Mohammed Ali, My life: A Fragment, Lahore 1946, p.37.

وكانت الصحف تحفل بالمقالات الشيقة والمثيرة حول هذه المناسبة كما نظم الشعراء قصائد امتزجت بالحماس الثوري المتقد . وكان من بين ما نظم من قصائد قصيدة للشيخ شبلي النعماني التي نالت شهرة واسعة وهذه بعض أبياتها :

اجتاح سيل بلقان متدفقاً
وهل يوقفه المظلوم بالأدمع
وهل زالت دولة عثمان وزال الشرع
وهل تنقده الأجيال والأعزاء بالتنهد

وقد وضعت الحرب العالمية أوزارها (١٩١٤ - ١٩١٨م) ولم يكن قد قدر للشيخ شبلي النعماني المتوفي سنة (١٩١٤م) أن يشهد ذلك المنظر الأليم الذي أدى إلى إزاحة الخلافة العثمانية من جذورها ، وإن رأى سقوط جزء منها . فليست تركيا وحدها التي ذهبت ضحية الحرب بل كافة ممتلكاتها في الشرق والغرب ، وقد خرجت من تحت سيطرة الخلافة العثمانية ، حيث أعلن كمال أتاتورك في ١٩٢٤/٣/٣٠م إلغاء الخلافة التي كانت قائمة على مستوى رسمي فحسب . إن شبلي قد شهد سقوط بعض البلاد التابعة لسيطرة الدولة العثمانية بينما بقي محمد علي على قيد الحياة حتى قدر له أن يشهد بعينيه نهايتها .

لقد سطّر قادة المسلمين عبارات حول الخلافة وأفوها في مطلع القرن العشرين ، وأشعار شبلي النعماني خير مثال على ذلك ، إلا أنه لو كان للخلافة أو الادارة السياسية تلك الأهمية والثقل لأدت نهايتها إلى نهاية الإسلام أيضاً ، لكن الإسلام - في الواقع - وبعد سبعين سنة من سقوط الخلافة ما زال

يتمتع بحيويته ، بل إنه قد تحسّن وضعه كثيراً وكسب مزيداً من الإشعاع لم يكن يتمتع به من قبل .

صحيح أن المسلمين (كأمة) قد عانوا - خلال السبعين سنة الماضية - ألواناً من الاضطهاد وزلزلوا زلزالاً شديداً ، إلا أن الوضع قد تغيّر والأحوال قد تبدّلت ، فاليوم نرى الكتب والصحف تطبع وتنشر باسم الإسلام بينما لم يكن ذلك في السابق بأي شكل من الأشكال والمخطوطات التي اضطر الشيخ شبلي أن يسافر من أجلها إلى مصر وإيطاليا والشام اليوم تطبع وتنشر في كل بلد وفي كل محافظة ، والدوائر الإسلامية قد أنشئت اليوم في كل مكان من العالم الإسلامي ، والملتقيات والمؤتمرات التي تعقد اليوم في أرجاء العالم الإسلامي كانت حلماً عند الناس في السابق ، كما دخلت - خلال هذه الفترة - أفواج من الناس إلى الإسلام ، إلى غير ذلك..

إن تجربة تاريخية كهذه دليل دامغ على أن الإسلام قوة هائلة ومعين لا ينضب ، وهو أقوى من أن تنتقص من شأنه أية قوة سياسية أو قومية ، إن دين الله قد استحكم في صورة الإسلام غاية الاستحكام ، فلا خوف الآن إلا من الله ﴿ **فلا تخشوهم واخشون** ﴾ [المائدة] .

وأمام المسلم المعاصر ميدانان للنهوض بالإسلام : الأول : ميدان إبراز القوى الفطرية للإسلام عن طريق الجهود السلمية . والثاني : النهوض بالإسلام في الميدان السياسي والعسكري . ويمكن أن نرمز إلى الحقل الأول بـ (المسجد) وإلى الثاني بـ (الحكومة) .

فلو تركزت أنظار المسلمين على تلك الإمكانات التي لها صلة بالمسجد ، لما نشأ فيهم الإحساس بالحرمان والشعور بأن الطرق قد سدت أمامهم ، بل لأحسوا أنهم رغم الحرمان السياسي فإنهم لازالوا يملكون ما هو أقوى منه ، وسيقرون بأنهم إنما فقدوا (الإنسان) ولكنهم لم

يفقدوا (الله) وأنهم حرموا من الدعم السياسي لكنهم لازالوا يتلقون الدعم والحماية الكاملة من الله .

إلا أن قادة وزعماء المسلمين المعاصرين قد أضفوا على قضية فقدان الأدوات السياسية اهتماماً بالغاً ، مما أحدث في عقول المسلمين نوعاً من البلبلة : إنهم يحسون بأن فقدان الإدارة السياسية يعني حرمانهم من كل شيء ، وهذا هو السبب الوحيد الذي جعل المسلمين منذ أكثر من مائة عام ينشغلون بأمر لا طائل وراءه ألا وهو تحطيم رؤوسهم على صخرة السياسة ، حتى إذا ما تحطم الرأس أطلقوا الصيحات الصاخبة منذرين بمكر عدوهم وخداعه على حد زعمهم .

إن ذلك – بلا ريب – هو سبيل الانتحار ، ويجب على المسلمين أن يحذروه ويتبنوا سبل الحياة ، فإنهم إذا ما فعلوا ذلك وجدوا أبواب الفلاح مفتوحة على مصراعيها أمامهم . إن مسلمي العصر الحديث قد خلقوا لأنفسهم أكابر وأعاظم يقدسونهم غاية التقديس ، إلا أن هؤلاء الأكابر يجهلون أمراً أساسياً يعدّ من خصوصيات الإسلام ، وهو أن الإسلام دين الفطرة ، وهي عبارة يرددها كثيرون بكل فخر واعتزاز ، بينما مفهومها الحقيقي لا يكاد يفهمه أحد من هؤلاء .

والمراد بعبارة (الإسلام دين الفطرة) أن جذور الإسلام مغروسة في فطرة الإنسان . وطبقاً لذلك فإنه من الممكن أن توضع خطط لهدم الإسلام إلا أن استئصال الإسلام وهدمه هو أمر ليس بإمكان أي فرد أو مؤسسة القيام به . فالإسلام يفرض نفسه على كل قلب نابض حتى قلوب المعارضين له . إنه دين متأصل في كل فرد ، ولا يمكن والحالة هذه ، أن ينجح أحد في خططه التخريبية بقصد هدم الإسلام . لا أحد يستطيع أن ينفي ذاته ، ومن ثم فلا أحد يستطيع أن ينفي الإسلام أيضاً ، إذ أن نفي الإسلام يعني

نفي الشخص لذاته ، ومن ذا الذي يستطيع نفي ذاته ؟! إن هذه الحقيقة طاقة عظيمة بالنسبة للإسلام وما دام الإسلام يتمتع بهذه القوة العجيبة فلا شيء يمكن أن يدخل اليأس في قلوب المسلمين أو يؤدي بهم إلى الانتحار .

إن الإسلام هو أكبر قوة في حد ذاته ، ناهيك عن كونه حافظاً للمسلمين أيضاً .

في أكتوبر ١٩٨٨م قدر لي أن ألتقي بسائح أمريكي ، يؤمن بالله ويؤمن بالدين ، قال لي : إنه زار موسكو مرة وأمضى بها بضعة أيام ، وكان دليله فتاة روسية ملحدة ، كانت تعارض الدين بشدة وتحاول - دائماً - أن تبرهن على نظريتها بأنه ليس هناك وجود لله كما أنه ليس للدين أية حقيقة . قالت مرة للسائح : (إن صواريخنا اجتاحت الفضاء واقتحمت القمر لكنها لم تزودنا بأي تقرير على أنها رأت الله) .

يقول السائح : بينما كنت يوماً في حوار معها ، إذ قالت فجأة : يا إلهي (My God) فقلت لها : ما دمت لا تؤمنين بحقيقة الله فلماذا تلفظت بـ (يا إلهي) فأخذتها الحيرة ، حتى أقرت - بعد برهة من الزمن - بأن الحقيقة هي ما نطق بها لسانها فجأة ، والآن قد زال الستار المصطنع وبرزت إنسانيتها الحقيقية الكامنة ، وقد تأثرت الفتاة بالسائح تأثراً عميقاً حتى كشفت عن رغبتها في الزواج به وقضاء ما تبقى من الحياة معه .

إن العقيدة تجتاح الفطرة الإنسانية بهذا العمق ، فلا شك أنه ليس في العالم قوة أكبر من قوتها الساحرة .

كل مولود يولد مسلماً :

جاري ملر (Garey Miller) مسيحي من أصل أمريكي ومدرس للكتاب المقدس في إحدى الكليات ، قد ساورته فكرة قراءة القرآن ليطلع

على محتوياته ، ثم أجرى دراسة مقارنة بين الكتاب المقدس والقرآن ، وكانت نتيجة الدراسة أنه اكتشف واقعية القرآن وأحقيته مما ترك في نفسه أثراً بعيد المدى دفعه إلى اعتناق الإسلام ، وقد اتخذ له اسماً جديداً (عبد الأحد عمر) واستقر في كندا بصحبة زوجته التي أسلمت هي الأخرى . إنه لا يحب أن يطلق عليه المعتنق (Converted) بل يرغب في أن يطلق عليه العائد (Revert) وهو يقول : إنني لم أعتنق الإسلام بل إنني عدت إلى ديني الفطري فحسب .

I have't converted to islam but merely reverted to my brithright religion. Muslim Journal Chicago. June 21, 1985.

إن ما أفصح عنه هذا المسلم الجديد هو في غاية الأهمية ، وهو موافق للقرآن والسنة تماماً ، حيث يشير القرآن إلى أن الله تعالى خلق الإنسان على الفطرة الصحيحة : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها** ﴾ [الروم : ٣٠] . وورد في السنة : « **كل مولود يولد على الفطرة** » وبهذا الاعتبار فكل إنسان مسلم بحكم ولادته يخرج من بطن أمه بعد صياغته مسلماً مؤمناً من صنع الله إلا أن تقاليده الاجتماعية والبيئية تحدث فيه أثراً وتجعله يتخذ قالباً اعتقادياً معيناً . وبذلك نستطيع القول أن دعوة الناس إلى الإسلام – في الواقع – لا تعني تغيير دينهم بل تعني إزاحة الغلاف المصطنع من فوقهم . فلو تمكنّا من أن نزيح من فوق الإنسان ذلك الستار الاصطناعي الذي يغلّف إنسانيته لبقي لنا ذلك الكائن الذي يمكن أن نطلق عليه المؤمن والمسلم .

إن كل إنسان ، باعتبار حقيقته ، مؤمن رغم أن الدلائل تدلّ على شيء آخر ، علاوة على أن فطرة الإنسان هذه تلعب أكبر دور في حقل الدعوة الإسلامية ، أي قلب كل إنسان ينطوي على نزعة التطلع إلى دين الحق ، ومشاعر الإنسان الداخلية تصدّق على أن هذا هو الحق الذي يجدر به أن يتبناه . إن

هذا يمثل إمكاناً هائلاً بالنسبة للدعوة الإسلامية ، وهو الأمر الذي لم تحظ به غيرها من الدعوات .

درس تركيا :

إن عصمت أنونو (١٨٨٤ – ١٩٧٣) كان ضابطاً عسكرياً من أعز الناس وأقربهم إلى كمال أتاتورك ، وقد أسند إليه منصب الرئاسة بعد وفاة أتاتورك في العاشر من نوفمبر ١٩٣٨ ، وكان يعدّ من أهم الشخصيات وأكبرها بعد كمال أتاتورك .

وكان مبدأ (العلمانية) من بين المبادىء التي تبناها كمال أتاتورك وآمن بها وكافح من أجلها . ولم يكن يعني بالعلمانية الحياد أو عدم التدخل في الدين ، بل كان أبعد من ذلك وأعمق : إنها إلحادية خالصة ، أو قل – إن صح التعبير – إلحادية قصرية. هذا اللون من العلمانية قد انصبت فيه معظم الجهود في فترة حكم كمال أتاتورك وفي عهد عصمت أنونو أيضاً .

إلا أن المدهش أن تلك المحاولات التي صرفت – على مستوى الحكومة – ضد الإسلام لم تستطع أن تحول دون بقاء الإسلام في تركيا ، حيث بقي الإسلام منتصب القامة شامخاً ، حتى اضطر عصمت أنونو أثناء استفتائه الأخير أن يقضي على بعض المتدينين الذين كانوا يحولون دون حصوله على تأييد عامة الناس . وقد كشف عصمت أنونو في مرض موته عن تجربته الحياتية فقال : (إنني لا أكاد أصدق ما أرى . لقد بذلنا كل ما نستطيع لانتزاع الإسلام من نفوس الأتراك وغرس مبادىء الحضارة الغربية مكانه ، فإذا بنا نفاجأ بما لم نكن نتوقعه ، فقد غرسنا العلمانية فأثمرت الإسلام)[1] .

---

(١) الوعي الإسلامي ، الكويت . ذو القعدة ١٤٠٨ . ص ٢٧ .

إن جذور الإسلام مغروسة في أعماق الإنسان لا تنفك ولا تنفصل عنه ، وكما أن الفطرة لا تزول ولا تنمحي كذلك الإسلام . لذا كان لزاماً أن توجّه جهود خدمة الإسلام في إطار الدعوة ، إذ أن مهمة حفظ الإسلام تكمن في الإسلام نفسه .

النشاط الإسلامي الدعوي :

نعم . يلزم إجراء الأنشطة بشكل تنظيمي بقصد الوصول إلى غاية أو هدف اجتماعي . فإذا استهدف المرء خطة اجتماعية معينة فإنه طبقاً لطبيعته الخاصة يكون قد نهج أسلوباً معيناً بهدف الوصول إلى ما ينشده ، وثمة صور متنوعة لهذه الأساليب .

منها ما يطلق عليه الأنشطة المتشددة (Violent activism) ولهذه الصورة أمثلة ونظائر يحفل بها التاريخ في الماضي والحاضر . وقضية السيخ هي مثال حي معاصر ، إذ أن مؤيدي الحكم الذاتي من جماعة السيخ في منطقة (خالصتان) قد تبنوا هذا اللون من الأنشطة ، إلا أنهم لم يوفقوا في الوصول إلى مبتغاهم .

والنوع الثاني من الأنشطة يطلق عليه الأنشطة غير المتشددة (Non-violent activism) وميزة هذا النوع هو عدم اللجوء إلى استخدام الأسلحة ، بل ممارسة الضغوط على الطرف الثاني عن طريق المظاهرات والخطب والتقارير حتى يضطر الطرف الثاني إلى الاعتراف بمطالب الطرف الأول . وهذا هو الأسلوب الذي تبناه مهاتما غاندي قبل سنة ١٩٤٧ ضد الإنجليز وقد حالفه النجاح في ذلك .

أما النوع الثالث فهو ما يطلق عليه الأنشطة السياسية (Political activism) وأقرب مثال على ذلك هو سياسة الاستفتاء أو سياسة

الانتخابات حيث إن أحزاب المعارضة تستخدم هذا الأسلوب للإطاحة بالحزب الحاكم والاستيلاء على مقاليد السلطة .

لكن أساليب العمل الثلاث لا تتفق وطبيعة الإسلام ، إذ أن أسلوب العمل الذي ينص عليه القرآن والسنة هو أسلوب الدعوة ، لنطلق عليه حسب المصطلحات المعاصرة الأنشطة الدعوية (Dawah sctivism) ويتضمن هذا الأسلوب الوسائل الجدية الصادقة : كالإقناع بدل الإرغام ، وكسب القلوب بدل قمعها ، وتبني أسلوب النصح وإرادة الخير بدل المعارضة ، والعطف على الطرف الثاني بدل التنكر له ، حتى يبدأ الدعاء يخرج من الأفواه بشكل عفوي فالدعوة هي إرادة الخير وليست المعارضة أو التنكر .

إن هذا النشاط الدعوي هو – في الواقع – عمل إسلامي أصيل ، وهو الأسلوب الوحيد الذي يمكن للمسلمين أن يروا بواسطته سبيل النجاح في الدنيا الحاضرة العابرة وفي الحياة الآخرة الأبدية .

الشعور الدعوي :

إن أهم وأعظم ما فقده المسلمون المعاصرون هو الشعور الدعوي ، والمسلمون يتمتعون بنعمة عظيمة عن طريق الدعوة التي وضعتهم وسط الأمم الأخرى في وضع موات وملائم (Advantageous position) إلا أنهم بسبب فقدانهم الشعور الدعوي يحرمون اليوم من استخدام هذا الإمكان العظيم ، وهم يضيّعون قواهم وإمكانياتهم في أنشطة لا طائل وراءها ، أو قل إنها ليست بأنشطة البتة .

إن أكبر شيء يمكن عمله اليوم هو إحياء الشعور الدعوي وإعطاؤه مكانته . وكل ما نفعله في ميدان أو ميادين أخرى عدا هذا الميدان سوف لا يؤدي إلا إلى ضياع الطاقات ورؤوس الأموال ، مهما تراءت لنا تلك الميادين مجدية أو مهمة .

من نحن

في سبتمبر عام ١٩٨٢م ، كنت في زيارة إلى العربية السعودية ، والتقيت هناك بعالم عربي ، فجرى بيننا حوار ذكر فيه أثناء حديثه ، أنه كتب مقالة نشرتها إحدى المجلات العربية وعنوانها (من نحن) قال : إننا أولاً وقبل كل شيء لا بد أن نحدد هوية المسلمين ونشخصها (Identity) قبل أن نبدي ملاحظاتنا وآراءنا حولهم . يلزم علينا أن نتعرف على هوية المسلمين في عالمنا المعاصر ، فإذا ما فعلنا ذلك نستطيع أن نرسم الطريق الصحيح الذي يمكن أن يسيروا فيه .

إن ما ذكره هذا العالم العربي قول صادق كل الصدق . إذ الواقع أن الإجابة على سؤال : (ماذا نعمل ؟)إنما تتوقف على الإجابة على سؤال : (من نحن) ؟ . فتحديد لوائح العمل القومية بشكل دقيق وصحيح لا يمكن أن يأتي دون تحديد الهوية القومية بشكل دقيق أيضاً . وبذلك نحصل على المعيار الذي يمكن أن نقيس به أعمال المسلمين وكل ما يقومون به أهو صحيح أم خطأ .

دعونا نضرب مثال أمريكا . فسؤال (من نحن ؟) كما يشغل بالنا فإنه يشغل بال الأمم الأخرى أيضاً . فنجد أمريكا – مثلاً – تضع المسألة نفسها في الاعتبار ، إذ يجيب عن ذلك الرئيس الأمريكي الثلاثون (مستر كالون كولج) الذي شغل منصب الرئاسة من عام ١٩٢٣م إلى ١٩٢٩م . وكانت إجابته هي : أن مهمة أمريكا هي التجارة .

The business of America is business.

فجعلت أمريكا موضوع التجارة هدفها المنشود في حياتها ، كما انصب جل اهتمامها على التجارة ، وكان النجاح حليفها إلى أبعد حد ، فقد سيطرت على عالم الاقتصاد طيلة خمس وعشرين سنة منذ الحرب العالمية الثانية ، بداية من أرقى أنواع التكنولوجيا إلى الطاقة النووية إلى الآلات الالكترونية الدقيقة ، كل ذلك كان تحت سيطرة أمريكا . إلا أن بوادر التحول بدأت تلوح في سماء أمريكا بعد ١٩٧٠ ، وأخذت الأزمة تتفاقم شيئاً فشيئاً إلى أن قرعت أبواب أمريكا سنة ١٩٨٨م ، حيث بلغ التحول مداه مما اضطر أمريكا إلى إعادة النظر في اقتصادياتها .

إن الوضع الجديد اليوم هو أن كلا من اليابان وألمانيا الغربية وكوريا الجنوبية قد فرضت سيطرتها على الأسواق العالمية ، كما أن اليابان تتحكم في معظم تجارة أشباه المواصلات (Semi conductor) وقبل سنة ١٩٧٠م كانت أمريكا تزود العالم بـ ٩٥٪ من طائرات النقل الجوي إلا أن سائر الدول الغربية بدأت اليوم تتقدم في هذه الصناعات ، فطائرات (ايرباس) أخذت تسيطر على ٢٠٪ من أسواق النقل الجوي .

وخلاصة القول أن خللاً حدث في ميزان التجارة الأمريكية (Trade balance) ويقدر العجز المالي لأمريكا سنة ١٩٨٨م حوالي ٣٠ بليون دولار مقابل الدول الغربية و ٦٠ بليون دولار مقابل اليابان .

كان لدى الأمريكيين معيارٌ محدد ينظرون به إلى شؤونهم ألا وهو التجارة . وحين شرعوا في تحديد مواطن الخطأ وفق معيار التجارة كانت النتيجة التي وصلوا إليها هي أن اهتمامهم المفرط بالبحوث الدفاعية والتقنية العسكرية هو الذي خلق هذا الوضع غير المتوازن . لقد خصصت أمريكا - مثلاً - سنة ١٩٨١م نصف ميزانيتها للصناعات المتصلة بالدفاع ، وفي سنة ١٩٨٦م خصصت لهذا الأمر ٧٠٪ من ميزانيتها . بينما نجد أليابان - مثلاً -

قد صرفت في الوقت نفسه ٢ - ٥٪ من ميزانيتها في سبيل تطوير التقنية الدفاعية ، كما انشغلت أمريكا في صناعة القذائف والصواريخ بينما انصرفت الدول الأخرى إلى صناعة السيارات والكمبيوتر ، وكان نتيجة ذلك أن أمريكا رغم أنها أحرزت تقدماً في التكنولوجيا العسكرية (Military technology) إلا أنها أصبحت متخلفة في ميدان التقنية التجارية (Commercial technology) .

إن الخسارة التي منيت بها أمريكا كانت فادحة بالنظر إلى المعيار الذي يقاس به معدل زيادة المنافع القومية ونقصانها ، ومن ثم كان لزاماً عليها أن تغيّر وجهة سياستها وهو ما تتجه نحوه الآن ، فقد أصدر الكونغرس الأمريكي قانوناً تجارياً جديداً (US Trade Bill-1988) وذلك سنة ١٩٨٨م والذي تم بموجبه تحويل مسار الاقتصاد الأمريكي تماماً . قبل هذا كانت أمريكا تخصص معظم ميزانيتها في سبيل تطوير التقنية العسكرية ، والآن قد تغيرات نظرة أمريكا ،، وستصرف معظم دخلها في سبيل تطوير التقنية التجارية[١] .

لقد كان الرئيس الأمريكي (ريغان) يكره الاتحاد السوفيتي ، وينتقده انتقاداً لاذعاً ، ولم يكن يخطر ببال أحد أنه سيقوم بزيارة إلى موسكو ليعمل على التفاهم مع القيادة السوفيتية ، كان يطلق على السوفيت الامبراطورية الشيطانية (Evil empier) إلا أنه إذا لم يعمل على إنهاء علاقة المعارضة والمخاصمة مع السوفيت فلا يمكنه إغفال الأنشطة العسكرية والاتجاه إلى تطوير الأنشطة التجارية (إذا أردت تحقيق شيء فإنه قد يتطلب منك التنازل عن شيء آخر) لذا لجأت أمريكا إلى سياسة التفاهم والتبادل تاركة ما كان بينها

(١) Times of India ، ٦ سبتمبر ١٩٨٨

وبين السوفيت من علاقة الصدام . يقول مفكر أمريكي معقباً على سياسة التحول التي اتبعها ريغان : (يبدو أن السيد ريغان نفسه قد تخلى عن ريغانيته) .

Mr ,Reagan himself seems to have forsaken Reaganism.

وقد لخصت مجلة التايم ٢٦ سبتمبر ١٩٨٨م هذا المشروع في قولها : « إن توجه أمريكا كان من قبل مركزاً على البناء العسكري (Militarization) بينما انصب توجهها الآن في مجال نزع التسلح (Demilitarization) .

مسلمو العصر الحديث :

إن كل ما واجهته أمريكا من أوضاع يواجهه المسلمون اليوم إذ أن المسلمين المعاصرين - بغض النظر عن الحدود الجغرافية - منصرفون في التقاتل والتناحر مع إخوانهم تارة ومع الأمم الأخرى تارة أخرى ، مما أدى إلى تخلفهم في مختلف المجالات . والواقع الذي لا مراء فيه أن المسلمين أمة متخلفة في مجال العلوم والاقتصاد ، وسبب ذلك هذا التناحر والتقاتل . وبينما استطاعت أمريكا اكتشاف مواطن عثراتها خلال تجربة السنوات العشر ، حيث أحدثت تغييراً واضحاً في سياستها وبرامجها القومية وتخطيطها ، أمضى المسلمون ما يزيد عن مائة عام وهم يغطون في سبات عميق .

لقد خاض كل من الشيخ السيد أحمد بريلوي والشيخ شاه محمد إسماعيل حرباً ضارية ضد (رنجيت سينغ) سنة ١٨٣١م في إقليم البنجاب ، مني فيها المسلمون بهزيمة منكرة وأضرار فادحة في الأرواح والممتلكات . كما حارب علماء الهند الإنجليز سنة ١٨٥٧م وكانت هذه الحرب غير متكافئة إلى درجة كبيرة ، فنزلت بهم الهزيمة وألحقت بهم أضراراً فادحة ، ولم تزل آثارها سارية في أوساط المسلمين . وبعد أن تم انفصال الباكستان ١٩٤٧م

انشغل المسلمون في إضرام نار الحقد الطائفي بينهم وبين طبقة الأكثرية فكانت النتيجة أن المسلمين يدفعون ثمناً باهظاً من جراء الفساد والاضطرابات الطائفية القائمة .

هذه الصورة أصبحت سائدة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم . إن المسلمين في كل من سريلانكا وإرتريا وبورما والفلبين والموزمبيق وغيرها من الدول متخلفون في ميادين التعليم والاقتصاد والاجتماع بشكل يدعو إلى الدهشة . والسبب الوحيد في ذلك عدم تمكنهم من توجيه أنظارهم إلى الأعمال البناءة لتورطهم في مواجهة الحكام ومعارضتهم لهم .

واستمرت الحرب الإيرانية العراقية الدموية (١٩٨٠ - ١٩٨٨م) طيلة ثماني سنوات ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الأرواح بدون فائدة ، إذ دفعت الحرب العالم الإسلامي إلى الوراء في ميادين البناء والعمران . ومثل هذه المسرحية الدموية معروضة في أرجاء العالم بشكل أو بآخر مما أدى بالمسلمين إلى خسران محقق ، ورغم هذه الحقبة الطويلة التي مرت بالمسلمين إلا أنهم لم يتمكنوا بعد من إعادة النظر في شأنهم .

ترى ما السبب في هذه الغفلة التي أدت بهم إلى شفا حفرة من الهلاك ؟ أقول إن السبب الوحيد في ذلك هو أن المسلمين صاغوا نظرية مصطنعة هي بمعزل عن الواقع ، إجابة منهم على سؤال (من نحن ؟) والتي أعمتهم من أن يروا مواطن الخطأ في أعمالهم . فالجهاد عندهم هو القيام بأعمال الشغب غير المجدية ، والتضحية عندهم هي أعمال التدمير والتخريب ، وإعلاء كلمة الله تعني لديهم الهتافات والصيحات ، والشهادة هي أن يسقطوا قتلى ، ومن ثم لا تتراءى لهم سياسة التناحر خاطئة ، والشيء الذي يراه المرء صائباً غير مستعد للتخلي عنه .

وكنتيجة لهذه الأفكار الخاطئة لا يوجه أي نقد للمهالك والأعمال

التخريبية تلك ، بل يتم تقديسها بكل عاطفة وحماس بالغين . وتلاحظ ذلك من المجلد الثاني لسيرة (السيد أحمد شهيد) تحت عنوان « مكانة شهداء بالاكوت » . إن هذا النوع من التقديس للخسارة إنما تجده لدى المسلمين المعاصرين فحسب ، فتاريخ الإنسانية يخلو من مثل هذا النوع من الجمود والتخلف العقلي . إن النتيجة الحتمية لتقديس الخسارة هو أن يستمر تسلسلها دون توقف .

الخطأ في التشخيص :

إن قضية مسلمي اليوم إنما هي قضية الخطأ في التشخيص . إنهم اكتشفوا إجابة خاطئة على سؤال (من نحن ؟) مما أدى إلى ذهاب أنشطتهم أدراج الرياح ، فضلاً عن أنهم فقدوا تلك المشاعر التي يمكنهم بواسطتها قياس الأخطاء وتحديد مواطنها والمبادرة إلى تصحيحها . وهذا الخطأ في التشخيص له عشرات الأمثلة في معظم كتابات قادة المسلمين وخطاباتهم .

(آزاد سجاني) عالم ديني متحمس ومتلهف إلى إقامة الحكومة الإلهية ، وقد علم أتباعه حين يلتقي أحدهم بالآخر ويقول أحدهم (السلام عليكم ورحمة الله) بأن يرد عليه الثاني (نحن خليفة الله) . إن ذلك يبدو غريباً إلا أنه يكشف لنا بوضوح عن أمزجة المسلمين المعاصرين وعقليتهم ؛ إذ أن المسلمين وضعوا جواباً غريباً لسؤال (من نحن ؟) ألا وهو (نحن خلفاء الله) . واعتقدوا بأنهم خلفاء الله في الأرض وأنه قد تم اصطفاؤهم ليصبحوا حكاماً ورؤساء عليها وقادة الدنيا المنتدبين من قبل الله .

إن تلك العقلية غير قرآنية وغير ربانية ، وهي النموذج الغالب بين المسلمين حتى أنك لا تستطيع أن تحظى بتأييد المسلمين المعاصرين إلا إذا أشبعت هذا النموذج المتعطش من العقليات . إن (إقبال) يتمتع بقبول

المسلمين وتأييدهم لأنه نجح في تغذية تلك العقلية المتعطشة وإشباعها بألفاظ تزيد من حماسها وعاطفتها ، وألسنة المسلمين كثيراً ما تردد.هذا الشعر من أشعار إقبال : (اعتنق الصداقة والشجاعة والعدل مرة أخرى سيتم اختيارك لإمامة العالم وقيادته) .

والمفكرون المسلمون يرددون نفس الكلمات بصورة أو بأخرى ، فهناك من يفسر الدين بمعنى (الحكومة) وهناك من يقول : إن هدف حياة المسلمين هو إقامة الحكومة الإلهية في الدنيا كلها ، وهناك من جعل إقامة الدين هو هدف المسلمين إلا أنه يعقب بعد ذلك بأن المراد بإقامة الدين إقامة الحكومة .

ذات مرة طرحت على شاب كشميري سؤالاً مفاده أن المسلمين يستحوذ عليهم الخمول في مجال العلم والاقتصاد إلا أنهم مستعدون دوماً لمحاربة الآخرين ومواجهتهم ، فما سبب ذلك يا ترى ؟ فأجابني الشاب قائلاً : السبب هو أن المسلم يظن بأنه دكتاتور . أعتقد أن هذه العبارة كافية لتحليل نفسية المسلمين المعاصرين .

محاسب الكون :

إن شيخاً مسلماً يتمتع بقبول في أوساط المسلمين ، ويعد من الشخصيات البارزة بين المسلمين المعاصرين يقول في كتاب مشهور له تحت عنوان : (حملة لواء الدين ومحاسبو الكون) : (إن المسلمين بالنظر إلى دينهم جيش الله في الأرض ومحاسبو الكون ، ففي اليوم الذي يستيقظون فيه ويقومون بمهامهم الملقاة على عاتقهم سيكون ذلك اليوم يوم الحساب بالنسبة لأمم الشرق والغرب)[1] . ويقول في موضع آخر : (الشيء الأهم هو أننا

---

(١) حملة لواء الدين ومحاسبو الكون : ص ٣٩٤ .

الأمة الأخيرة وحملة القرآن والداعين إلى الله ومحاسبو الكون) .

وقد عبر إقبال عن هذه الحقيقة على لسان إبليس ، حيث أثيرت في مجلس شورى لإبليس قضية الأمم المختلفة والمخاطر المتفاوتة التي يمكن أن تجتاحهم ، وأدلى رئيس المجلس بأن نظامنا تحوطه مخاطر الاشتراكية ومخاوف الملكية وأخطار الجمهورية إلا أن إبليس لم يحفل بهذه المخاطر بل رد قائلاً :

إن كل نفس تضطرب من يقظة هذه الأمة

وأنه لحقيقة أن دينهم محاسب الكون

إن عقلية القيادات الإسلامية بأكملها تقريباً قد تبنت الفكرة القائلة بأن الأمة الإسلامية هي أمة حاكمة ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، إذ لم يكتفوا بكونهم (حكام الأمم) بل يطمحون إلى إعطاء المسلمين منصباً أعلى وأرقى يجعلهم حكاماً للكون وما فيه . إن هذا الطموح قد استلهمه الشاعر بقوة حدسه رابطاً إياه بمجلس شورى لإبليس ، وتم الإعلان عن أن المسلمين هم محاسبو الكون استناداً إلى قول إبليس المفترض .

فما أعجب ما يفعله المسلمون ، إنهم يبتدعون منصباً راقياً استناداً على مقولات إبليس ، في حين أن مقولات الله ورسوله تخلو تماماً من مثل هذا المنصب المفروض .

لا نجد في القرآن ولا في السنة النبوية كلها نصّاً يشير إلى أن المسلم محاسب الكون ، ولكن الذين يحرصون على أن يروا أنفسهم في ذلك المنصب الكوني ابتدعوا ذلك واستخدموه من كلام إبليس المزعوم . لربما أعماهم حماسهم الجامح عن فهم أن مناصب المسلمين تؤخذ من كلام الله ورسوله وليس من كلام إبليس .

منزلة الحاكمية :

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما مصدر النظرية القائلة بأن المسلمين هم حكام الأمم . وهنا أيضاً نجد القرآن والسنة كلها خالية من نص واحد يقول بأن المسلمين حكام الأمم ، فمن أين لنا بهذه النظرية ؟ نعم هناك نص في كتاب الشيخ المذكور يقول : (ما يتعلق بإقامة المسلمين في دولة ما وتحديد مكانتهم ومهمتهم الوظيفية نجد لها نموذجين في سلسلة التاريخ الطويل وذخيرة الفقه الإسلامي الواسعة ، وهو إما إن يتبنى المسلمون حيثية الحاكم حيث تكون الدولة خاضعة لسلطان الحكومة الإسلامية كما كانت الامبراطوريتان الرومانية والفارسية خاضعة لبسط المسلمين في فترة ما بعد الخلافة الراشدة . وكان المد الإسلامي قد بسط سلطانه انطلاقاً من الجزيرة العربية إلى مراكش ، وكان المسلمون قد فتحوا الجزء الشمالي لإفريقيا بأكمله ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل عبروا البحر وفرضوا سيطرتهم على أسبانيا الأوربية ، وفيما يتعلق بهذه الحيثية نجد فيها أحكاماً واضحة وصريحة وإشارات قرآنية وآثار الصحابة توضح لنا موقع المسلمين ومنصبهم في مثل هذه الدول ... وإما أن يكونوا أقلية محدودة لا طاقة لها في إحداث أي أثر في شؤون الدولة ولا يحق لها أن تساهم في نظمها فهم يعيشون حياة محكومة خالصة)[٢] .

رغم أن هناك ذكر نموذجين في هذه العبارة إلا أن الواقع هو أن النموذج في الأصل – طبقاً لتوضيح الشيخ – واحد لا غير ألا وهو (الحيثية الحاكمية) ذلك أن الحيثية المحكومية في حد ذاتها ليست نموذجاً مستقلاً ،

(٢) نفس المصدر : ص ٩،٨.

بل كل ما في الأمر هو أنها حالة غير مرضية ناشئة عن فقدان الحيثية الحاكمية المنشودة .

ترى ما هو مصدر هذا النموذج الحاكمي ؟ إننا نلمس إجابته من فقرة وردت في العبارة السالفة وهي : (بعد الخلافة الراشدة) فهي توضح أن شيخنا يعتبر انطلاق التاريخ الإسلامي منذ فترة ما بعد الخلافة الراشدة ، فالتاريخ الإسلامي لديه عبارة عن فتوحات الممالك وحكومة الأمم ، لذا فإنه قد عثر على نموذج راق وجيد هو (النموذج الحاكمي) .

إنه بلا ريب أن ذلك خطأ أكبر من جبال الهملايا ، لأن التاريخ الإسلامي ينطلق من بعد حراء وليس من بعد الخلافة الراشدة ، إنه ينطلق من مكة حين شرع النبي ﷺ في دعوة الناس إلى التوحيد ، ولو بدأ شيخنا من مكة لكان قد عثر - أولاً قبل كل شيء - على نموذج الداعية إلا أنه حين بدأ من بعد الخلافة الراشدة فلا عجب أن تصبح الحكومة والمناصب وما يتصل بهما هوية المسلم الأساسية .

إن نموذج الدعوة والداعية في التاريخ الإسلامي قد بدا عند (توماس أرنولد) لامعاً مشعاً إلى حد أنه قد خصص كتاباً يتناول هذا الموضوع يضم خمسمائة صفحة تحت عنوان (الدعوة إلى الإسلام) بينما المفكرون المسلمون لا يرون في التاريخ إلا النموذج الحاكمي ، ولا يتراءى لهم نموذج الداعية . ياله من فارق عجيب بين كاتب مسلم وكاتب مسيحي ، ربما يرجع ذلك إلى أن الباحث المسلم قد كتب التاريخ تحت عقلية متأثرة لا تعبأ بالموضوعية بينما ألفه المؤلف المسيحي تحت عقلية موضوعية متجردة .

عمى الدعوة :

من الأمراض التي تصاب بها العين ما يسمى بعمى الألوان (Colour blindness) والمصاب بهذا المرض يسمى أعمى الألوان

(Colour blind) وهو مرض ينشأ نتيجة حدوث خلل في حدقة العين (Retia) والمصابون بهذا المرض لا يتمكنون إلا من رؤية بعض الألوان دون البعض الآخر .

وهناك أنواع عدة لهذا العمى فمنهم من هو أعمى اللون الأزرق ومنهم من هو أعمى اللون الأخضر وهكذا ، غير أن المصاب به لا يشعر بإصابته بذلك المرض بل يجهله تماماً ، إنه على علم بتلك الألوان التي تسمح عينه برؤيتها بينما الألوان التي لا يتمكن من رؤيتها يحسب أنه لا وجود لها البتة .

إن أوضاع المسلمين الراهنة توحي لنا بأنهم أصبحوا مرضى من هذا النوع مما يدعونا إلى أن نطلق عليهم (عمى الدعوة) . إذ أن المسلم المعاصر يرى كل شيء سوى شيء واحد يتعامى عنه ألا وهو أمر الدعوة وما يتصل بها . وقد أصيب بهذا المرض أكابر المسلمين بقدر ما أصيب به عامتهم ، والمصاب بمرض عمى الألوان قد يحفظ أسماء الألوان مثلاً : الأحمر أو الأزرق أو الأخضر إلا أنه يجهل حقيقتها تماماً ، وهذا الأمر ينطبق تماماً على الذين أصبحوا عمي الدعوة ، حيث إنهم يرددون لفظة الدعوة لكنهم يجهلون حقيقتها تماماً . إنهم يرددون كلمة الدعوة إلا أنهم يتحدثون عن أشياء لا تمت بصلة إلى الدعوة حتى أنهم أحياناً يتجاوزون الحد حين يتفوهون بكلمات تخالف تماماً مصالح الدعوة وأنشطتها .

وكان من نتائج هذا العمى الدعوي أن المسلم المعاصر تتراءى له أحكام القتال في القرآن والسنة بينما يتغافل عن أحكام الدعوة إلى الله ، ويعثر على ألفاظ قيادية بهدف إبراز مكانة المسلمين ومنصبهم بينما هو لا يقف على الألفاظ الدعوية ، كما يجد في التاريخ الإسلامي وذخيرة الفقه نموذج المسلم الحاكم بينما يخفق في العثور على نموذج المسلم الداعية ، إنه على دراية بالمصطلحات التي تتعلق بدار الحرب ودار الإسلام لكنه يجهل مصطلح دار

الدعوة جهلاً مطبقاً ، إنه يرى في التاريخ الإسلامي وقائع فتوحات الممالك بينما يغفل تماماً وقائع تسخير القلوب ، ويبصر تلك الحقبة من التاريخ التي كان المسلمون فيها حكاماً ورؤساء بينما يتعامى عن تلك الحقبة التي كان فيها المسلم داعية إلى دين الله بين عباده .

هذا هو المسلم من الطراز الجديد ، ربما يصح القول بأنه مصاب بعمى الدعوة (Dawah blind) وهذا هو السبب الذي جعل المسلم يفهم الأمور الأخرى فور سماعها إلا أنه لا ينتبه إلى قضية الدعوة ومصالحها إذا ما عرضت أمامه كأنّ عقله عاجز عن إدراكها ، ولعل النتيجة الفادحة لهذا النوع من العمى الدعوي هو أن المسلمين لا تتراءى لهم تلك الإمكانات الدعوية التي يسرها الله لهم ، إنهم رغم وقوفهم على شفا إمكانات عظيمة اتخذوا الشكوى والاحتجاج شغلهم الشاغل . لنضرب لكم مثالاً توضيحياً على ذلك .

في محكمة كلكتة :

قد فصلت القول فيها تحت موضوع (الإمكانيات الجديدة للدعوة الإسلامية) لذلك سأكتفي بهذا الموجز حولها : لقد سجل قاضي محكمة كلكتة العليا (بدماخستفير) دعوى رفعها (جندن مل جوبرا) بتاريخ ١٨ إبريل ١٩٨٥م والتي طالب فيها بفرض حظر على نشر القرآن وطباعته في الهند مدعياً أن القرآن يعرض عقائد تشكل خطراً بالنسبة للتيارات غير الإسلامية . وقد رفض القاضي (باسك) في ١٧ آيار ١٩٨٥م هذه الدعوى ، حين أعرب عن رأي المحكمة الأولية ، وهذا جانب مما ورد في إعلان المحكمة تحت رقم (٤٠) .

(للأسباب المذكورة سلفاً يبقى هذا الطلب مرفوضاً) .

For the aforesaid reasons this application stands dismissed.

وفي ١٤ نوفمبر ١٩٨٥م أعلن مستر ديك سين ومستر شيامل القاضيان الناطقان بلسان المحكمة عن حكمها الأخير ، أعرب فيه المستر ديك عن رأيه في أن القرآن هو كتاب أساسي مقدس لدى المسلمين ، ولم يحدث من قبل في أية دولة حضارية أن رفعت مثل هذه الدعوى ضد القرآن منذ زمن محمد ﷺ حتى الآن .

وأضاف القاضي قائلاً : إن البند رقم (٩٥) من القانون يمنع اتخاذ أية مبادرة من شأنها أن تفرض على القرآن أو الكتب المقدسة الأخرى ضوابط أو قيوداً قانونية ، هذا إلى جانب أن أية محكمة ليس لها صلاحية التدخل في شئون كتاب سماوي وتاريخي وقال القاضي شيامل معرباً عن رأيه : إنه لا يحق لنا أن نقبل في بلد علماني أية دعوى تطالب بفرض حظر على كتاب سماوي مقدس ، ولا يمكننا أن نضع عليه أية ضوابط أو قيوداً .

وطبقاً لمجريات الأحداث ، فإن المسلمين لا يحتاجون إلى القيام بأي عمل ضد دعوى (جندن مل) ، فقد قام الآخرون بكل ما يتصل بالقضية من رفض ودفاع ، حيث نشطت ضد دعواه كل من الحكومة العلمانية والمحكمة العلمانية من المسئولين الرئاسيين إلى المسئولين الآخرين ، ولم يهدءوا حتى رفضت الدعوى رفضاً قاطعاً .

إلا أن الجانب المدهش في الحادثة هو ما صدر من قبل المسلمين ، حيث أذاع المسلمون الهنود في وكالات الأنباء والمسلمون الأجانب في الصحف والمجلات بيانات وموضوعات حول الحادثة ، إلا أن تلك البيانات كلها قد تضمنت أمراً واحداً لا غير ألا وهو توجيه اللوم إلى الحكومة الهندية والتنديد بها لما حدث من رفع الدعوى ضد القرآن في المحكمة الهندية . لقد برز للجميع قضية الدعوى فحسب ، ولم يظهر لأحد القرار الذي صدر من المحكمة .

إن (جندن جوبرا) قد رفع مثل هذه الدعوى الساذجة والتافهة ضد القرآن من جهة ، ومن جهة أخرى حين فعل ذلك رفضت الدولة – حكاماً ورعايا – دعواه رفضاً قاطعاً ، ولم يقم من بين ۸۰۰ مليون نسمة أحد بالدفاع عن (جندن جوبرا) أو تأييده . فرغم أن الوجه الأول للحادثة أن (جوبرا) قام برفع دعوى ضد القرآن إلا أن الوجه الآخر لها أهم وأكبر حيث لم يقم أي شخص أو إدارة بالدفاع عنه ، وهذا الجانب يكشف لنا عن إمكان عظيم للدعوة الإسلامية لم يعثر عليه أحد من المسلمين ، والسبب الوحيد في ذلك أنهم مصابون بعمى الدعوة .

العقلية المحافظة :

إن العقلية المحافظة لدى المسلمين كان من نتائجها أنهم إذا رأوا مبدأ من مبادىء الإسلام التقليدية يكاد أن يزول أو ينمحي فإنهم يبدون رد فعل صارخ ضد أي حدث من ذلك النوع ، وفي المقابل نراهم غير عابئين بشأن الدعوة ، فهم لا يقلقون إذا ما أصيبت الدعوة بانتكاس ، ففي سنة ۱۹۷۹م مثلاً حين كانت مقاليد السلطة بيد حزب الشعب أصدر عضو منه وهو المستر أوبي تياجي قراراً يتصل بحرية الديانة **Freedom of religion** وكان الهدف من ورائه إنهاء عملية تغيير الدين للأبد[1] .

إلا أن القرار لم يحظ بقبول بل لقي معارضة صارمة ، ورفض البرلمان تأييده رفضاً قاطعاً ، والفضل يعود إلى المسيحيين الذين بذلوا كل غال ورخيص في سبيل رفضه ، بينما التزم المسلمون موقفاً حيادياً وكأن القضية لا تعنيهم أبداً .

---

(۱) التفصيل في مجلة الرسالة مايو ۱۹۷۹م .

الداعية وليس الحاكم :

من المصائب التي مني بها المسلمون المعاصرون ما يسمى بجنون العظمة (Paranoia) أي هوس الأبهة ، وهو مرض نفساني يجعل المصاب به يعتقد بعظمة ذاته ، في حين أن الآخرين يرفضون عظمته ، فيذهب ضحية المتاعب والمشاكل التي تنشأ عن رفض الآخرين وتنكرهم له ، مما يدفعهم إلى المعارضة المستمرة له وهو لا ينفك يرفع الشكاوي ضدهم كل ذلك لعدم اعترافهم بعظمته .

ولعلنا نستطيع أن نفهم جنون العظمة من واقعة نعيشها في كل بيت وهي المشاكل الدائرة بين الحماة والكنة . إذ أن المرأة حين تنجب طفلها تقوم باحتضانه وتربيته فينشأ حب وشوق عميقان في قلبها غير عابئة بما يلحقها من الأذى والصعاب في سبيل ذلك ، إلا أنه حين تدخل فتاة إلى بيتها بصفتها (الكنة) وتشرع في العيش تحت ظله ، تبدأ بوادر الخلاف وتنشأ المشاكل التي تعكّر جو البيت وتكدّر صفوه ، فتنفر الحماة كنتها وتخوض حرباً ضارية معها مما يؤدي إلى تكدر جو البيت فلا طمأنينة للحماة ولا للكنة ولا للولد أيضاً .

ترى ما السبب في ذلك ؟ السبب هو أن الحماة كانت تمثل مالكة البيت وحاكمته الوحيدة قبل مجيء الكنة ، كانت الأمور تجري وفق رغبتها ورضاها ، إلا أنه بمجرد مجيء الكنة يحدث طبيعياً أن تتدخل الكنة في شئون بيتها ، كما أن الابن الذي كان يدفع رواتبه لأمه هو الآن يقدمها لزوجته بصفتها منظمة البيت ، وقد كان من قبل يستشير أمه في كل صغيرة وكبيرة يفعلها بينما هو الآن في ظروف جديدة فهو يستشير زوجته بدل أمه .

إن الحماة لا يمكنها التكيّف (Adjust) مع هذه الأمور الطارئة ،

فبالرغم من أن الحماة لا تعاني من مشكلة حقيقية أصلاً بل إنها تعيش في رفاهية أكثر مما كانت عليه من قبل إلا أنها تصاب بصدمة نفسية حين تفكّر في أنها بمثابة حاكمة البيت حتى الآن والكنة بمثابة المحكومة . إن ما نطلق عليه (خصومة الحماة مع الكنة) هو تعبير آخر لعدم تمكن الحماة من التكيّف مع الظروف الجديدة .

هذا الأمر قد تعرّض له المسلمون المعاصرون بشكل كبير ، إذ أنهم كانوا يمثلون الأمّ بالنسبة للعالم ، وفجأة شعروا بأنهم تحوّلوا إلى الحماة ، هذا التغيّر في حد ذاته ، لم يكن يحمل في طياته أيّ نوع من الخطر . لنقل : إنه حالة حدثت بموجب قوانين الله في الكون ، إلا أن المسلمين حين أخفقوا في تكييف عقليتهم طبقاً للأوضاع الجديدة ، بدأوا يشكلون الجبهة المعارضة تحت نظام جديد . إننا لا نخطيء حين نطلق عليه (السلوك الجنوني للعظمة Paranoic character) .

في الوقت الذي كان المسجد البابري محرّكاً لتصاعد ثورة الحركات الإسلامية كنت قد صليت الجمعة في المسجد وكان المسجد مكتظاً بالمصلين ، وحسب ما جرت العادة ألقى الإمام خطبة باللغة الأردية قبل الخطبة العربية ، وقد ذهب الإمام في خطبته مذاهب شتى وردد أشعاراً إسلامية حماسية وتطرّق إلى مقولات خالدة لأكابر الأمة ، وقال بكل شجاعة وبسالة : ماذا يستطيع عبدة الأصنام أن يفعلوا وقد حكمناهم طيلة ألف سنة .

مثل هذه الواقعة تبيّن أن المشكلة لا تكمن في أنهم ضحية اضطهاد الآخرين ، بل المشكلة تكمن في عقليتهم التي تكونت بفعل قادة المسلمين . إن المسلم هو داعية إلى الله ، ومهمة المسلمين أن يوقظوا هذه النفسية الدعوية إلا أن قادتنا قد خلقوا فيهم بكل جرأة النفسية الحاكمية ، وما نراه اليوم

من تخبّط المسلمين في مهاوي الهلاك ما هو إلا نتيجة لتلك الأخطاء القيادية .

إن السلطنة المغولية قد انهارت كما انهارت الخلافة العثمانية أيضاً في العصر الحديث ، ومن ثم نهض كثيرون للقيام بمهمة القيادة الإسلامية ، إلا أنهم تورّطوا في ارتكاب خطأ مشترك ، فلم يفكر أحد في تناول الأوضاع الجديدة بالبحث العميق والتحليل الدقيق على ضوء القرآن والسنة ، كلهم بدأوا يرددون بشكل أو بآخر الروايات السياسية الماضية ، وكلهم ساروا في درب واحد ، فكانت خلاصة محاولاتهم تنحصر فيما عبّر عنه إمام المسجد : « قد ظللنا حكام الدنيا ألف سنة ونحن الذين سنحتل مراكز السلطة مرة أخرى » . ولم يكن الأمر قد توقف عند هذا الحد ، بل تقدم البعض وأعلن (إننا محاسبو الكون ومهمتنا هي محاسبة الكون) . ونحن لا نشك في أن هذا القول خاطيء إلى حد كبير ومضحك أيضاً ، إنه هو الله وحده فقط الذي يحاسب الكون وما فيه إن شاء ، ولا حول ولا قوة لسواه حتى يقوم بمثل هذه المهمة الشاقة التي تخص الإلٰه فقط .

وبناء على ذلك لا تجد أي دليل يثبت هذه النظرية غير الإسلامية وغير المنطقية ، لذا لجأت القيادات الإسلامية إلى تخيّلات شاعرية ، حيث تمّ عقد مجلس شورى لإبليس وافترضت المناصب المختلفة ، وأعلن بلسان إبليس عن حقيقة مفادها : (إنها لحقيقة بأننا محاسبو الكون) . والواقع أن الحقيقة المذكورة ليس مصدرها قرآن ولا سنة ، وإذا عثر أحد على آية قرآنية أو حديث نبوي يثبت أن المسلمين محاسبو الكون فليبعث به إليّ .

وعلاوة على ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول بأنه كلام إبليس ، لأن هناك نقصاً - طبقاً لقوانين فن الرواية - وهو عدم ثبوت لقاء الراوي بإبليس ، فضلاً عن أن اعتماده في أمور دينية غير معتبر قطعاً . إلا أن كلام إبليس رغم ما يكتنفه من شكوك وتذبذب فقد حظي بقبول كبار القادة

والشيوخ ، حيث يرددون تلك الحقيقة وكأنهم أدركوها حق الإدراك ، بل إنهم يعتمدونها في تحديد مكانتهم ومنصبهم الصحيح ، وكأن المقولة تتصل بسلسلة ذهبية حتى تصل إلى إبليس[1] .

يا للعجب ! لمكانة الأمة الإسلامية التي لم يتناولها القرآن ولا الحديث بل تم ابتداعها بشكل محير من كلام إبليس المفترض .

إن مسلمي العصر الحديث ورثة لهذه القيادة الخاطئة ، وعقولهم قد تكونت من شاعرية وإنشائية قادتهم المشهورين ، ولم تتشكل من كلام صادق صادر من الله ورسوله . وهذا الأمر الخطير جعل عقليتهم قد نسجت من اللغو وليس من الحقيقة ، حيث أصبح المسلمون أمة تعيش بنفسية الأمة الحاكمة ، بينما الحق والصحيح هو أن تعيش بنفسية الأمة الداعية .

والواجب علينا ، وقبل كل شيء هو أن نقوم بإصلاح هذه العقلية التي شوّهتها المفاهيم الخاطئة ، وقبل إتمام ذلك لا يمكن أن نقوم بأي عمل آخر بطريقة صحيحة ، ولا يمكن كذلك تغيير مستقبل حياة المسلمين . نعم يمكن لأحد ما أن يطلق هتافات محببة إلى الناس ويحشدهم لذلك ، إلا أن الأمر الذي لا مناص منه هو أن الانقلاب الحقيقي لا يمكن أن يقوم قبل الإصلاحات الفكرية مثلما لا يمكن أن تنبت شجرة بدون بذرة . مثل ذلك التاجر الذي أعماه الإحساس بالاستعلاء على الزبائن فيتم تقويم هذا الإحساس وإصلاحه ، لأن التجارة إنما تقوم بعقلية تجارية وليس بمزاج الاستعلاء والغطرسة .

والمسلم كما يعبّر القرآن هو (مذكّر) وليس بمسيطر على الآخرين : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾ [الغاشية : ٢٢] ، إنه ليس

---

(١) تعمير حيات : أغسطس ١٩٨٨م .

قاضياً على الدنيا بل ناصحاً فيها . وهاتان الكلمتان تظهران بوضوح الفرق بين العقلية القرآنية ، والعقلية التي خلقتها القيادات الإسلامية .

ومما لا شك فيه أن المسلمين في العصور الماضية قد تمتعوا بأشياء كثيرة من بينها الغلبة والسلطة إلا أنها كانت منحة من الله ولم يحصل عليها المسلمون عن طريق الكفاح والنضال ، إن هذه الأشياء – وفقاً للنظرة الإسلامية – تمثل إنعاماً من الله وليست هدفاً في حد ذاتها . أما مهمتهم ومسؤوليتهم فهي أن يبلغوا رسالة الله إلى العباد ويتركوا ما دونه من أشياء بيد الله ، فهو وحده يعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

والمسلمون حين فقدوا مكانتهم القيادية ، لو أمعنوا النظر وتعمقوا في أسبابها لاتضح لهم أن هذه مصيبة قد نزلت بهم لتركهم مهام الدعوة . فلو أنهم ركزوا كل محاولاتهم في عمل الدعوة لاستحقوا إنعام الله مرة ثانية ، إلا أن الأمر قد اختلف حين تركزت أنظار المسلمين في الوقائع الظاهرية ، فهم قد رأوا الواقعة لكنهم لم يروا سبب الواقعة ، وكانت النتيجة هي أنهم قد انشغلوا في رفع الشكاوي والاحتجاجات والتناحر مع الأمم التي اعتقدوا أنها مسئولة عن سقوطهم وانهيارهم . لقد توجهوا إلى الإنسان بدل أن يتوجهوا إلى الله عز وجل ، وهاتان الكلمتان يكمن فيهما سر سقوط المسلمين وانهيارهم .

إن القيادات الإسلامية المعاصرة وقعت في خطأ فادح وخطير جداً ، وهو أنهم يفكرون في مصطلحين اثنين ، مصطلح الحاكم ومصطلح المحكوم ، ويبدو أنهم لا يعرفون – على المستوى الشعوري – عدا هذين المصطلحين . لقد فهموا أنهم حين لا يتمتعون بمكانة الحاكم فهم في عداد المحكومين ، وهذا خطأ فكري ناجم عن الاعتقاد بأن المرء إذا لم يظهر مكانة المسلمين الدينية ومنصبهم في مصطلح الحاكم فإنه بذلك يصبح متهماً بأنه يريد أن يجعل

المسلمين أمة محكومة ومغلوبة أيضاً .

إن مثل هذا الرأي ليس إلا دليلاً على قصور الفهم ، فهم يملكون ميزانين اثنين فقط ولا يملكون ميزاناً ثالثاً ألا وهو ميزان الدعوة إلى الله ، وينبغي عليهم أن يقابلوا الحاكم بالداعي بدل أن يقابلوه بالمحكوم . أن يعيش المسلمون عيشة المحكومين والمغلوبين هذا لغو لا نقول به ، ولكن من اللغو أيضاً أن نقول : إن المسلمين وجدوا ليصبحوا حكاماً ومحاسبين للكون .

ليس هذا ولا ذاك ، بل الصحيح هو أن هوية المسلم هي « الداعية » ، وأن مهمته هي الدعوة إلى دين الله الحنيف . إنها رسالة ربانية خالصة ، لو قام بها المسلمون لنالوا الإنعام الإلـهي ، ولزوّدهم الله – إن شاء – بنعمه في الحياة الدنيا سواء أكان ذلك على المستوى السياسي أو غيره .

الشهادة والشهيد

لقد ضحى كثير من أصحاب النبي ﷺ بأرواحهم في سبيل الدين ، حين كان الإسلام في مهده ، وكان من بينهم عمر وعثمان وعلي وغيرهم من كبار الصحابة ، ولكن دون أن يقترن لقب الشهيد بأسمائهم كما هو الأمر الآن . ولم يرد عن المؤرخين أنهم كتبوا عن الشهيد عمر أو الشهيد عثمان أو الشهيد علي رضوان الله عليهم أجمعين .

إلا أن الوضع الآن انقلب رأساً على عقب ، حيث يردد ويكتب بكل فخر واعتزاز الشهيد السيد إسماعيل والشهيد السيد قطب ، وهذا الفارق يحمل مؤشراً على أن ذلك الاستعمال إنما هو بدعة وضعها الواضعون ، وانحراف عن سنة الرسول وعمل الصحابة . وسنحاول خلال السطور التالية شرح وإيضاح مفهوم الشهادة والشهيد .

الدور الأول :

الشهادة لغة تعني : الإدلاء بالشهادة أو البيّنة أمام القاضي أو غيره ، ومادة (شهد) قد استخدمت فيما يقرب من مائة وخمسين موضعاً في القرآن ، كلها بمعنى الإدلاء بالشهادة أو قريب من ذلك المعنى . مثل : ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ [المنافقون : ١] ﴿ **شهد عليهم سمعهم وأبصارهم** ﴾ [فصلت : ٢٠] . ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ [الأحزاب : آية ٤٥] ولقد أوّل المفسرون كلمة (الشهداء) بالمضحّين بأنفسهم في سبيل الدين ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء**

والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء : ٧٠] إلا أن هذا المعنى استنباطي لا يوجد دليل صريح عليه في هذه الآية أيضاً .

ونلاحظ أن كلمة الشهيد بدأت تستخدم اليوم بمعنى المقتول ، ولكنه استخدام غير قرآني ، فالقرآن حين يذكر أمر التضحية بالنفس في سبيل الدين يعبّر عنه بكلمة القتل مثلاً : **﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً ﴾** [البقرة : ١٥٤] . **﴿ ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب ﴾** [النساء: ٧٤]. وهكذا فالتعبير القرآني لمن يضحّي بنفسه هو (المقتول في سبيل الله) .

إن كلمة الشهيد استخدمت في غير معنى المقتول في بعض الأحاديث ، كقوله ﷺ : « **من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه** »(مسلم) . أما حديث : « **من قتل في سبيل الله فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد** » . فإن استخدام كلمة الشهيد فيه بمعنى المقتول فهو استخدام ضمني تتسع له الكلمة ، وليس هو أصل معناها . إن كثيراً من الصحابة قتلوا في سبيل الله في صدر الإسلام إلا أنه لم يحدث أن اقترنت أسماؤهم بكلمة (الشهيد) .

إن استخدام كلمة الشهيد والشهادة بمعنى المقتول ، والقتال في سبيل الله بدعة سياسية نشأت في العصر الحديث ، علاوة على أن ذلك الاستعمال قد حجب وراءه كل المعاني الأخرى التي تحتملها هذه الكلمة ، وأصبح الشهيد – بمعنى المقتول – وساماً للبطل المناضل حسب زعم المسلمين ، وأصبحت قلوب المسلمين خالية من ذلك الشعور الذي كان ينبغي أن يدفعهم إلى أن يجعلوا من أنفسهم شهداء على دين الله بين العالمين ، وأصبح التناحر والقتال مع المدعويين والموت في سبيل ذلك يعد من الأعمال الإسلامية الجبارة . إن الشهيد طبقاً للقرآن هو من يبذل جهده في سبيل الدعوة وهداية الناس إلى دين الله . بينما الرائج هو استخدام الشهيد بمعنى

من يبذل الجهد في قتال الناس وقتلهم حتى يقتل هو أيضاً . إن هذا الاستعمال - بلا ريب - هو بدعة سياسية لا تختلف عن غيرها من البدع الأخرى .

ورد في القرآن أن النبي ﷺ شهيد ، في قوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ [النساء : ٤٠] . وقوله : ﴿ **ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء** ﴾ [النحل : ٨٩] . وقوله : ﴿ **ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ [الحج : ٧٨]

إنه لمن الواضح أن النبي ﷺ لم يكن شهيداً بالمعنى الذي تستخدم له هذه الكلمة الآن . فاستخدام الشهيد إسماعيل والشهيد سيد قطب بمعنى أنهما مقتولان ، يعني أن الشهيد يستخدم بمعنى المقتول بأيدي الأعداء . لكن النبي ﷺ توفي وفاة طبيعية ولم يقتل بسيوف الأعداء ، ولكن بالرغم من ذلك كان شهيداً .. ما سبب ذلك يا ترى ؟ إنه كان شهيداً بمعنى مدلياً بالشهادة ، حيث بلّغ دين الله إلى العالمين ، ولكن لا يبدو هذا العمل جباراً كما تبدو الشهادة بالمعنى المعروف الآن . فلو لقّبت أحداً بكلمة مبلّغ فقد لقبته بلقب لا يحظى بأية أهمية في حين أن لقب الشهيد يجعل المرء بطلاً لامعاً وعظيماً ، فعبارة المبلغ سيد قطب أو المبلّغ حسن البنا لا يحظى بأية قيمَة مقابل عبارة الشهيد سيد قطب أو الشهيد حسن البنا .

الشاهد والمشهود :

إن الدعوة التي تتم في هذه الدنيا يقصد من ورائها استجلاب الشهداء يوم القيامة حين يحضر الجميع أمام الله تعالى ، ويحضر كل واحد مع ما كسب من عمل في الحياة الدنيا ، ورغم أن الله عليم بعمل كل فرد إلا أنه يستدعي الشهداء الذين سيدلون بشهاداتهم حول سلوك الآخرين إزاء

الدعوة التي قاموا بها . إن القرآن يعبر عن هذه العملية بأنها الشهادة ، والقائم بها هو الشهيد قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ [البقرة : ١٤٣] . ﴿ **ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ [الحج : ٧٨] .

وهكذا فإن البشرية تنقسم إلى قسمين : (١) الشهداء . (٢) المشهود عليهم . ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود** ﴾ قيل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم (صفوة التفاسير) . ويمكن أن نعبر عنه بالداعي والمدعو . وقد ورد في سورة ق : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ السائق يعني الملائكة والشهيد هو الداعية الذي يقوم بالدعوة عليه .

لقد استخدمت كلمة الشهيد بمعنى المقتول في سبيل الله في بعض الأحاديث النبوية ، إلا أنه ليس استخداماً ثانوياً لكلمة الشهيد بل توسيع للمعنى القرآني لكلمة الشهادة .

والشهادة ، طبقاً لمفهوم القرآن ، هي الإدلاء بالشهادة ، والقائم بهذه العملية هو الشهيد ، ولكن الشهادة على ماذا ؟ إنها الشهادة على حقائق ربانية وإعلام لأهل الدنيا بالخطة الإلـٰهية المتصلة بالخلق . ومن يقوم بهذه المهمة فإنه سيمنح منحة ربانية تمكنه من الوقوف أمام محكمة الله بصفته شاهداً رسمياً : ﴿ **ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ .

إن المسئولية الأصلية الملقاة على عاتق المسلمين اليوم هي أن يصبحوا شهداء لله ، وتقوم العملية في مرحلتها الأولى عن طريق الإعلان والتبليغ ، إلا أنها تتطلب بين حين وآخر تضحية بالنفوس في سبيل إنجاحها فالذي يضحي بنفسه هو شهيد أيضاً ، كما أن غير المقتول يعد من الشهداء ، وليس

المقتول أعلى مستوى من الشهادة من غير المقتول ، إذ لو كان الأمر كذلك لما حرم النبي من مثل هذا الفضل ، والقرآن ينص على أن النبي كان شهيداً بكل معنى الكلمة .

إن المرء حين ينهض للإدلاء بالشهادة ، أو بعبارة أخرى للدعوة إلى حقائق ربانية ، يعارضه الآخرون ويوجهون إليه تهمة الشاعرية والجنون ويحيطونه بأنواع من الأذى ، وهو رغم ذلك كله يظل صامداً لا يتزعزع عن موقفه ، إنه يواجه الصعوبات المتلاحقة من قبل الآخرين ولكنه يتحدى كل ذلك ، وأخيراً يضحي بنفسه بهدف الوصول إلى غايته . فالتضحية بالنفس في مثل هذه الحالة تعبير عن إيمان قوي ويقين قاطع بمبادئه وأهدافه .

إنه من الخطأ أن نطلق كلمة الشهيد على من يهلك نفسه في تناحر سياسي أو طائفي ، كما أنه من الخطأ أيضاً أن نطلقه على من يعدم من قبل الحاكم بتهمة قيامه بعملية انقلابية لإزاحة الحاكم من السلطة ، الشهيد هو من يضحي بنفسه في سبيل الدعوة إلى الله ، وليس الشهيد من يهلك نفسه في تناحر سياسي أو طائفي .

إن استخدام عبارة (المرحوم والمغفور له) عقب أسماء الموتى ، أصبح أمراً شائعاً ، في حين أن السلف كانوا يتبعون أسماءهم بعبارة (غفر الله له) وهي جملة دعائية أي : يغفر الله له ، بينما عبارة : (المرحوم والمغفور له) تدل على أمر قد ثبت وقوعه فعلاً ، وهذا يعني أن الميت قد حصلت له المغفرة من الله ، رغم أن الواقع هو أن الأمر كله يرجع إلى علم الله ، فهو وحده الذي يعرف أن العبد قد غفر له أم لا . والإنسان يحق له الدعاء فحسب وليس له أن يعبر عن الأمر كواقع لا مناص منه .

هذا الأمر ينطبق أيضاً على الشهيد بمعنى المقتول في سبيل الله إذ الأعمال في الدين كلها تعتمد على النية ، فإذا كانت النية خالصة لوجه الله

يمكن أن يعد الرجل من الشهداء . ولما كانت النية حالة نفسية لا يدركها إلا الله ، لذا فهو وحده الذي يعرف من هو مستحق للشهاد ومن هو غير مستحق لها ، وليس من اختصاص الإنسان أن يطلق اسم الشهيد على من يريد .

والإمام البخاري جعل باباً في كتابه بعنوان (لا يقول فلان شهيد) وشرح ابن حجر العسقلاني هذه العبارة بقوله : (لا يقول فلان شهيد أي على سبيل القطع إلا إن كان بالوحي) .

إن عثمان بن مظعون قد شارك في كثير من الغزوات مع النبي ﷺ . تروي أم علاء الأنصارية أن النبي ﷺ حضر وفاة عثمان بن مظعون ، فقالت مخاطبة نعش عثمان : رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « **وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟** » فقالت : لا أدري بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ : « **أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير** » . نعم يمكننا أن ندعو لأحد أن ينال رتبة الشهداء ، ولكن من العبث والظلم أن نحسم الأمر ونقول : إن فلاناً شهيد . فعمل الإنسان إذاً هو الدعاء فقط ، وليس من حقه أن يعلن عن النتيجة .

البدعة في الدين :

تروي عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » متفق عليه . وهناك أمران يتعلقان بهذا الموضوع أمر يدخل في صلب الدين ، وآخر يعدّ من وسائل الدين . فما يتعلق بصلب الدين لا يمكن أن نضيف إليه أشياء أخرى ، كإضافة ركعة في صلاة المغرب أو الصيام حسب الشهور الشمسية بدلاً من القمرية ، وليس ذلك إلا بدعة وقد حذرنا النبي ﷺ منها بشكل صارم : (**إياكم ومحدثات الأمور فإن**

كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) .

أما الأشياء التي تعدّ ضمن الوسائل والذرائع فلا تدخل في هذا الإطار كالسفر بواسطة المواصلات المتطورة بدل الجمال والحمير ، واستخدام مكبّر الصوت بدل إصدار الصيحات بمجرد الفم ، فمثل هذه الأشياء ليست مباحة فحسب بل هي مطلوبة أيضاً .

هناك كثير من البدع الرائجة في أوساط المسلمين ، وهناك كثير ممن نهضوا لمواجهتها بكل الوسائل الممكنة ، إلا أنه من المدهش أنهم جاهدوا ضد بعض البدع وتركوا بدعاً أخرى رائجة في أوساط المسلمين لا يقل ضررها عن تلك التي جاهدوا من أجلها . ومن بين تلك البدع . كلمة الشهيد التي ساء استخدامها في العصر الحديث ، حيث إن كثيراً من الشخصيات تقرن أسماؤهم بكلمة الشهيد ، مما أضاف إليها مزيداً من الشرف والتكريم كالسيد أحمد الشهيد والسيد إسماعيل الشهيد والشهيد سيد قطب والشهيد حسن البنا .

لا شك أن ذلك الاستخدام لكلمة الشهيد هو بدعة ، وليس أدلّ على ذلك من أسماء الصحابة التي لا تقترن بمثل هذا اللقب ، فعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين ، لم يموتوا ميتة طبيعية ، بل إنهم قتلوا بسيوف الأعداء ، ولكن لم يحدث أن قال الصحابة أو التابعون : الشهيد عمر أو الشهيد عثمان أو الشهيد علي ، كذلك لم يقترن لقب الشهيد باسم الحسين في الزمن الأول ، وسيدنا يحي بن زكريا كان نبياً ، وقد توفي مقتولاً بسيف عدوه ، لكن القرآن لا يذكره بـ (الشهيد يحي) وهلم جراً .

البدعة تقضي على السنة :

يقول النبي ﷺ : « **ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة** » رواه أحمد . فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة .

إن البدعة لا تكون شيئاً غريباً ، بل تنشأ من خلال إضفاء ثوب جديد على جزء من أجزاء الدين وإعطائه مزيداً من الأهمية . وإحداث بدعة من هذا النوع في مجتمع ما يؤدي إلى فقدانه توازنه ، ثم إن إعطاء مزيد من الأهمية لتلك البدعة يزيد الأمر سوءاً حتى يؤدي إلى رفع مثلها من السنة . وقضية الشهيد مثال حي على ذلك ، فبدعة (الشهيد) كانت سبباً في أن السنة التي ينبغي أن تتمتع بالأهمية البالغة ، أصبحت لا تتمتع بأية أهمية على الإطلاق ، ألا وهي سنة الدعوة إلى الله . إن الدعوة إلى الله هي السنة الكبرى لرسول الله ﷺ ، وهذا المجال لا يتمتع بأية قيمة لدى المسلمين .

والسبب الأكبر في ذلك يعود إلى المفهوم المعاصر لكلمة الشهيد ، فالشهيد بمعنى المقتول قد حظي باهتمام بالغ ، فإذا ما أطلق على أحد نال بسببه لقب البطولة بدون نقاش ، بينما حرم الداعية من تلك المكانة رغم بذله لأقصى الجهود ، علاوة على أن ذلك المفهوم البدعي الخاطيء لكلمة الشهيد ، جعل المسلمين يخوضون حرباً ضد المدعويين ويظلون في تناحر مستمر معهم ، مما نفر المدعويين من الإسلام وأبعدهم عنه . وذلك كله يعني أن الشهادة البدعية قضت على الشهادة الحقيقية .

غرابة الدين :

إن الناس حين يسمعون هذه الكلمات يبدون إعجابهم العميق إزاءها ، ولكن لا غرابة في ذلك فهو ما نص عليه الحديث الشريف : « **بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ** » رواه مسلم . إن هذا الحديث يشير إلى أن الناس سوف يتعلقون بالدين الذي دخله الفساد ويمتزجون به إلى درجة أنه حين يعرض أمامهم الدين الأصلي فإنهم يبتعدون عنه ولا يكادون يدركون أهميته ، ويتمسكون بدينهم المصطنع ، ويحسون بأن دين الله غريب عنهم لا يعرفونه البتة .

ورد في الحديث الشريف : « **من فارق الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه** » . إن المراد بالجماعة هنا الجماعة المثالية ، أعني بذلك صحابة الرسول ﷺ ، ومن ثم يتم إطلاق لفظ « القدوة » على الصحابة ، وليس على جماعة المسلمين على اختلاف العصور . فالمراد : من ينحرف عن سبيل الصحابة ولو قليلاً فإنه يقع في هوة الضلالة ويبتعد عن الإسلام الأصلي .

هناك وقائع عديدة في القرون المشهود لها بالخير ، راح فيها كثيرون ضحية سيوف الأعداء ، دون أن يكتب عنهم الكتاب بأنهم شهداء ، بل كتبت أسماؤهم مجردة دون أن تقترن بلقب الشهيد .

إن التعاليم الدينية هي تلك التي قام لها نموذج في الدور الأول وأما الذين جاءوا بعد ذلك ليس عليهم إلا اتباعه واحتذاؤه ، وكل حذف أو إضافة أو إنقاص منها يعد من البدعة ، وكل بدعة ضلالة سواء أكانت صغيرة أو كبيرة مستحسنة أو غير مستحسنة .

لنأخذ البدعة المذكورة مثالاً على ذلك : فكلمة الشهيد قد أعطي لها قسط من التقديس ، فهي تبلغ بالمرء إلى آخر مراحل العظمة والفضل ، وقد أسبغ هذا التمجيد والتقديس (Glorification) عن اعتبار القتال والموت من الأعمال البطولية [illegible]رة ، وأصبح الجميع يتحدثون عن القتال والدمار ويطالبون الناس بالتضحية بنفوسهم ، لأنهم اعتقدوا أن ذلك هو الأسلوب الوحيد الذي يجعلهم أبطالاً في أوساط المسلمين المعاصرين .

إن هذا الاتجاه هو بدعة بكل معنى الكلمة ، والخسارة التي أدى إليها هذا الاتجاه هي أن أنظارنا لم تبق متعلقة بالأمور الأصلية . إنه من الضرورة بمكان ، أن يوجه المسلمون اهتمامهم إلى الإصلاح الداخلي (Internal reform) ثم يتبع ذلك القيام بالدعوة الآخرين إلى الإسلام الذي يعد من

أجل الأعمال التي يقوم بها المسلم بعد الإصلاح الذاتي . إن البدعة التي ذكرناها آنفاً جعلت من الإصلاح الداخلي الصامت ونشاط الدعوة أمراً لا قيمة له ، حيث فقدت مثل هذه الأنشطة أهميتها الدعائية (News value) فالقائمون بها لا يتمتعون بتأييد الناس ودعمهم .

ولذلك نرى زعماء المسلمين قد رغبوا عن مثل هذه الأنشطة وهم يتسارعون الآن إلى ميادين القتال ، منهم من ندب قلمه ولسانه لخوض الحرب مع الآخرين ليصبح بذلك بطلاً مجاهداً ، والأكثر شجاعة هو من اقتحم ميدان الحرب وأبرز قدراته القتالية حتى سقط قتيلاً وبذلك فاز بلقب الشهيد .

إن الخبر اليقين لهذه الحالة سوف نطلع عليه في الآخرة إلا أن الأوضاع السائدة اليوم تشير بكل وضوح إلى أن الأسلوب الذي تبناه المسلمون لا يتمشى مع خطة الله تعالى ، وليس أدل على ذلك من أن التضحيات القليلة في الدور الأول جعلت الإسلام يظهر وينتصر على المستوى العالمي ، في حين أن الذين ضحوا بأنفسهم في العصر الحديث قد زاد عددهم وتضاعف ، لكن تلك التضحيات قد فشلت فشلاً ذريعاً في إحداث أي انقلاب حتى على مستوى محدود ، فلو كان الكفاح والموت الأمر الوحيد الذي يجلب رحمة الله لكانت الرحمة قد انهمرت علينا كالأمطار ، ولكن ما حدث هو أن الأرض قد أحمرت بدماء الشهداء ، وهيهات أن تمطر السماء بنصرة الله .

العمل الأخروي :

قد سبق أن قلنا : إن الدعوة إلى الله – طبقاً للقرآن والحديث – هي الشهادة نفسها ، وقد ورد في القرآن حول النبي ﷺ وأمته ، قوله تعالى ﴿ **ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ [الحج: ٧٨ . وكما ورد في الحديث النبوي : ﴿ **أنتم شهداء الله في الأرض** ﴾ . وقد س

الدعوة بالشهادة للعلاقة الوثيقة بينها وبين الآخرة . إذ أن الدعوة في مرحلتها الأخيرة هي شهادة أخروية ، فالقرآن يشير إلى أن الله بعث الأنبياء والمرسلين بهدف إعلام أهل الدنيا بما يرضي الله : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [النساء : ١٦٥] . فالذين كانوا دعاة في الدنيا يصبحون شهداء في الآخرة ، إنهم سيدلون بشهادتهم على المدعوين وفق تجاربهم الدعوية في الدنيا ، وسوف يتم إصدار الحكم عليهم طبقاً لشهادتهم .

إن النبي ﷺ كان شهيداً بهذا المعنى ، فيصبح لزاماً على من يرغب في اتباعه أن يحتذي حذوه ، فليس له أن يقتتل مع الآخرين بل يلزم عليه أن يتم مهمته الدعوية أو عملية الشهادة على الآخرين . إنه يلزم على المسلمين أن يعتبروا الآخرين محلاً لتوجيه نصائحهم وليس كأعداء لهم .

هذا هو الطريق الذي من خلاله يمكن أن ينهض المسلمون من جديد ، وما عدا ذلك فكل نشاط يقوم به المسلم ويبذل فيه جهده ثم يطلق عليه اسم الشهادة فمصيره الفشل ولا يحقق أي نجاح في حياة المسلمين . وإذا لم تفتح – أدلة القرآن والحديث – عيون المسلمين فسوف يفتحها نفخ إسرافيل في الصور .

الدعوة إلى الله

ما هو الهدف من خلق الإنسان على وجه الأرض ؟ وما هي الخطة الإلٰهية من وراء إرساله عليها ؟ إذا تفحصنا القرآن وجدنا الإجابة واضحة بيّنة ألا وهي : أن القصد من وراء ذلك كله هو ابتلاء الإنسان واختباره ، يقول الله تعالى : ﴿ **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً** ﴾ [الملك : ٢] .

إنّ هذا الاختبار هو أمر في غاية الخطورة ، إذ أنّ قضيّة الجنة والنار سيتم إبرامها بناء على هذا الإختبار الحاسم . ولخطورة الأمر وجديته فإنّ الله قد وضع ترتيباً لإحاطة الإنسان بالعلم حول خطة الله من وراء الخلق (Scheme of things) وقد صاغ الله فطرة الإنسان في شكل خاص بحيث تقدّم شهادة داخلية على هذا الأمر ناهيك عن المظاهر الطبيعية التي تظهر في آفاق هذا الكون الفسيح ، والتي تقدّم شهادة صامتة على هذا الأمر أيضاً[١] ومن جهة أخرى فإنّ الله قد رتب أمر اصطفاء الرسل والأنبياء من بني البشر أنفسهم مزوداً إياهم بعلم الحقائق مباشرة عن طريق الملائكة المطهرين ، وأمرهم بأن يطلعوا الناس عن الخطة الإلٰهية من وراء الخلق ، ويعلنوا عنها بلغة مفهومة ومدركة ، ويجعلوا إرادة الله أمام عباده شيئاً مألوفاً .

ويتضح لنا – من خلال القرآن – أن جميع الرسل المصطفين كان

(١) المزيد من التفاصيل في كتاب (الإسلام والعصر الحاضر) و (الإسلام يتحدى) .

عندهم هذا الأمر هو الرسالة المشتركة بينهم ليس إلا ، وكانت مهمتهم الأساسية هي أن يحيطوا البشر المعاصرين لهم بهذه الخطة الربانية لئلا يكون للناس حجة في الآخرة بعد الرسل بأنه لم يخبرهم أحد عن الحقيقة : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [النساء: ١٦٥].

القنبلة الموقوتة :

إذا كنت على علم بأنّ هناك قنبلة قد وضعت داخل أحد المباني ، وهي على وشك الانفجار ، لا يفصلها عن ذلك سوى خمس دقائق ، ترى ما الذي ستفعله في تلك اللحظات الحرجة ؟ إنك سوف تركزّ كل محاولاتك على إعلام كل من يوجد في داخل المبنى بخطورة هذه الحقيقة وجديتها وبأنها ستقع حتماً ، وفي مثل هذا الوضع الحرج سوف لن تعبأ بأمور أخرى مهما كانت هامّة في ظاهر الأمر . إن الأمر نفسه ينطبق على عالم الدنيا أيضاً ، إذ أن العالم بأسره يقف على قنبلة إلهية موقوتة ألا وهي القيامة . إنّ القيامة بدون شك هي لحظة حرجة وذات خطورة قصوى بالنسبة للإنسان الذي سيقبل عليها ، وهي آتية لا ريب فيها ، ويمكن أن نفاجأ بها في أيّ لحظة ، ولا أحد يعلم موعد قيامها إلا الله .

إن هذا الوضع المذهش والمحيّر للقيامة يجعل الإنسان أمام خطر داهم ، مما يقتضي منه التزوّد بمعلومات كافية حولها ، فليس للإنسان مشكلة أبلغ صعوبة منها ، فيتوجب عليه إذاً أن يكون يقظاً دائماً ، لأنها ربما تظهر أمامه في أي لحظة في صورة انفجار هائل وعظيم .

هذا هو السبب الذي جعل القرآن يعبّر عن الداعي بالمنذر ، وعن الدعوة بالإنذار ، أي الانذار من اليوم الرهيب المروّع . وورد في السنة أن النبي إذا خطب الناس وتعرّض إلى ذكر تلك اللحظة الحرجة ، كان يبدو وكأنه ينذر من هجوم عسكري مفاجيء (كأنه منذر جيش) .

فما هو الأسلوب الذي كان يستخدمه النبي ﷺ في هذا الشأن ؟ يتضح من خلال الخطبة التي خطبها عليه الصلاة والسلام عقب نزول الأمر القرآني : ﴿ **قم فأنذر** ﴾ [المدثر : ٢] .

(روى البخاري : حدثنا محمد بن سلام حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى : « **يا صباحاه** » . فاجتمعت إليه قريش فقال : « **أرأيتم إن حدثتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني** » قالوا : نعم . قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » فقام أبو لهب ينفض يديه وهو يقول : تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا .

هذا هو أسلوب الخطاب الذي استخدمه النبي ﷺ في الدور المكي ، وهو نفس أسلوب الخطاب الذي يستخدمه في الدور المدني أيضاً ، وقد أورد ابن هشام في سيرته[1] أول خطبة ألقاها النبي ﷺ أمام الناس بعد وصوله إلى المدينة ويظهر لنا من خلالها نفس الأسلوب الأخروي الذي كان قد اختاره النبي ﷺ في الطور المكي .

والواقع أن الإنسان إذ أحسّ بجدية قضية الآخرة فإنه سيعدّ ما عداها من القضايا هباء منثوراً مهما بلغت ضخامتها وكبرها ، وهو لن يعبأ بها بل سيعرض عنها إعراضاً . وهذا هو شأن الأنبياء ، إنهم يرون الآخرة رأي العين ، لذا فإنها تصبح أكبر وأعظم شيء في نظرهم ، وينذرون الناس ويحذرونهم من خطرها . وهذا الإنذار هو نقطة البداية والنهاية في رسالتهم .

(١) الجزء الثاني .

ختم النبوة :

إنّ النبي ﷺ كان آخر أنبياء الله في الأرض ، وأصبح الدين بعده محفوظاً للأبد ، إذ لا نبي بعده حتى يوم القيامة ، وهذا الاعتقاد هو ما يسمى بختم النبوة .

إن ختم النبوة – ببساطة – لا يعني نهاية حلقة النبوة وكفى ، بل إنه في الأساس مؤشر على نوعية جديدة من مهام النبوة ، أي أن مهمة تبليغ رسالة الله التي كانت تتمّ من قبل على مستوى الأنبياء والرسل ستتمّ الآن وتستمرّ في تسلسلها على مستوى أمة النبي ﷺ . إن المراد الأصلي من عقيدة ختم النبوة ، بالنسبة للأمة المحمدية ، هو أنها بعد ختم النبوة تكون في مقام النبوة ، ومن ثمّ يتعين عليها أن تكمل تلك المهمة الدعوية التي كان يبعث من أجلها الرسل .

وقد فهم المسلمون المعاصرون معنى ختم النبوة بشكل خاطيء اعتقدوا أنها تعني إذا قام رجل مختل العقل بدعوى النبوة ، فهم على استعداد لمقاومته ونقده أو الخوض معه في مناظرات على أقل تقدير . بينما في حقيقة الأمر فإنّ هذه البحوث والمناظرات وهذا الجدال لا يمتّ بأية صلة إلى عقيدة ختم النبوة ، إذ المسؤولية التي تلقيها عقيدة ختم النبوة على عاتق المسلمين هي اعتبار جميع الأمم بمثابة المدعو ، وتبعاً لذلك ينبغي عليهم أن يصرفوا جل طاقاتهم وجهودهم في سبيل تعريف كافة الأمم الدين الإسلامي الحنيف .

إن الخوض في القتال ضد شخص منكر للنبوة أو جماعة منكرة لها ، ليس من عقيدة ختم النبوة في شيء ، وليس هو من المهام الملقاة على عاتق المسلمين . إنما تقتضي عقيدة ختم النبوة – في الواقع – إنهاء كل أنواع الصراع والقتال ، وذلك لكي ينشأ جوّ معتدل قوامه التسامح والعفو بين المسلمين والأمم الأخرى ، حتى يمكن بذلك تعبيد الطرق لإبلاغ دين الله

الحنيف . والمسلمون ينبغي أن تنشأ لديهم نظرة صائبة تحمل في طياتها تصور بأنهم حملة دين الرحمة ، ولا يظنوا عكس ذلك بأنهم أمة محاربة في جوّ تسوده روح المغامرة والقتال . إن مثل هذا التصوّر الصائب والعميق ينبغي أن يأخذه المسلمون بعين الاعتبار ، ولا يبخلون بشيء في سبيله ولو اقتضى منهم التضحية بحقوقهم المشروعة .

سؤال :

إن من يطالع سيرة الرسول وأصحابه يجد أنهم قد تبنّوا في بداية انطلاقهم أسلوب الإنذار والتبشير الخالصين لمدة غير قصيرة ، إلاّ أنهم – كما يبدو – في الدور اللاحق قد انشغلوا في ساحة الحرب والفتوحات ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما هو وجه التوافق بين هذين الطورين أو بالأحرى بين هذين المنهجين ؟ إننا نجد البعض قد أخطأوا في فهم العلاقة بين هذين الطورين فاعتبروها علاقة النشوء والتطوّر ، أو البداية والنضج ، ولكن الحق هو أن العلاقة القائمة بينهما هي علاقة الحقيقة والإضافة ، ويعني ذلك أن النبي ﷺ باعتبار وظيفته ورسالته الأساسية كانت مهمته الحقيقية هي ما يضطلع به بصفته المنذر والمبشر ، أما الأعمال الأخرى التي تمت بواسطة النبي ﷺ وأصحابه ما هي إلا أعمال إضافية وليست من صلب الرسالة ، أي أنها أعمال قد ألحقت بمهمته النبوية وأدخلت ضمنها ، إلا أنها لا تتسم بسمات مهمة الرسالة الأساسية .

إن رسالة النبي ﷺ هي نفس رسالة الأنبياء السابقين ، ودين التوحيد الذي جاء به هو نفس الدين الذي جاء به الأنبياء الأخرون : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...** ﴾ [الشورى : ١٣] . وإن القيام بإظهاره وإبلاغه هي المهمة والوظيفة الأصلية التي أمر بها النبي

بصفته رسولاً .

ويذكر القرآن في إحدى آياته بعض الأنبياء ، ثم يعقب بقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ [الأنعام : ٩٠] . وإذا كانت رسالة الأنبياء بما في ذلك نبينا ﷺ هي رسالة واحدة مشتركة ، فإن صلب رسالة النبي ﷺ هي القاسم المشترك بين كافة الأنبياء على اختلافهم ، فإذا ما وجدنا شيئاً قد تميّز به النبي ﷺ دون غيره من الأنبياء فإن ذلك يعدّ عنصراً إضافياً قد أضيف إلى مهمته النبوية الأصلية ولا يصح أن نعدّه من صميم مهمته الأساسية .

والحرب أو القتال يدخل ضمن ذلك العنصر الإضافي ، وقد شرع – طبقاً للقرآن – لاستئصال الفتنة وإزالتها ، وهو ليس مهمة مستقلة ومطلقة بل نشاط مؤقت قد شرع لمواجهة الأنشطة التخريبية التي قام بها الفريق الآخر ، ولقد قام النبي وأصحابه بهذا الدور على أكمل وجه وبلغوا به إلى غاية الكمال .

استئصال الفتنة :

جاء في القرآن في موضعين مع فارق طفيف بينهما : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ . ويتبلور من ذلك أن الحرب التي خاضها النبي ﷺ وأصحابه لم تكن حرباً بالمعنى المعروف ، بل إنها كانت نوعاً من العمليات العسكرية (Military operation) التي تستهدف استئصال الفتنة من على وجه الأرض ، وقد انتهت تلك الفتنة فلم تعد هناك حاجة لتكرار مثل هذه العملية ، وقد كان ذلك واضحاً في كلام عبد الله ابن عمر ، حيث روي : (عن نافع عن ابن عمر قال : أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيّعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج فقال : يمنعني أن الله حرّم دم أخي . قالا : ألم يقل الله

﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله) (تفسير ابن كثير الجزء الأول صفحة ٢٢٧) .

إن الفتنة كلمة مرادفة للاضطهاد والظلم (Persecution) والمقصود به ذلك القهر السياسي الذي اتسمت به الامبراطوريات في أرجاء المعمورة في الزمن القديم ، زمن الامبراطوريات التي كانت تتمتع بالسلطة المطلقة (Empirical absolutism) حيث كان الامبراطور في منزلة الإلٰه ، من حقه أن يفعل ما يشاء غير عابيء بما إذا كان ذلك موافقاً للمصلحة العامة أم لا ، وبذلك سادت في ذلك العصر عقيدة تذهب إلى أن الملك معضوم من ارتكاب الأخطاء : .The king can do no wrong

هذا المبدأ العقائدي كان قد أعطى الملوك مزيداً من الدفع لبسط سلطتهم المطلقة والطاغية على رعاياهم ، وبذلك يكون المجتمع قد انقسم على طبقتين اثنتين : طبقة الملوك ، وطبقة الرعايا . وتحت هذا القهر السلطوي والحكم الطاغي نشأت بوادر الفساد في الأفق ، وكان من أشدّها وأعظمها فحشاً ما كان متصلاً بتبليغ الدين ، حيث أصبح ذلك أمراً عسيراً ، لأن التوحيد يعني الإعلان عن المباديء الإنسانية الخالدة ، والتي من بينها : أن الكبرياء لله وحده ، وأن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، وليس لأحد حقّ في التسلط على الآخرين . ولا ريب أن مثل هذه الدعوة – دعوة التوحيد – قد قامت على أنقاض ذلك النظام الامبراطوري القديم ، لذا فإنها قد استخدمت قوة القمع السياسي لقمع دعاة التوحيد .

إنّ مهمة إضافية قد أسندت إلى دعوة التوحيد التي اضطلع بها النبي وأصحابه ألا وهي إنهاء ذلك القهر السياسي القديم لإزالة العراقيل من طريق الدعوة ، وتهيئة البيئة لينشأ فيها عالم التوحيد ، ويسود مناخ الأخوة

الإنسانية .

وفي عصر النبي ﷺ كانت هناك امبراطوريتان اثنتان : الامبراطورية الساسانية ، والامبراطورية البيزنطية ، وقد فرضتا سيطرتهما على معظم بلاد العالم آنذاك ، كما اتسمتا بالقهر السياسي في صورته القديمة ، ومن ثمّ أصبح بقاؤهما يعني بقاء القهر السياسي القديم ، وإزاحتهما تعني إزاحة القهر القديم ، إلا أنه بفضل التضحيات الجبارة التي قدّمها الرسول وأصحابه قد انكسرت شوكة ذلك القهر السياسي ، وليس عملهم ذلك من نوع (الفتوحات) كما هو معروف لدينا ، بل إنه كان عملية جراحية ربانية ، أجراها أناس مثاليون بكل المعايير الإنسانية .

إن انطلاقة الحرية والديمقراطية والمساواة كانت نتيجة لهذا الانقلاب الذي غيّر مسار التاريخ . ولو لم يقم أصحاب النبي بتلك العملية فما أظن أن دور الحرية قد ظهر إلى حيّز الوجود بعد . ولقد اعترف المؤرخون الغربيون بهذا الواقع ، خاصة المؤرخ الفرنسي هنري برين (Henri Pirenne) ولم يتوقف عند ذلك الحد ، بل إن تحليلاته التاريخية قد أعطت هذه الواقعة طابع مدرسة فكرية مستقلة في أسسها ومقوماتها ، وله كتابان يعالج فيهما هذا الموضوع : كتابه (تاريخ أوربا) History of Europe وكتابه (محمد وتشارلمان) (Mohammad and Charlemagne) .

وقد طرح في الأول نظرية خلاصتها : أن الانفصال الأساسي بين العالم القديم والعالم الجديد كان قد تحقق – في الواقع – عن طريق الفتوحات العربية ، حيث قال : (إن الإسلام قد غيّر وجه الأرض وأزاح النظام التقليدي للتاريخ) .

Islam Changed the face of the globe. The traditional order of history was overthrown (p. 46).

إن قول ابن عمر الذي سلف ذكره يقدّم شرحاً وافياً وعميقاً لهذا الموضوع ، يتبلور من خلاله أن الفتنة المذكورة في الآية القرآنية ليس المقصود بها فتنة المسلمين ، بل المقصود بها فتنة الشرك ، والمراد استئصال تلك الأنظمة التي تتسم بالقهر السياسي من النوع القديم وقد تحقق ذلك بمدد من الله تعالى ، فلم تعد دعوة التوحيد ولا إعلان الحرية يلقيان أية عقبة في طريقهما كتلك التي كانت سائدة في أرجاء المعمورة والتي ظهرت تحت قناع تلك الأنظمة السياسية .

ولو صرفنا هذه الفتنة إلى الحكام المسلمين ، وأطلقنا على فسادهم بأنه فتنة ، فإن ذلك سيدفعنا إلى مقاومة هؤلاء الحكام والإطاحة بهم بكل قسوة ، كما أنه سيفتح الباب على مصراعيه أمام الفتنة الجديدة ، وسينتج عن ذلك أن الحكام سوف يعدّون الدعوة الإسلامية جبهة معارضة سياسية ، وبالتالي يلزم قمعها وإخمادها بهدف البقاء في السلطة وهكذا تعود الفتنة من جديد .

ستار التاريخ :

سبق أن قلنا أن المهمة الأساسية للنبي ﷺ هي نفسها التي كانت للأنبياء السابقين ، وهي الدعوة إلى الله وقد تمت هذه المهمة حين أوصل النبي ﷺ الدعوة إلى مرحلة إكمال الحجة . أمّا ما قام به النبي ﷺ من حرب وفتوحات فقد كانت عنصراً إضافياً (Relative part) إلى رسالته ، ولم تكن عنصراً حقيقياً (Real part) .

وكانت بداية انطلاق هذا العنصر الإضافي (الحرب والفتوحات) منذ هجرته ﷺ إلى يثرب ، واستمر إلى أواخر أدوار الصحابة وقد تمّ تحت هذا العنصر من رسالته فتح معظم مناطق آسيا وأفريقيا ناهيك عن الدول العربية ، وانهيار سلطنة الروم وفارس . وقد كان لهذه الوقائع الحربية منها والسياسية أبعد وأعمق الأثر في نفوس الأجيال التالية ، حيث أصبحت

مسيطرة على عقولهم وأفكارهم ، حتى أنهم نسوا أن هذه العملية إنما هي عنصر إضافي قد أضيف إلى مهمة الرسالة ، وليس عنصراً حقيقياً فيها .

كما نرى أن المؤلفات الإسلامية التي نشأت في الأدوار التالية ، قد تأثر معظمها بتلك الوقائع إلى حدّ بعيد . لنأخذ الأحاديث مثلاً على ذلك : تلك التي تمّ تدوين وتبويب معظمها في عصر تابعي التابعين ، فلا تجد كتاباً من كتب الأحاديث يخل من باب الجهاد ، وفي المقابل لا تجد أي كتاب من كتب الحديث المشهورة قد عني بالدعوة والتبليغ أو أقام لها باباً مستقلاً بها أو جمع أحاديث تحت عنوان الدعوة إلى الله .

وكذلك هناك عدد هائل من الكتب التي تعني بقضايا الفقه ، وتجد باب الجهاد يحتل فيها كلها دون استثناء مكاناً بارزاً ، ولا تجد في المقابل باباً فيها يعالج قضية الدعوة والإنذار والتبشير .

وهناك كتب عدة تزخر بها مكتباتنا مما ألف في القرون الماضية ، قد عنيت بشرح الدين وبيان حكمه ، مثلاً : كتب عز الدين بن عبد السلام والغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ممن ألفوا مئات الكتب إلا أنه من الصعب أن تعثر على كتاب من بين هذه الكتب المتراكمة على أرفف مكتباتنا الضخمة مما ألف حقاً في موضوع الدعوة إلى الله ، حتى أن الكتاب الذي ألف مؤخراً في أسرار الشريعة وهو (حجة الله البالغة) نجد فيه كل الأبواب المتنوعة إلا أنه خال من ذكر باب الدعوة إلى الله .

ولا يعني ذلك أن الدعوة الإسلامية قد اختفت أو انمحت خلال القرون الماضية ، ولكن الشيء الذي اختفي وانعدم هو الشعور والإحساس بالدعوة وليست الدعوة ذاتها . إن الواقع ينبيء بأنّ نشاط الدعوة وعملية تبليغها قد استمرت طيلة القرون الماضية دونما توقف ، وهي في أغلب الأحوال تتم بطريقة تلقائية لما للإسلام من قوة وصلابة ذاتية ، ولم تتم ضمن

شعور دعوى أو خطط تبليغية . والحقيقة أن القرون الماضية قد خلت من الشعور الدعوي الحقيقي ، إلا أن عملية الدعوة ظلت مستمرة كواقع حي في كل لحظة من لحظات التاريخ .

وطبقاً لما أعرفه ، فإن عمر بن عبد العزيز (٦٢ - ١٠١هـ) هو آخر شخص بعد عصر الصحابة يتمتع بعقلية دعوية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وكما هو معلوم لدينا أن عمر بن عبد العزيز حين قدّم إليه عامله تلك الشكوى في الناس الذين يقبلون على الإسلام بشكل هائل ، والذي نتج عنه تدهور ملحوظ في معدل الخراج ، مما ينذر بنضوب المخزون الاقتصادي لبيت المال ، فإنه فور سماعه لتلك الشكوى عيّب عامله ، وقال له : ويحك إن محمداً بعث هادياً ولم يبعث جابياً .

إن هذا الشعور والإحساس بالدعوة الذي نلمسه ونحسّه من مقولة عمر بن عبد العزيز لم يتمكن التاريخ من إعادتها مرة ثانية بعده .

قلت ذات مرة وأنا ألقي خطاباً : إن جدران قصر الحمراء تقف حائلاً بين الإسلام والمسلمين نعم لا شك في أنها حقيقة مرة في عصرنا الحاضر ، فالواقع أن تاريخ الفتوحات وإدارة الحكومات كلها قد أصبحت حائلاً أو سداً منيعاً بين الإسلام والمسلمين المعاصرين ، إنها قد حالت دون تمكن المسلمين المعاصرين من رؤية الإسلام في شكله الطبيعي ، وإن الجانب الأهم الذي تعامى عنه المسلمون هو جانب الدعوة إلى الله . ولا ريب في أن القوة الساحرة للإسلام تكمن في الدعوة ، وهي العمل الوحيد الذي تترتب عليه الفتوحات والغلبة التي وعد بها القرآن بصريح العبارة ، إلا أن أكثر شيء يجهله المسلمون اليوم هو هذا العمل الجاد والثقيل ، وقد وصلت بهم الغفلة إلى حد جعلهم يقومون بأنشطة أخرى متفاوته يطلقون عليها اسم الدعوة ، ولكن عملاً كهذا لا يجلب لهم الإنعام والمكافأة بل يؤدي بهم إلى نتائج سلبية .

الحاجة إلى الاكتشاف من جديد :

كنت قد قرأت مقالة في إحدى الجرائد العربية ، وكانت تحمل عنوان (الدعوة إلى الله) وقد أعرب فيها بعض كبار مفكري العرب عن آرائهم حول موضوع الدعوة . وقد انطلق الكاتب من عدة تساؤلات تتعلق بتجديد مفهوم الدعوة ، فذهب يقول : فما غايات الدعوة ، هل هي إصلاح الفرد ، أم إصلاح المجتمع والأسرة ، أم إصلاح الدولة أم هداية المسلمين إلى الإسلام الصحيح أم هداية غير المسلمين إلى الإسلام ؟

وبعد هذه التساؤلات تطرق الكاتب إلى موضوع أعداء الإسلام والمسلمين ، والذي ختم به الصفحات السبعة التي كانت حصيلة المقالة ، لكنني لم أجد بين الباحثين من ذهب إلى أن الدعوة التي وردت في القرآن تعني في الأساس نشر الإسلام بين الأمم الأخرى .

ويتضح من هذا المثال أن المسلمين رغم أنهم يكثرون من ذكر لفظ (الدعوة) ، إلا أنهم يجهلون – في الواقع – المقصود من الدعوة ، وقد شمل هذا الجهل كل صغير وكبير من أبناء المسلمين ، وفي مثل هذه الحالة صار لزاماً عليهم أن يكتشفوها من جديد ، إنه أمر قد نسيه المسلمون ، لذا يجدر بهم أن يعيدوه إلى ذاكرتهم مرة أخرى .

ولا شك أن أكبر مهمة يمكن القيام بها الآن هي مهمة إيقاظ شعور المسلمين وتأهيلهم فكرياً ليقدروا على اكتشاف الدعوة من جديد (Rediscover) وهذا الأمر هو من أكبر مقتضيات العصر من الناحية الدنيوية ، كما أنه العمل الوحيد الذي ننال به الفلاح في الآخرة .

مثال مهماتما غاندي :

لمزيد من التوضيح ، فإنني سأضرب لكم مثال مهاتما غاندي

(١٨٦٩ – ١٩٤٨) : كانت انطلاقة الحركة التحررية في الهند سنة ١٨٥٧ واستمرت حتى ١٩١٩ تقريباً ، وكان الأسلوب الذي اختير لتحقيق تلك الغاية هو أسلوب التشدد والتعصب ، ومعلوم أن القوة هي الفيصل في مثل هذا الأسلوب ، وكانت القوة كل القوة – آنذاك – في يد الإنجليز ، لذا فقد أصبح أسلوب التشدد هذا عاجزاً عن عمل أي شيء ، وهذا ما حدث فعلاً فقد ذهبت كل المحاولات دون جدوى وقد اقتحم مهماتما غاندي ساحة السياسة ، وبدأ يقلب الأمر رأساً على عقب ، ويصرخ منادياً بتبني الأسلوب السلمي من أجل إنجاح الحركة التحررية ، وهو الأسلوب الذي يطلق عليه المؤرخون السياسيون اسم (العملية السلمية) .

ولم تكن هذه المرة الأولى التي يطرح فيها هذا الأسلوب ، بل سبقه كثيرون في هذا الأمر منهم هنري تادو (Henry Thadeau) وجان رسكن (John Ruskin) وتولستوي (Tolstoy) وجارجز سوديل (Georges Sorel) إلا أن الفضل الأكبر في تطبيق هذه النظرية على المستوى العملي ، وتبنيها تبنّياً حقيقياً يرجع إلى مهماتما غاندي دون غيره .

فقد ابتدع مهماتما غاندي مصطلح العصيان المدني (Civil Disobedience) وعدم التعاون (Non cooperation) بهدف دفع الأسلوب السلمي دفعاً حثيثاً إلى مزيد من الفعالية ، وإنجاح هذا الأسلوب كامن في استخدام الطاقة البشرية مكان الأسلحة النارية ، ومن هذا المنطق أخرج مهاتما غاندي الناس من بيوتهم وأوقفهم في الشوارع ، لقد انطلق غاندي من سياسة المقاطعة والإضراب . مقاطعة الأجهزة التشريعية والمحاكم ، ومقاطعة الدوائر الحكومية والمدارس والكليات الحكومية حتى أعلن رفضه إعطاء الضرائب المفروضة عليهم ، مما أسفر عن اعتقال ٦٠ ألف مواطن بسبب رفضهم إعطاء ضريبة الملح سنة ١٩٣٠ وقد بدأ هذا النوع من

الإجراءات منذ سنة ١٩٢٠م واستمر حتى سنة ١٩٤٧م .

إن القوة الشعبية التي انتظمت خلال هذه الفترة غير القصيرة ، زلزلت الأرض تحت أقدام الحكومة البريطانية ، وأرغمت الإنجليز على ترك الهند سنة ١٩٤٧ أي بعد الحرب العالمية الثانية . وهكذا أثبت أسلوب مهاتما غاندي جدارته في إزاحة الإنجليز وإجلائهم ، إلا أنه في نفس الوقت أسفر عن جانب آخر سلبي ألا وهو رواج العصيان المدني على نطاق واسع حتى عدّت الأعمال الإجرامية من الأعمال القومية المقدّسة ، وأصبحت الخطب الساخنة أسلوباً فعالاً ورائعاً ومنبعاً لخلق شخصية بارزة ولامعة بدلاً من التعليم ، كما صار التعلق بالسلطة أمراً مزرياً وتحديها أمراً يجعل المرء بطلاً بين عشية وضحاها ، وكافياً لإبراز صورة البطل على صفحات الجرائد .

إن كل تلك الأمور قد محت معالم وآثار المبادىء السابقة من عقول الناس ، فلم يدركوا أنّ العصيان المدني كان علاجاً مؤقتاً وليس منهجاً يحتذى به ، لذا أصبح إعادة اكتشاف القوانين واحترام النظام بين الناس أمراً ملحاً وضرورياً ، وكذلك انتشال المشاعر من تحت الأنقاض ، إلا أنه لم يكن ليتحقق ذلك ، مما جعل تحرير الهند أمراً لا جدوى فيه .

إن مهاتما غاندي - حسب اعتقادي - هو أول قائد هندي أحسّ بأبعاد هذه القضية بكل جدية لذا نراه فور إكماله لعملية الاستقلال يخوض محاولات جادة لتهدئة الأوضاع ونشر الأمن ، حتى أنه تقدم باقتراح لحل حزب المؤتمر كحزب سياسي وإحلال حزب غير سياسي مكانه هدفه البناء والتعمير ، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في إيقاف فيضان العصيان وإحلال السلام مكانه ، حتى ذهب ضحية تلك الجهود حيث أردي قتيلاً بعد خمسة أشهر من إعلان الاستقلال وذلك في ٢٠ يناير سنة ١٩٤٨ .

لقد انطفأت بوادر الآمال الجديدة من أفق الهند مع موت غاندي ؛

فلم تكتشف الهند تلك المبادىء التي تبنّاها غاندي في خضم العملية التحررية السلمية حيث أصبحت الدولة كلها تجري في نهر العصيان ، ولم يبق هناك بصيص أمل لتغيير مسارها بعد مرور ٥٠ سنة من الاستقلال .

مثال اليابان :

إن الدور الذي أطلق عليه في تاريخ اليابان بدور (إصلاح ميجي) (Meji Restoration) كان قد بدأ في منتصف القرن التاسع عشر . والامبراطور ميجي رجل شغوف بالرقي والازدهار ، كان قد أولى عناية بالغة بالعلوم والصناعات الغربية في هذا الدور بشكل خاص ، وبدأ الناس يتعاملون مع الإنجليزية واللغات الأخرى ، حتى سافر عدد هائل إلى أوربا وأمريكا من أجل الدراسة .

إلا أنّ انقلاباً آخر قد ظهر في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث ظهرت حركة تمرد عرفت باسم السيتسوما (Statsuma Rebellion) كان لها أثر فعّال في نشأة عقلية جديدة تنادي بأخطار الثقافة الغربية على الأمة اليابانية وهكذا نرى دوراً جديداً قد لاح في سماء اليابان وهو الدور العسكري ، حيث وصلت إليها الحركة الفاشية تحت الهيمنة الألمانية واستولت على الجنود في ٢٦ فبراير ١٩٣٦ وبدأت تكتسح المفكرين والعلماء المعتدلين وبدأوا ينادون بأن الحرية اليابانية كفيلة بالقضاء على الروح العسكرية (Military spirit) كما بدأ يسود بين الناس بأن بناء القوة العسكرية هو السبيل الوحيد للحصول على الأخلاق الوطنية (National ideal) وبدأ اليابانيون يحلمون بأنهم قادرون على بسط سيطرتهم على القوى العظمى بشكل كامل .

هذا هو المزاج العسكري الذي دفع اليابان إلى الدخول في الحرب العالمية الثانية إلى جانب قوات المحور (Axis Powers) ضد قوات الحلفاء

(Allied Powers) فقد أبدت اليابان حماستها الحربية إلى حدّ الجنون ، ونجد مثالاً على ذلك في قاذفات كامي كاز (Kamikaze Planes) وهي قاذفات للقنابل الصغيرة يهبط بها طيارها في هدف محدد ، ليتفجر معها في عملية انتحارية ، فيحدث بذلك خراباً ودماراً جسيمين . إلا أن النجاح لم يحالف اليابانيين ، إذ نزلت بهم الهزيمة الساحقة وزلزلتهم قنبلتان نوويتان أمريكيتان وألحقت أضراراً فادحة في الأرواح والممتلكات .

إنها حادثة غريبة حدثت بدون أدنى توقع من قبل اليابان ، لكنّ الأمر الأشد غرابة هو ردة الفعل التي قامت بها اليابان أثر تلك الحادثة ، إنها قد أعادت النظر في الأمور كلها وتناولتها بالتحليل والدقة المتناهية ، كما أنها قد خضعت للأمر الواقع وآمنت باستحداث خطط لتجنب الحروب وتسيير المحاولات المبذولة على المستوى القومي في ساحة العلوم والتقنية . وبذلك تكون اليابان قد اكتشفت من جديد (Rediscovery) أهمية العلوم التي كانت قد جهلتها طيلة السنوات الماضية .

إن هذا الاكتشاف الجديد كان له بالغ الأثر في تغيير مسار حياة اليابان ، فلم يكد يمر جيل حتى وصلت اليابان إلى أعلى وأرقى مراحل التطور الصناعي والعلمي ، الأمر الذي طالما انتظرت تحقيقه عبثاً عن طريق الحروب والنزاعات .

إن ما عبرت عنه بإعادة الاكتشاف (Rediscover) ربما ظهر بصورة جلية ورفيعة في حياة اليابان .

مسلمو العصر الحديث :

يتضح لنا من خلال مطالعة القرآن والسنة أن الأهمية الأساسية تعزى إلى الدعوة ، أي إيصال رسالة الله تعالى إلى أمم غير مسلمة . إلا أن المسلمين

المعاصرين نسوا أو تناسوا هذا الأمر الخطير لسبب أو لآخر، إنهم فقدوا الأحاسيس الدعوية إلى حدّ أنهم لا يكادون يميزون بين الدعوة ونقيضها، فأصبحوا يطلقون لفظ الدعوة على ما لا يمت إلى الدعوة بصلة، ويكافحون من أجل منافع قومية ويضعون لها عنوان الدعوة، مثلهم في ذلك مثل جماعة لا تعبأ بالصلاة في حين أنها تفرط في إقامة حفلات لعيد ميلاد النبي ﷺ معتقدة أنها بذلك تؤدي فريضة دينية كما تؤدي الصلاة تماماً.

إن غفلتهم هذه قد وصلت إلى آخر مطاف لها، إذ أنّ الأمر لا يقف عند عدم قيامهم بالدعوة فقط، بل إنهم نتيجة لفقدانهم الشعور الدعوي قد انشغلوا بأعمال كفيلة بأن تقضي على فرص الدعوة وإمكانياتها. والدعوة تقتضي ألا يكون هنالك أيّ نوع من الصراع – مادياً كان أو قومياً – بين الداعي والمدعو، لأن الصراعات المادية أو القومية التي تقوم بين الداعية والمدعو تكدر صفو الدعوة، ومن ثمّ يتوجب على الداعية أن ينهي كافة أعمال الصراع بينه وبين المدعو حتى يتسنى له أن يسوي الطرق ويعبدها للقيام بأنشطة ومهام الدعوة.

لكن واقع المسلمين المعاصرين هو أنهم نتيجة لفقدانهم الشعور الدعوي قد انصرفوا إلى صراعات سياسية ومادية وقومية مع الأمم المدعوة، وهذا النوع من الصراعات مهما تراءى للمسلمين بأنه ذو فوائد ومنافع إلا أنه بمثابة السم في الدسم بالنسبة إلى الأنشطة الدعوية وحينئذ يصبح اللاشعور الدعوي الذي يتمتع به المسلمون جريمة عظيمة، لذا فالمسلمون ملزمون بإنهاء كافة أنواع النزاع مع الأمم المدعوة وإلا تورّطوا في مخالفة قانون الله، كما هو شأن اليهود الذين تهاوو في قعر الهلاك، وأصبحوا بمعزل عن رحمة الله.

إن الأمر الذي ينبغي أن يعنى به المسلمون أولاً وقبل كل شيء هو

أن يعملوا جادين من أجل إيقاظ مشاعر وأحاسيس الدعوة في نفوسهم ، وأن يبعثوا فيها الحياة والديناميكية من جديد .

ما هي الدعوة ؟ وما هي المهام التي تنضوي تحتها ؟

وكيف أن نصرة الله تتوقف أولاً وأخيراً على القيام بأنشطة دعوية ؟

إن مثل هذه الأمور قد انمحت من أذهان المسلمين ، وأصبحت نسياً منسياً ، والمسلمون كلهم عامتهم وخاصتهم راحوا ضحية عدم الشعور الدعوي . إنّ أكبر وأهم عمل يمكن أن يقوم به المسلم المعاصر . هو إيقاظ ذلك الشعور أو الإحساس المفقود ، وأن يكتشفه من جديد (Rediscover) أما الأعمال الثانوية الأخرى فهي تبع لذلك الأمر ، كما أن بقاءها يتوقف على حيوية ذلك الشعور الدعوي فحسب .

على نقيض الواجب :

إنّ ملكاً أرسل بعثة إلى منطقة منكوبة ، أصابها القحط ، وقد زودهم بالمال وكافة الحاجات الضرورية ، ليقوموا بتوزيعها في تلك المنطقة المنكوبة ، ولمّا وصلت البعثة إلى المنطقة خاضوا صراعاً مع سكانها ، مما أسفر عن تشبثهم بكل ما زودهم به الملك ، لقد أعلنوا شكواهم واحتجاجتهم بهذه العبارات : إنهم لم يحسنوا استقبالنا ، ولم يقدموا لنا بيتاً لنسكنه ، وإن أطفال القرية قد أساءوا معاملتنا ... وغير ذلك من عبارات الاحتجاج .

وحين علم الملك بالأمر اشتد غضبه وسخطه على أعضاء بعثة الإنقاذ وأصدر حكماً بإلقاء القبض عليهم وسجنهم ، وقال لهم : إني قد أرسلتكم إلى المنطقة المنكوبة لتقوموا بعملية الإنقاذ وليس لخوض حرب وصراع ضدهم . وعلى أي أساس تطالبونهم بأن يعاملوكم معاملة فائقة ، نفترض أنهم أساءوا معاملتكم ، رغم ذلك فإنكم ملزمون بأن تقدموا لهم كل ما زودتكم به بكل صدق وأمانة ، ثم ترجعوا إليّ بكل هدوء وطمأنينة لتحصلوا على

مكانة لائقة من قبلي ليس من قبلهم ولو قمتم بأداء مهمتكم رغم إساءتهم لكم لثمنت جهودكم وكافأتكم أضعافاً مضاعفة ، لكنكم حين تورطتم في المطالبة بحقوقكم وبدأتم تفكرون فيها ، فلن أقدم لكم شيئاً سوى السجن ، اذهبوا إلى السجن وذوقوا جزاء عملكم .

إن هذا المثال ينطبق تماماً على المسلمين المعاصرين ، إذ أن الله تعالى قد أعطاهم الكتاب والهداية وكلفهم بأن يبلغوا الآخرين بذلك ، ويقوموا بإيصال رسالة الله إلى عباده إلا أن المسلمين على نقيض ذلك ، خاضوا أنواعاً من الشكاوى والاحتجاجات ضد الأمم المدعوة ، وأشعلوا نيران الحرب الضارية معهم ، مما أسفر عن بقاء رسالة الله تعالى محفوظة داخل بيوت المسلمين بدل أن يقوموا بتبليغها إلى الأمم الأخرى ، وبدأ التناحر والتخاصم بينهم ، في صورة احتجاج شفوي حيناً ، وفي صورة قتال حيناً آخر .

إن المسلمين بعملهم هذا يستحقون عقاباً جزاء ما يعملون ، كما هو الحال بالنسبة للبعثة التي أرسلها الملك لإنقاذ المنطقة المنكوبة ، إلا أن عقاب المسلمين وجزاءهم سيكون أشد وأنكى ، لأن بعثة الإنقاذ إنما كانت مكلفة بحل أزمة مؤقتة بينما المهمة التي أنيطت بالمسلمين هي في غاية الخطورة ، فهي مهمة لإنقاذ الناس من العذاب الأليم الذي لا نهاية له ، لذا فإن جرم المسلمين هو أعظم وأكبر من جرم بعثة الإنقاذ والفارق بينهما باعتبار المأزق الذي يؤول إليه كلا الفريقين ، فمأزق البعثة محدود وله نهاية بينما مأزق المسلمين غير محدود وليس له نهاية .

إن الدعوة إلى الله هي بمثابة التمثيل عن الله بين عباده ، وهي أمر يتناوله الداعية باعتباره مسئوليته الوحيدة ، دون أن يطمح إلى أية حقوق ، والداعية يعطي ثم يأخذ أجره من الله ، وحين يؤذيه الناس يصبر ويثابر من أجل الله ، وهو يتلقى الحرمان من قبل الناس ، إلا أنه يبقى جاداً في مهمته المقدسة

دون أن يعتريه أي وهن .

إن الداعية يبذر بذوره في الدنيا ليجدها في الآخرة وقد أصبحت شجرة يانعة شامخة . وأنشطة الدعوة لا تنبت إلا في أرضية الصبر ، فالذين لا يستطيعون الصبر هم غير قادرين على القيام بالدعوة ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ .

تاريخ الدّعوة إلى الإسلام

المسلمون (كأمة) ينتمون إلى خاتم النبيين ﷺ . إنّ هذه الحيثية للمسلمين هي التي تحدد ماهية المسئولية التي نيطت بهم في هذه الدنيا بصفتهم « أمة » وتلك المسئولية هي قيامهم بعملية الدعوة إلى الله . تلك العملية التي كان الأنبياء والرسل يُبعثون من أجل الاضطلاع بها في العصور الماضية . ولا شكٰ أن سلسلة النبوة قد انقطعت بعد وفاة النبي العربي ﷺ ولكن العمل النبوي لم ينقطع ، وما زال مستمراً ومطلوباً بالتمام . والحقيقية هي أن المسلمين هم في مكان النبوة بعد انقطاعها ، ومن هنا فلا يمكن أن يتحقق وجودهم « كأمة » بأيّ عمل آخر غير الاضطلاع بالعمل النبوي .

ما هو العمل النبوي ؟ إنه إيصال رسالة الله إلى عباده ، وإبلاغ دعوة التوحيد إلى الغارقين في الشرك والوثنية ، وإنذار الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا – وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً – باليوم الآخر الذي لا ريب في قدومه ، وإطلاع كل فرد من البشر على أنه ليس حرّاً طليقاً يتصرف في حياته كيف يشاء بل إنّه تحت أوامر الله تعالى وهو مسئول عن تفيذها ، فعليه أن يعيش حياة ملتزمة منضبطة ، وليس له أن يعيش حياة متحررة ومنطلقة من كل القيود والحدود ، وبإيجاز إن العمل النبوي يتلخص في تبليغ ذلك العلم الرّباني المحفوظ في صورة الكتاب والسنة إلى كافة البشر بطريقة كاملة مكتملة حتى لا يجد أحد منهم فرصة في الآخرة لأن يقول إنه كان غافلاً عن هذا ، وأن الدعوة لم تصل إليه ..

هذه هي الفريضة الأصلية التي تعود مسئوليتها على الأمة الإسلامية

بحكم مركزها ومكانتها ، ولكن – للأسف الشديد – أن هذه الفريضة الكبرى قد أهملها المسلمون اليوم أشدّ إهمال ، وتقاعسوا عن تأديتها أكثر من أيّ شيء آخر ، وما من سبب لهذا الإهمال والتقاعس الإجرامي سوى أن المسلمين المعاصرين قد أخذت مشاكلهم القومية بمجامع قلوبهم ، وسيطرت على أذهانهم ، فنتج عن ذلك أن قضية الدعوة وتبعاتها غابت واحتجبت عن أنظارهم .

اتفق لي أن قابلت مسلماً كان يتمتع بثقافة عالية – أثناء إحدى رحلاتي إلى العالم العربي – وخلال حديثي معه قلت له : « إنّ الواجب الحقيقي الملقى على عاتق المسلمين هو أن ينهضوا بإبلاغ رسالة الإسلام إلى الأمم غير المسلمة » . فأجابني حالاً : « وكيف يمكن ذلك !! فإن المسلمين المعاصرين اليوم تنوء كواهلهم بأعباء المشكلات التي تخصهم وإنهم لم يتمكنوا من تسويتها ، والتغلب عليها حتى يجدوا الفرصة للقيام بنشر الدعوة فيمن دونهم من الأمم .

إن الإجابة السابقة الذكر تدل على تلك الحالة النفسية التي دفعت المسلمين في العصر الماضي إلى أن ينبذوا عملية الدعوة نبذاً كليّاً ، إن ما استحوذ على مشاعرهم ، وأخذ منهم كل مأخذ إنما هي مشاكلهم الدفاعية ، وأكبر ما يهمهم يتمثل في زعمهم هذا : « إن كيانهم القومي معرض للخطر » . ولذا فكل عنايتهم وطاقاتهم ارتكزت وتمحورت حول خطوط الدفاع ، وقد استولى هذا الهم عليهم حتى أفقدهم الوعي والشعور بمسئوليات الدعوة ، ومما يبعث على الأسف أن فقدان الوعي الصحيح بالمسئولية أدّى بالكثير من المسلمين إلى أن أضفوا عنوان « الدعوة الإسلامية » على ممارساتهم الدفاعية .

إن هذا التفكير لا يمتّ بأية صلة إلى الإسلام ، ولا إلى القرآن . فمن

وجهة القرآن أنّ قضية حماية المسلمين هي الأخرى منوطة بعملية الدعوة نفسها ، فلئن قام المسلمون بعملية الدعوة إلى الله فإن كيانهم القومي مضمون الحماية من قبل الله تعالى . ولئن لم يقوموا بعملية الدعوة إلى الله ، فلا ضمان لحماية كيانهم القومي البتة ، وإذا كان تاريخ العهود الإسلامية الماضية شاهداً على صدق الأمر الأول ، فإن تاريخ العصر الحاضر للمسلمين يشهد على صدق الأمر الثاني .

الحماية عن طريق الدعوة :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وبخصوص أسباب النزول لهذه الآية الكريمة ، وردت روايات عديدة في كتب الحديث والتفسير ، منها ما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « **لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً ، وعرفت أنّ من الناس من يكذبني فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربّك ﴾** » وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ كان يُحرس حتى نزلت هذه الآية ، فأخرج رأسه من قُبة أدم وقال : « **انصرفوا أيّها الناس ! فقد عصمني الله** » (صفوة التفاسير ، المجلد الأول ، ص ٣٥٥) .

فمن هذه الآية يظهر بجلاءٍ أن سرّ « العصمة من الناس » إنما هو يكمن في « الدعوة إلى الله » . إذ كانت الظروف قاضية بحراسة الرسول وكلائه أما الآن فليس هناك حاجة إلى إفراد قطاع من الجهد لهذا الأمر ، لأن عملية الدعوة هي نفسها قد تكفلت له بالعصمة أيضاً ، وإن موعود العصمة من قبل الله في الأصل كان لرسوله بصورة خاصة ، ولكنه يشمل أمته أيضاً تبعاً له . إن هذه لحقيقة ذات أهمية أساسية وينبغي أن نستعرض

ونعالج جميع شئوننا وقضايانا في ضوء هذه الحقيقة ، فإذا ما أحيط أمل الإسلام بخطر يعكس مشكلة العصمة والحماية ممن دونهم ، فلا يكون له من سبب سوى أن الأمة قد أهملت فريضة الدعوة إلى الله ونبذتها ، وإذا ما نهضت الأمة بفريضة الدعوة إلى الله فلتستيقن أن الله قد ضمن لها العصمة من كل الأخطار والتهديدات الخارجية وليست هناك حاجة تبعث إلى إفراد قطاع من الجهد لمجابهتها ... بل التركيز الكلي وبذل الجهد ينبغي أن يتوجه إلى الدعوة إلى الله ، وأما فيما يتعلق بالمخاوف والأخطار الأخرى ، فالأخذ بالتربص والصبر ، لأن أشباحها وظلالها المخيفة ، تأخذ تتقلص وتنحسر وتتلاشى تلقائياً فيما بعد . وتجنباً لسوء الفهم ينبغي أن نشير هنا إلى أن المراد بالدعوة في هذا المقام هو نشر الإسلام بين غير المسلمين ، وبعبارة أخرى إيصال رسالة الله إلى عباده الذين لم يدخلوا بعد في دائرة طاعة الله تعالى ، وحيثما ورد لفظ الدعوة أو التبليغ في القرآن الكريم فإنما ورد في هذا المعنى ، أي إيصال الدعوة إلى غير المسلمين ، أما ما يجب علينا حيال جماعة المسلمين أنفسهم ، فإن القرآن يذكره بكلمات : التذكير ، والإصلاح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وما إلى ذلك ..، ويمكن لنا أن نطلق اسم الدعوة والتبليغ على ممارسة الإصلاح الديني داخل المجتمع الإسلامي على سبيل المجاز إلّا أن العملية التي سميت بالدعوة حقيقة إنما هي « عملية إبلاغ الأمم غير المسلمة برسالة الله » دون الإصلاح الداخلي للمجتمع المسلم .

وقد ذكر القرآن قصة « رجل مؤمن » في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، كان من أمراء فرعون ، آمن بالله ولم يزل يكتم إيمانه حتى كان اليوم الذي أصدر فيه فرعون قراره النهائي في شأن موسى ، وهو أنه سيقتله ويقضي على ما جاء به .. فلم يتمكن « الرجل المؤمن » من الصبر والسكوت على الحق ، فقام محامياً على موسى عليه السلام ، وكلّم فرعون وأمراءه بأسلوب

جعل كلامه خطاباً دعوياً بكل معاني الكلمة .

وهذه المرحلة كانت في غاية الحرج والخطورة ، فإن فرعون كان قد أعلن عداوته مع موسى صراحة ، فكان طبيعيّاً أن يصبح هو معادياً كذلك لمن أراد موالاة موسى والقيام معه ، ويعاملهما بنوع واحد من التعذيب والمكر السيّء ، ولكن « الرجل المؤمن » لم تخوفه المخاوف ، ولم تستعبده المصالح الأخرى ، وأبى إلّا أن يؤثر المجاهرة بالحق وتبليغه على كل ما سواه . وبعد أن نقل القرآن خطاب « الرجل المؤمن » قال : ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾ . إن هذه الآية دلالة واضحة على أن الذي كان قد صار درعاً واقياً للرجل المؤمن « من سيئات ما مكروا » هو « دعوة الحق » . فإن الرجل المؤمن لم يكن لديه شيء من ثروة أو رأسمال سوى معرفة الحق ودعوته ، بينما كان فرعون عدوه ، يملك كل أنواع القوى المادية ، ولكن « الرجل المؤمن » حيثما قام بدوره كداع إلى الحق ، تغمده الله بعنايته وحمايته ، ولم يتمكن فرعون - رغم كل طاقاته - من تحقيق نواياه المشئومة ، وإنفاذ ما مكر به من سيئات .

إن عصمة القائمين بعملية الدعوة إلى الله موعود إلٰهي حق - لا ريب فيه - ولكن تحقيق هذا الموعود متوقف على القيام بعملية الدعوة الحقيقية ، دون أي عمل سواها ، ولو تشاغلنا بأي عمل آخر ثم أضفينا عليه عنوان « الدعوة إلى الله » فليس لنا أن نتوقع أبداً أن وعد الله سيتحقق ليعصمنا مما نتعرض له من أخطار ومهالك في طريقنا .

شهادة التاريخ :

التاريخ الإسلامي غني بالأمثلة والشواهد مما يؤكد هذا التصريح القرآني بصورة مذهلة ، فمنذ القرن الأوّل إلى ما تلاه من القرون حدث غير مرّة أن أهل الإسلام تعرضوا لأخطارٍ وتهديداتٍ أثارت لديهم مشكلة الحماية من

غير المسلمين ، وإنّ الشيء الذي أتى بحل هذه المشكلة في كل مرة لم يكن سوى قوة « الدعوة إلى الله » .

والحماية عن طريق الدعوة تتمثل في صور شتى ، فلو كان أهل الإسلام قد بلّغوا رسالة الله بأقصى وأقوى ما يملكون من القدرة والوسائل ولكن المدعوين - بالرغم من ذلك - أبوْا إلا التمسك بالعناد والمكابرة والتشدد في الجحود والإنكار ، فإن الأمر في مثل هذا الوضع يرتبط مباشرة بذات الله تعالى فيأتي عند ذلك نصر من قبل الله بصورة غير عادية ، وبالتالي يصبح أتباع الحق على أعدائهم ظاهرين .. وما حدث مع سيدنا هود وسيدنا لوط عليهما السلام كان مثالاً لهذا النوع من النصر والحماية .

إن دين الله هو في الحقيقة صدى لفطرة الإنسان نفسه ، وإن قيامك بالدعوة إلى الحق يعني كأنك تطرق باب القلب الإنساني ، وعلى هذا فلو كان الإنسان قد رُزق شيئاً من الجدية ، فإن قلبه لا يملك إلّا أن يستجيب لنداء فطرته ، ويتساوق معه ، وهو وإن لم يقبله بصورة رسمية ، فإنه على كل حال ، يضمر كل الحب والنصح لأولئك الذين يكلمونه بما يخفق به فؤاده بذاته ، وإنه يأخذ في الإحساس بأن هؤلاء خليقون بأن يُناصروا - على الحد الأدنى - على الصعيد الإنساني والأخلاقي . ومثال ذلك قصة يوسف الصديق عليه السلام مع الملك في مصر .

والصورة الثالثة للحماية عن طريق الدعوة والتي يمكن أن يقال بأنها الصورة النهائية تتمثل في أن يتأثر المدعو بما يدعو إليه الداعي لدرجة تجعله مستعداً لأن يقبله ويؤمن به ، وقد تكرر حدوث هذه الصورة الأخيرة أيضاً على امتداد التاريخ الإسلامي .

وعندما تحدث هذه الصورة فإن المشاكل الطارئة هناك ، وبكل أبعادها وأنواعها ، تأخذ - على أعقاب ذلك - طريقها إلى الانتهاء والتلاشي تلقائياً ،

وقد حدثت مع رسول الله ﷺ هذه الصورة الأخيرة . فكان أكمل مثال من هذا النوع مما حدث معه عليه الصلاة والسّلام .

اعتراف :

لقد اعترف توماس كرليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) بما في الدعوة الإسلامية من قوة تسخيرية حيث قال : « ... كثيراً ما دار على الألسنة وتردد ، أن محمداً نشر دينه بالسيف ، السيف حقّاً ، ولكن كيف لك أن تجد هذا السيف ! فإنه ما من فكر محدث إلا كان في أول أمره منحصراً بالضرورة في أقلية فرد واحد ، فهو ينشأ أول ما ينشأ في مخ إنسان واحد فحسب ، ولا يوجد ثمة غير واحد في الدنيا بأكملها ، من يؤمن بذلك ، فرد واحد مقابل بني الإنسان أجمع ، تُرى - والحالة هذه - لئن قام ذلك الرجل متوشحاً السيف وأخذ يمارس الدعاية لفكره ونشر عقيدته فهل تراه يحصل على شيء ؟

هذا ، وفيما يلي من صفحات نشير إلى بعض الشواهد من التاريخ الإسلامي تتضمن دلالة واقعية على الاعتبار التسخيري للدعوة .

التخطيط الإنساني والتدبير الربّاني :

مكث رسول الله ﷺ في مكة نحو ثلاث عشرة سنة ، وفي أواخر أيامه بمكة دبر المشركون خطة للقضاء عليه وعلى ما جاء به بصورة نهائية ، وقد تشعبت في شأنه الآراء بين أشرافهم وذلك ما ذكره القرآن في الآية التالية : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

إن الخطة التي دبرها المشركون لإبعاد الرسول عن ساحتهم كانت تتحدد في : الإثبات (الأسر) ، أو القتل ، أو الإخراج ، ولكن الآية تخبرنا

بأن الله تعالى أحبط تلك الخطة الجائرة بتدبير أفضل وإتقان أكثر ، فماذا كان ذلك المشروع الإلٰهي ؟ وهنا يفيدنا التاريخ أن الآونة المروعة تلك التي كان مشركو مكة يتداولون فيها التدابير للقضاء عليه ﷺ ، في الآونة نفسها بُعث برجلين مسلمين من مكة إلى المدينة ، فشرعا هناك في نشر رسالة الإسلام مما أسفر عن دخول عدد كبير من أهالي المدينة في حظيرة الإسلام ، وقد أخذ عدد أولئك المعتنقين للإسلام يتزايد على مرور الأيام ، حتى أخذوا طابع الأغلبية الساحقة في المدينة . فلم يلبث رسول الله ﷺ بعد ذلك أن هاجر من مكة ووصل إلى المدينة بسرية تامة .. وذلك ما ينطوي عليه قول النبي ﷺ : « **أمرتُ بقرية تأكل القرى** » . إنّ الآية تدل دلالة واضحة على ما يوجد من الفارق النوعي بين التخطيط الإنساني والتدبير الرباني ، فهي تفيد أن التخطيط الإنساني إنما يسير على صعيد الأسر ، والقتل ، والإخراج . بينما التدبير الرباني يسير على صعيد تسخير القلوب عن طريق الدعوة والتبليغ . إن تفكير الإنسان يخطّط لإنهاء عدوّه ، وتجميد نشاطاته ، أو إخراجه من مقره ، أو قتله وهكذا .. إلا أن الله ينتهج طريقاً يختلف عن هذا كل الاختلاف ، إنه يمكّن لعباده في القرى بوصفهم مبلغين عنه ودعاةً إلى دينه ، ثم إنه تعالى يشرح صدور الناس لرسالته فعن هذا الطريق لا يطول الأمد حتى تأخذ مجموعة حيوية من الناس في الانضمام إلى دين الحق ، والانصهار في بوتقته مما يزيد دين الحق قوة وعزة لدرجة تجعل أتباعه في حصانة حصينة ، ومنعة منيعة ، عن كل مكر يدبره الأعداء للاعتداء عليهم .

كَلمةٌ مُسَخَّرةٌ :

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما حضرت وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ مشى من أشراف قريش إليه ، وقالوا : « .. قد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فاذعه وخذ لنا منه ، وخذ له منا ليكفّ عنا ،

ولنكفّ عنه .. » فبعث أبو طالب إلى رسول الله فجاءه . فقال له : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قريش ، قد اجتمعوا إليك فقل لهم ماذا تريد منهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم كلمة واحدة ، تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم** » . فقالوا : وما تلك الكلمة ؟ فقال : « **تقولون لا إلٰه إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه** » (السيرة النبوية لابن كثير) .

إن النبي ﷺ عندما قام بدعوة الحق في مكة ، كان أقلية ، بل كان وحيداً في العالم ، ولكن سرعان ما اجتذبت كلمته ، أو بلفظ آخر ، قوة فكره أصحاب العقول الواعية والقلوب السليمة من العرب ، ورغم أنه قد واجه معاكسات عنيفة في بدء أمره ، ولكن مما لا يمكن إنكاره كذلك أن رسالته – مع جميع العراقيل والعقبات التي وضعت في طريقها – كانت تجمع معها نوعاً من الجاذبية التي تستميل أولي الفكر والألمعية والجدية من الناس .

ومما حدث في أوائل العهد المكي – وهو مما لا علاقة له مباشرة بما نحن بصدده – أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة حاجاً ، وقد كان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه ، فاجتمع به رجال من أشراف قريش ، وحذّروه من رسول الله ، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه واصفين له الرسول بأنه ساحر ، فلما غدا الطفيل بن عمرو إلى بيت الله ، وعلم أن رسول الله قائم يصلي عند الكعبة حشا أذنية قطناً ، خوفاً من أن يبلغه شيء من قوله ، وهو لا يريد أن يسمعه . ولكنه بعد إذ راجع موقفه من هذا الأمر ، قال في نفسه : إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما الذي يحوجني إلى أن أسد أذنيّ بالقطن ؟ لا ، بل إني لأسمع من محمد ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته . قال : فلقيت رسول الله ﷺ ، وقصصت عليه ما جرى بيني وبين قومه قال : ثم قلت : اعرض عليّ أمرك ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليه شيئاً من القرآن ، قال : فلا والله ، ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه ، ولا أمراً أعدل

منه . وعند ذلك أسلم الطفيل بن عمرو وشهد شهادة الحق .

الهجرة إلى الحبشة :

كانت مكة يسودها الشرك من أقصاها إلى أقصاها ، إذ بدأ فيها رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى التوحيد فصار الناس يعارضونه ، ويذيقون من اتبعه أنواعاً من العذاب ، ويفتنونهم عن دينهم بكل ما استطاعوا من حول وحيلة ، فلما رأى الرسول ما يصيب أصحابه — وهو غير قادر على حمايتهم مما يُسامون من سوء العذاب — أشار عليهم وذلك في السنة الخامسة من البعثة أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، ف[illegible]ت الهجرة إلى الحبشة بعد ذلك مرتين ، ويبلغ عدد من هاجر من أصحابه عليه الصلاة والسلام من حيث المجموع نحو مئة وعشرين نفراً .

وحين بلغ المشركين أن أصحاب محمد قد هاجروا إلى الحبشة ، وأصابوا هناك أمناً وعافية ، فاجتمعوا يتشاورون في أمرهم فاختاروا رجلين منهم وهما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة ليذهبا إلى النجاشي ملك الحبشة ، ويطلبا منه ردهم إلى بلادهم . فأتيا وقدّما إليه وإلى بطارقته هدايا كثيرة ، وقالا له : إنما قدمنا في أمر غلمان منا سُفها ، انضموا إلى بلادك راغبين عن ملة آبائنا . فادفعهم إلينا نرجع بهم إلى بلادنا .

وهذه قصة طويلة ، وملخصها ، أن بطارقة النجاشي أنفسهم قاموا يشيرون عليه بأن يسلم المسلمين إليهما ، ويردهم إلى مكة مخدوعين بما حشيا آذانهم من الأقاويل . وكانت المرحلة حرجة وغاية في الخطورة ، فإن العودة آنئذ كانت تعني الوقوع في مخالب الأسد ثانياً ، ولكن الذي يرجع إليه فضل إنقاذ المسلمين من سلبيات هذه المرحلة الخطيرة هو « الدعوة » تلك التي قد حملها أولئك الفقراء معهم من موطنهم إلى مهجرهم .

وفي نهاية المطاف ، استقر الرأي على أن يُحضر المسلمون في مجلس

النجاشي ، ويخبروه ما هو الدين الذي أتاهم به النبي العربي فقام عند ذلك جعفر بن أبي طالب ، وألقى خطبة في المجلس الملكي ، وقد ذكرت هذه الخطبة في كتب السيرة كلها ، ثم تلا جعفر عليهم صدراً من سورة مريم ، وروايات هذا الخبر تقول : إنه لما سمع الملك وبطارقته ما سمعوا اغرورقت عيونهم بالدمع ، وانسابت دموع الملك حتى أخضلت لحيته ، وبعد ذلك أمر النجاشي أن يُردّ على الرسولين ما جاءا به من الهدايا ، ورد على المسلمين ردّاً كريماً ، وأمنهم وخرج عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من عنده مقبوحين ، وأقام المسلمون بخير دارٍ مع خير جار .

إسلام عمر بن الخطاب .

وحتى السنة السادسة من البعثة النبوية كان قد دخل في الإسلام عدد ملحوظ من أهالي مكة ، ولكن بما أن معظم هؤلاء المسلمين كانوا من الطبقة المستضعفة ، لذلك لم يكن الإسلام قد بلغ من العزة والشوكة درجة تمنعه صلاحية الإرهاب وفرض الهيبة على الآخرين ، وتأمين من يعتنقه ، ومكث الحال على ذلك إلى أن تم انفتاح هذا الباب هو الآخر ، للمرة الأولى ، وإنما الفضل في ذلك راجع – أيضاً – إلى « الدعوة » . فقد كان من دعاء رسول الله ﷺ بمكة : « **اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين** » وبعد ذلك كان رحى الأيام تدور ، وصروف الدهر تتقلب إلى أن كان اليوم الذي أعلن فيه أبو جهل وهو سيد مكة إذ ذاك لمن قتل محمداً مائة ناقة ، وكان عمر ابن الخطاب من أقوياء أو قل عمالقة مكة ، شديد البطش والشكيمة ، لا يرام ما وراء ظهره . فخرج بعد أن سمع هذا الإعلان متوشّحاً سيفه ، يريد رسول الله ﷺ ليقتله ، ويحصل على المائة ناقة .

وبينما هو في بعض الطريق يمشي ، إذ بلغه أن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد ارتدّا عن دين آبائهما ، ودخلا في الإسلام فاستشاط عمرُ

غضباً ، ورجع عامداً إلى بيت أخته ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته ، لتكفه عن زوجها فضربها ، فشجَّها . فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم ، نحن قد أسلمنا ، وآمنا بالله وبرسوله فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، وارعوى ، وتوجه إليها قائلاً : أخبريني بشيء عن هذا الدين الذي اخترتما فأعطته صحيفة وفيها سورة « طه » من القرآن ، فلما قرأ منها صدراً قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » .

وعلى الجملة ، فإن عمر بن الخطاب قد عمد بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ ، حتى لقيه ، وآمن به ، وبايعه على الإسلام ، وبما أن عمر رضي الله عنه ، كان رجلاً شديد الشكيمة ، لم يكن يرام ما وراء ظهره ، وقامته بلغت من طولها درجة جعلت رأسه يصطدم بالباب عندما دخل المسجد النبوي بعد تمام بنائه في المدينة . فلا جرم أن دخول شخص كهذا في الإسلام كان نصراً عظيماً للإسلام ولأهله . ولم يحصل هذا النصر العظيم للإسلام إلا عن طريق الدعوة ، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، ولقد كنّا ما نقدر على أن نصلي عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه » .

إسْلَام قبائل يثرب :

إن الإسلام دين بني على الفطرة ، وما من امريء إلا وهذا الدين يقرع باب قلبه ، وفطرته تتجاوب معه ، فإن لم تكن ثمة من عقبة نفسية تحول بين المرء وفطرته ، فهو لا يتمالك أن يتّخذ إزاءه أي موقف سوى الخضوع لتصديقه والإيمان بحقيته ، ولقد كان أنصار المدينة (قبيلتي الأوس والخزرج) خير نموذج تاريخي لهذا الموقف .

يروى أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان قومه

ليسمونه « الكامل » لجلده ونسبه ، وكان رسول الله ﷺ قد بُعث وأُمر بالدعوة ، فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : اعرضها عليّ ، فعرضها ، فقال : إن هذا حسن ، ومعي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله عز وجلّ نوراً وهدى . فتلا عليه القرآن ، فلم يبعد منه ، وقال : « إن هذا القول أحسن » .

ثم قدم أبو الحسير أنس بن رافع مكة ، ومعه رهط من الأوس ، وفي ذلك الوقت كانت نيران الحرب متّقدة بين الأوس والخزرج ، وكانوا قد جاؤوا ليلتمسوا الحماية من قريش على الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : « **هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟** » قالوا : « وما ذاك » فذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال غلام حدث من الوفد يقال له إياس بن معاذ : « أي قوم هذا والله خير مما جئتم له » . غير أنهم لم يعتنقوا الإسلام عند ذلك الوقت ، وانصرفوا إلى المدينة . وبعد ذلك خرج رسول الله ﷺ في الموسم يلقى فيه الوافدين من شتى قبائل العرب لزيارة الكعبة ، ويدعوهم إلى الإسلام ، كما كانت عادته في كل موسم ، فلقي أثناء ذلك عند العقبة رهطاً من الخزرج ، وهم ستة رجال منهم أسعد بن زرارة وآخرون غيره . وبعد فاتحة الحديث ذكر لهم رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليهم شيئاً من القرآن ، وقد كان في نفوس هؤلاء شيءٌ مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة ، من يهودها ، عن بعثة نبي قَرُبَ وقت ظهوره ، فلما سمعوا كلامه عليه السلام ، لم يلبثوا أن عرفوا أنه ذلك النبي . فقال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه وصدقوه ، وأسلموا .

انتشار الإسلام في المدينة :

ثم انصرف هؤلاء عن رسول الله ﷺ بعد اعتناقهم الإسلام ، راجعين إلى بلادهم ، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ، وأخذوا في تعريفهم بالإسلام ، حتى فشا بينهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر الإسلام ورسوله ، حتى إذا كان العام المقبل ، أتى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً ، وكانوا قد تأثروا بالإسلام من قبل ، فلقوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى بيعة النساء ذلك أنّه كان مما بايعوه عليه في هذه البيعة – مع قبول الإسلام – أن يمنعوه عليه السلام مما يمنعون منه نساءهم ، وأبناءهم ، وهي المعروفة في التاريخ الإسلامي بيعة « العقبة الأولى » .

فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ، ويُعلمهم الإسلام ، فكان يسمى في المدينة « المقريء » . وفي ذلك الوقت كان من أبرز رؤساء المدينة أسيد بن حضير ، فلما بلغه انتشار الإسلام في المدينة ، ثار غضبه ، ذلك بما خُيّل إليه أن الذين قدموا من مكة ، إنما جاؤوا هنا لتسفيه ضعفائهم وصرفهم عن دين آبائهم ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ، وانطلق يبحث عن أمثال هؤلاء الناس ليزجرهم وينفيهم عن المدينة .

وبينما هو كذلك إذ رأى مصعب بن عمير في حائط ، وهو جالس بين أناس يُعلمهم الإسلام فوقف عليه مُتشتّماً ، وقال : إنّما جاء بكم إلينا أن تصرفوا ضعفاءَنا عن دينهم ، فقال له مصعب : أَوَتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره . فقال : أنصَفت ثم ركز حربته وجلس إليه ، فكلّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه آيات من القرآن ، بعد أن سمع ما سمع ، لم يلبث أن تغير رأيه ، وقال : ما أحسنه

وأجمله .. ثم قام ، واغتسل ، وطهر ثوبه ، وشهد شهادة الحق ، ودخل الإسلام .

وقد حدث مثل ذلك مع سعد بن معاذ ، ثاني الرئيسين الكبيرين في المدينة إذ ذاك فهو – أيضاً – كأسيد بن حضير أغضبه انتشار الإسلام في المدينة إذ سمع عنه لأول مرة ، فأخذ حربته ، وانطلق إلى أولئك النفر ليزجرهم ، ولما انتهى إلى مصعب بن عمير ، قال له مصعب ، مثل الذي قال لأسيد ، ثم عرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام ، ثم قال لهم سائلاً : كيف تصنعون إذا أنتم دخلتم في هذا الدين ؟ فقال مصعب بن عمير : تغتسل وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلّي ركعتين ، فقام ، وفعل مثل ما قال . ودخل في الإسلام .

ثم أقبل عامداً إلى نادي قومه ، ومعه أسيد بن حضير ، فقال لهم : يا بني عبد الأشهل : كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً .. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله .. » فما أمسى في دار بني عبد الأشهل .. رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

إن قبائل المدينة كانت على بساطة الفطرة ، وكانت طبائعهم على أكمل درجة من السلامة والبعد عن التكلّف . ولم يكونوا يعلمون الإعراض عن الحق بعد إذ جاءهم وعرفوه ، الأمر الذي ساعد على تصعيد سرعة انتشار الإسلام في المدينة ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ، ونساء مسلمات .

ثم رجع مصعب بن عمير إلى مكة ، وخرج معه سبعون رجلاً وامرأتان ، فلمّا فرغوا من الحج خرجوا – حسب موعد مسبق – للقاء

رسول الله ﷺ ، أثناء الليل ، فبايعوه ، وهذه البيعة تسمى بيعة العقبة الثانية . ومن جملة التفاصيل التي وردت ضمن هذه القصة في كتب السير أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نفلة الأنصاري : « يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ..! إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ... » قالوا : فما لنا يا رسول الله إن نحن وافينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعوه . (التفسير المظهري ، المجلد الثاني . ص ١١٢ – ١٠٧ باختصار وتصرف) .

الهجرة إلى المدينة :

كان العربي في قديم الزمان يقضي حياته في منعة من قبيلته ، وإن القبيلة كانت تتكفل بحمايته من اعتداءات الآخرين . والرسول ﷺ كان ينتمي إلى قبيلة بني هاشم ، التي كانت في ذلك الحين تحت رئاسة أبي طالب بن عبد المطّلب ، ولمّا كانت السنة العاشرة من البعثة ، مات أبو طالب ، فعُهد بمنصب الرئاسة بعد ذلك – طبقاً لعرف القبيلة – إلى أبي لهب ، ولكنّ أبا لهب بعد أن تولّى الرئاسة امتنع عن أن يقوم دونه عليه السلام ، وتخلى عن حمايته .

وقد كان ذلك أمراً شديد الخطورة ، فإن حرمان أي شخص من حماية قبيلته في تلك الأزمنة كان يعني إباحة دمه وكلَّ ما يملكه وليس على من يعتدي عليه من سبيل أو خوف . وقد حدث فعلاً أن معارضيه عليه السلام لم يلبثوا بعد ذلك أن اجترأوا على إيذائه ، والاعتداء عليه كما جاء في كتب السيرة أن قريشاً نالت من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

والآن كما هو ظاهر ، لم يعد بإمكان الرسول أن يقيم بمكة ، ولكن

الوقت نفسه تمخض له عن إمكان جديد عظيم الشأن ، عن طريق الدعوه وهو أنه لما كانت السنة الحادية عشرة من البعثة قدم مكة جماعة من أهل المدينة لزيارة الكعبة ، ومن خلال تلك الفترة تأثروا بدعوته عليه السلام ، فاعتنقوا الإسلام ، وفي العام المقبل وافى الموسم آخرون في عدد أكبر من ذي قبل من سكان المدينة ، وبعد أن استمعوا إلى ما قرأ عليهم الرسول من القرآن أسلموا ، ولمّا تجهزوا للانصراف بعث معهم رجلين من مسلمي مكة (عبد الله بن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير) لتعليمهم القرآن والإسلام ، فلما انتهيا إلى المدينة ، تناولا الناس هناك بتلاوة القرآن عليهم ، وتبيين تعاليم الإسلام لهم وقد كانت أرض المدينة منبتاً حسناً لبذرة الدعوة الإسلامية فجعل الإسلام يفشو في منازل الأنصار حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

ولمّا رأى رسول الله ﷺ أن المدينة قد توفرت فيها ظروف مواتية للإسلام أمر المسلمين بالخروج إليها ، وطفقوا يهاجرون ، حتى انتقلت غالبيتهم من مكة إلى المدينة ، ومن جانب آخر رأى مشركو مكة في هذه الظاهرة ضرباً من التهديد لهم ، إنهم ظنوا أن المسلمين إنما هاجروا للمدينة لكي يجعلوها مركزاً لعملياتهم العداونية ضدهم فقرروا ضرورة القضاء على رسول الإسلام قبل أن يأتيهم مسلمو المدينة بما يكرهون ، ولكن - الآن - لم يكن قد بقي لهم من الأمر من شيء ، فإن الليلة التي أرادوا فيها تنفيذ ما أرادوا من اغتياله عليه السلام - وفي الليلة ذاتها - فارق عليه السلام مكة ووصل إلى المدينة .

وعقب ذلك دخل الإسلام في مرحلة تكوين تاريخي جديد في المدينة ، وإن الذي قد شق الطريق نحو تكوين هذا التاريخ الجديد ، إنما هو « الدعوة » من غير شك .

مدى انتشار الدعوة الإسلامية بعد صلح الحديبية :

أقام رسول الله ﷺ بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ، ولم يزل بها حتى أرغمه ما نصب له أهل مكة من عداوات ومضايقات عنيفة على مفارقة مكة والهجرة إلى المدينة ، ولكن ذلك لم يخفف من حدة غضب المشركين في مكة شيئاً ، بل زادهم غيظاً وحقداً وخُيّل إليهم أنهم لو تركوا المسلمين وشأنهم غير مكترثين لأمرهم فلا يبعد أن يزدادوا قوة وجرأة عليهم ، وليشنوا الهجوم على مكة إذا وجدوا الفرصة لذلك في يوم من الأيام فما لبثوا أن بادروا بأنفسهم على إيقاد نار الحروب والمعارك ضد أهل الإسلام فاحتدمت على إثر ذلك بعض معارك كبيرة مثل : بدر وأُحد . وأُخرى كثيرة مما يمكن تشبيهها بالاشتباكات أو المناوشات . ومن حيث المجموع يبلغ عدد هذه المواقع – على وجه التقريب – ثمانين موقعة .

لقد كانت الحروب تنشب تلو الحروب ، ولكن الوضع المتوتر بين الطائفتين ، أهل الشرك وأهل التوحيد لم يزل قائماً كما هو ، إلى أن قام رسول الله ﷺ بوضع خطة دعوية دقيقة وفق التعليم الذي ألهمه الله تعالى ، وتلك هي الخطة التي تعرف بصلح الحديبية في التاريخ الإسلامي ، وقد ورد ذكرها في كتب الحديث كلها مفصلة .

وخلاصة القول ، أن وقائع وأحداثاً مختلفة انكشفت أخيراً عن المرحلة التي كانت مبدأ انعقاد مفاوضات الصلح بين الرسول ﷺ والمشركين في موضع الحديبية . وقد اقترح عليه الصلاة والسلام ، أن يتعاقد الطرفان على اتفاقية سلمية (NO-WAR Pact) لمدة سنوات عشر ، أما مشركو مكة فلما دُعوا إلى التفاوض حول هذا الاقتراح ، لم يرضوا به طواعية بل اشترطوا لتوقيع هذه الاتفاقية السلمية شروطاً اتسمت بالانحياز الكلي إلى طرف واحد ، فمن ذلك مثلاً أنهم قالوا : إن الرسول وأصحابه يرجعون عامهم

من الحديبية إلى المدينة من دون أن يدخلوا ، ويطوفوا بالبيت ، وأن من أتى المسلمين من قريش ردوه عليهم وفي المقابل فإنّ من قدم قريشاً من المسلمين لم يردوه عليهم ، وقد وصلت بالمشركين النخوة والحمية درجة لم يرضوا معها أن يكتب في وثيقة الصلح « محمد رسول الله » وأبوا إلا أن يكتب محمد بن عبد الله ، وما إلى ذلك من شروط وأحاديث مشحونة بالإهانة والإثارة ، ولكن رسول الله ﷺ قابل انحيازهم الكلي بعدم الانحياز متذرعاً بالصبر والإعراض عن مواجهة حميتهم الجاهلية . فانصرف راجعاً من الحديبية بعد أن تعاقد مع المشركين على الاتفاقية السلمية للسنوات العشر إذعاناً لشروطهم ولم يكن الغرض من ذلك الإذعان الأحادي (وغير المنحاز) لشروط المشركين المنحازة – في هذه الاتفاقية – سوى أن يتمهد طريق الدعوة ويأمن ، وهكذا كان ، فقد « أَمِنَ الناسُ بعد ذلك ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان » (ابن كثير) .

والمسيرة الدعوية التي بدأت بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، أسفرت عن رفع وزيادة نسبة المنضمين من أفراد القبائل إلى الإسلام ، فبينما كان عدد المسلمين ذوي الكفاءة الحربية لا يتجاوز عند صلح الحديبية ألفاً ونصف ألف مسلم ، فقد بلغت عدتهم في مدة أقل من سنتين اثنين ، إلى عشرة آلاف ، وعندما سار رسول الله ﷺ بجنوده إلى مكة ، لم يكد أبو سفيان يراهم حتى نادى بأعلى صوته : يا معشر قريش . هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

الدعوةُ قوّةٌ لا تُقهرُ ولا تَفنى :

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذي القعدة من سنة ٦ هجرية ، ومنها خرج يريد مكة معتمراً ، وكان معه أصحابه البالغ عددهم أربعمائة وألف .

ولم يزل يسير بهم حتى نزل الحديبية التي بينها وبين مكة تسعة أميال بعد خطب طويل ، وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة ، فبعثت برجالها إليه ليصدوه عنها فدارت بينه وبين رسل قريش مفاوضات استغرقت أسبوعين ، ولكنهم لم يرضوا ولم يسمحوا له بأن يدخل مكة ويزور البيت ويُتمّ العمرة حتى كان عليه السلام هو المنصرف نزولاً على ما اشترطت قريش من شروط اتفاقية الهدنة ، التي تسمى بصلح الحديبية في التاريخ .

وعلى إثر العودة من هذا السفر ، قام عليه السلام بتوجيه الكتب الدعوية إلى الملوك والرؤساء حول بلاد العرب ، وقد كان ذلك في السنة السابعة من الهجرة ، وفيما يلي أسماء الذين وجهت إليهم تلكم الكتب :

هرقل	عظيم الروم	المنذر بن ساوى	صاحب البحرين
خسرو أبرويز	عظيم فارس	جيفرو عبد جلندري	شاه عمّان
النجاشي	ملك الحبشة	هوذه بن علي	صاحب اليمامة
المقوقس	ملك مصر والاسكندرية	الحارث بن أبي شمّر الغساني	صاحب دمشق

ومع أن بعض الأمراء تلقوا رسالته الدعوية بالكبرياء والشموخ ، واستحقوا الغضب الإلٰهي على ما صنعوا بها ، ولكنها أيضاً كانت سبباً في دخول مهابة الإسلام في نفوسهم وتأثير دعوته في قلوب أكثرهم ، وإجابة العديد منهم ، فقد قال قيصر ملك الروم لبطارقته بعد أن تُرجم له مضمون كتاب النبي ﷺ : « فهلموا فلنتبع ، ولنصدقه فتَسْلَم لنا دنيانا وآخرتنا » كما كتب صاحب اليمامة في جوابه مبدياً إعجابه بدعوته عليه السلام يقول : « ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله » . إن الفترة التي لم يكن الإسلام فيها في موقف يمكّنه من التقدم والمبادرة مادياً ، كان في موقف يمكّنه — من الناحية

الفكرية – من مخاطبة ملوك العصر بجرأة واقتدار . ولم يكن ذلك إلا معجزة من معجزات الدعوة ، ربما يمكن لعدوّ من أعداء الإسلام أن يضع عقبات في طريق مبادرة الإسلام المادية ، ولكن لا يمكن لأحد البتة أن يحول بين الإسلام وبين مبادرته الفكرية .

المدّ الإسلاميّ خارج الجزيرة العربية :

لم يلحق رسول الله ﷺ بربه إلا وقد كان الإسلام سائداً في الجزيرة العربية ، ولكن الأمم التي كانت تقطن البلاد المجاورة للجزيرة لم تكن تدين بدين الإسلام ، كما كانت لغتها وحضارتها تختلف تماماً عن حضارة الإسلام ولغته ، ولم يكن ذلك القطاع الجغرافي المترامي الأطراف الذي نسميه اليوم بـ « العالم العربيّ » قد ظهر إلى الوجود حتى ذلك الوقت . وقد كان هذا الوضع يشكّل خطراً مستقلاً بالنسبة لوجود الإسلام وبقائه ، والحقيقة هي أن الإسلام لو ظلّ منحصراً في شبه الجزيرة العربية لم يكن بإماكنه أن يبقى على قيد الحياة في الأزمنة المتوالية ، ولكي يبقى الإسلام حقّاً حياة دائمة ومستقلّة ، لم يكن بدّاً من إظهار الدين الإسلامي ، وإعطاء لغته وحضارته الاعتبار الغالب على قطاعات مترامية من المعمورة ، ولم يكد ينقضي نصف قرب بعد وفاة الرسول ﷺ حتى تم تحقيق هذا الواقع هو الآخر . ولكن الحقيقة التي لا بدّ من ملاحظتها في هذا الخصوص هي أن العامل الأساسي الذي كان يكمن وراء إحداث هذا الحادث العظيم هو « قوة الإسلام الدعوية » دون قوته السياسية . والحقيقة أن القوة السياسية غير قادرة تماماً على إحداث واقع من هذا النوع ، ولو كان بإمكان القوة السياسية أن تحوّل الناس إلى دين غير الذي يدينون به ، فإن الهند ، وباكستان ، وبنغلاديش لكانت دولًا تدين بالديانة المسيحية .

وعلى إثر وفاة الرسول ﷺ أخذت الحروب تنشب بين المسلمين وبين

الأمم القاطنة خارج بلاد العرب ، وفي فترة وجيزة جداً استطاع الغزاة المسلمون أن يفتحوا مجموعة كبيرة من المناطق ما بين آسيا وأفريقية . إلا أنه من الحقائق الصارخة ، المعلومة لدى كل من له إلمام بالتاريخ ، أن هناك في تلك البلاد المفتوحة لم تتخذ - في يوم من الأيام - إجراءات إجبارية للتحويل الديني . لنأخذ مصر مثلاً ، التي فتحها المسلمون في عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه ، فقد كتب أحد باحثي الموسوعة البريطانية ، وهو يتوخى تسليط الضوء على تاريخ مصر ، يقول :

« إن المسلمين سرعان ما استولوا على أرض مصر بالفتح في سنة ٦٤٢ من الميلاد ، ولكنهم قد التزموا بشدة مبدأ التسامح الديني (Religious tolerance) إنه لم تكن ثمة من محاولة اعتداء أو إكراه ، بل ولم تكن كذلك حتى ممارسة إقناع على الصعيد الحكومي ، لحث المصريين على اعتناق الإسلام ، إن الحكام العرب قد أخذوا على أنفسهم العهد بالحفاظ على الكنائس المسيحية » .

" There was no attempt to force, or erevento persuade, the Egyptians to convert to Islam. The Arabs even pledged preserve the Christian Churches " (6/487-88).

كذلك اعترف البروفيسور : ت . دبليو آرنولد ، في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) بتمسك فاتحي مصر المسلمين بأكمل ما يكون من التسامح : فكتب يقول :

« وليس هناك مما يدل على أن انضمام المسيحيين في مصر إلى الإسلام على ذلك النطاق الموسع ، كان نشئاً عن أيّ اضطهاد أو ضغط غير عادل من جانب الحكام الجدد (أي المسلمين)

" There is no evidence of their widespread apostasy to Islam being due to persecution or unjust pressure on th e part of their new rulers ".

كما كتب البروفيسور آرنولد في موضع اخر ، يقول :

« إن دخول المصريين في الإسلام ، لم يكن قط ، نتيجة لأي نوع من الاضطهاد السياسي أو العسكري » .

" These conversions were not due to persecutions " (110).

وهنا يعرض سؤال : كيف أمكن دخول أغلبية المصريين الساحقة في الإسلام مع أنه لم يكن هناك شيء من القهر والاضطهاد لحملهم قسراً على التحول الديني ؟ ولقد رد على هذا السؤال ، السيد آرثر كيت ، أحد خبراء الآثار المصرية ، قائلاً ، « لم يكن الذي أخضع المصريين هو السيف ، بل إنما كان الذي أخضعهم هو (القرآن) » .

" The Egyptians were conquerd not by the sword, but by the koran " Si Arthur Keith, Anew Theory of Human Evolution, London Watts & Co. 1950, P. 303.

وهكذا تجد في كل البلاد المفتوحة ، بدون استثناء ، أن أي نوع من الإجبار أو الاضطهاد لم يمارس قط ، لتطويع سكانها من غير المسلمين ، حتى يندمجوا في الدّين الإسلامي . وإنما قوة الدعوة الإسلامية هي وحدها التي عملت على تسخيرهم ، وفي أمد غير بعيد جذبتهم إلى حظيرة الإسلام . إنهم كانوا يسمعون عن الإسلام أثناء احتكاكاتهم ، ومقابلاتهم اليومية مع المسلمين الذين دخلوا بلادهم كما أنهم تناولوا الكتب الإسلامية بالدرس والمطالعة مما جعلهم يكتشفون أن الإسلام أكثر منطقية وأقرب إلى العقل بالنسبة لما ورثوا عن آبائهم من الطقوس الدينية ، وأن تعاليم الإسلام على درجة أكبر من البساطة والقابلية للتطبيق العملي ، فاستجابة لهذا التأثر والانطباع ، انشأوا يعتنقون الإسلام ، ولم يزل عددهم يتزايد حتى ضم الإسلام أغلبيتهم ، وبالتالي تشكل في الخريطة الجغرافية ذلك العالم الذي يطلق عليه « العالم الإسلامي » .

إسلام الأتراك السلاجقة :

كان سلجوق أحد رؤساء أتراك الغُزّ ، قد قام بتجهيز جيش من القبائل ، وشنّ الهجوم على غربي آسيا ، في القرن الحادي عشر المسيحي ، وعلى يديه تأسست مملكة قوية ، وطيدة الأركان ، امتد نفوذها إلى بلاد الأردن ، والشام ، والعراق وفلسطين ، وما إليها من البلدان التي كانت من قبل تحت سيطرة المسلمين ، فأرسى هناك السلاجقة الأتراك قواعد مملكتهم بعد أن أخضعوا جنود المسلمين لسلطانهم ، وكان ممن خلفوا من بعد سلجوق ، طغرل بك (المتوفى ١٠٦٣) وألب أرسلان (المتوفى ١٠٧٣) .

وفي هذا الحادث عظيم الشأن من حوادث التاريخ الإسلامي ، فإن أولئك الأتراك السلاجقة الذين كانوا في البداية قبائل اتسمت بالهمجية والبربرية ، لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا حماة للإسلام ، وذائدين عن حياضه إلى مدة تتجاوز قرنين . ولقد تمكنوا من توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم في العالم الإسلامي بأسره ، بعد أن قضوا على ما كان بين الشيعة وأهل السنة والجماعة من خلافات ومشادّات . كما قاموا بتعمير مساجد كبيرة شامخة ، وبناء مدارس فخمة عامرة ، كما لعبوا دوراً هاماً في صدّ الغزوات المسيحية ضد الإسلام .

وهناك في مؤلفاتنا التاريخية ، تجد رصيداً ضخماً من البطولات والمآثر من هذا النوع ، تُعزى إلى السلاجقة ، ولكن هذه المؤلفات لا تَردُّ عليك بشيءٍ إذا ما تساءلت : كيف ، وفي أي وضع قدر للسلاجقة اعتناق الإسلام ؟ وما الذي يكمن وراء ذلك ؟..

إن هذا الفراغ جدّ هائل ، فالتاريخ الإسلامي المدوّن بيننا يزخر بحكايات وأقاصيص غاية في التفصيل فيما يتعلق بالوقائع الحربية والفتوحات السياسية لا يسمن ولا يغني شيئاً فيما يتعلّق بتفاصيل ذلك « الفتح الأعظم »

المتمثل في تمكن الإسلام في قلوب الناس ، واستمرارية دخول الأقوام والشعوب في حظيرة الإسلام أفواجاً . إن كتب التاريخ الإسلامي المتداولة ، تفيدنا كثيراً عن « دولة السلاجقة » ولكنها لا تخبرنا بشيء عن « إسلام السلاجقة » .

وربما لا تجد في تراث الأدب الإسلامي بأكمله ، كتاباً جديراً بالذكر يتناول موضوع « تاريخ الدعوة » غير كتاب واحدٍ ، وكاتب الكتاب يسمى : ت ، دبليو آرنولد . وقد كتب البروفيسور آرنولد – حين تناول الحادث المذكور – يقول :

" In the hours of its political degration, Islam has achieved some of its most brilliant spiritual conquests: on two great historical occasions, infidel barbarians have set their feet on the necks of the followers of the prophert,— the saljuq Turks in the eleventh and the Mongols in the thirteenth century,— and in each case the conquerors have accepted the religion of the conquered " (p.2).

« لقد قُيّض للإسلام أن يحرز بعض فتوحاته الروحية البالغة في الروعة والمثيرة للإعجاب ، على حين كان قد ألم به الانحلال السياسي ، فقد حدث في مناسبتين تاريخيتين كبيرتين أن الكفار المتبربرين وضعوا أقدامهم على أعناق أتباع الرسول محمد ، الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر المسيحي ، والمغول في القرن الثالث عشر المسيحي ، ولكن كلتا الحالتين أسفرتا عن دخول الفاتحين في دين المفتوحين » .

إسلام التتار والمغوليين :

في قديم الزمان كانت عدة قبائل تقطن في تركستان (روسيا) ومنغوليا (الصين) يقال لها « التتر » وكان من رؤسائها جنكيزخان

(١١٦٣ - ١٢٢٧) وقد كان رجلًا ذا كفاءات غير عادية ، جمع ألفي مناضل تحت قيادته وسار بهم من بلاد الصين حتى انتهى إلى إيران ، هازاً بفتوحاته أركان الدول جميعاً فيما بين البلدين .

وعقبه استمرت هذه القبائل قدماً إلى الأمام ، إلى أن طلع هولاكوخان (١٢١٧ - ١٢٦٥) وقام بإنجاز ما كان ينويه جده (جنكيزخان) من إبادة المملكة الإسلامية وتدميرها ، فقد قضى على العاصمة بغداد وخرّبها ، وقتل الخليفة العباسي (المستعصم بالله) شرّ قتلة ، ذلك بأن الأمراء التتر كان قد بلغهم من خوارزم شاه الملك المسلم شيءٌ أثار غضبهم ، فتصدوا للتطويح بالمملكة الإسلامية وتصفيتها .

وقد كانت هذه الكارثة من أفظع وقائع التاريخ الإسلامي ، وقد بلغت مهابة التتر واستبدادهم في السيطرة على العالم الإسلامي لدرجة ، حتى صار يقال : « إذا قيل لك إن التتر انهزموا ، فلا تصدق » .

ومما يلاحظ أن هذه المشكلة بالغة الضخامة لم يمكن حلّها إلا عن طريق الدعوة . إن الغزاة التتر لمّا فرغوا من استنزاف دماء المسلمين بأقصى ما وسعهم ، غمرهم الهدوء ، وخمدت نيران عواطفهم الثأرية . وبعد ذلك أخذوا دين رعيتهم بشيء من الاعتبار ، وتناولوه بالتفكير فيه بجدية وإمعان ، وبما أن ثمة مناسبات كثيرة كانت تجمع التتر بالمسلمين ، وكان قد سيق إلى بيوتهم عدد لا يحصى من سبايا المسلمين رجالاً ونساءً ، ثم كانت بواعث شتى تحدو بتتري إلى أن يقابل مسلماً كل اليوم على الشوارع ، وفي الأسواق ، وما إلى ذلك من الأمكنة ، كما كان المسلمون أنفسهم يختلفون إلى بلاط الأمراء التتر ، فعن مثل هذه الطرق المختلفة استطاع التتر أن يتعرفوا على الدين الإسلامي ، ويلمّوا بتعاليمه ومحاسنه .

وعلى إثر ذلك ، طفقوا يعتنقون الإسلام ، فأسلم أول من أسلم

أمراؤهم وأشرافهم ، ثم تبعهم عامة التتر ، حتى دخلت أغلبيتهم في حظيرة الإسلام ، وذلك ما جعل الذين كانوا أمس قد هدموا صرح الإسلام يصبحون الآن بناة صرح الإسلام من جديد ، وقد كتب البروفيسور آرنولد ، حين أورد هذا الحادث الدعوي العظيم للتاريخ الإسلامي يقول :

« إن الفاتحين قد اعتنقوا دين المفتوحين » " The coquerors have accepted the religion of the conquered ".

وكتب البروفيسور فيليب حتى ، حين ذكر هذا الحادث في كتابه « تاريخ العرب » يقول : " The religion of the Muslims had conquered where their arms had failed (p.488) « إن دين المسلمين قد حظي بالانتصار بينما كانت أسلحتهم قد باءت بالفشل » .

الدعوة قوة لا ينضب معينها :

إن الدعوة هي قوة لا تزال تتوفر لدى المؤمنين حتى ولو فقدوا أو سلبوا كل ما يملكونه ، وثمة في بلاد أفريقية مثال رائع يؤكد ذلك ، علاوة على ما فيه من دروس وعبر لمن أراد الاعتبار .. وقد تصدّى البروفيسور آرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) لعرض كيف كان امتداد نفوذ الإسلام إلى قبائل البربر في الجزائر ، وهذه القبائل كان أكثر الناس فيها ممن يدينون بالديانة الوثنية القديمة ، كما كان فيهم عدد غير كثير من المتدينين بالمسيحية .

كانوا يسكنون في مناطق جبلية ، ولإحاطة الجبال بهم كانوا في حصار ومنعة من الهجمات الخارجية ، ونتيجة لمزاجهم القبلي كانوا قد شربوا الاستبداد والحب الزائد للاستقلال الذاتي ، فما زالوا يصدون العناصر العربية من التسرب إليهم ، إلى مدة غير قليلة ، ولأجل ذلك كان هناك في طريق هديهم إلى الدين الإسلامي عقبات عديدة صعبة ، وكان قد حاول رجال

الصوفية لزاوية تسمى « ساقية الحمراء » المنتسبة إلى الطريقة القادرية ، أن يضعوا هناك قواعد نشاط تبليغي منظم إلا أنهم لم يتمكنوا من إحراز النجاح في محاولاتهم تلك ، وإنما الفضل في تمهيد الطريق نحو نشر الدعوة بينهم يرجع إلى المسلمين الأندلسيين الذين كانوا قد لجأوا إلى هذه الزاوية ، بعد أن نُفوا عن بلاد أسبانيا عقب سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢ ميلادية . إنّ شيخ الزاوية توسم فيهم الخير وأدرك أنهم أكفاء مؤهلون للغاية ، لمهمة التبليغ الشاقة ، تلك التي لم يكتب لجهود تلاميذه فيها نجاح ، وقبل أن يبعثهم لهذه المهمة ، خاطبهم بهذه الكلمات .

« إن واجبنا ، أن نحمل مشعل الإسلام ، إلى تلك البقاع والأصقاع ، التي ظلت محرومة من بركات الإسلام وحسناته ، وإن هذه القبائل قد زادها شقاء وسوء حال أنّها تفقد معاهد تقوم بتربية أبنائها على المبادىء الخلقية ، كما لا يوجد هناك شيخ يعلمهم فضائل الإسلام ومحاسنه ، إنهم ليقضون حياتهم كالبهائم ، جاهلين بكل ما يتعلّق بالله ، وما يتصل بالدّين ، فوددت أن أستثير حماسكم الإيماني ، وحميتكم الدينية ، لكي تضطلعوا بانتشال هؤلاء الناس مما هم فيه من وهدة الجهالة الباعثة على الرثاء قوموا وألهبوا شعلة شعورهم الإيماني ، التي أوشكت أن تخبو ، ولتوقدوا شرارتها الكامنة تحت الرماد من جديد . وطهروهم من أدران المسيحية الفاسدة ، التي كانوا عليها من قبل ، والتي لم تزل عالقة بهم إلى الآن ، وأحيطوهم علماً بما يشتمل عليه ديننا القيم من حقائق نيّرة ، ومفاهيم سامية ، وأخبروهم بأن الإسلام – على العكس من الديانة المسيحية – دين الطهارة وإن الله وفق تعاليم سيدنا محمد المرسل إلينا بهذا الدين لا يحب ولا يقبل شيئاً غير طاهر .. وهنا لا يسعني إلا أن أعترف بصراحة ، أن في طريقكم هذا – الذي أنتم سالكوه – صعوبات وعوائق كثيرة ، إلا أني لست بقانط من فضل الله ولطفه بل إني على أكمل يقين أن حميتكم الإسلامية الغلابة ، وحماسكم

الإيماني الجبار ، سيتغلبان على كل العقبات والصعوبات في نهاية الأمر .

فانطلقوا يا أفلاذ كبدي ! إلى هذه الأمة البائسة الشقية ، المتورطة في أوحال الجهل والكفر والوثنية ، وعودوا بها إلى سبيل ربها ، وهدي رسوله ، وبلّغوها رسالة النجاة والفلاح ، صحبكم الله ورعاكم » .

فانطلق هؤلاء المبلغون لابسين ثياباً وسخة بالية ، آخذين بأيديهم العصي ، متخذين هيئة جماعات متألفة من خمسة أو ستّة رجال ، وانتشروا إلى مختلف الجهات والأطراف ، واختاروا كهوفاً ومغارات بين الهضاب ، من مناطق غير مسكونة واتخذوا هناك بين الصخور والجنادل ، زاويا ومعابد ، وبعد زمن قليل اشتهروا في القبائل لورعهم وتنسكهم ، فبدأت هذه القبائل تختلف إليهم . وبما كان عندهم من معرفة بالطب ، والحرف اليدوية ، وما إلى ذلك من مهارات أخرى ذات فوائد كبيرة للحياة الاجتماعية ، ذاع صيتهم ، وصار لهم نفوذ عظيم في نفوس قبائل البربر ، حتى تحولت كل زاوية من زواياهم إلى مركز إسلامي للتعليم والدعوة وقد اجتمع حول أولئك الغرباء كثير من الناس للاغتراف مما عندهم من ثروة علمية وفضائل أخرى ، وإن هؤلاء الطلبة هم الذين أصبحوا فيما بعد ، كوادر ، اضطلعت بنشر رسالة الإسلام بين بني جلدتهم ، حتى انتشر دينهم بين جميع قبائل البربر ، وتغلغل في كل منطقة من مناطق الجزائر . [كتاب : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٨ : ١٢٩] .

الإسلام في جزر الملايو :

يبلغ عدد المسلمين في جنوب شرقي آسيا إلى مائتي مليون مسلم ، وفي أندونيسيا فحسب ، يبلغ عددهم مائة وعشرين مليون مسلم ، ومن غير شك أن هذا العدد يفوق كل قطر من الأقطار الإسلامية ، وأكثر النواحي روعة وتأثيراً في ضخامة عدد المسلمين في هذه المناطق ، هو دخولهم في

الإسلام الذي لم يكن إلا عن طريق العمل التبليغي الخالص ، فإن المسلمين لم يتجهوا إلى هذه المناطق في يوم ما بأي هجوم عسكريّ .

وكان ظهور الإسلام في هذه المناطق بصورة واضحة في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهذا القرن هو الذي طرأ فيه التدهور والانحلال على قوة المسلمين السياسية . كتب البروفيسور . ت ، دبليو آرنولد يقول : إن تاريخ جزر الملايو للقرون الستة الماضية لينطوي على فصل رائع جداً للتاريخ الإسلامي ، حيث كان الإسلام قد انتشر عن طريق الجهود التبليغية ليس إلّا » (ص ٣٦٧) .

إن القرن الثالث عشر ، هو القرن الذي سقطت فيه الدولة الإسلامية في أسبانيا ، وهذا القرن هو الذي كان الإسلام فيه يشق طريقه إلى السيطرة الفكرية على جزر الملايو . وقد كتب الدكتور كرافورد (Dr. Craw Ford) مشيراً إلى ذلك يقول : « إنه لمن غريب الصدف ، أن الدين الإسلامي كان يمتد نفوذه إلى آسيا ، في حين كان قد نفي عن البلاد الأوربية » " It may be remarked as a singular co-incidence that the Mohamedan religion was extending itself thus in Asia at very time it was expelled from Europe ".

وكتب البروفيسور آرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » يقول :

« .. غير أن السنين المتأخرة ، أسفرت عن سقوط المملكة الإسلامية ، وانحلال قوة الإسلام السياسية ، إلى أقصى حد ، ولكن فتوحاته الروحية ، لم تزل مستمرة من دون أن يعوقها عائق . فعندما قام المنغوليون بالقضاء على بغداد في سنة ١٢٥٨ ، وأغرقوا مجد الخلافة العباسية في الدماء ، وعندما قام فرديناند في سنة ١٢٣٦ بإجلاء المسلمين عن قرطبة ، ودفع سلطان غرناطة المسلم إلى الملك المسيحي الخراج ، كان الإسلام قد تمكن من نفوذه إلى سومطرة ، وكان يخطو بخطوات موفقة نحو الاستيلاء على جزر الملايو

لقد قُيّض للإسلام أن يحرز بعض فتوحاته الروحية ، البالغة الروعة والمثيرة للإعجاب ، في حين كان قد أحاط به الانحلال السياسيّ » (ص ٢) :

وكتب فان لير (Van Lear) يقول :

« إن أي شخص يدخل في تاريخ أندونيسيا ، فكأنما هو يدخل في عالم مجهول تماماً ، إن الناس على العموم يظنون أن هناك قوة طلسمية « خارقة للعادة » هي التي كانت قد أدخلت سكان جنوب شرقي آسيا في الإسلام » .

نعم هناك قوة خارقة للعادة كانت تعمل وراء هذا المدّ الإسلاميّ . ولكنها لم تكن أية قوة طلسمية بل إنما هي قوة الإسلام الدعوية . ولا ريب أن القوة الدعوية الإسلامية ، تنطوي تحتها إمكانية جبارة لأن تجتذب الناس إليها ، وتضطرهم إلى الدخول في الإسلام .

لقد دخل الإسلام في هذا المناطق بأيدي التجار ، وإن ما يتصف به التاجر من سلوكيات هي نفسها سلوكيات الداعي وخير الدعاة من يعامل المدعو بما يعامل به التاجر زبائنه ، ومثل هذا الداعي لا يمكن أن تبوء مهمته بالفشل . وقد كتب إليكس دي توكوفيل (Alex de Toqueville) :

« إن التجارة تقتلع جذور عواطف العنف والتعسف ، وهي تستحب القصد والتراضي المتبادل ، والتاجر يتحرز بشدة من أن يُعرض عن زبائنه وهو في حالة الغضب ، إن التاجر يكون صبوراً أيما صبر ، والتجارة هي التي تخلق في صاحبها مثل هذه الصفات النبيلة ، لذلك قال بعض المفكرين : إن الله يجعل من التجارة وسيلة للتبليغ عنه .

“ God making commerce His missionary ”

الدعوة الإسلامية في القرن العشرين :

إن القرن العشرين – من ناحية – هو قرن الحركات الإسلامية ، ففي

هذا القرن ، قام المسلمون بإثارة حركات عظيمة الشأن ، لا يأتي عليها الحصر ، وهذه كلها كانت حركات قد غلب عليها الطابع السياسي والثوري ، مع تفاوت درجة الغلبة بين واحدة وأخرى ، وقد بلغ – من حيث الكمية – ما تمتعت به هذه الحركات من عدد ضخم من الأتباع والأنصار ورصيد هائل من الوسائل والإمكانيات ، درجة كافية تمكينها من الظفر بالنجاح ، ولكن هذه الحركات لم تلبث – رغم امتداد نفوذها وانتشارها بين قطاعات شاسعة من الناس – أن باءت بالفشل والإخفاق . ولم تنل الأمة منها أية فائدة إيجابية من أي نوع . إن هذه الحركات قد هبّت كالزوابع الهوجاء ، وتلاشت في الفضاء كأنها فقاقيع .

إن هذا الوضع المأساوي للمسلمين في القرن العشرين ، كان من الناحية السياسية ، أما من الناحية الدينية ، فإننا نرى في هذا القرن بعينه أن قوة الإسلام الدعوية ما زالت تجتذب وتسخر كتلاً من السكان في كل قطر من أقطار العالم غير أن القادة والزعماء الإسلاميين ، لم يوجهوا شيئاً يذكر من جهودهم وطاقاتهم صوب الميدان المتصل بالدعوة الإسلامية ، ومع ذلك فالإسلام بفضل ما يتمتع به من قوة وجاذبية ذاتية ، لم يزل يتمكن قلوب العالميين .

والذين وُفقوا إلى اعتناق الإسلام ، خلال المائة سنة الماضية ، في شتى أرجاء العالم ، يتجاوز عددهم الملايين . وفيما يلي نعرض قائمة نموذجية ، تتضمن أسماء العديد منهم ، وقد أثبتنا مقابل الأسماء سنيّ دخولهم في الإسلام . وهذه القائمة ستؤدي إلى تقدير كيفية استمرارية اهتداء الناس إلى الإسلام في كل دور من أدوار القرن الماضي .

1	Prof. Haroon Mustafa Leon	England	1822
2	Mohammed Alexander Russled Webb	U.S.A	1890
3	Dr Nishikanta Chattopadhva	Hyderabad	1904

4 Lord Headly al-Farooq	England	1913
5 Dr William ,burchell B. Pickard	England	1922
6 Sir Abdulla Archibald Hamilton	England	1923
7 Mohammad Marmaduke Pickthall	England	1935
8 Mohammad Leopoled Asad	Austria	1926
9 Dr Abdul Karim Germanus	Hungary	1940
10 Dr Ali Mohammad Mori	Japan	1947
11 Dr Ali Selman Benoist	France	1955
12 Dr R.L. Mellema	Holland	1955
13 Ibrahim Khalil Phillips	Egypt	1960
14 Prof. A.H.B. Heweet	U.S.A	1966
15 Umar Bongo (Preśident, Gabon)	Gagon	1973
16 Dr Roger Garoudy	France	1982
17 Moosa Fondi	Tanzania	1986
18 Abdullah Adiar	Madras	1987

كل هؤلاء من الذين قاموا بدراسة الإسلام بناءً على رغبة ذاتية أو جهود شخصية ، وأسفرت هذه الدراسة عن تأثرهم العميق بتعاليم الإسلام لدرجة أنهم لم يلبثوا أن اعتنقوه . وقد تعلم عديد منهم اللغة العربية حتى يتمكنوا من فهم الإسلام بصورة مباشرة ، إن القرن العشرين بالنسبة للمسلمين على الصعيد القومي قرن الخيبة والخسران ولكن الإسلام في هذا القرن نفسه ، كان ولا يزال يخطو بخطًى حثيثة نحو الأمام .

كلمة أخيرة :

إن التاريخ الإسلامي بأكمله يؤكد على أن أكبر ما يملكه الإسلام من قوة هو « الدعوة إلى الإسلام » ، إن الإسلام يطابق الفطرة الإنسانية مطابقة تامة ، وإنه لو عرض على الإنسان في صورته الأصلية ، فلا يلبث أن ينفذ إلى قرارة نفسه ، ويتمكن من صميم قلبه ، وهو يجعل المرء مضطراً إلى أن يعترف بحقانيته ، إن الحقيقة هي أن الإسلام في ذاته يحمل قوة تسخيرية ذاتية لدرجة أنه يضطر الناس إلى التأثر والإعجاب به .

ولكن هذه القوة لا تعمل عملها إلا إذا أزيلت كل العراقيل النفسية بين الإسلام ومخاطبيه . وقد كان المسلمون في القرون الأولى يدركون هذا السرّ ، إذ تمسكوا بمبدأ التسامح بصورة عامة حيثما دخلوا من البلاد والأمم فاتحين ، واعترفوا لكل واحد بالحرية الكاملة فيما يتعلّق بدينه ، وكانوا يعلمون أنهم لو فتحوا صراعاً طائفياً مع هذه الشعوب ، أو تناولوا الناس بالاضطهاد والقهر في أمر الدين ، فلتأخذنهم الحمية بالعناد والتعنت ، مما يقودهم إلى إنكار أمر غير قابل للإنكار. وقد اعترف المؤرخ الإنجليزي الشهير ، هنري توماس بكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) للمسلمين الأوائل بهذه الحكمة والتدبر بكلمات واضحة ، حين قال : « إن الدعاة الإسلاميين لعلى جانب عظيم من الحكمة والروية » .

''The Mohammetan missionaries are very judicious'' P. (409).

وفي كتاب (The Preaching of Islam) للبرفيسور آرنولد ، توسع كاتبه غاية التوسع في عرض أن المسلمين في القرن الأولى ، قد التزموا في كل الأماكن والبلاد ، بمبدأ التسامح الديني أشدّ التزام ، وبالرغم من امتلاكهم أزِمَّة السلطة السياسية لم يتصدوا قط لإثارة الخلافات الدينية ، مع الشعوب غير المسلمة ، وإن هذا لهو السبب الأكبر في أن جزءاً كبيراً من المعمورة في العصر القديم ، انضوى تحت الدّين الإسلامي .

كذلك اليوم يمكن أن تبرز هذه القوة الدعوية للإسلام ، بكل ما تنطوي عليه من إمكانات تسخيرية ، ولكن ذلك منوط بأن يبادر المسلمون المعاصرون بالقضاء على جميع تلك الصراعات الطائفية التي فتحوها مع جيرانهم من غير المسلمين في كل بقعة من العالم ، إن هذه الصراعات الطائفية والتي أطلق عليها « الجهاد » خطأً، لأكبر عائق في سبيل بروز القوة

الدعوية للإسلام ، ويوم أن يتم القضاء على تلكم الصراعات ، سيأخذ يومئذ الفيضان الدّعوي للإسلام في التدفق ، وسيبقى يتدفق حتى يبلغ إلى منتهاه.

إنّ لكل مجموعة بشرية ، نظامين ، نظام للعقائد ، ونظام للسلطة ، إنّ المسلمين المعاصرين تخلّفوا اليوم عمّن دونهم من الأمم والشعوب بالنسبة لنظام السلطة ، ولكنهم ما زالوا أقوى من شعوب العالم حتى اليوم بالنسبة لنظام العقائد . إلا أن القادة الإسلاميين في سائر أنحاء العالم ، خائضون في صدام مع الشعوب الأخرى في الميدان المتصل بنظام السلطة حيث لا ولن يعود عليهم بشيء سوى الهزيمة والنكسة والدماء ، ولو أنهم تخلوا عن هذا الصدام العقيم ، وجعلوا من الشعوب الأخرى مخاطبين لهم في الميدان المتصل بنظام العقائد فسرعان ما يشاهدون تاريخهم الراهن المليء بالنكسات والهزائم ، قد تغيّر إلى تاريخ الفتح .

فالنهوض ، النهوض بالإسلام كقوة فكرية ، فإنّ ذلك مما يُسفر فيما بعد عن اتخاذه الاعتبار الغالب على الدنيا من الناحية الفكرية ، وتأتي النواحي الأخرى تبعاً لذلك ..

إذا قدر لأحد أن يكون طبيباً أخصائيّاً ، ثم هو لا يوظف كفاءته وإمكانياته في مجال اختصاصه ، بل يهدر أوقاته في مجال السياسة ، فلا شك أن أصدقاءه سيوجهون إليه النقد اللاذع قائلين له : إنك تضيع أوقاتك الثمينة في أمور تافهة ، بينما كان عليك أن توظف مادرسته في المجال العملي لاختصاصك ، حتى تعيش حياة كريمة عزيزة .

نفس الأمر ينطبق على المسلمين في العصر الحاضر ، فهم في الأصل أمة داعية ، تمتلك الحقيقة التي لا يمتلكها الآخرون ، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول وفقاً للمصطلح التجاري ، إن المسلمين يملكون **(Monopoly)** في الساحة الدينية ، فهم وحدهم بين الأمم يمتلكون الصدق الأصيل الذي لم

تشبه شائبة التحريف والتبديل ، ودينهم هو الدين التاريخي بكل معنى الكلمة ، في حين أن الديانات الأخرى هي عبارة عن مجموعة من الخرافات والتقاليد الموروثة ، فليس ثمة أي دين – عدا الإسلام – يملك المصداقية التاريخية .

وبهذا الاعتبار كان على المسلمين أن ينهضوا بدينهم ، غير أن المسلمين المعاصرين إنما يقومون بأعمال أخرى غير واعين بهذا الأمر ، ففي الدول الإسلامية مثلاً ، هم يثيرون ضجة سياسية ويخوضون في التناحر مع الحكام الذين تحولوا في نظرهم إلى أعداء نتيجة ردود الفعل ، ونجم عن ذلك ضياع فرص الدعوة في كافة الدول الإسلامية تقريباً .

إن هذا الوضع يتحمل مسئوليته قادة المسلمين الذين جعلوا الإسلام عنواناً للصراع مع الحكام ، أولئك الذين راحوا يحسون من جراء ما يلاقون من نشاطات غير إيجابية بأن الإسلام يمثل خطراً سياسياً بالنسبة لهم ، فتحولوا إلى أعداء للحركات الإسلامية . وفي الدول غير الإسلامية ، حيث يمثل المسلمون الأقلية ، قام قادة المسلمين بنفس العمل الذي قام به القادة في الدول الإسلامية ، ففي كلا الجانبين تجري صراعات غير مجدية ، ضاعت من جرائها فرص الدعوة ، مع فارق بسيط بينهما ، وهو أن الصراعات التي تجري في الدول الإسلامية كانت باسم إقامة النظام السياسي للإسلام ، بينما تجري في الدول غير الإسلامية لإثبات الهوية القومية للمسلمين .

إن ذلك العمل بنوعيه باطل دونما شك ، والدليل على ذلك الفشل والإخفاق الذي يلاقيه رغم توافر العدد الكافي والإمكانيات الهائلة ، ويبدو من ذلك كأن الله حكم عليهم بالفشل والإخفاق ولو وضعوا الجبال والبحار فوق ظهورهم .

والحقيقة أنه ثمة أمر واحد ينبغي أن يقبل عليه المسلمون ألا وهو أمر

الدعوة إلى الله . إن نجاحهم في الدنيا وخلاصهم في الآخرة يرتبطان بهذا الأمر ارتباطاً كلياً ، وهذه هي المسئولية التي ألقى الله على عاتقهم للأبد . فإذا ما نهضوا بذلك العمل فسوف يجعلون أنفسهم أحق برحمة الله الواسعة ، وإذا تخلفوا عنه فإنهم سيقعون في قبضة الله ، والحركات التي فجروها باسم الإسلام سوف لن تنقذهم من قبضته تعالى .

ميدان العمل

التقيت ذات مرة برجل قال لي : « إنني قاريء قديم لمجلتكم (الرسالة) وإني لا أترك عدداً إلا وأقرؤه ، كل نقطة طرحتموها فيه ، إلا أني لا أوافقك على نظريتك . التي تدفع المسلمين إلى التخلف . ثم ذكر بعض المفكرين المسلمين وأعقب ذلك بقوله : إن هؤلاء يدفعون المسلمين . دفعاً حثيثاً إلى التقدم والرقي ، والمسلمون هم أمة أعظم الأنبياء فلا يمكنهم أن يقبلوا نظرية تدعو إلى التخلف كهذه النظرية . وأتبع كلامه هذا بشعر فارسي ردده بكل حماس : « كن مقداماً ولا تكن متخلفاً » .

وكان جوابي : إن الفرق بيني وبين المفكرين الآخرين ليس في أن الآخرين إنما يدفعون بالمسلمين إلى الرقي والتقدم بينما أنا أدعوهم إلى التخلف والجمود . كل ما في الأمر أن كلا منا يشجع المسلمين ويحثهم على الأخذ بأسباب الشجاعة وبأسباب الرقي والتقدم وأن الفرق بيننا إنما يكمن في تعيين الميدان الذي يتم فيه إبراز الشجاعة والرقي ، فالآخرون يقولون : إن التقدم لا يأتي إلا عن طريق الحرب والتناحر ، وأنا أقدم خطة للتقدم في ميدان الدعوة والتبليغ ، وبينما يدعو الآخرون إلى التقدم والرقي الذي يأتي عن طريق السيف ، أدعو أنا إلى التقدم والرقي النظري ، أي أن الفرق بيني وبينهم يتحدد في تعيين ميدان التقدم وليس في مفهوم التقدم نفسه .

إن التقدم ليس اسماً لعملية عشوائية خاطفة ، وليس المراد به أن يحطم أحد رأسه على صخرة في أرض قاحلة وبدون جدوى . إن التقدم هو اسم لعملية منظمة قائمة على أساس خطة محكمة ، وإنما يتطلب ذلك ذهناً ثاقباً

ومفكراً نابها وعالماً متميزاً بسعة المعرفة . والمبادرة لا تكون إلا وفي المقابل من يقوم بمعارضتها ، لذا يتحتم على المبادرين بأن يمحصوا الأوضاع ويحللوا ما يستجد ويطرأ منها لمعرفة الظروف المواتية لهم .

هناك صورة للمبارزة ، وهي أن تبارز العدو في ميدان موات له " To contest on another man's ground " أي أن خوض الحرب في حالة ما إذا كان ميدان المبارزة معبد وموات للعدو يعني أنك مقبل على الهزيمة بإرادتك وإدراكك . فإذا كان هذا هو الوضع فيتوجب على الفريق الأول أن يتدبر الأمر بدقة تتسم بالحكمة والحنكة بهدف نقل المعركة إلى ميدان موات له . To bring one's enemy to fight on the ground of one s own choice.

في العصر الحاضر ، انطلاقاً من السيد أحمد شهيد بريلوي إلى الآن . قد خاض المسلمون حروباً عديدة قد مني فيها المسلمون بهزائم فادحة ، والسبب في ذلك يعود إلى أنهم اعتمدوا على مبدأ المبارزة من أجل المبارزة . إنهم اقتتلوا في الميدان المواتي للعدو في حين أن العقل والإسلام يقضيان خطة منظمة ومدبرة لتغيير مسار المعركة وتحويلها إلى ميدان موات لهم .

لنضرب مثالاً توضيحياً على ذلك : إن القادة الإسلاميين في الهند كثيراً ما يشكون من أنهم قدموا التضحيات الجمة في سبيل تحرير الهند واستقلالها كغيرهم من أبناء الهند ، إلا أنهم حين تم الاستقلال لم يحظوا ينصيبهم أسوة بغيرهم ، فهم يعانون من التمييز الطائفي في كل مكان . إن هذه الشكوى تبدو لديّ تافهة جداً . فهي تكشف عن حالة الإفلاس الفكري الذي يعاني منه هؤلاء القادة ، فهم نسوا أو تناسوا المهمة الأصلية المنوطة بالمسلمين في الماضي والحاضر أيضاً ، ولا يعرفون أن القضية ليست قضية التضحية من أجل التحرير ، بل إن القضية تنحصر في أنه إذا ما تحقق التحرير فما هي

صورته يا ترى ؟ إن العصر الحديث يقتضي أن يكون ذلك في شكل الديمقراطية الحرة ، إلا أن عقول هؤلاء القادة ما زالت متعلقة بالماضي إلى درجة أنهم يتوهمون أن عصر المغول سيعود من جديد .

ويمكننا فهم القضية بأكبر قدر من الدقة ، من خلال هذا المثال : هناك طرفة تقول : كان هناك مالك الحزين والثعلب وكانت تربطهما علاقة وثيقة ، اتفقا ذات يوم أن يطبخا حلوى ، فتعاونا على جلب مستلزمات الطبخ من قدور وأخشاب وما إلى ذلك ، وشارك كل منهما في عملية الطبخ ، وعندما حان موعد الأكل ، لجأ الثعلب إلى حيلة دبرها بعقله الثاقب ، فجاء بصحن مسطح ليفرغ فيه قدر الحلوى ، وحين وضعت الحلوى وباشر كل منهما الأكل التهم الثعلب القدر الأكبر منها حتى شبع ، بينما ظل مالك الحزين يضرب بمنقاره هنا وهناك لا يلتقط منها إلا قدراً يسيراً . فهو قد شارك في عملية طبخ الحلوى كصاحبه الثعلب ولكنه أخفق في الأكل أسوة بصاحبه. وقد فطن مالك الحزين إلى مكيدة الثعلب ، فوضع بدوره خطة لينتقم من الثعلب ، وقال للثعلب : ما رأيك لو طبخنا الحلوى مرة أخرى ، فرضي الثعلب بذلك ، وحين تمت عملية الطبخ وحان الموعد لتفريغ القدر ، بادر مالك الحزين بإحضار دورق وضع فيه الحلوى ، وقال للثعلب هيا لنأكل ، ولكن الأمر هذه المرة قد انقلب رأساً على عقب إذ أخذ مالك الحزين قصب السبق ، وبدأ يلتهم الحلوى بمنقاره الكبير بينما لم يتمكن الثعلب من أن يأكل شيئاً .

هذه الطرفة تكشف لنا عن أن القضية – في حد ذاتها – ليست قضية طبخ الحلوى والمشاركة فيه بقدر متساو من الطرفين ، بل القضية في الحقيقة تنحصر في شكل الإناء الذي سيتم فيه تفريغ القدر ، فإذا ما تم تفريغه في صحن مسطح فإن نصيب الثعلب سيكون كبيراً ؛ وإذا وضع في دورق فإن

نصيب مالك الحزين سيكون كبيراً ، والفراسة هي أن تحاول تفريغ القدر في طبق مناسب لك .

لماذا هذا الفرق ؟

في النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ الإنجليز بفرض سيطرتهم السياسية على الهند ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بدأت الحركات التبشيرية الهدامة تتغلغل في أوساط الهند ، وكان القصد من ورائها فرض المسيحية على المسلمين . وقد نهض علماؤنا لمواجهة كل من الغزو الإنجليزي والحركات التبشيرية، وقدموا في سبيل ذلك تضحيات جمة ، إلا أن نتيجة الأمرين كانت مختلفة تماماً . فالتضحيات الجمة التي بذلت على الساحة السياسية قد منيت بالفشل الذريع ، بينما نجحت نجاحاً باهراً تلك المحاولات القليلة نسبياً والتي بذلت من أجل صد المد التبشري المسيحي والشيخ رحمة الله كيرانوي (١٢٣٣ - ١٣٠٨هـ) يعد رمزاً لهذا الفارق بين الساحتين - فحين وفد إلى الهند المبشر الأوربي فندر (Funder) الذي بذل قصارى جهده من أجل القيام بأعمال التبشير في أوساط المسلمين ، كان من بين الذين نهضوا للوقوف في وجه هذا النوع من المد المسيحي عالم لامع هو الشيخ رحمة الله كيرانوى ، حيث ألف كتابه (إظهار الحق) ومؤلفات أخرى ، كما قام بمناظرة مع فندر في جلسة عقدت في أكرة في (١٠ - ١١ - ١٨٥٤م) وقد مني هذا الأسقف الأوربي بهزيمة منكرة ، مما اضطره إلى التراجع والفرار إلى القسطنطينية والبقاء فيها .

والآن دعنا نرى الوجه الآخر للصورة . وذلك حين خاض علماء الدين حرباً مسلحة ضد الإنجليز ، وكان الشيخ رحمة الله كيرانوى قد شارك فيها أيضاً ، في الوقت الذي لم يكن في حوزة علمائنا سوى أسلحة تقليدية . بينما كان الجيش الإنجليزي مزوداً بأحدث أنواع الأسلحة المدمرة . وفي هذا

اللقاء مني علماؤنا بهزيمة منكرة رغم كل ما بذلوه من تضحيات ، وقام الإنجليز بحملة اعتقال واسعة للعلماء ، وزجّ بهم في السجون وأعدم كثيراً منهم شنقاً . وفي هذا الوضع المتردي والمتأزم قرر الشيخ رحمة الله مغادرة الهند والاستقرار في مكة ، وما لبث أن نفّذ خطته واتجه إلى مكة سيراً على الأقدام قاطعاً الغابات المروّعة والطرق المخيفة المحفوفة بالأخطار ، وبعد معاناته للمصاعب والمشاق وصل إلى مكة واستقرّ بها وقضى بقية حياته فيها .

والفرق في ذلك يعود إلى الاختلاف في ساحة المواجهة . فالمواجهة في أكرة تمت في الساحة النظرية أو الفكرية ولا ريب أن الإسلام في كل مواجهة فكرية أو نظرية يحرز قصب السبق بشكل مدهش ، لذا فقد مني الطرف الثاني بالفشل الذريع . وفي المقابل ، فإن المواجهة التي تمت في موقعة شاملي كانت في ساحة الحرب والمعدات الحربية ، وقد أخفق علماؤنا أمام الطرف الثاني ، لأنهم كانوا يملكون أسلحة تقليدية عقيمة بينما يملك الإنجليز أحدث أنواع الأسلحة . وهذا السبب الذي جعل العلماء يخفقون في هذه الساحة .

أحب أن أقول لك ، إنك إذا محصت الأمر لأدركت أننا نريد تغيير ساحة المواجهة ، نريد أن ننقل الفريق المعارض إلى تلك الساحة المواتية لنا حتى يحالفنا النجاح والفوز ويحالفهم الإخفاق والفشل . والفرق بيننا وبين الآخرين هو أننا نريد أن نحرك المسلمين في ساحة يضطر فيها العدو إلى الفرار والهزيمة ، بينما يريد الآخرون أخذ المسلمين إلى ساحة يضطرونهم فيها إلى الفرار والهزيمة .

إن الحادثتين اللتين وقعتا للشيخ رحمة الله كيرانوى ستظلان معنا كرمز لهذا الفرق في تصوير تاريخنا الحديث كله . وهذا ما تكرر في العصر الحديث ويتكرر اليوم في عصرنا الحاضر حيث يخوض المسلمون المواجهة في ساحة

مواتية للعدو وفي كل مرة لا ينالون إلا الفشل الذريع والهزائم المنكرة .

استحكام الدين :

قد نص القرآن على أن الله تعالى قد أكمل لنا دينه وأتم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً إلى يوم القيامة . وقد أضاف الله تعالى إلى إعلانه هذا قوله : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون** ﴾ [المائدة : ٣٥] .

قد نزلت هذه الآية في التاسع من ذي الحجة ، وتبعها حدث وفاة النبي ﷺ بعد ذلك بحوالي شهرين ونصف . لذا فإن كلمة « اليوم » تحمل ثقلاً عظيماً ، فهي مؤشر صريح على أن القرآن يمثل حداً فاصلاً بين دورين من أدوار الدين ، أي أن دوراً جديداً قد بدأ بعد نزول القرآن . إذا كان الدور الماضي دور (تخشوهم) فالآن قد ولى هذا الدور وجاء دور (اخشوني) وإذا كان الدور في الماضي دور غلبة الكفر فالدور الحالي هو دور غلبة الدين الإلهي . والقرآن قد أحكم دين الله وأكمله بصورة نهائية . ويتضح من الآية أن القلق والمخاوف إنما تنحصر في سؤال واحد وهو : هل ما زالت خشية الله باقية لدى أهل الإيمان ؟ فمهما كانت ضخامة وقوة العدو وكبر حجمها فإنها لا تمثل أية خطورة بالنسبة للمؤمنين وهي عاجزة عن إلحاق أي ضرر بهم .

ولا يقصد بالغلبة والاستحكام الديني الغلبة والاستحكام على المستوى السياسي . فالغلبة السياسية تحصل حيناً وتزول حيناً آخر ، لذا يقتضي أن تكون الغلبة المقصودة هي الغلبة التي تبقى دوماً بغض النظر عن الزمان والمكان . ألا وهي الغلبة الفكرية . إن هذه الغلبة تكون للقرآن والدين الكامل ولا تنفك عنهما دوماً . والمراد بتكميل القرآن خلق تلك الأوضاع التي تضمن حفظه إلى يوم القيامة ، حيث أحدث القرآن انقلاباً كانت

حصيلته إنهاء بيئة الاضطهاد والقهر الديني ، التي حصل الإنسان بواسطتها على حقه في إبداء آرائه بحرية كاملة . وهكذا فتح هذا الانقلاب الباب على مصراعيه أمام التقدم والتطور العلمي الذي دلل على مصداقية الدين على ضوء مقاييس المعرفة الإنسانية . وحين يتحقق كل هذا يتزود دين الله بقوة هائلة ويتمتع بصفة الخلود الأبدي ويصبح محفوظاً للأبد . وحين يصبح الدين محفوظاً وخالداً ، فهو حينئذ يملك قوة هائلة ترد عنه مكر الماكرين وتدفع عنه كيد الكائدين .

الشهيد السيد أحمد بريلوي :

ونذكر في هذا المجال مثالاً للسيد أحمد بريلوي الذي خرج مجاهداً ضد ملك البنجاب (رنجيت سينغ) في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، لقد مني بهزيمة منكرة في جهاده ، حيث وقع في مواجهة هجوم ساحق من قبل جيش سينغ ، وراح ضحيته في ساحة بالاكوت في السادس من مايو ١٨٣١ . وبالرغم من التضحيات الجسيمة في الأرواح والممتلكات فلم يجن المسلمون أية فائدة ، لقد جنوا الخسارة والأضرار فحسب ، بل كل ما حدث هو زيادة نفور السيخ من المسلمين والذي كان قد نشأ إبّان حكم المغول بعد اغتيال قادة السيخ من أمثال : غوند سينغ ، وأرجن سنغ وتيغ بهادر سينغ .

إن مبادرة السيد أحمد شهيد ضد رنجيت سينغ كانت مبادرة ساذجة تماماً ، إذ كانت سلطنة رنجيت سينغ مسيطرة على منطقة واسعة ، ناهيك عن الفارق الكبير بينهما في ساحة المعدات العسكرية . إن السيد أحمد لم يكن لديه سوى جماعة من المريدين غير المدربين يملكون أسلحة تقليدية ، بينما في المقابل كان جيش سينغ أكبر عدداً وكان مزوداً بأحدث الأسلحة وكانت المدافع بحوزتهم .

ويبدو أن السيد أحمد كان يجهل تماماً أن (رينجت سينغ) كان مدبراً صاحب عقل ثاقب . قال عنه الرحالة الفرنسي (وكتر جاكان Victor Jaquement) بأنه نابليون الصغير (Bonapart in miniature) كما نجد الرحالة والمؤرخون الآخرون يعترفون بحنكة (رنجيت سينغ) ومقدرته الفائقة في تسيير الأمور . ومن مظاهر تلك العقلية الثاقبة والمدبرة أنه حين أحس بأهمية إعادة التنظيم العسكري ، بدأ في عملية تنظيم جيشه على النهج الأوربي سنة ١٨٢٠م ، وعين على رأس جيشه خمسين ضابطاً أوربياً ليتولوا مهمة تربيتهم وتثقيفهم ، وكان الأغلبية من هؤلاء الضباط يعملون في جيش نابليون بونابورت . جاء في الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) ما نصه :

In 1831 it successfully quelled a risting of the Frontier tribesmen roused to a holy war (jihad) by the muslim fantic sayyed ahmad (15/507).

« في سنة ١٨٣١م استطاع ذلك الجيش أن يقمع التمرد الذي حدث في منطقة حدودية بقيادة مسلم متحمس يدعى السيد أحمد » .

إن السيد أحمد لجأ إلى استخدام حد السيف ضد السيخ إلا أن النجاح لم يحالفه مطلقاً . ورغم تلك الأضرار الفادحة التي لحقت به والتضحيات الجمة التي قدمها ، فلم تعد الحرب بأية فائدة على المسلمين . بينما في الجانب الآخر كان النشاط الدعوي يفعل فعله بنجاح في أوساط السيخ . كما تركت تعاليم الإسلام أعمق الأثر في نفس (غورنانك) مؤسس فرقة السيخ ، فقد كتب عن عقيدة التوحيد والرسالة المحمدية كتابه (غوروغرنت) وليس هذا فحسب بل عند بناء المعبد الذهبي تم وضع حجر الأساس بيد (ميان مير) وهو شيخ مسلم كبير . وعندما حضر إلى مجلس رنجيت سينغ بعض العلماء المسلمين نزل عن عرشه ومسح أحذيتهم بلحيته الطويلة . ناهيك عن العديد ممن اعتنقوا الإسلام وأقروا بكلمة التوحيد ، ومن بينهم عبيد الله سندهي

(١٨٧٢ - ١٩٤٤) الذي ولد في بيت أحد السيخ وحين درس الكتب الإسلامية بعمق تأثر بتعاليم الإسلام السمحة فاعتنق الإسلام .

نموذج الحديبية :

عن البراء قال : تعدون الفتح فتح مكة . ونحن نعدّ الفتح يوم الحديبية[1] .

إن فتح مكة (٨هـ) هو الفتح المبين في ظاهر الأمر بينما تبدو في المقابل حادثة الحديبية علامة على الهزيمة والفشل ، حيث اتجه النبي ﷺ إلى مكة يريد العمرة وبرفقته ألف وخمسمائة صحابي إلا أن قريشاً سدت الطريق أمامهم ومنعتهم من الدخول ، فرجعوا إلى المدينة ، ورغم ذلك فإن الصحابة يعدون الفتح الحقيقي هو الحديبية وليس مكة .

إن نظرة الصحابة هذه تبيّن لنا أن الهزيمة هي أكبر انتصار وأن التراجع هو أعظم تقدّم ، فالذي يبدو أنه هزيمة يكمن فيه سر النجاح . هذا الجانب الكامن يحظى بأهمية كبيرة ، ومن ثم يقتضي الأمر أن تدرس واقعة الحديبية وتمحص بدقة وإمعان .

خرج النبي ﷺ من المدينة متجهاً إلى مكة وبصحبته ما يقرب من ألف وخمسمائة صحابي ، كان ذلك في مطلع ذي القعدة سنة (٦هـ) وكان النبي ﷺ يقصد الكعبة للعمرة . وقد كانت قريش قد منعت المسلمين من زيارة البيت منذ ست سنوات ، فلم يتمكن أي مسلم من الحج أو العمرة خلال هذه الفترة . وعندما بلغهم نبأ القافلة الإسلامية - المكونة من ألف وخمسمائة شخص - والمتوجهة إلى مكة لأداء العمرة ثاروا وزاد غضبهم رغم أن شهر (ذي القعدة) يعد من الأشهر الحرم التي تحظى باحترام خاص ،

---

(١) سيرة ابن كثير / المجلد الثالث ص ٢٥٠ .

حيث لا يحق لأحد أن يمنع أحداً من زيارة البيت إلا أن قريشاً – تحت تأثير عصبيتها الجاهلية – قررت أن تمنع محمداً ومن معه من دخول مكة .

وحين وصل النبي ﷺ إلى (عسفان) – بعد مسيرة يومين – لقيه بشير بن سفيان الكعبي ، فقال: يا رسول الله هذه قريش ، قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، وقد لبسوا جلود النمور ، ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم قال : فقال رسول الله ﷺ : « **يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة** »(١) .

وفي هذه الحالة كان بإمكان النبي ﷺ أن يأخذ العدة للقتال ويستعد له ويحث أصحابه ليخوضوا حرباً ضد قريش ، إلا أنه ﷺ لم يفعل ذلك ، بل على خلاف ذلك خاطب أصحابه : « **من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها** » .

قال ابن إسحاق ، حدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رجلاً من أسلم قال : أنا يا رسول الله ، قال : فسلك بهم طريقاً وعرة كثيرة الحجارة بين شعاب ، فلما خرجوا منه ، وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، قال رسول الله ﷺ للناس : « **قولوا نستغفر الله ونتوب إليه** »(٢) .

(١) سيرة ابن هشام / المجلد الثالث ص ٢٥٠ .
(٢) سيرة ابن هشام / المجلد الثالث ص ٢٥٧ .

ولو حللنا هذا الموقف الذي طلب فيه النبي التوبة والاستغفار لأدركنا ، أن النبي ﷺ حين ذكر ذلك فكأنه قال : لماذا نطقتم بكلمة الشكوى حين أمرتم بتجنب القتال عن طريق تجشم هذا النوع من المصاعب ، كان عليكم أن تسيروا وفقاً لخطة الله بكل رضا وطمأنينة ، فإذا ما أبديتم السأم وعدم الصبر فلتبادروا فوراً بالتوبة والاستغفار لتلافي تلك الخطيئة .

الحقيقة أن قريشاً أرادت أن توقد نار الحرب بأية وسيلة إلا أن النبي ﷺ أعرض عنها ، وبذل في سبيل ذلك كل الجهود . وحين اتجه خالد بجيشه لملاقاته اختار طريقاً آخر . وأوفد النبي ﷺ خراش بن أمية إلى مكة فقتلت ناقته وكان هو نفسه على وشك أن يقتل ، إلا أنه تمكن من الفرار ولحق بالمسلمين ، وجاء ذات ليلة خمسون رجلاً منهم إلى المسلمين ورموهم بالحجارة والنبل ، واضطر أخيراً إلى عدم الدخول إلى مكة لقضاء العمرة . هذه الوقائع كلها كانت تقتضي أن يثور النبي ، ويتوثب للقتال ، وليس هذا فحسب بل — في المرحلة الأخيرة — تم إبرام الصلح وفرض المشركون شروطاً قاسية على المسلمين كانت سبباً في غضب الصحابة حتى كادوا يهلكون ، إلا أن النبي تمسك بموقفه وأعرض عن القتال .

توقف الرسول ﷺ في الحديبية والتي يطلق عليها حالياً اسم (شميس) الواقعة على بعد عشرة أميال من مكة تقريباً ، وفي هذا المكان فاوض مندوبين من قريش على اتفاقية هدنة عرفت بصلح الحديبية ، وإذا ما أمعنا النظر في وقائع صلح الحديبية من بدايتها إلى نهايتها ، لظهر لنا أن الحرب الباردة كانت جارية بين النبي وقريش ، فقد كانت كل محاولات قريش منصبة في دفع النبي ﷺ إلى ساحة القتال ، بينما كانت محاولات النبي ﷺ — رغم المعاناة التي هضمها والاستفزازات التي أعرض عنها — منصبة في دفع قريش إلى ساحة الصلح . ولو أبدى النبي ﷺ ردة فعل أو اختار

أسلوب الانتقام لنجحت خطة قريش ودخل الفريقان في القتال ، إلا أن الصبر الذي تبناه النبي وأسلوب الإعراض الذي اختاره كان ضمانة لفشل خطة قريش الدموية ونجاح خطة النبي الخاصة بالمصالحة السلمية .

وهذا التدبير هو نفسه الذي يطلق عليه في المصطلح الحربي (الأرضية التي تناسبك) (Ground of one's own choice) .

أي أن يتم نقل العدو إلى ساحة مواتية لك ، وفي هذا الوقت بالذات كانت الساحة المواتية لقريش هي ساحة القتال ، إذ أن قريشاً كانت تتفوق على المسلمين في مجال القوة الحربية ، بينما يتفوق المسلمون عليهم في الساحة الفكرية أو النظرية . إذ أن دعوة التوحيد كانت تفوق معتقداتهم الوثنية ، لذا انصبت محاولاته ﷺ في ألا تكون ساحة المواجهة مع قريش هي ساحة القتال بل ساحة المواجهة الفكرية أو النظرية .

ولم يكن الوصول إلى هذا الهدف بالأمر الهين ، إذ أنه كان يتطلب ألا ينفعل النبي ﷺ أو يثور رغم أعمال الإثارة والاستفزاز وأن يصبر على طغيان قريش ويهضمه في صمت وهدوء تام ، ناهيك عن قبوله لكافة شروط قريش دونما أية معارضة . وهذا ما قام به النبي ﷺ فعلاً . إن الشروط المقترحة من قبل قريش والتي تم الاتفاق عليها كلها كانت لصالح قريش ، ولكن رغم كل ذلك رضي النبي عن تلك الشروط وقبلها ، وأصبحت قريش بموجب تلك الاتفاقية مضطرة لعدم خوض حرب ضد المسلمين بأي حال من الأحوال .

وبينما كان النبي ﷺ في طريقه إلى المدينة بعيد إبرام هذا الصلح جاءه جبريل بسورة الفتح ، وكانت أول آياته ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ أي أن العدو كان يرغب في أن يقود المواجهة إلى ساحة تناسبه (ساحة القتال) إلا أنه بفضل هذا الصلح انتقلت المواجهة إلى ساحة مواتية لكم (ساحة

الدعوة) . وقد دللت التطورات اللاحقة لتلك المعاهدة على هذه الوجهة ، حيث بدأ المسلمون بعد اتفاقية الهدنة يتصلون بغيرهم من القبائل بحرية مطلقة وبالتالي بدأت دعوة التوحيد تشقّ طريقها في كل ناحة دون أن يعيق أحد طريقها ، فأينما حلت هذه الدعوة كان لها السيطرة على العقول التي آمنت بالمعتقدات الوثنية . ويشهد التاريخ أن عدد الذين اعتنقوا الإسلام خلال سنتين بعد الصلح يفوق عدد الذين اعتنقوا الإسلام خلال عشرين سنة قبل الصلح . وبذلك بلغ المسلمون في قوتهم الكمية حداً لا تعد في مقابلها قوة قريش شيئاً يذكر ، فقريش التي منعت المسلمين من دخول مكة سنة (٦ هـ) هي بنفسها تعلن بمكة سنة (٨هـ) حين توجه إليها النبي ﷺ صحبة عشرة الآف صحابي : ان ادخلوا بيوتكم فإن محمداً قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

إن صلح الحديبية عبارة عن تحويل المواجهة مع العدو من ساحة المعركة إلى ساحة الدعوة ، وهذا أدق مثال لحكمة الإسلام وهو أرقى نموذج طبّقه النبي على المستوى العملي في حياته .

الساحة الأكثر سعة :

تبدو حادثة الحديبية في ظاهرها تراجعاً عن المواجهة ، إلا أننا إذا نظرنا إليها بإمعان يتضح لنا أنها عبارة عن تحويل للمواجهة الصغرى إلى المواجهة الكبرى ، والحقيقة أنها كانت كذلك تماماً . وستظل - بلا ريب - مثالاً عالياً لخطة استراتيجية (Strategy) للإسلام بعيدة المدى .

إن النبي ﷺ كان صاحب رسالة عظيمة ، ومن كان هذا شأنه فهو لا يتضايق بتراجع مؤقت . لقد كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى نبذ الشرك وإحلال التوحيد مكانه ، وكان يحمل راية اختيار عبادة الخالق بدل عبادة المخلوق ، والحياة المنظمة بدل حياة العبث ، وحب الآخرة بدل التعلق

بالدنيا ، والسير على درب الفطرة بدل الطرق المصطنعة . إن تلك الأفكار والقيم كانت تحمل في طياتها أقوى الطاقات بالنظر إلى أية أفكار أخرى في هذه الدنيا ، إلا أن سلسلة الحرب المستمرة كانت عائقاً في سبيل بروز هذه الأفكار .

ويمكن توضيح هذا الأمر بمثال آخر : فإذا ما وقعت المنافسة بين مصارع قوي وآخر متخصص في مجال العلوم ، في رفع الأثقال مثلاً ، فلا شك أن المصارع سينال قصب السبق فإذا ما لجأ هذا العالم إلى خطة من شأنها أن تحول المنافسة من ساحة رفع الأثقال إلى ساحة البحث العلمي مثلاً ، وجلس المصارع والعالم على طاولة البحث العلمي ، فلا شك أن العالم هو الذي سيفوز هذه المرة .

في فترة ما بعد الهجرة قد جعلت قريش ميدان المواجهة هو الحرب ، وذلك لشدة تمردهم وطغيانهم ، فتحولت الساحة غير الساحة بعد إبرام اتفاقية الهدنة لمدة عشر سنوات (No-war pact) وانتقلت المواجهة من ساحة الحرب إلى ساحة الفكر ، وفي هذه الساحة كان المسلمون متفوقين على عدوهم ، ومن ثم بدأت انتصارات الإسلام النظرية والفكرية تتدفق كالسيل العرم فور تغيير ساحة المواجهة ، وبدأ الناس يتدفقون جماعات يعتنقون الإسلام ، كما انتصر العالم على المصارع فور انتقال المنافسة إلى طاولة البحث العلمي .

وحين كان النبي ﷺ في طريقه إلى مكة أثناء الحديبية كان يرافقه ألف وخمسمائة نفر فقط ، وبعد سنتين ذهب إلى مكة وبرفقته عشرة الآف من الصحابة ، حتى أنه عندما اقترب من مكة ورأت قريش تدفق الناس كالسيل أخذها الرعب وأعلن زعماؤها : أن ادخلوا بيوتكم فإن محمداً قد جاءكم بما لا قبل لكم به . وبذلك تم فتح مكة دونما إراقة للدماء .

هذا هو الانقلاب غير الدموي ، الذي لم يكن ليتحقق لو لم يقدم قائده تضحيات جمّة في سبيله ، حيث رضي ﷺ بشروط كانت كلها لصالح العدو ، كان عليه أن يتأخر ليتقدم وأن يرضى بالهزيمة لينتصر ، وكان عليه أن يمحو (رسول الله) حتى يكتب بوجه أكمل .

الشروط اللازمة :

إن أهم شيء يضمن النجاح من الناحية الاستراتيجية هو أن تواجه العدو في ميدان موات لك ، الأمر الذي يعطي مواجهتك صفة الانتصار الحتمي على عدوك ، إلا أن هناك شرطاً يلزم التقيّد به لاستخدام هذا الأسلوب استخداماً ناجحاً ، وبما أن هذا الشرط لا يعطى نصيبه من الاهتمام فهو لا يؤتي ثماره أيضاً . والشرط هو أن يتجنب المرء نزعة رد الفعل ، فالمرء إذا ما دخل في معارضة أحد ما يصبح هدفاً للأعمال العدائية بداية من الكلمات الاستفزازية إلى الأضرار المادية والتجارب المضنية . كل ذلك يواجهه المرء حين يدخل في المعارضة ، فإذا ما اندفع وسيطرت عليه حماسته دخل في تناحر مع معارضيه في المكان الذي يقفون فيه ، وعلى عكس ذلك ، إذا لم يهتم رغم الاستفزازات المتوالية بل فكر وخطط للمواجهة بعقل هادىء فهو بذلك يحاول نقل المواجهة إلى الساحة التي تناسبه ، فإذا ما تم له ذلك ضمن نجاحه يقيناً .

إن المسلمين المعاصرين ، رغم التضحيات الجبّارة التي يقدمونها في الأرواح والممتلكات ، يصابون بالفشل في كل لقاء مع العدو ، وسبب ذلك هو أن حماسهم يغلب على عقلهم ويندفعون بمجرد أيّ استفزاز يوجه إليهم من قبل العدو ، وطبيعي أن كل مواجهة تتم مدفوعة بحافز ردّ الفعل تبوء بالفشل دوماً ، بينما المواجهة التي تتم بمنأى عن ردّ الفعل فثمرتها الانتصار والنجاح .

الفئة الجامدة والفئة المتحركة :

سار النبي ﷺ باتجاه المدينة بعد أن أبرم معاهدة الحديبية وبينما هو في الطريق إذ نزلت عليه : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ أي أعطيتكم فتحاً باهراً على عدوّكم . ولمّا كانت شروط المعاهدة كلّها لصالح قريش ، فحين نزلت الآية انهالت عليه أسئلة متنوعة منها ما روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال : (أي رسول الله أوفتح هو . قال ﷺ : « **إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح** »)[1] . كما يروى عن عدد من الصحابة أنهم كانوا يقولون للذين جاءوا من بعد . تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح يوم الحديبية[2] .

ترى ما هو السبب الذي جرّ الصحابة إلى مثل هذا القول ؟ السبب هو أن صلح الحديبية أعطى المسلمين صفة الفئة المتحركة والتوسعية وجعل المشركين يتقوقعون كفئة جامدة ومنطوية . ففي فترة ما قبل صلح الحديبية كان جو التناحر والاقتتال هو السائد بين الفريقين ، واللقاء بينهما لا يتمّ إلا في ساحة القتال ، أمّا الصلح فقد خلق جوّ اللقاء في ساحة الدعوة ، وحينئذ تقوقع الشرك وانعزل به أتباعه بينما حافظ الإسلام على موقعه الاستراتيجي الذي يمكن أن ينطلق منه بقوة ليوسّع نفوذه على ساحات القلوب .

إذا كانت هناك فئتان ، فئة جامدة وفئة متحركة ، فإنه يحدث أن تبدأ لفئة الجامدة تتحجر وتتراجع وتنكمش على نفسها ، وفي المقابل تبدأ الفئة لتوسعية في حركة مستمرة واندفاع دائب . فإذا ما بدأت مثل هذه العملية

---

(١) تفسير ابن كثير / ج ٤ ، ص ١٨٣ .

(٢) نفس المصدر .

في مكان ما ، فإن النتيجة ستكون هي نفسها التي كانت في الجزيرة العربية ، حيث بدأ أصحاب عقيدة الشرك يعتنقون الإسلام واحداً بعد الآخر ، ولم تمض بضع سنوات حتى لمح المبصرون أن السيطرة أصبحت لفئة واحدة في المكان الذي كان فيه فريقان متعارضان ، وهذه الفئة هي فئة المسلمين .

وحين يتدفق سيل من أعلى الجـ... ، ويبدأ يشقّ طريقه إلى الأمام حتى تعترض طريقه صخرة من الصخور ، ترى ما الذي سيفعله السيل في مثل هذه الحالة ؟ إنه سيتجه باحثاً عن منفذ للخروج . فالصخرة شيء جامد يظل في مكانه ، ولو دخل السيل في معركة معه وبدأ يحطم رأسه على تلك الصخرة لتوقفت رحلته لا محالة ، ولأصبح شأنه شأن تلك الصخرة الجامدة . هذا هو السبب الذي جعل السيل يتحاشى المواجهة والتناحر ويتبنى أسلوب الإعراض ، يترك الصخر وراءه في دنياه الجامدة ويشقّ طريقه إلى الأمام في عملية توسعية وحركة مستمرة . هذا هو درس الطبيعة ، والإسلام دعوة عالمية دائمة الحركة ، وهو خطة استراتيجية توسعية ، وما عداه ليس إلا شيئاً جامداً في مواجهته ، فليس لديه قوة الاندفاع والتوسع ، ولو بدأ الإسلام يخوض حرباً ضد غير المسلمين في باديء الأمر لأصبح جامداً كما هو شأن الشرك ، ولفقد الإسلام صفته التوسعية التي هي أقوى صفة يتمتع بها .

وهذا هو السبب الذي جعل مبدأ الإعراض (Avoidannce) يتمتع بأهمية أساسية في الدعوة الإسلامية ، وكان النبي ﷺ متمسكاً بهذا المبدأ طيلة سنوات رسالته ، ففي السنوات الثلاثة عشر التي قضاها النبي في مكة تعرض لألوان من الاضطهاد والأذى ، إلا أنه لم يخض حرباً مع قريش ، وهذا هو الإعراض عينه . وحين ازدادت الأوضاع سوءاً وزادت المعاناة وقسوة المشركين ، ترك النبي ﷺ مسقط رأسه ، وغادره متجهاً إلى المدينة

دون أن يقاتل ، وهذا عين الإعراض . وحين سدت الطريق أمامه لزيارة البيت تراجع النبي عن قصده وعاد إلى المدينة ، وهذا هو الإعراض أيضاً .

وهكذا في كل مواجهة تمسك النبي ﷺ بمبدأ الإعراض إلى أقصى حدٍّ ممكن . إذ أن عدم الإعراض يعني أن يقود المرء نفسه إلى التحجر والجمود كما هو شأن الفريق المعارض بينما يدفعه الإعراض إلى التوسع والحركة الدائمة ، والحصول على مثل هذه الصفة التوسعية هو عين الغلبة والنجاح .

تجربة التاريخ :

الإسلام هو الدين الكامل ، فإذا كان الإسلام قد بيّن كل الأشياء الضرورية من الناحية النظرية ، فإننا نجد في التاريخ مثالاً تطبيقياً لكل منها ، حتى يتمكن الإنسان من فهم تلك القضايا بسهولة . وفي تلك السلسلة نجد مثالاً يتصل بالفرق بين قوة السيف وقوة الدعوة ، إن شخصية صلاح الدين الأيوبي رمز لمثال السيف في التاريخ الإسلامي ، فهو الذي أنزل الهزيمة المنكرة بالجيش الصليبي في موقعة حطين (شمالي فلسطين) وبذلك أنهى الحروب الصليبية الباردة التي استمرت مائتي سنة . فاقتحم أورشليم فاتحاً منتصراً في ٢ من أكتوبر سنة ١١٨٧م والتي كانت تحت سيطرة المسيحيين طيلة ٨٨ سنة .

توفي صلاح الدين الأيوبي في الرابع من مارس سنة ١١٩٣م ، وبعد وفاة هذا البطل بخمسة وعشرين سنة شهد التاريخ مسرحية جديدة ، فقد تجرأ (جينكزخان) ومعه عشرون ألفاً من القبائل المتوحشة ، على شنّ هجوم ضار على سلطة مسلمي (خوارزم) وذلك سنة ١٢١٨م ، ورغم أن جينكزخان لقي حتفه بعد سقوطه من على متن فرسه ، إلا أن التتاريين الذين احتلوا مكانه قد ألحقوا خراباً ودماراً بالعالم الإسلامي حتى أنهم ألحقوا دماراً شاملاً بالمنطقة الإسلامية الممتدة من سمرقند إلى بغداد .

ولشدة هذا الهجوم وقساوته قيل في العالم الإسلامي آنذاك : (إذا قيل لك : إن التتار انهزموا فلا تصدّق) ترى ما الذي أوقف هذا الطوفان المتدفق والمروّع للتتار؟ الجواب الوحيد الذي لا جواب سواه هو : (إنها الدعوة) ، هي التي وأقفت ذلك السيل العرم . فإذا كان العالم الإسلامي قد نجا من القبضة الصليبية بفضل قوة السيف ، فقد فتح المسلمون التتار عن طريق قوة الدعوة وحدها .

لقد تكسرت سيوف المسلمين في مواجهة التتاريين و لم تبق لديهم قوة عسكرية ترغم التتار على الانسحاب مما اضطرهم إلى القيام بنشاط دعوي سلمي وصامت في أوساط التتار ، وحين لم يكن التتار أمة متحضرة ذات ثقافة عريقة ، بدأوا يتفاعلون ويتأثرون بالحضارة الإسلامية الوضاءة ، وبدأت تصل إليهم دعوة الإسلام عن طريق مباشر وغير مباشر ، فكانت النتيجة أن نشأ فيهم تحول على المستوى الفكري والنظري .

إذا كان التتار قد مزقوا قوة المسلمين السياسية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فقد أصبحوا في نهاية القرن نفسه مفتوحين بقوة الإسلام الفكرية ، حيث اعتنق الإسلام عدد هائل منهم .

يقول البروفيسور (فيليب حتي)

(إن المسلمين قد حققوا انتصاراتهم وفتوحاتهم حين فشلت أسلحتهم).

(The religion of the moslims had conquered where their arms had failed (p.488) ,'

والجدير بالذكر أن الحروب الصليبية التي قمعها صلاح الدين الأيوبي وخرج منها فاتحاً منتصراً كان الهدف من ورائها بسط السيطرة على المنطقة المقدسة (أورشليم) بينما التتار الذين تم بسط السيطرة عليهم عن طريق الدعوة ، كانوا قد نهضوا لتحطيم العالم الإسلامي وتمزيقه إرباً إرباً ، وقد

نجحوا في ذلك إلى حد ما .

إن الحاكم المغولي (بابر) كان من سلالة جنكيزخان ، وصل إلى دلهي سنة ١٥٢٦م . وقد خدم الإسلام خدمة لا تنسى مما يضيق المقام عن ذكره . وهكذا استمر المغول في خدمة الإسلام في الهند الكبرى حتى سنة ١٨٥٧م .

وفي نفس القرن نهض بعض الأتراك المعروفين بـ (أتراك غز Oguz Turkmen فتمردوا على الإسلام وقاموا بتخريب إيران والمناطق المجاورة لها ، وليس لدى المسلمين قوة عسكرية ترد على هذا الهجوم ، لأن جينكزخان والتتاريين قد حطموها . إلا أن نشاط الدعوة السلمي والصامت أثبت فعاليته في أوساط (أتراك غز) كما أثبت فعاليته في أوساط التتار ، ورغم أن التاريخ لا يفصل لنا كيف تمت الدعوة بينهم إلا أنه من المؤكد أن القوة الدعوية هي التي سيطرت على أتراك غز وسخرتهم ، حتى نبذوا معتقدات آبائهم واعتنقوا الدين الإسلامي الحنيف .

ذكر البروفيسور توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) هاتين الواقعتين بشيء من التفصيل قائلاً :

(إن الإسلام وقت انحطاطه السياسي حاز على انتصارات روحانية باهرة ، فقد وضع الكفار المتوحشون أقدامهم على أكتاف أتباع محمد في حادثتين تاريخيتين عظيمتين ، في القرن الحادي عشر أتراك سلجوق ، وفي القرن الثالث عشر المغول إلا أنه في كلا المرتين اعتنق الفاتحون دين المفتوحين)[1] .

In the hours of its political degradation. Islam has achieved some of its most brilliant. Spiritual conquests: on two great historical occasions, infidel barbarians have set

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام .

theirfeet on the necks of the followers of the prophet-the Saljuq turks in the elevnth and the mongole in the thirteenth century, – and in each case the conquerors have accepted the religion of the conquered (p.2).

وورد في الموسوعة البريطانية : (إن عثمان التركي الذي لمع نجمه في أفق التاريخ الإسلامي ينحدر من سلالة أولئك الأتراك (أتراك غز) وهو الذي أسس الأمبراطورية العثمانية الكبيرة التي دامت ستة قرون ولم يأت إلى نهايتها إلا في ١٩٢٢م) .

Turkish Osman, who is regarded as the founder of the empire that spanned six centuries and came to an end only in 1922. vol, 13, p771.

هذا هو العثماني الذي أسس الخلافة العظيمة ، والتي كانت عاصمتها القسطنطينية ، وهي الخلافة التي ظلت تحرس الإسلام إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى بكل قوة ونشاط ، واستمرت طيلة ستة قرون .

وكأن قوة صلاح الدين (قوة السيف) حرست الإسلام لمدة ٢٥ سنة لا غير ، بينما ظلت القوة الدعوية ساهرة تحرس الإسلام لمدة ستة قرون متتالية . وهذه الواقعة ستظل رمزاً إلى يوم القيامة على أن قوة الدعوة أعظم وأكبر بكثير من قوة السيف . فالذين ينشدون شعار العظمة ولا يوفون الدعوة حظها من الاحترام والتقدير لا أحد في الدنيا أكثر حمقاً وسذاجة منهم .

السياسة القومية :

إن الإسلام دين مسلم به كحقيقة تاريخية ، والذي يتمتع بهذه الميزة يبدأ في انتشار ذاتي دون توقف . وقد ظل الإسلام في انتشار دائب دون توقف أكثر من ألف سنة بعد الدور الأول .

والعقبة الأولى التي عرقلت طريق انتشار الإسلام هي ما نشأ في عصر القومية الحاضر ، ففي الزمن القديم كان الصراع يقوم بين جيشين دون أن يكون له أثر على عامة الشعب (المدنيين) . بينما الصراع في عصرنا الحاضر يقوم بين قوميتين ، ويكون له بالغ الأثر على الشعب كله . وأكبر جريمة ارتكبها المسلمون في العصر الحديث بحق الدعوة هو أنهم تقليداً للآخرين نهضوا بدعوى السياسة القومية الإسلامية . يريدون بها خدمة دينهم إلا أن النتيجة هي أن الأقوام الأخرى أصبحت تنفر من الإسلام.

وفي مثل هذه الحالة ينبغي للمسلمين – بل يجب عليهم – أن يطرحوا جانباً هذا النوع من السياسة القومية حتى يزول جو النفور من بين تلك الأقوام وعلى المستوى العالمي ، وحتى يسود جو الإخاء والحب الذي سيفتح الباب على مصراعيه أمام نشر الإسلام وتبليغه . إن الفريضة الأولى هي أن ننبذ سياسة القومية الإسلامية ، إذا أردنا أن نخدم الإسلام ، وبدون ذلك لن يتحقق لنا أي انتصار ولو مضت ملايين السنين .

حكمة الدعوة

قال الله تعالى : ﴿ **لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنّك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ [الحج : ٦٧ - ٦٩] .

نزلت هذه الآية حين قال جماعة من المشركين وهم : بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس ، قالوا للمسلمين : ما لكم تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتله الله أي الميتة[١] .

حين بُعث النبي ﷺ في الجزيرة العربية لم تكن العرب بمعزل عن المعتقدات الدينية نهائياً ، بل إنهم أقاموا قوالب ونظماً دينية باسم إبراهيم وإسماعيل ، فاصطدمت تلك النظم بما جاء به محمد ﷺ . مثلاً : كان يجوز في معتقداتهم المروجة أكل الميتة بينما حرم ذلك في دين محمد ، ولمثل هذه الاختلافات كانوا يرفضون النبي ﷺ ويتوهمون أنهم إنما يسيرون على صراط مستقيم بينما هو - حسب توهمهم - يسير في طريق منحرف عن سواء السبيل .

ومن أجل هذه القضايا أرشد الله نبيّه بألاّ ينفعل أو يثور بل يحسن به أن يعرض عن أولئك الذين يجادلونه ويبقى صامداً على الصراط المستقيم صراط الدعوة إلى الله . فيجب على الداعى إذاً أن يتقدم إلى مدعوه بتعاليم

---

(١) تفسير النفسي ، ج ٣ / ص ١١٠ .

أساسية متجنباً الاختلافات الفرعية والهامشية .

ورغم أن الخطاب في عبارة : ﴿ **فلا ينازعنك في الأمر** ﴾ موجّه إلى الفريق الثاني إلا أن هذا أسلوب يقصد به مخاطبة الفريق الأول ، أي إننا لو نظرنا إلى العبارة لظهر لنا أن الخطاب موجه إلى المدعو بألا يخوض في المنازعة ، لكن الحقيقة أن الخطاب موجه إلى الداعي ، إذ يلزم عليه ألا يخوض في المنازعة مع المدعوين ، لأنه – في العربية – إذا قيل لك (لايضربنّك زيد) لا يقصد به تحذير زيد بألاّ يضربك ، بل المراد بهذه الجملة إرشاد المخاطب ليتخذ الاحتياطات التي تضمن عدم تعرضه لضرب زيد .

قال الزجاج : (معنى قوله : ﴿ **فلا ينازعنّك** ﴾ لا تنازعهم أنت ، كما يقال لا يخاصمنّك فلان ، أي لا تخاصمه ، وهذا جائز فيما يكون بين اثنين ، وذلك لأن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين ، فإذا ترك أحدهما ذهبت المخاصمة)[٢] .

هذا الحكم القرآني الصريح يشير إلى أن من لديه رغبة في القيام بالدعوة إلى دين الله يتوجب عليه ألا يجمع بين الدعوة والنزاع .

إذا ساد جو النزاع والتناحر بين الداعي والمدعو فلا يتصور أن يكون أيّ حوار سلمي يلقي له المدعو أي اهتمام ، ومن ثمّ تلقى على كاهل الداعية مهمة الصبر والإعراض كليّاً حتى يمكن أن ينشأ هناك جوّ معتدل خال من التوتر بين الداعي والمدعو ، حتى يتمكن المدعو من أن يسمع بآذان صاغية إلى الداعي .

نعم . كل نزاع لا بد أن يصل إلى نهايته شريطة أن ينهيه أحد الطرفين دونما شروط .

(٢) التفسير المظهري : ص ٣٤٦ .

مبدأ الإعراض :

نورد في هذا الصدد المبدأ الذي أسماه الإسلام بالإعراض ، فبينما كان النبي في سفره إلى الحديبية مصطحباً معه ألفاً وخمسمائة من أصحابه ، وكان يتتبع أخبار العدو ، إذ أخبره بشير بن سفيان الكعبي بأن خالد بن الوليد صحبة جيشه متجه صوب المسلمين . وفور سماع النبي لهذا النبأ سأل قائلاً :

« من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها» .

فتقدم رجل من قبيلة . أسلم وكان خبيراً بالطرق ، وقال : أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعرة غير مألوفة ، بينما سلك جيش خالد الطريق المألوفة ، وبذلك تجنّب النبي ﷺ خطر المواجهة .

هذا هو أسلوب النبي ﷺ ويمكن أن نطلق عليه مبدأ الإعراض (Principle of Avoidance) . إنه لمنهج النبوة أن يبذل المرء كل جهده من أجل تجنّب الصراع إلى أقصى حد ممكن ، فإذا ما اشتد تمرّد الفريق المعارض وزاد في طغيانه ، ولم يبق بدّ من دخول التناحر فلا مانع من خوض القتال شريطة أن يتوفر العتاد والعدة بقدر الضرورة على أقل تقدير .

وليست معركة بدر بمنأى عن هذا المبدأ وذلك أن المشركين كانوا يمثلون العدو اللدود للنبي ﷺ في الدور المكي ، وقد عزموا على النيل منه وقتله . لكن النبي ﷺ – في هذه الحالة – لم يخض حرباً معهم ، بل عمل بمبدأ الإعراض وهجر أرض الوطن إلى المدينة . والهجرة في الأصل هي صورة للإعراض ، إلا أن حقد الأعداء ونار غضبهم لم تنطفىء بعد بل وجدوا الجرأة في أنفسهم لشن هجوم على المدينة وفي هذه الحالة واجههم النبي ﷺ في موقعة بدر .

ومعركة أحد ، هي أيضاً ليست بمعزل عن مبدأ الإعراض ، وهي معركة قد وقعت في المنطقة الحدودية للمدينة ، وهذا يعني أن قريشاً كانت

قد قطعت مسافة ثلاثمائة ميل وشنت على المسلمين هجوماً قاسياً فخاض النبي وصحابته الكرام معركة في مواجهتهم . وهكذا كانت موقعة حنين ، حيث كان النبي رفقة أصحابه متجهاً إلى أرض الطائف في هدوء تام ، وفي الطريق فاجأته قبيلة هوازن بسيل من السهام ، فوقعت تلك الواقعة التي عرفت في التاريخ بغزوة حنين . فالنبي ﷺ خاض ثلاث غزوات ، وقد بيّنا حقيقتها .

أما غزوة الأحزاب فهي تقدّم لنا مثالاً راقياً على مبدأ الإعراض ، وكانت في السنة الخامسة للهجرة ، حيث احتشدت قريش مع قبائل أخرى لتشن هجوماً ساحقاً على المسلمين ، والنبي ﷺ انطلاقا من مبدأ الإعراض كان يتتبع كل ما يجري في أوساط العدو حتى يتمكن من الإعراض أو الدفاع في الوقت المناسب ، وحين عرف النبي خبر زحف عدوه إلى المدينة لشن هجوم عليها ، قرر أن يحفر خندقاً في شمال غربي المدينة ، وقد تم حفر الخندق خلال ستة أيام بعد جهد شاق ، وقد شارك النبي نفسه في عملية الحفر وبذل أقصى جهده في سبيل ذلك ، ويبلغ طول الخندق خمسة آلاف ذراع تقريباً وعرضه عشرة أذرع .

وبهذه الصورة أقام النبي ﷺ سداً منيعاً بينه وبين أعدائه ، وحين اقترب زحف العدو من حدود المدينة وهم على أظهر خيولهم وجمالهم اندهشوا لرؤية الخندق وما استطاعوا عبوره ، فمكثوا هناك في الطرف الآخر للخندق يرجمون المسلمين بالحجارة ويرمونهم بالسهام مما أسفر عن استشهاد بعض المسلمين ، ولكن رغم ذلك لم تقع المبارزة بين الفريقين وهذا ما رمى إليه النبي من حفر الخندق .

لقد وقف الخندق في طريق الأعداء وكان سداً منيعاً أمام زحفهم إلى المدينة ، ولكن حماستهم الحربية وتمردهم الجامح لم يكن ليقف في طريقه شيء ، فبينما هم في الطرف الآخر من الخندق إذ طرأ وضع جديد ، وهو

أن قبيلة بني قريظة اليهودية التي كانت مرتبطة بمعاهدة سلام ، قد نقضت المعاهدة في هذا الوضع المتأزم ، وذلك حين وضعت خطة استراتيجية مع قريش لكي تعبر قريش الخندق بشكل أو بآخر وتقتحم المدينة ، وبنو قريظة بدورهم يهاجمون المسلمين من الخلف ، وحينئذ لا يستطيع المسلمون الوقوف أمام هذه الضربة القاسية ومن ثمّ تنزل بهم هزيمة منكرة .

إن الوضع كان في غاية الخطورة وقد صوّره القرآن في سورة الأحزاب ، ولكن رغم هذا وذاك فإن النبي ﷺ لم يتخلّ عن مبدأ الإعراض ، ومن حسن القدر أن يأتي رجل إلى النبي ﷺ وكان حديث العهد بالإسلام ، وهو رجل مشهور يدعى نعيم بن مسعود وقال للرسول : يا رسول الله إني قد اعتنقت الإسلام إلا أن الخبر لم يسمعه الناس بعد ، فإذا كنت أقدر على شيء فأذن لي ، فقال النبي : « **إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة** »[1] .

لم ينته خطر الحرب رغم إقامة خندق لعرقلة زحف العدو ، ولكن رغم ذلك لم يكن النبي ﷺ قد خطط لدخول الحرب . بل لجأ إلى الخديعة لتجنّب الحرب والقتال ، لجأ إلى استعمال سلاح التكتيك بدلاً من استعمال حدّ السيف : إن خدعة النبي تلك كانت تهدف إلى تحاشي الحرب لا إلى الاندفاع إليها .

وبعد أن تلقّي نعيم توجيهات النبي ﷺ بادر إلى إنجاز مهمته ، فتوجّه إلى بني قريظة ، وقال لهم : أرأيتم أن قريشاً وغطفان جاءوا من الخارج وأن الحرب فيها الهزيمة والانتصار ، فإن انهزموا سيعيدون أدراجهم ويلحقون ببلادهم ويخلّون بينكم وبين المسلمين ، ولا طاقة لكم بهم ، فلا تقاتلوا مع

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ص ١٧٩ .

القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونوا بأيديكم ضمانة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا : أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، وقال لهم : إنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلّغه لكم ، نصحاً لكم فاكتموا عني ، فقالوا : نفعل . قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا مع محمد من نقض العهد فيما بينهم وأرسلوا إليه في محاولة لردّ العلاقة معه ، وليثبتوا وفاءهم به : إنا ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم . وما أبلغكم إلا لخيركم فانظروا ما تصنعون . وفعل مع غطفان مثل ذلك .

وطبقاً لرواية ابن إسحاق فإن نفراً من قريش وغطفان وصلوا خفية إلى بني قريظة في ظلام الليل الحالك ، من أجل الاتفاق على وضع خطة ميدانية لدخول الحرب ، فكان رد بني قريظة بأن الأمر في غاية الخطورة ولسنا بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن نالت منكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا ، فإن رضيتم بذلك فإنا سنقاتل معكم ضدّ محمد . وحين علم رؤساء قريش وغطفان بهذا ، لم يلبثوا أن أيقنوا بصدق ما أدلى به نعيم بن مسعود ، وفي المقابل حين رفض قادة قريش وغطفان الرضوخ لمطالب بني قريضة ، فإن بني قريضة بدورهم أيقنوا بصدق ما قاله نعيم . وهكذا زالت الثقة من كلا الطرفين وساد بينهم سوء التفاهم و (خذّل الله بينهم)[٢] . وحدثت الفرقة بينهم ، وليس هذا فقط ، بل أرسل الله عليهم عاصفة شديدة قلعت خيامهم وكفأت قدورهم ، فسادهم الخوف والرعب وضعفت همّتهم ورجعوا من حيث أتوا .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٣ : ص ١٨١ .

إن النبي ﷺ كان يهدف من خلال تلك التدابير إلى الحيلولة دون وقوع الحرب ، ناهيك عن تلك العاصفة التي وقفت دون وقوع الحرب أيضاً . لقد أثبتت غزوة الأحزاب بشكل صريح أن منهج النبوة يقضي بذل أقصى الجهود لتحاشي الحرب ، حتى ولو تطلب الأمر اللجوء إلى الخدعة ، فاللجوء إلى الخدعة أفضل بكثير من احتمال الانخراط في مخاطر الحرب ، والخدعة هو ما نعرفه اليوم بالحيلة أو التكتيك (Trick) .

وطبقاً لذلك نستطيع القول بأن الله نفسه لا يحب الحرب ، فهو الذي أرسل العاصفة كي تتفكك صفوف الأعداء وتضعف همتهم ، فتحول دون حدوث الحرب . أو لم يكن بإمكان الله أن يرسل ملائكة من السماء - بدل العاصفة - ليحاربوا في صف المسلمين ضد عدوهم ؟ أو لم يكن هذا ممكناً كما حدث في موقعة بدر ؟ لكنه لا يكرر مثل هذه الحادثة مراراً ، فلم تكن قد نزلت الملائكة في أغراض حربية إلا في موقعة بدر ولمصلحة خاصة . يقول ابن عباس : (لم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر)[1]

إن مبدأ الإعراض مبدأ استراتيجي ، يتبناه رجل ذو هدف قلق من أجل تحقيق أهدافه . والنبي ﷺ كان يرمي إلى غاية سامية . يعمل من أجلها ليل نهار ، ألا وهو تبليغ رسالة الله إلى عباده وإدخال البشرية تحت ظلال الله ، وهذا الهدف الأسمى كان يفرض عليه أن يظل بمنأى عن تلك الأنشطة التي من شأنها أن تعيق سبيل الدعوة ، وهذا ما دفع النبي ﷺ إلى أخذ الاحتياطات اللازمة لتجنب الصدام ، إذ أن جو الصدام كفيل بأن يقضي تماماً على جو الدعوة ويكدر صفوه . ونشوب الصدام إنما يؤدي إلى جعل العلاقات بين الداعي والمدعو علاقات عدائية ، والتي تقف حجر عثرة

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ١ ، ص ٤٠٢ .

في سبيل القيام بالأعمال الدعوية في جو متزن خال من التوتر .

أخلاق الداعية :

إن قلب الداعية يكون مغموراً بالشفقة والرحمة والمشاعر الرقيقة تجاه مدعوّه ، ويختلج في قلبه الحرص الدؤوب على هداية مدعوه ، ومن ثم يضطر إلى اللين والمرونة في معاملاته وينهج السلوك الحسن تجاه مدعوه .

وقد لخص شخص أخلاق الداعية في هذه العبارة :

« إن الله يجعل من التجارة وسيلة للتبليغ عنه » .

God Making Commerce His Missionary.

هذه الجملة تكشف لنا عن أخلاق الداعية ، حيث تبين أن أخلاق الداعية هي نفس الأخلاق التي يسلكها التاجر ، غير أن أخلاق الداعية مظهر لعاطفة مغمورة بحب إلهي ، بينما سلوك التاجر ليس إلا مظهراً لعاطفة مغمورة بالرغبات المادية ، إن التاجر حريص على مراعاة زبائنه إلى أقصى حد ، يصبر على كل ما يبديه الزبائن من قسوة وخشونة وما إلى ذلك حتى يتمكن من بيع سلعته ، وحتى لا يحدث توتر في العلاقة بينه وبينهم .

وهكذا الداعية أيضاً لا يختلف عن التاجر فيعفو عن تجاوزات مدعوه حتى لا يتضايق أو ينفر منه ، إن بقاء جو التسامح الخالي من التوتر أمر ضروري للغاية ، والداعية مسئول على تأمين هذا النوع من العلاقة .

إن هذا التصوّر الأخلاقي للداعية متوافق تماماً مع تعاليم المسيح وتعاليم الإسلام أيضاً .

تعاليم المسيح :

آثرت أن أنقل إليكم مقتبسات من وعظ المسيح ، حيث ورد في إنجيل متى :

(لعلكم سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرّك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . ومن سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه) .

(سمعت أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم . باركوا لأعينكم . أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء ربكم الذي في السموات . فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين . ويمطر على الأبرار والظالمين . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم . أليس العشّارون أيضاً يفعلون ذلك . وإن سلّمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون . أليس العشّارون أيضاً يفعلون ذلك . فكونوا أنتم كاملين كما أن ربكم الذي في السموات هو كامل) .

إن الذين لم يستطيعوا النفاذ إلى أعماق هذه التعاليم يهاجمون المسيح ويعتقدون أنه سلوك يدعو إلى الاستسلام (Passive Character) ويحسبون أن مثل هذا السلوك ليس جديراً بالقبول ولا يمكن التعايش به في عالمنا المعاصر .

إن هذا الرأي خاطيء إلى حد بعيد ، فالمسيح لا يقصد سوى تبيان أخلاق الداعية ، ولا يقصد الإشارة إلى أخلاق العامة ، حيث إن الداعية بمثابة جهاز إرسال يبث فكرته للآخرين ، ويحرص من أجل ذلك أن يحدث كلامه أثراً وروعاً في قلوب الآخرين ، إنه يريد أن يقوم بانقلاب فكري في وسط الآخرين ، وهذا لا يتأتى إلا إذا ساد جو متزن خال من التوتر بينه وبينهم بدل جو الصدام والتناحر .

هذا الجو المعتدل لا يمكن أن ينشأ إذا كان هناك طرفان متعارضان ، فإذا ما قرر الداعية أنه سيظل إيجابياً حين يبدي المدعو سلوكاً إيجابياً أيضاً ، وأن الأمر سينقلب رأساً على عقب إذا ما تصرف المدعو بخلاف ذلك . فإذا ما قامت علاقة من هذا النوع بين الداعية والمدعو ، فإنه لا يمكن أن ينشأ جو يسمح للمدعو الاهتمام بما يلقيه الداعية ، ولذلك كان من مسئولية الداعية إبداء هذا السلوك الإيجابي من طرفه فحسب ، وتجنب كل التحرشات والاستفزازات الصادرة من قبل المدعو ، حتى تسود علاقة مودة بين الداعية والمدعو .

إن الصراع الذي ينشأ بين الداعية والمدعو يكون في أساسه صراع مادي . وخلاصة ما قاله المسيح هو أنه إذا ما نشأ هذا النوع من الصراع فيتوجب على الداعية أن يتحمل مثل هذه الخسارة المادية التي تلحقه من جراء هذا الصراع ، ويصبر حتى لا يحول هذا الصراع دون استمرار عملية الدعوة . فإذا ما أراد المدعو أن ينهب قميص الداعية ، فينبغي للداعية أن يكون مستعداً للتنازل عن معطفه أيضاً : (ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً) .

مكانة الداعية :

وهنا أحب أن أذكر لكم حديثاً يبرز مكانة الداعية : (عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى** » . وفي رواية أبي ذر قال : (لو ددت أني كنت شجرة تعضد) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد .

إن هذه الكيفية التي طرأت على النبي ﷺ - كما نص الحديث - تطرأ على الداعية أيضاً ، مع فارق وهو أن النبي ﷺ يكون في أقصى مراحل الكمال في تلك الكيفية بينما كل داعية يحصل على كيفية تناسب كفاءته واستعداداته . إن الداعية هو ذلك الذي تكون معرفته واسعة إلى درجة أنه يرى الغيب وكأنه عالم الشهادة ، إنه يدرك ببصيرته كل ما يمكن أن يدركه بعيني رأسه بعد الموت .

إن الإنسان مغمور في عالم الظواهر فكيف يمكنه أن يصبح داعية إلى عالم الغيب ، إنه بمنأى عن الله فكيف يمكن أن تتفجر من لسانه تلك المعاني السامية التي لا تنفجر إلا بعد أن يقطع شوطاً طويلاً في سبيل التقرب إلى الله .

هذه هي بداية القضية وهذه نهايتها أيضاً في عصرنا الحاضر ، إن أجراس المعابد والكنائس لا تزال ترنّ ويسمعها الناس لأن طبل الأذن لم يمزقه صوت إسرافيل ، وما زالت الشوارع تعج بالمظاهرات لأن جموح الملائكة لم تدهس بعد حدقة عيونهم ، والناس يشكون من الميز السياسي والتفاوت في المعاش لأنهم لم يدركوا بعد حدث القيامة الرهيب يوم لا يجد المرء ذرة للأكل أو قطرة ماء يبلّ بها جفاف حلقه .

إن الناس منغمسون في القضايا التي فجّرها الإنسان نفسه لأنهم يجهلون تماماً القضية التي فجّرها الله ، والناس يبدون كفاءاتهم اللفظية لأنهم غافلون عن المعاني العميقة الكامنة . إنهم متورطون في القضايا الهامشية البسيطة لأنهم لم يتعرفوا بعد على القضايا الرئيسية الهامة ، نعم . الإنسان يظن أنه يدري وهو لا يدري أنه لا يدري .

يتوجب على الداعية أن يتحلى بصفات النبي ﷺ إذا ما أراد أن يقوم بعبء الدعوة . إنه يقوم بهدف سام نزلت الملائكة من أجله ، وأنزلت الكتب

في سبيله . إن الداعية ليس قائداً قومياً بل هو بمثابة المندوب عن الله إلى عباده . لذا فمن الشروط التي لا مناص منها للداعية ، أن ينسى رغباته الشخصية وينحي أهواءه القومية جانباً ويسمو بنفسه ويتجنب كل النزاعات والمطالبات الأخرى ، كما ينبغي له أن يصبح مريد الخير للآخرين رغم ما يوجهون إليه من كلمات السبّ والشتم ، إنه يتوق ويشتاق لهداية الأمم ولو عانى منهم قساوة الاضطهاد والظلم ، ويصبح كتلة من الرحمة حتى يكون الله رحيماً به .

والصبر هو آكد وأهم الشروط بالنسبة للداعية ، إذ تنشأ نزاعات تبنى على المصالح المادية البحتة ، فيضطر الداعية إلى أن ينهي هذا النوع من الصراع حتى يمكّن المدعو من الاستماع إليه وإلى دعوته ، ويرضى بكل خسارة مادية حتى يتمكن من إفادة الآخرين . وخلاصة القول أن الداعية يرضى بأن يحرق بنار الدنيا حتى يتمكن من النجاة من نار الآخرة .

تعاليم الإسلام :

على نقيض ما هو رائج ، فإن تعاليم الإسلام لا تختلف عن مواعظ المسيح في هذا الصدد . إن المبادئ التي وصفها المسيح لأصحابه هي نفسها التي أكد عليها النبي ﷺ لأتباعه .

وأبرز مثال على ذلك . قصة صهيب بن سنان ، الذي ينحدر من أصل رومي ، كان يقوم بصناعة يدوية ، مما أكسبه قدراً من الذهب ، وقد أسلم والإسلام في مهده ، ثم هاجر إلى المدينة بعد أن صدر الأمر بذلك ، وكانت هجرته بعيد هجرة النبي ﷺ .

يروى أن صهيباً حين عقد العزم على الهجرة ، خرج من بيته ، ففوجئ بجماعة من قريش قد أحاطت به ، فقالوا له : إنك قد كسبت الذهب فينا فلا نسمح لك بالسفر به ، وبعد حوار بينهما اقترح صهيب

أن يتنازل عن ذهبه على أن يسمحوا له بالوصول إلى المدينة ، فرضوا بذلك بعد أن أعطاهم الذّهب ، وانطلق إلى المدينة .

وحين وصل صهيب إلى المدينة لقي النبي ﷺ وقصّ عليه ما جرى بينه وبين قريش ، فلمّا سمع النبي ﷺ قصة تنازله عن ذهبه تلبية لطلب قريش وليتمكن من اللحاق بقافلة الإسلام بدت علامات الفرح في وجهه ﷺ قائلاً : « **ربح البيع يا أبا يحيى ربح البيع يا أبا يحيى** » .

وأمثلة كثيرة في حياة النبي ﷺ وصحابته الكرام ، تؤكد على تلك الصفة التي ينبغي على الداعية أن يتحلّى بها ، أبرزها ما حدث للمهاجرين الذين تركوا ممتلكاتهم ومنازلهم حين هاجروا إلى المدينة ، وبعد ثماني سنوات من الهجرة رجعوا إلى وطنهم وذلك بعد فتح مكة ، إلا أن النبي - رغم الفتح - لم يكن قد أذن لصحابته في استرجاع ممتلكاتهم من جديد ، لأن المنازل لم تكن شاغرة بل كانت مشغولة قد استولى عليها أهل مكة ممن لم يعتنقوا الإسلام بعد ، ناهيك من أن بعض تلك المنازل قد تمّ بيعها من قبل هؤلاء إلى آخرين . وكان النبي حريصاً على دعوتهم إلى الإسلام وإدخالهم في دائرته ، وفي مثل هذا الوضع لو بدأ المهاجرون حركة مطالبة لاستعادة مساكنهم وممتلكاتهم ، فلا ريب أن ذلك سينشيء جو النزاع والتناحر بين الفريقين ، وهو كفيل بأن يعيق سبيل الدعوة ويكدّر صفوها . هذه هي الاستراتيجية الدعوية التي من أجلها لم يأذن النبي لأصحابه في استرجاع ممتلكاتهم من أهل مكة .

إن القرآن قد أبرز لنا تلك المباديء الأساسية للأخلاق الدعوية ، وهذا ما سنبينه في السطور التالية :

لقد ورد في القرآن قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع**

بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ،.وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ [فصلت : ٣٣ - ٣٦] .

إن هذه الآية القرآنية تبيّن لنا أنه على الداعية أن يصبح (صالحاً) والصالح هو تلك الشخصية المتوائمة والمتوافقة ، أي يلزم على الداعية أن يتحلى بتلك الصفات التي توافق ما يدعو إليه ، وهذا هو المراد بالعمل الصالح .

الداعية في الواقع ، هو من يصبح جدياً في حق الدعوة إلى درجة أن تصبح الدعوة أهم وآكد الأشياء عنده ، وحتى تتضاءل الأشياء الأخرى في نظره وتصبح ثانوية . إن هذا النوع من الناس إذا ما اقتحم الدعوة فإنه ينبثق منه ذلك السلوك الذي وصفه القرآن في هذه الآيات .

من العمل الصالح الذي ينبغي أن يتحلّى به الداعية ، والذي يمثّل جانباً ضرورياً فيه ، أن يحسن إلى مدعوه رغم معاناته قسوة الاضطهاد منه ، وأن يدعو لمدعوه من صميم قلبه ولو أصيب بصدمة منه ، إذ يتعين على الداعية أن يعوّد نفسه على إبداء السلوك الحسن ، وهو لا شك عمل جبار يتطلب صبراً ومثابرة . وهذا السلوك الحسن من طرف واحد يكمن فيه سرّ النجاح بلا ريب .

وفطرة الله التي فطر الإنسان عليها تخضع أمام هذا السلوك ، إنه أعظم سلاح يملكه الداعية ، لذا حين يجد الداعية نفسه متحفزاً لأخذ الثأر أو لإبداء ردة فعل ، عليه أن يدرك أن ذلك من وساوس الشيطان ، لأن الشيطان حريص على أن يسلب من الداعية سلاحه ، وهو يعرف جيداً أن الداعية حين يبدي ردة فعل فإنه سيفقد مدعوه ، فيخسر دنياه وآخرته .

النصح :

إن كافة أنبياء الله كانوا دعاة إليه وإلى دينه ، وقد ورد في القرآن أنهم كانوا ناصحين لأمتهم ، وأنهم يريدون الخير كل الخير لمدعويهم ، وقد ورد في سورة الأعراف ذكر بعض الأنبياء ، كانوا يقولون لأقوامهم : ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ [الأعراف : ٦٨] .

والناصح هو : من يريد الخير للآخرين ، والداعية يريد الخير لمدعويه بشكل دؤوب ، وهذا النصح هو الكيان الأساسي لشخصية الداعية ، منه تنبع الصفات الأخرى اللازمة لعملية الدعوة . ونعني بإرادة الخير ، أن كل ما يفعله الداعية إنما يفعله لمصلحة مخاطبيه وليس لمصلحته الخاصة .

إن عاطفة إرادة الخير للآخر ، تجرّ المرء للتفكير في شؤون الآخر والاهتمام به ، فالشخص الذي أصبحت له ناصحاً أميناً ، لا مناص من أن تحرص على هدايته وإصلاحه ، وهذا الدافع يحفّزك على بذل ما في وسعك من أجل طمأنينة المدعو وتثبيت قلبه ، فتدعو له في مناجاتك وخلواتك ولا تقول له شيئاً إلا بعد مراعاة الحكمة كما تراعي مزاجه وشعوره ، وتصبر على ما ستلاقيه من خشونة وقسوة منه ، وتبذل كل ما في وسعك للحيولة دون تكدير جو التسامح ودون نشوء صراع بينكما ، لتضمن الهدوء الضروري لقبول الموعظة .

صفة الإعراض :

إن الإعراض من أهم صفات الداعية ، كما جاء في القرآن : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٨] . ومعنى ذلك أن الإعراض مهمة تقع على عاتق الداعية ، فهو المطالب بالإعراض ، وهي مسئولية ينبغي أن يقوم بها الداعية من طرف واحد .

إن الإعراض هو ما يطلق عليه في الإنجليزية (Avoidance) أي : التجنب والتفادي ، أي : تفادي قسوة المدعو وطغيانه ، وهذا يعني أن مسئولية المحافظة على الجو السلمى تقع على عاتق الداعية ، فيلزم على الداعية أن يصمد ويثبت على سلوكه الإيجابي مهما كان سلوك المدعو ، وأن يتحاشى ردة الفعل إلى آخر مدى . وعليه أن يتثبت بصفة النصح أي : إرادة الخير للآخر ، بغض النظر عن المدعو .

مثل ساطع :

إن الشيخ محمد إلياس (١٨٨٦ - ١٩٤٤) هو أحد المصلحين المشهورين في العصر الحديث وكان موهوباً بهذا المزاج الدعوي ، ونذكر هنا واقعة تعطينا مثلاً واضحاً على ذلك . في الربع الأول من القرن العشرين كان (الشيخ إلياس) يعمل في موات (MWAT) في منطقة هاريانا (HARAYANA) في الهند . وكان يزور هذه المنطقة بشكل منتظم وذات يوم بينما كان يؤكد على أهمية (الكلمة) في موضوع العقيدة ، وأهمية الصلاة لأحد المسلمين في (موات) قام هذا الأخير بالإعتداء على الشيخ إلياس وضربه ضرباً شديداً حتى طرحه أرضاً ، فنهض حين تمالك نفسه من الضربة بدون انفعال أو غضب ، وقال لمهاجمه : ها أنت قمت بعملك فدعني أقوم بعملي . واستمع لما أريد قوله ، وهكذا بدون أن يضيع لحظة واحدة في توجيه الاتهام . استسلم لهذا الظلم الفادح ، وبعد لحظات قليلة استأنف نشاطه لمساعدة هذا الرجل على إدراك (الكلمة) و (الصلاة) .

إن هذا الأسلوب في معالجة هذه الحالة لم يكن له نظير ، ناهيك عما فيه من لطف ونبل . حتى إن الرجل لم يتمالك نفسه تأثراً ، فاستمع بانتباه وصبر ، وليس هذا فحسب بل طلب العفو أيضاً ، وعبّر عن عزمه في إصلاح سلوكه ، وأخيراً صار من المساعدين الدائمين لجماعة الدعوة .

إن أخلاق الداعية – في كلمة واحدة – تقوم ، في جوهرها ، على السلوك النبيل من طرف واحد ، وإن هؤلاء الذين تتوفر فيهم الشجاعة لتبني هذه الأخلاق هم وحدهم الذين يكونون أهلاً لهذه المهمة .

بناء الأمة

– ١ –

إن عالمنا اليوم هو عالم يضطر فيه الإنسان إلى أن يبني صرح حياته وسط الخراب والدمار . ولعل سبب ذلك هو أن أحداً لا يعيش بمعزل عن الآخرين سواء أكان فرداً أم أمة ، بل كل يعيش في وسط أخرين أمثاله ، وهذا الوضع قد جعل بيئة العالم يسودها جو المنافسة الدائبة والمستمرة ، كل فرد يحاول فرض سيطرته على الآخر ، وكل أمة تريد أن تسابق الآخرى لتنال قصب السبق والغلبة . إن نظام التنافس هذا قد أودعه الله في بنية الكون وليس بمقدور الإنسان أن يحدث فيه أي نوع من التغيير ، بل كل ما يمكن أن يفعله هو أن يستوعب أبعاد هذا النظام ليبني صرح حياته على نسقه . فمما يحدث في هذا العالم مثلاً أن الأسماك الكبيرة تبتلع الأسماك الصغيرة ، وليس للسمك الصغير من أمل في البقاء إلا إذا زاد من حجمه حتى لا يبتلعه السمك الكبير .

ونظراً إلى هذا الجانب من الحياة فإنه قد تم ربط النجاح في معترك الحياة بمبدأ الصبر ، وأكد القرآن والسنة أيضاً على أهمية الصبر ، قال تعالى : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ . والصبر لا يعني الجبن ، بل إنه يمثل مبدأ إيجابياً كبيراً ، فهو يجنب المرء نفسية رد الفعل ، فلا ينخرط في المبادرات العشوائية دونما نظر إلى عواقبها ، ومهما كانت الظروف متأزمة وغير مواتية له فإنه يقف في حدود الصبر ، وهو بدل أن يقيّم الأوضاع من داخلها متأثراً بها يقيّمها وهو واقف أمامها أو بعيداً عنها يمعن النظر فيها ويتأملها . وكل عمل

يتسم بهذا النوع من الموضوعية فهو عمل صادر من عقلية غير متأثرة يطلق عليه وفقاً للمصطلح الشرعي أعمال الصبر ، أما خلاف ذلك فهي الأعمال المتعجلة .

مثال من التاريخ :

كان فتح الجيش الإسلامي لفارس في عصر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان سعد بن أبي وقاص هو قائد الجيش الإسلامي آنذاك ، وقد ألحق بالجيش الفارسي أضراراً بليغة في بداية اللقاء ، مما دفع الفرس إلى طلب الهدنة والصلح بعد أن أدركوا أن الحرب لن تكون في صالحهم ، وكان سعد في ساحة القادسية حينذاك ، فبعث بنخبة من أفراد جيشه إلى قائد الجيش الفارسي رستم ويزدجرد ملك فارس ، وهم نعمان بن مقرن وفرات ابن حيان وحنظلة بن ربيع وعطاء بن حاجب وأشعث بن قيس والمغيرة بن شبعة وعمرو بن معديكرب وغيرهم . « البداية والنهاية : ابن كثير » .

وقد تناول ابن كثير في كتابه البداية والنهاية هذه القصة بتفاصيلها ، وخلاصتها : أن المغيرة وأصحابه قد اتجهوا إلى البلاط الملكي بالمدائن ودخلوه دون أن تترك البيئة الملكية أي أثر في نفس المغيرة الذي ألقى خطاباً حاراً تتقاطر كلماته حماساً وشجاعة أمام الملك وحاشيته ، فانتفض يزدجرد غيظاً وغضباً ، قائلاً : كيف تقولون هذا أمام ملك الملوك ، لولا أن القانون يمنعني من قتل الرسل لقتلتكم دون تردد ، ارجعوا إلى أميركم وأخبروه بأنني سأرسل إليه جيشاً بقيادة رستم سوف يدفنكم في مقبرة القادسية .

وأمر يزدجرد بعض خدمه بأن يأتيه بكيس من رمل ولما أحضروه له ، اتجه الملك إلى المسلمين وتساءل : من هو أميركم ؟ فتقدم عاصم بن عمر قائلاً أنا أيها الملك . فوضع الكيس على رأسه ، وأصدر أمراً بطرده من البلاط الملكي وبملاحقته حتى يتجاوز حدود المدائن . فاتجه عاصم بن عمر إلى

القادسية وهو في هذه الحالة ، وقص على قائد الجيش القصة من أولها إلى آخرها ، إلا أن سعداً لم ينتفض غيظاً وغضباً ولم تتقد فيه نار الحقد والانتقام لصنيع الملك يزدجرد ، بل تفاءل من الواقعة ، وقال : « أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم » .

هذه هي النظرة البعيدة التي جعلت من العرب أناساً يفرضون سيطرتهم على أعظم امبراطورية في ذلك العصر رغم قلة عددهم وضعف جبهتم . إننا نلمس في نظام الكون نوعاً من الازدواجية ، فالليل يعقبه النهار والورد تحيط به الأشواك ... وطبقاً لهذه الازدواجية في نظام الكون ، فإنك لن تعثر في هذه الحياة على شخص لا يواجه أوضاعاً غير مرضية ، غير أن سر النجاح في هذا العالم إنما يكمن في أن يستشف المرء الجوانب المواتية في خضم الأوضاع غير المواتية ، وأن يكتشف بصيص أمل وسط الوقائع غير المرضية ، وحين يوضع على رأس أحد كيس الذل والهوان فهو يراه تاج العز والإكرام . إن مثل هذه الأعمال الجبارة يمكن أن يقوم بها فقط أولئك الذين يملكون قوة الصبر والمقدرة على هضم النفسية السلبية .

لقد أعلن الفرد أيدلر (١٨٧٠/١٩٣٧) النجم اللامع في مجال علم النفس والذي أمضى حياته كلها في دراسة النفس الإنسانية وفحصها ، وبعد دراسة مضنية أعلن عن اكتشاف مفاده أن من خصوصيات الإنسان المحيرة قدرته على تحويل النقص إلى تفوق .

Thier power to turn a minues into a plus.

وهذه الخصوصية العجيبة والنادرة إنما تولد مع الإنسان ضمن بنيته النفسية . وإذا ماستطاع أحد أن يستشف هذه الخصوصية وأن يحسن استخدامها فهو وحده الذي يمكن أن يحقق الانتصارات في معترك الحياة ، وإذا نشأت أمة على هذا الطراز وبدأ أفرادها في استخدام تلك الصلاحية ،

فستكون هي تلك الأمة التي ستلعب دوراً فعالاً في تغيير مجرى التاريخ .

والصحابة كانوا على رأس من يملكون القدرة على استخدام تلك الصلاحية الفطرية ومن تم أمكنهم أن يبنوا صرحاً تاريخياً رائعاً من خلال أعمالهم الجبارة والرائدة . بينما أخذ المسلمون من الأوضاع الراهنة دروساً سلبية فقط ، حيث صاروا عنواناً لعقدة الاضطهاد ، لكنهم إذا ما استطاعوا أن يمحصوا القضية بعمق فإنه سيصبح بمقدروهم أن يكتشفوا جوانب إيجابية في غمرة هذه الحالات والأوضاع المتأزمة ، ويمكنهم إذا ما استخدموا استعدادهم الفطري الذي أودعه الله في كيانهم أن يحولوا السلب إلى إيجاب ، وأن يجعلوا من الأوضاع غير المواتية أوضاعاً مواتية لهم .

نعم إن المسلمين قادرون على ذلك يقيناً ، شريطة أن تكون لديهم نظرة بعيدة ، كما يلزمهم - إذا ما رغبوا في ذلك - أن يعتبروا كيس الذل والهوان تاج عز وإكرام ، وأن يستشفوا إمكانات كامنة في أعماقهم بدل الاحتجاج والصياح ضد الآخرين ، كما ينبغي عليهم ألا يلقوا بتبعة واقعهم على الآخرين ، وأن يعتبروا أنفسهم هم المسئولون عن كل ما يجري لهم ، فإذا استطاع المسلمون أن يفعلوا ذلك فإن غداً جديداً وتاريخاً ذهبيّاً ينتظرهم وسوف يرونه بأم أعينهم .

أهمية الصبر :

سيكون النجاح حليفنا حتما إذا اعترفنا بأن الطريق إليه هي طريق وعرة تحيط بها الأشواك ، وأننا لا نصل إليها إلا بعد المرور بمراحل من الإخفاق ، وأن مخطط البناء في هذا العالم إنما يتكون من ركام الدمار .

وهذا ما جعل للصبر تلك الأهمية البالغة ، فالصبر إنما يعطي للإنسان القدرة على عدم اليأس إذا ما أحاطت به أوضاع غير مرضية ، والقدرة على قمع انفعالاته إذا ما انتابه اضطراب نفسي ، والصبر أيضاً يلقن الإنسان درس

عدم الاندفاع والاستثارة إذا ما أساء إليه الآخرون ، وهذا النوع من ضبط النفس إنما يمثل وقفة يراجع فيها الإنسان نفسه ، ويفحص كل جوانب القضية ويمعن النظر في أبعادها حتى يتسنى له وضع مخطط دقيق لكل أعماله ونشاطاته ، إذ ينبغي للمرء ألا يضيع طاقاته في قمع الآخرين وفرض السيطرة عليهم ، بل عليه أن يحسن إستخدام طاقاته وإمكانياته الهائلة في تقوية نفسه وإحكامها .

إن الصبر مصطلح ديني يطلق عليه في اللغة المعاصرة « التخطيط » أي : المبادرة بعد بحث كل جوانب القضية ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المرء قادراً على قمع ثورة نفسه إذا وقع في حالات وأوضاع غير مواتية ، وكان هادئاً متزناً في الأوضاع المثيرة للغضب .

المزارع حين يزاول عمله الزارعي فهو يقوم بدفن حبات تحت التراب ، والتاجر حين يزاول عمله التجاري فهو يوظف رأس ماله في إحدى المؤسسات التجارية ، وبعبارة أخرى فإن كلا من المزارع والتاجر يفقد ما لديه من رأس المال ، لأنهما يعرفان حق المعرفة أن من خصائص هذه الدنيا « المكافأة تتبع العطاء » فمن لا يعطي لا يحصل على المكافأة ، وهي القضية التي يعبر عنها المثل ، الإنجليزي بهذه الكلمات :

In giving that we receive.

فالزراعة طبقاً للنظام الذي أودعه الله في هذا الكون ، هي أن تدفن البذور وتنتظر ثمارها ، والتجارة هي أن توظف رأس المال وتنتظر عوائده ، وفي هذه الدنيا يمكنك أن تكتشف الورد من بين الأشواك ، ومن يحاول الحصول على ورد بدون أشواك سوف لن يحالفه النجاح ولا يمكنه الحصول على الورد أبداً .

والأدهى من ذلك فيما يتعلق بهذا الأمر ، هو أن السواد الأعظم من

الناس إنما يتأرجحون بين أمرين متضادين ، فإذا كان الأمر يتصل بمصالحهم الذاتية فإنهم سرعان ما يدركون هذه الحقيقة دونما عناء ، أما إذا كان الأمر متصلاً بالأمة أو بالدين فإنهم ينسون هذه الحقيقة تماماً . إن كل من يريد بناء صرح حياته في هذه الدنيا فلا بد له أن يلتزم بهذا المبدأ ، ولكن المدهش أن هذا الشخص الذي ينتظر المكافأة بعد العطاء فيما يتعلق بحياته الشخصية هو نفسه الذي يطالب – فيما يتصل بأمته – بالمكافأة دون أن يقدم أي عطاء . فإذا كان الأمر يتصل ببناء الحياة الشخصية للإنسان فالكل ينساق مع الواقع ويواكبه مواكبة تامة ، أما إذا كان الأمر متصلاً بالأمة فإن معارضة الواقع تحتل الصدارة في أغلب الأحيان . فيما يتعلق بالحياة الشخصية ، كل يميل إلى الحقيقة والواقع ، وأما فيما يتعلق بالأمة فالكل ينقاد وراء الحماس وعدم الواقعية . لم يحدث ذلك ؟ .

الحقيقة أن الإنسان جدي في أمر نفسه ، ومن ثم لا يصعب عليه العثور على الحقيقة إذا كان الأمر له صلة بنفسه ، إلا أنه ليس جدياً في أمر الأمة ، فتخفق مخيلته في العثور على الحقيقة . وبعبارة أخرى فالذين يحبون الحقيقة فيما يتصل بأمر أنفسهم لا يحبونها إذا كان الأمر له صلة بالأمة .

النظرة المتسامية :

هناك مثل إنجليزي يقول : (طائر العاصفة الكبير) .

The big bird of the storm.

إن المثل يرجع في أصله إلى العاصفة التي تهب على المناطق الباردة ، وأثناء نشوب هذا النوع من العواصف تواجه الطيور مشكلة بالغة الخطورة ، إذ تتورط في صراع الحياة والموت وتتساوى في ذلك الطيور الصغيرة والكبيرة ، إلا أن الطيور الكبيرة تتغلب على العاصفة ويكتب لها البقاء بينما تفشل الصغيرة في صراعها مع العاصفة وتلاقي حتفها . فالطيور الكبيرة

تقتحم الفضاء بفضل أجنحتها الضخمة ، وترتفع إلى مستوى لا تبلغه آثار العاصفة ، ومعلوم أن العاصفة لا تغطي الفضاء كله بل لها خدود لا تتجاوزها ، فتتمكن الطيور الكبيرة من تجاوز هذا الحد بفضل أجنحتها العملاقة ، في حين أن الطيور الصغيرة ذات البنية الضعيفة والأجنحة القصيرة تخفق في مقاومتها للعاصفة واقتحامها للفضاء ، فلا تبلغ ذلك المستوى الذي يخلو من العاصفة تماماً ، فتلاقي حتفها وتسقط جثة هامدة على الأرض .

وهذا الأمر ينطبق على الإنسان المعاصر تماماً ، فالإنسان في هذا العالم تحيط به حالات غير مرضية كما يعاني المشاق والمصاعب سواء أكان ذلك فرداً أو أمة ، فكل أمة تعاني من المصاعب التي تفرضها عليها أمة أخرى ، وكل جهة تعارض جهة أخرى وهكذا ...

وفي مثل هذا الوضع فإن الإنسان بين خيارين اثنين : إما أن تكون لديه القدرة على تمحيص الأوضاع وإلقاء نظرة تأمل عليها وهو واقف خارج دائرتها ، فيكون بوسعه التخطيط بعيداً عن الحوادث الظاهرة ، وهو بذلك يكون كالطائر الكبير الذي استطاع أن يبقى على قيد الحياة مخترقاً الفضاء إلى المستوى الذي يخلو من آثار العاصفة ، ومثل هؤلاء الناس يمكنهم أن يرتفعوا بأنفسهم فوق مستوى الأوضاع الآنية غير المرضية ، وبالتالي يستطيعون رؤية أفق جديد أرحب للحياة ، وسوف لن يكون تفكيرهم متأثراً (Conditioned thinking) بل سيكون متحرراً خالياً من نفسية رد الفعل .

وإذا كان عكس ذلك ، فهو كالطائر الصغير الضعيف الذي ليس بمقدوره اقتحام الفضاء ، فيلاقي حتفه متخبطاً وسط العواصف العاتية ، وإذا لم يكن بمقدور الإنسان أن يخرج نفسه من ضيق الأوضاع فلا مناص من أن يتخبط في العواصف التي فجّرها الآخرون ، ولن يقدر على البقاء لضعفه وقصر نظره .

بين الماضي والحاضر :

إن المسلمين في العصر الحديث قد برهنوا على أنهم الطيور الصغيرة وسط العاصفة ، وقد فشلوا في إثبات أنهم الطيور الكبيرة . هذه هي بداية ونهاية كل المصاعب التي يواجهونها . إن الكتاب والوعاظ المسلمين في العصر الحديث يكتبون ويعظون حول شيئين : الفخر والاعتزاز بالماضي ، والشكوى من أوضاع المسلمين الراهنة ، في حين أن الوضع الذي وصل إليه المسلمون لم يحدث بحكم الصدفة ، بل كانت من ورائه عوامل وأسباب كان على المسلمين أن يمعنوا النظر فيها ليستشفوا منها العبر ويأخذوا منها الدروس . إلا أن كتاب المسلمين ووعاظهم يغضون الطرف عنها ، ويستنبطون من أحداث الماضي بواعث الفخر ومن الأوضاع الراهنة بواعث الشكوى .

ينبغي على المسلمين أن يدركوا الأسباب الأصلية وراء هذا التحول ، فبدل أن يفتخروا بالماضي كان عليهم أن يفكروا كيف تمّ بناء صرح ماضيهم المتلألىء ، وعليهم كذلك أن يغيروا أسلوب تفكيرهم عن الحاضر ، فبدل أن يوجهوا التهم إلى الآخرين يجدر بهم أن يفكروا كيف أمكن لغيرهم أن يفرضوا سيطرتهم عليهم ، حتى بدأوا في اضطهادهم وسلب حقوقهم . فليفكر المسلمون ملياً كيف تحوّل مجرى تاريخهم ، فبعد أن كانت الغلبة لهم صاروا مغلوبين على أمرهم وفرض عليهم الآخرون سيطرتهم . ولو فكر المسلمون بموضوعية لأدركوا أن السبب في هذا التحول بين ماضيهم وحاضرهم واضح وضوح الشمس ، وأنه يرجع في أصله إلى المسلمين أنفسهم ، فالسبب باختصار هو أن أسلافنا قد دفعوا ثمناً باهظاً مقابل ما حصلوا عليه ، ونحن في المقابل لسنا مستعدين لدفع الثمن فكان طبيعياً أن نحرم مما نتطلع إليه أو ننشده . لقد برهن أسلافنا على الصبر ونحن نبرهن

على عدم الصبر ، وبرهنوا كذلك على أنهم نافعين لأهل الدنيا بينما نحن نبرهن على أننا عالة عليهم ، وإذا ما طوقتهم العاصفة نجحوا في التغلب عليها مثلهم في ذلك مثل طائر العاصفة الكبير ، بينما نحن صرنا طيوراً صغيرة نتخبط في مواجهة العاصفة ونلاقي حتفنا في نهاية المطاف .

وقد جرى قانون الكون على أن كل إنسان – فرداً أو أمة – ليس بوسعه أن يبرهن على أنه طائر العاصفة الكبير فإن مصيره الهلاك والاندثار في عالم الأسباب .

النجاح في الإخفاق :

إن الله تعالى خلق الكون وأودع فيه نظماً وقوانين لا يحيد عنها ، فكل ما يجري في الكون إنما يجري وفقاً لذلك النظام الإلٰهي الصارم ، ولم يكن النبي وصحابته الكرام بمنأى عن ذلك ، فليس بإمكانهم إجراء أي نشاط استثنائي معارض لتلك النظم الكونية ، فكيف بنا نبادر بشيء نخرق فيه نظام الكون وقوانينه الصارمة !

إن النبي ﷺ وصحابته الكرام ظلوا صابرين على كل ما لاقوه من ظلم واضطهاد في مكة القديمة ، ولم يقدموا على أي نشاط احتجاجي ضد كل تلك المصاعب والمعاناة حتى أن أهل مكة حين صعّدوا من أعمال العنف والاضطهاد ، قرر النبي وأصحابه الهجرة إلى المدينة . ويمكننا أن ندرك مدى صبرهم حين نلحظ أنهم – بعد فتح مكة – لم يطالبوا بإعادة أملاكهم ، ولم يثيروا قضية إرجاعها بعد أن فرض الإسلام سيطرته على مكة . ورغم كل مظاهر الظلم كان النبي ﷺ قد نزل على كافة شروط الأعداء في موقعة صلح الحديبية ، وكلنا يعرف كم كانت تلك الشروط قاسية بالنسبة للمسلمين . لقد بدأت صياغة وثيقة صلح الحديبية ، وقرنت كلمة « رسول الله » مع اسم النبي ﷺ فرفض المشركون ذلك ، فنزل النبي ﷺ

على رغبتهم ، وكتب بدلاً عنها محمد بن عبد الله ، ولمّا كانت زيارة البيت الحرام من حق كل إنسان ، اتجه النبي ﷺ إلى البيت لأداء العمرة ، إلا أنه وجد صداً من المشركين ، فنزل تحت رغبتهم ورجع مع أصحابه دون أداء العمرة . وتبدو بنود صلح الحديبية بنود هزيمة إلا أن النبي ﷺ اعترف بها وختم عليها بخاتمه المبارك .

ترى لماذا اتخذ النبي ﷺ هذا الموقف ؟ هل كان ذلك من أجل وضع الإسلام في قعر الذل والهوان ؟ لا . أبداً .. بل كان يرمي بذلك إلى إخراج الإسلام من ظلام الذل والهزيمة إلى نور العز والنصر للأبد ، وقد نزل النبي ﷺ على كافة شروط الأعداء ، حتى تتغير الأوضاع وتتعدل ، وتصبح البيئة مناسبة ومعدة لإجراء أنشطة بناءة في أجواء هادئة ، فكان الأمر كما أراد ، وانطلقت الأعمال البناءة على أوسع نطاق بعيد الصلح ، وما إن مضت سنوات قليلة حتى أعطى صبر النبي ﷺ ونظره البعيد ثماره ، ففرض المسلمون سيطرتهم على البقعة العربية كلها . لقد أملى الأعداء كلمات الهزيمة على الورقة فتحولت إلى كلمات الانتصار في سجل التاريخ . فعلى المسلمين أن يأخذوا من هذه الحادثة النبوية التاريخية أعظم عبرة ، فهي تنبئنا بأهمية الصبر على ظلم العدو حتى ننجو من شبكات ظلمه للأبد ، وأنه لا بد أن ننزل على شروط الأعداء حتى نضطرهم إلى النزول على شروطنا ، ويلزم كذلك محو كلمة « رسول الله » لتظهر على صفحات التاريخ في صورة مشرقة ، وكذلك ينبغي على الإنسان – في هذه الدنيا – أن يتراجع عن حقه حتى يعود إليه في أفضل صورة ، ولا بد أن نرضى بالهزيمة حتى تفتح أمامنا أبواب النصر على مصراعيها .

إن من الحقائق التي أخبرنا بها النبي ﷺ قوله : « **من تواضع لله رفعه** » فإذا كان ذلك هو قانون الكون فكيف يمكننا أن نتوخى الرفعة والعلو دونما تواضع أو خضوع ؟ . .

ـ ٢ ـ

لقد فصّل القرآن الحقائق : ﴿ **وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، كما بين سر النجاح في هذه الدنيا ، فهو يكمن في نفع الآخرين ، والجماعة التي تثبت أنها ذات نفع للآخرين هي التي يكتب لها الرقي والثبات ، بينما الجماعة التي تفقد صلاحيتها لنفع الآخرين ، فإن العالم ينبذها كما ينبذ الذباب عندما يقع على اللبن ، وقانون الحياة هذا يمكن أن نلمسه في الآية التالية : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ [الرعد:١٧]. هذه الآية تدلنا على قانون الله للدنيا ، من خلال مثال مادي ملموس ، فيمكننا أن نلاحظ عن طريق المشاهدة المباشرة السيل وهو يحمل معه الزبد والأوساخ بينما يبقى الشيء الذي ينفع الناس وهو الماء ، وفي هذه الدنيا أيضاً لا بقاء ولا ثبات إلا للجماعة التي تبرهن على أنها نافعة للآخرين ، أما الجماعة التي تفتقد تلك الصلاحية فإن التاريخ يرمي بها في مزبلة النسيان .

إن التاريخ كله يؤيد هذه الحقيقة القرآنية ، فالمسلمون دخلوا الأندلس سنة (٩٢هـ) وانتهى حكمهم لها سنة (٨٩٧هـ) . ولعل السبب في ذلك يعود إلى تلك الصراعات الداخلية التي اتخذت في نهاية المطاف صورة مروعة ، ولكن رغم انقضاء الحكومة الإسلامية في الأندلس ، ورغم حقد المسيحيين الأسبان على المسلمين ، فإن عملية إخراج المسلمين من الأراضي الأندلسية قد استغرقت حوالي قرناً من الزمن ، ففي أواخر القرن التاسع الهجري أزيحت الحكومة الإسلامية من الأندلس إلا أن خروج آخر قافلة إسلامية كان في أواخر

القرن العاشر الهجري ، وذلك لأن الخبراء المسلمين كانوا يسيطرون على كافة قطاعات الصناعة والتجارة والزراعة ، وهم الذين كانوا يشرفون على تسيير دور التعليم والمستشفيات ، وكافة الشئون والخدمات الاجتماعية . وتظهر صورة تخلف الأندلسيين الأصليين مقارنة بالمسلمين ، في تحويلهم مراكز الأرصاد التي خلفها المسلمون في الأندلس إلى غرف لقرع أجراس الكنائس ، وذلك لعدم خبرتهم الكافية في استعمال مراكز الأرصاد .

وفي القرن العشرين نرى التاريخ يعيد نفسه ، حين بدأت قوى الاستعمار الغربي – التي كانت تسيطر على مناطق من آسيا وأفريقيا – تتقهقر وتنحصر نتيجة الكفاح والتضحيات التي بذلتها حركات التحرير ، والتي أرغمت المستعمرين على العودة إلى بلدانهم في نهاية المطاف ، وحين تم إجلاء القوى الاستعمارية على المستوى السياسي ، لوحظ أن البلدان التي تحصلت على استقلالها السياسي خلت تماماً من الخبراء القادرين على إدارة الدوائر العلمية والحضارية ، ومن تم اضطر كل بلد مستقل أن يستقبل الخبراء والفنيين الوافدين من تلك البلدان المستعمرة . فتحول الاستقلال السياسي إلى تبعية على المستوى التكنولوجي ، وأصبحت الدول الغربية تفرض سيطرتها على القطاع الاقتصادي والعلمي لتلك البلدان ، كما كانت تسيطر عليها سياسياً من قبل .

وفي الهند يمثل المسيحيون والمسلمون أقلية ، الصعوبات التي يتعرض لها المسلمون من قبل الأكثرية يواجهها المسيحيون أيضاً وبنفس الدرجة ، ولكن رغم ذلك فإن المسيحية ليست في وضع متأزم . بينما المسلمون في وضع متأزم للغاية .

ــ إن المسيحية دين تبشيري ، وهي مشغولة بمهامها التبشيرية بشكل منظم للغاية .

ــ والمسيحيون يعتقدون أن النجاة في المسيحية فقط دون سواها ،

والمسيحي يعتقد بضرورة بقاء كيانه المستقل .

ــ الذين شنوا هجوماً على الهند وألحقوا دماراً بمنظماتها على أوسع نطاق هم مسيحيون أيضاً .

ــ والحكام الذين دعموا فكرة تقسيم الدولة وأيدوا المنادين بالتقسيم هم مسيحيون .

ــ المركز الديني للمسيحيين يقع خارج الهند .

ــ والمسيحيون متهمون بأنهم عملاء للقوى الاستعمارية ، ولكن رغم هذا وذاك فإن مصالح المسيحيين ظلت محفوظة دون أن يعتريها أي نقص ، والسبب هو أن المسيحيين برهنوا على أنهم نافعون للمجتمع الهندي ، وهم لا يضنون عليه في العطاء .

إن المسيحيين يمثلون ٢٪ من سكان الهند ، إذ يبلغ عددهم حوالي مليونين وبضعة آلالف نسمة ، بينما يمثل المسلمون ١٢٪ من مجموع السكان ، إلا أن الفارق بينهما يكمن في أن المسيحيين قد أقاموا المستشفيات والمعاهد التعليمية وأنشأوا مناطق سياحية إلى حد يفوق احتياجات المواطنين المسيحيين . وقد تلقى موظفو الدولة وأكبر عدد من رجال الحكومة دراساتهم في المؤسسات التعليمية المسيحية ، كما يعد المستشفى الذي أقامه المسيحيون أفضل المستشفيات في الهند ، وليس هذا فحسب بل إنهم أنشأوا عدداً كبيراً من المراكز الصحية التي تقدم خدمات إنسانية فائقة . وفي المقابل نرى المسلمين يبرزون حماسهم وشجاعتهم في ساحة المطالبات والاحتجاجات ، وليس لديهم المدارس والمستشفيات والهيئات السياحية التي تكفي احتياجاتهم فأنى لهم نفع الآخرين في هذه المجالات .

إن ذلك الوضع هو مخالفة للقانون الإلٰهي للدنيا ، فإذا ما واجه المسلمون تمييزاً عنصرياً أو ممارسات تعصبية فإنما يواجهونها وفقاً للقانون

الإلٰهي للكون ، ولا دخل فيه لظلم ظالم أو اضطهاد مضطهد . فالله هو خالق الكون وكل شيء فيه إنما يسير طبقاً لذلك النظام الذي أودعه الله في بنيته ، فجعل الماء لبل الصدى ، والبترول لقيادة السيارات ، ونجاح المرء يكمن في استخدام الماء في بل صداه وعطشه ، وإذا أردت أن تشغّل السيارة فليكن البترول هو وسيلتك ، فإذا قلبت الأمر رأساً على عقب وشربت كمية من البترول لتروي عطشك ، أو استخدمت الماء لتشغيل سيارتك ، فلتعلم أن الفشل والإخفاق هو مصيرك حتماً .

إن هذه الدنيا هي دنيا التنافس والتسابق ، وكل إنسان فيها يتمتع بحظه من الحرية التي تفسح أمامه الطريق ليجتهد وينافس الآخرين حسب استعداده وجهده ، ونظام التنافس هذا هو نظام أودعه الله في الكون ، فليس لدى الإنسان خيار ليحدث فيه أدنى نوع من التغير ، بل كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يبرهن على كفاءته في مضمار المنافسة ، ليحتل مكانه بعد ذلك ، وإذا كانت رغبتك هي أن يحيد هذا الكون عن نظام التنافس ويشرع في السير وفقاً لنظام المطالبات والاحتجاجات ، فإن ذلك لن يتحقق أبداً ، وإذا كانت لديك رغبة جامحة في أن تعيش حياة تسير على خطى الاحتجاجات والمطالبات فلتبن لك عالماً آخر يسير وفقاً لرغبتك وقانونك الخاص .

إن الله تعالى قد جعل الدنيا موضع اختبار ، ومنح كل إنسان حرية مطلقة للعمل ، هذا هو السبب الذي يمكن أن نرجع إليه كل ما في الكون من تنافس وتناحر بين الناس والأمم ، وجو التنافس هذا لا يمكن أن ينقضي أبداً ، سواء أكان ذلك تحت حكومة إسلامية أو غير إسلامية . وإزاء ذلك هناك نمطان من التفكير . الأول : أن تفكر وأنت واقع في قعر الأزمات . والثاني أن تفكر وأنت واقف خارجاً بعيداً عنها . ولما كانت الدنيا لا تخلو من الأوضاع والظروف غير المواتية فمن البديهي أن يكون تفكير المرء ممزوجاً

بالشكاوى وهو في وسط تلك الحالات ، وحينئذ لا مناص من أن يمتزج تفكيره بنفسية رد الفعل ضد تلك الظروف القاسية . فبدل أن يبذل كل رخيص في سبيل إبراز قدراته الكامنة ينصرف إلى الاحتجاجات والمطالبات التي لا طائل من ورائها متوهّماً أنه يحقق بذلك أعمالاً جبارة . وفي المقابل إذا فكر الإنسان وهو خارج تلك الحالات ، فإنه لا يلبث أن يكتشف أن كل ما يحدث إنما يحدث وفقاً لقانون الكون ولا دخل لظلم ظالم أو تعصب متعصب . هذا النمط من التفكير ينقاد له الواقع وينسجم معه انسجاماً كاملاً ، ويجبر صاحبه على الرضا بالوضع الذي هو فيه ثم يخطط على ضوئه ، وهذا النوع من الناس ينهمك في عمله ويبذل جهداً مضنياً ليحرز النجاح عن طريق جهوده الشخصية بدلاً من إطلاق التهم والاحتجاجات ضد الآخرين .

إن أفكار المسلمين الهنود تدور في فلك مصطلحات (التعصب) وأصبح لتفكيرهم نمط خاص لا يحيدون عنه ، مثلهم في ذلك مثل الذي يفكر وهو بداخل غرفة مغلقة ، فإذا قدر الله أن تتجاوز أفكارهم ضيق مصطلحات التعصب وتدخل في إطار أرحب ، إطار التفكير الموضوعي ، الذي يرمي إلى كشف الحقيقة ، فإنهم سوف يفاجئون بأنهم قد بلغوا فضاء رحباً ، حيث الأبواب كلها مفتوحة على مصراعيها ، بعد أن ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت . دعونا نضرب لكم هذا المثال : إن المسلمين في الهند يشكون من أن اللغة الأردية ضحية التعصب ، فهي لا تتمتع بمكانتها التي ينبغي أن تحظى بها ، ولكن نظرة فاحصة إلى هذه القضية تشير إلى أن قضية اللغة الأردية ناشئة عن نقص في اللغة نفسها وليس نتيجة للتعصب ، فاللغة الأردية قد فشلت في أن تبرهن على أن لديها قدرات كافية تحتل بها مكانة مرموقة ، حتى أنك تلاحظ أن القادة الذين يرفعون راية الاحتجاجات لصالح اللغة الأردية هم أنفسهم يحسون بضرورة أن يلتحق أطفالهم بالمدارس الإنجليزية .

واللغة الروسية لم تكن تتمتع بأية أهمية لدى الأمريكيين إلى ما قبل سبتمبر ١٩٥٩م . وفي نفس الشهر أعلن نبأ إطلاق الصاروخ الروسي (ليونك ٢) وهو الصاروخ الذي اقتحم الفضاء بسرعة سبعة الآف ميل في الساعة ، وحط على متن القمر بعد رحلة فضائية استغرقت (٣٤) ساعة . وحين أذيع هذا الخبر حظيت اللغة الروسية بأهمية بالغة في دنيا العلوم والتكنولوجيا ، لأن ذلك يعني أن روسيا سبقت أمريكا في مجال تكنولوجيا الفضاء ، فأحس الخبراء الأمريكيون بأن دراستهم حول تكنولوجيا الفضاء لا يمكن أن تكتمل حتى يطلعوا على كل ما كتب باللغة الروسية في هذا المجال ، وظهرت في أمريكا عقلية جديدة تنادي بترجمة كل ما كتب باللغة الروسية من مجلات علمية إلى اللغة الإنجليزية وتقديمها للأمريكيين ، وفي الوقت الحاضر نرى الكتب العلمية الروسية وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية وأصبحت تزين المكتبات الأمريكية والأوربية ، ولكن لم تحصل اللغة الروسية على هذه المكانة عن طريق الاحتجاجات والمطالبات بل إنها قد حصلت عليها بعد أن برهنت على أنها جديرة بها .

وهذا ما حدث للغة اليابانية أيضاً ، فهي لم تكن تتمتع بأية أهمية لدى الدول الغربية حتى منتصف القرن العشرين ، إلا أن اليابان قد فرضت سيطرتها في عالم الأجهزة الالكترونية ، مما جعل العلماء الغربيين المعاصرين يحسون بأن بحوثهم في حقل الالكترونات لا يمكن أن تكتمل إلا إذا حصلوا على الأبحاث والدراسات التي وصلت إليها اليابان في هذا المجال . فبدأت الكتب اليابانية العلمية تترجم إلى اللغة الإنجليزية ، وأخذت تتبوأ مكانة مرموقة بين الغربيين ، وبذلك برهنت اللغة اليابانية على أهميتها وحصلت — بالتالي — على مكانتها في الغرب .

بينما الأمر يختلف تماماً فيما يتعلق باللغة الأردية ، فهي عبارة عن ذخيرة

الشعر والشاعرية ، تزخر بالكتب العديدة التي ألفت بأسلوب الخطابة ، وفي العصر الحديث عصر العلوم التقنية قد فقد كل من الشعر والخطابة أهميته ومكانته . فلا تجد فناً من الفنون أنتجت فيه اللغة الأردية كتباً أو دراسات على المستوى الرفيع يشعر الناس بأن أبحاثهم ودراساتهم في ذلك الفن لا يمكن أن تكتملْ إلا إذا اطلعوا عليها . وهل أنجبت الأردية كتباً أو دراسات في مجال الفلسفة أو العلم أو التاريخ أو الاجتماع أو التكنولوجيا لا يمكن غض الطرف عنها إذا أردنا أن نكمل دراساتنا في أحد هذه المجالات ؟ الجواب : لا . وهذا الإفلاس العلمي للأردية هو الذي جعل أصحابها لا يهتمون بها ، فكيف بنا نرجو من الآخرين أن يهتموا بها !

طبقاً للآية القرآنية التي سلف ذكرها ، فإن سر الحياة على هذه الأرض هو أن تكون نافعاً للآخرين ، فلا يحصل في هذه الدنيا على شيء إلا من يعطي ، والمكانة هنا لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق إبراز الكفاءات وليس عن طريق المطالبات والاحتجاجات ، هذا هو النظام الذي أودعه الله في الكون وهو نظام لا يمكننا أن نحيد عنه ، ومن يرغب في إنجاز شيء دون السير وفق هذا النظام فليخرج من عالم الله وليبن له عالَماً آخر وفقاً لرغبته . إن النجاح في دنيا الله مرهون بالسير وفقاً لرضاه ، ولا يمكن إحرازه عن طريق السير حسب الرغبات الشخصية للإنسان .

درس التاريخ :

لقد عرف الدور الإسلامي الأول بالعصر الذهبي (Golden period) وهو العصر الذي يفتخر به المسلمون في العصر الحديث ، فشعراؤهم ووعاظهم يذكرونه بألفاظ رائعة وفضفاضة والكتاب يؤلفون حوله كتباً شيقة تثير الانتباه ، إلا أن الجدير بالملاحظة هو كيف أمكن لأسلافنا أن يبنوا صرح ذلك العصر الذهبي الذي نفتخر به ؟ إنها لطريقة

جاهلية بحتة ، أن يتغذى المرء بالأحداث التاريخية غذاء الفخر ، فالطريقة الإسلامية في دراسة الأحداث التاريخية هي أن تؤخذ منها العبر والدروس . فإذا استطعت أن تربط (Link) بين الواقعة والحقيقة ، فالنتيجة التي تصل إليها هي العبرة ، وأما إذا لم تستطع الربط بين الواقعة والحقيقة فلا يمكنك أن تتغذى منها غذاء العبرة بل تبقى العبرة بالنسبة لك في دائرة الفخر الكاذب فحسب .

إذا درسنا التاريخ في ضوء الحقائق دراسة موضوعية فسوف نكتشف حقيقة مفادها أن العصر الذهبي الذي نحب أن نفتخر به لم يأت بواسطة الاحتجاجات ، ولم ينشأ عن طريق سياسة المطالبة بالحقوق ، بل كل ما في الأمر أن أسلافنا قد برهنوا على أنهم نافعون للآخرين ، والحقيقة أن ألمع العصور وأنجحها هي العصور التي كان فيها المسلمون نافعين للآخرين ، فسمة النفع هذه هي التي ضمنت لهم الوصول إلى قمة الازدهار والرقي .

وفي العصر الحديث تعد أمريكا وروسيا وانجلترا مراكز الحضارات المعاصرة ، إلا أنه كما تعرفون أن هذه الأماكن ليست هي التي نشأت وترعرت فيها الحضارة الحديثة ، بل المناطق التي تمثل مهد الحضارة الحديثة هي كل من الأندلس وصقلية وإيطاليا ، ففي هذه المناطق الساحلية تم إحياء العلوم المعاصرة وبناء أسس الحضارة الحديثة ، ثم امتدت منها إلى الدول الغربية الأخرى . ذلك أن المدنية والعلوم كانت قد وصلت إلى أوربا بواسطة المسلمين ، وقبل بروز بوادر الحضارة الإسلامية في أفق أوربا كانت أوربا تعيش عصراً مظلماً . فالمسلمون هم الذين فتحوا أبواب العلوم على مصراعيها أمام العقل الأوربي ، وهم الذين أوقدوا أول فتيلة للحضارة وسط المجتمع الغربي ، لقد وصل المسلمون إلى أوربا عن طريق البحر عبر أفريقيا حيث أبحرت سفنهم عبر مراكش وأرسوها على الساحل الأندلسي ، كما أبحرت عن

طريق تونس فعبروا البحر الأبيض المتوسط ودخلوا إلى إيطاليا وصقلية ، فزرعوا في تلك المناطق أول بذرة للعلوم والحضارة ، فترعرت وامتدت إلى أوربا الغربية أولاً ثم إلى أمريكا ثانياً .

إنها لحقيقة أن المسلمين هم الذين نقلوا بوادر العلوم والحضارة إلى الغرب ، وكأن العصر الذي بلغ فيه المسلمون قمة الرقي والازدهار ، قد كانوا فيه أكثر نفعاً لأهل الدنيا ، فلا تكاد تطأ أقدامهم بقعة حتى تبدأ ينابيع الحضارة والعلوم تتفجّر من أرضها ، ولا يلبث أن يتحول تاريخها المظلم إلى تاريخ مضيء ، وكأن المد الإسلامي في ذلك العصر كان مثل المياه التي تعيد الحياة إلى أرض جدباء قاحلة .

وقد نشر البروفيسور ديفيز H.W.C. DAVIS في كتابه (انجلترا القرون الوسطى Medieual England) صورة وجهي عملة ذهبية انجليزية قديمة ، وقطعة من هذه العملة محفوظة اليوم بالمتحف البريطاني . ويحمل أحد وجهي هذه العملة كلمة الشهادة بالخط العربي ويحمل الوجه الآخر اسم أوفاريكس Offarex (المتوفي سنة ٧٩٦م) الذي كان يحكم انجلترا في ذلك الوقت ، كما يحمل هذا الوجه اسم الخبير البغدادي المسلم الذي كان قد ضرب القطعة النقدية الأصلية . ويقول البروفيسور ديفيز في شرحه لهذه الصورة : (إنها عملة ذهبية انجليزية سكسونية تقلد الدينار العربي للعام ٧٧٤م) . وهذه شهادة تاريخية تقول بأن مسلمي القرن الثامن الميلادي كانوا على درجة عظيمة من الرقي الصناعي لدرجة أن الملك الانجليزي أوفاريكس كان يأتي بالخبراء المسلمين من بغداد ليضربوا له النقود ، والقطعة النقدية التي ضربت في انجلترا في ذلك الوقت كانت تقليداً للنقد الإسلامي (الدينار) لدرجة أنها كانت تحوي كلمة الشهادة بالخط العربي . ويمكننا أن نتخيل في ضوء هذا هيمنة الحضارة الإسلامية على سائر العالم قبل ألف

سنة من الزمان .

ولقد أخذ المسلمون الطب في باديء الأمر ، من اليونان ، إلا أنهم صاروا أئمة الطب في ذلك العصر . وقد ورد في الموسوعة البريطانية حول ابن سينا أن كتابه (القانون في الطب) يعد من أشهر كتب التاريخ :

The Canon book of medicine, which is among the most famous books in the history of medicine (1/681).

كان الملك روجر الثاني (١٠٩٥ - ١١٥٤م) ملك صقلية يتمتع بمكانة مرموقة بين ملوك أوربا ، وحين احتاج هذا الملك إلى خريطة يبرز فيها موقع سلطنته ، لم يعثر على شخص مؤهل للقيام بذلك سوى الإدريسي الذي ولد في مراكش ، وتلقى تعليمه في المدارس الإسلامية الأندلسية ، وقد قام برحلة إلى آسيا وأفريقيا وأوربا ، وكان يعد ألمع خبير جغرافي في عصره وقد تناولته الموسوعة البريطانية بهذه الكلمات :

All-Idrisi was a close friend and adviser to Roger II, the Norman king of Sicily, at whose court he served as official geographer. Roger invited Al-Idrisi to Sicily to make a map of the world for him (9/198),

« إن الإدريسي كان مقرباً ومستشاراً للملك روجر الثاني ملك صقلية . وقد عمل الإدريسي كخبير رسمي في مجال الجغرفيا في بلاط الملك ، وقد استدعاه الملك روجر الثاني ليرسم له خريطة العالم » .

مسلمو العصر الحديث :

هذا هو وضع المسلمين في العصر الأول ، إلا أن الوضع قد تغير في العصر الحديث رأساً على عقب ، ففي عالمنا المعاصر أصبح المسلمون عالة على الآخرين ، ولم يعودوا نافعين لأهل الدنيا . وصورة المسلمين لدى شعوب العالم المعاصر ، هي أنهم أصبحوا في مؤخرة الصف ويعيشون على

هامش الحياة المعاصرة . إنهم قوم أبرزوا كفاءتهم في ساحة التناحر والمخاصمة ، وصاروا نجماً لامعاً في مضمار التهريب والإرهاب والقمع السياسي ، يقدم لهم قادتهم خطباً جياشة تتسم بالحماسة والشاعرية ، وهم قوم يأخذون دون أن يعطوا شيئاً .

ومثل هؤلاء لا يرجى منهم أي نفع ، ولا يمكنهم أن يحصلوا على أية مكانة وفقاً للقانون الإلـهي .

الإسلام والعصر الحديث

للأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦) كتاب بعنوان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ وقد نشر هذا الكتاب قبل نصف قرن من الزمان . ولقد قرأت مؤخراً مقالاً بمجلة رابطة العالم الإسلامي (عدد إبريل ١٩٨٥) وكان عنوان هذا المقال : (لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا) .

ويمكننا أن نستخلص من هذا أن مسلمي العصر الحاضر يواجهون سؤالاً منذ أكثر من نصف قرن وهو : لماذا تأخرنا عن الشعوب الأخرى في العصر الحاضر ولماذا تقدمت علينا تلك الشعوب ؟ .. ومن غريب الأمر أن اليابان نهضت من خراب الرماد الذري ووصلت أعلى مدارج الرقي خلال نصف القرن هذا بعينه . وقد نشر كتاب في الولايات المتحدة مؤخراً يعترف بهذه الحقيقة ... وعنوان هذا الكتاب : اليابان هي الأولى : (Japan Number One).

والوضع الذي يعاني منه المسلمون في العصر الحاضر لا يعود إلى سبب وهمي بل هو نتيجة لقانون إلٰهي معروف ، وقانون الله لهذا العالم هو أن الجماعة التي تثبت أنها ذات نفع للآخرين هي التي يكتب لها الرقي والثبات ، أما الجماعة التي تفقد صلاحيتها للآخرين فتتدحرج إلى الصفوف الخلفية للأبد . وكان مسلمو القرن الأول ذوي نفع للعالم ، وعظمتهم في الماضي مردها إلى هذه الخاصية ، أما مسلمو العصر الحاضر فلا ينفعون العالم ، ولم تكتب لهم العظمة في العصور الأخيرة . والآية القرآنية التالية تذكر بوضوح هذا المبدأ لرقي الأمم وانحطاطها :

﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ [الرعد - ١٧] . هذه الآية تدلنا على قانون الله للدنيا ، والذي يتمثل في أن لا بقاء ولا ثبات إلا للجماعة التي تبرهن على أنها نافعة للآخرين . أما الجماعة التي تفقد مقدرتها على نفع الآخرين فتفقد كل قيمة لها .

وبينما كتاب الله يبين هذا القانون العالمي بواسطة الكلمات ، نجد من ناحية أخرى أن العالم المادي مظاهرة عملية لهذا القانون ، والآية المذكورة من سورة الرعد تعطينا مثالين : أولهما مثال المطر ، فنرى الزبد يطفو على سطح الأودية والأنهار ولكنه سرعان ما يختفي ويبقى الشيء الذي ينفع الناس وهو الماء ، والمثال الآخر هو مثال المعادن ، فيظهر الزبد فوق المعدن عندما يتم تذويبه بواسطة الحرارة الشديدة ولكنه سرعان ما يختفي ويبقى المعدن الثمين الصافي .

نموذج العصر الذهبي :

من الحقائق التاريخية أن الإسلام في عصره الذهبي قد نال مكانة مرموقة ، واستطاع أن يحتفظ بمكانة القيادة على أصقاع المعمورة قرابة ألف سنة ، ولم يكن الإسلام قد تمتع بهذه المكانة بحكم الصدفة أو بواسطة الاحتجاجات والمطالبات ، بل العامل الوحيد الذي كان من وراء ذلك هو القانون الإلٰهي في الطبيعة والذي يقضي بأنه لا بقاء ولا ثبات لمن لا يبرهن على أنه نافع للآخرين .

إن الإسلام لم يضن على العالم بل قدم له الكثير وبكل سخاء ، وكان مما بذله الإسلام إخراجه العالم من ظلمات الخرافة واللاعقلانية إلى نور العلم

والعقلانية ، وقد اعترف كافة العلماء والباحثين بمسلمة مفادها أن الإسلام هو وحده الذي جعل بوادر العلم والتقنية تلوح في الأفق . وهنا أورد اقتباساً في هذا الصدد لباحث غربي يدعي (بريفالت) :

For althought there is not a single aspect of European growth in which the decisive influence of Islamic culture is not treaceable, nowhere is it so clear and momentous as in the genesis of that power which constitutes the permanent distinctive force of the modern world, and the superme source of its victory- natural science and the scienitfic spirit.

The debt of our science to that of the Arabs does not consist in startling discoveries of revolutionary theories; science owes agreat deal more to Arab culture, it owes its existence.

Briffautl, making of Humanity, P. 190.

« رغم أن كل ما وصل إليه العالم الغربي من الرقي والازدهار نجده رهين الحضارة الإسلامية التي تركت أثرها في كل مجالات الرقي الأوربي إلا أن دور الإسلام العظيم يكمن في خلق تلك القوة الهائلة التي هي أكبر قوة بالنسبة للعالم المعاصر ، ألا وهي خلق الروح العلمية وعلوم الطبيعة . إن علومنا ليست رهينة للعرب في حدود اكتشاف النظريات الانقلابية فحسب بل إنها رهينة للعرب في ذات وجودها أيضاً » .

إن الشرك قد فرض سيطرته على العالم في الزمن القديم ، وتلك مسلمة تاريخية ، حيث كانت كافة الأمم تعبد آلهة متعددة يتعذر حصرها ، وطبقاً للروايات الهندية الموروثة فقد بلغ عدد الآلهة (٣٣٠ مليون إلـٰه) . وجاء في الموسوعة البريطانية تحت عنوان (تعدد الآلهة) :

A widespread phenomenon in religions is the

identification of natural forces and objects as divinities. It is conveneint to classify them as celestial, atmospheric, and earthly. This classification itself is explicitly recognized in Indo-Aryan religion: Surya, the sun god, is celestial: Indra, associated with storms, rain, and battles, is atmospheric; and Agni; the fire god. operates primarily at the earthly level (14/785).

« إن البيئة الدينية السائدة في تأليه القوى الطبيعية والمظاهر المادية ، يمكن تقسيمها بسهولة إلى أقسام ثلاثة : آلهة السماء ، وآلهة الفضاء ، وآلهة الأرض . وقد أقرت بذلك الديانة (الأريائية) الهندية التي جعلت (الشمس) إلٰه السماء . و (إندرا) إلٰه الفضاء ، المسؤول عن العواصف والمطر والحرب ، و (أغنى) إلٰه الأرض المسؤول عما يحدث في الأرض » .

وقبل أن يلوح الإسلام في الأفق كان الإنسان يركع أمام كل شيء ويعبده كإلٰه ، فهو يركع أمام الشمس والقمر والبحار والجبال ، وتوهم آلهة نباتية (Plant dietes) في الشجر ، وآلهة حيوانية (Animal dietes) في الحيوانات ، وكان يتوهم كل شيء معبوداً وإلهاً فيعطيه حظاً من التقديس . وهكذا نرى أن الإنسان كان قد ضيع مكانته في غمرة مظاهر الطبيعة ، إلا أن التحول الذي شهده التاريخ بفضل الإسلام هو الذي أعاد للإنسان مكانته واحترامه .

إن الشرك الذي يعني الخضوع لمظاهر الطبيعة وتأليهها ، كان يمثل عقبة تحول دون ظهور بوادر الرقي والتقدم العلمي ، فمظاهر الطبيعة كانت آلهة يعبدها الإنسان ويقدسها ، فكان ذلك حاجزاً أمام رغبة الإنسان في إخضاع تلك المظاهر للبحث والدراسة أو تسخيرها لفائدته ، فإذا كانت مظاهر الطبيعة شيئاً يعبد ويقدس ، فإنه يستبعد أن تكون موضوع بحث

ودراسة في نفس الوقت ، وهذا هو السبب الأصلي الذي جعل حقل العلم والتقنية يتسم بالجمود في العصور القديمة . والإسلام هو أول من قضى على ذلك ، فأمكن لأول مرة في التاريخ أن يبدأ عصر العلوم الطبيعية ليصل إلى ما وصل إليه من الرقي والازدهار .

لقد صدق أرنولد توينبي حين قال : إن عقيدة التوحيد هي التي يرجع إليها الفضل في خلق عصر العلوم والتكنولوجيا ، إذ أن عصر ما قبل التوحيد كانت تسيطر عليه عقيدة الشرك ، حيث دارت البشرية في فلكها وعبدت مظاهر الطبيعة وخضعت لها ، فلم يكن بوسعها أن تجعلها موضوع بحث ودراسة ، في حين أن ظهور بوادر العلوم الطبيعية على وجه الأرض لا يمكن أن يتحقق إلا إذا اعتبرت مظاهر الطبيعة بأنها مسخرة للإنسان وموضوع بحث ودراسة .

والقرآن يخاطب العقل البشري – بأساليب متنوعة – ويحثه على التفكير في خلق الله وآلائه في السموات والأرض وسبر أغوارها . ونجد في القرآن سبعمائة آية من هذا النوع تحث عقل الإنسان على التفكير في مظاهر الطبيعة ، وإذا أضفنا إليها آيات غير مباشرة لوصل عدد الآيات إلى ألف آية ، كلها توجه عقل الإنسان للتفكير في مظاهر الطبيعة ، فهي صوت جديد يدوي في أفق التاريخ الإنساني الطويل ، لقد كان الإنسان قبل ظهور الإسلام لا يعرف إلا الركوع أمام مظاهر الطبيعة في بيئة مشركة ساهمت في تعطيل العقل ، فجاء القرآن بهذا النداء المدوي ليعلن بأن مظاهر الطبيعة ليست شيئاً يعبد ، بل هي موضوع البحث والدراسة للكشف عن الحكم الكامنة وراءها .

والإسلام لم يعد رسالة فحسب ، بل أصبح – خلال قرن من الزمان – انقلاباً عالمياً فرض سيطرته – أولاً – على عقول العرب وفتح

نفوسهم ، ثم وصل إلى آسيا وأفريقيا وأوربا ، كما قضى على أصنام العرب وفرض سيطرته على الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وخلصها من عقيدة الشرك ، ومن ثم غلب التوحيد على أصقاع المعمورة . هذا العطاء الذي قدمه الإسلام إلى العالم . إنما يعترف به كل منصف يتمتع بالنظرة الموضوعية ، وها نحن نقتطف نصاً من الموسوعة البريطانية فيما يتعلق بهذا الموضوع :

Islamic culture is the most relevant to Europian science.

There was active cultural contact between Arabic-speaking lands and Latin Europe. Conquests by the phrophet's followers began in the 7th century, and, by the 10th, Arabic was the literate language of nations stretching from persia to Spain. Arabic conquerors generally brought peace and prosperity to the countries they settled (16/368).

« إن الحضارة الإسلامية ذات صلة عميقة بالعلوم الأوربية ، فهناك ارتباط ثقافي وثيق بين البلاد الناطقة بالعربية وبين أوربا اللاتينية ، وقد بدأ أتباع النبي فتوحاتهم في القرن السابع الميلادي ، ومع القرن العاشر الميلادي أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم للأمم الممتدة من إيران إلى أسبانيا ، وحيثما حل الفاتحون العرب حلوا وهم يحملون الأمن والرخاء » .

إن الثورة الفكرية التي قامت بواسطة القرآن قد أثارت نشاطاً جديداً لأول مرة في التاريخ ، فقد وجد الإنسان نفسه أمام كون هائل عظيم ، وبدأ يدرك أن مظاهره مسخرة له يمكنه أن يجري حولها التجارب والبحوث من أجل أن يسخرها لخدمته . وبذلك كان الإسلام من وراء النهضة العلمية العقلية ، والنهضة العقائدية الإيمانية أيضاً . فإذا ما وجد المسلمون الله الذي يملك القدرة وجدوا أيضاً الأشياء الأخرى ، فبدأوا يقتحمون كل مجالات الرقي والازدهار ، وكشفوا في طيات الكون ما لم يقدروا على كشفه قبل ذلك . إن كل ما وصل إليه العالم المعاصر من التقدم العلمي والازدهار الثقافي

وغير ذلك من الإنجازات نجد وراءه يداً مسلمة فعالة يرجع إليها كل الفضل .

بعض الأمثلة التاريخية :

التوحيد أكبر حقيقة في هذا العالم ، وأمكن لمسلمي العصور الأولى باختيارهم التوحيد أن يظهروا كجماعة متميزة أمام شعوب العالم فاستقبلتهم شعوب الأرض في كل مكان وانتفع بهم الناس شتى المنافع . ونذكر هنا بعض الأمثلة التاريخية :

١ – كان المسلمون هم أئمة العالم في عالم الطب لعدة قرون منذ تفجر الثورة الإسلامية ، وكانت كبرى الشخصيات من كل أنحاء العالم ترجع إلى الأطباء المسلمين وكانت مؤلفات المسلمين الطبية هي المراجع المعتمدة لتدريس هذا العلم في كل مكان ، وقد أنشئت أول كلية طبية أوروبية بمدينة ساليرنو بإيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي ، وكان المنهج الدراسي لهذه الكلية يشتمل إلى حد كبير على الكتب العربية التي ترجمت إلى اللاتينية . وقد كتبت دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٨٤) في معرض ذكرها لهذا التطور :

The 12th century saw a heroic program of translation of works from Arabic to Latin. It is significant that the earliest medical school in Europe was at Saleron and that it was later rivalled by Nontpellier, also close to Arabic and Jewish sources (368/16).

« إن القرن الثاني عشر شهد برنامجاً بطولياً لترجمة الأعمال العلمية من العربية إلى اللاتينية ، ومن الأهمية بمكان أن أول مدرسة طبية في أوربا كانت بساليرنو ثم ظهرت مدرسة منافسة لها بمدينة مونتبيلييه ، وكانت كلتاهما قريبة من المصادر العربية واليهودية » (ج ١٦ ص ٣٦٨) .

ويذكر البروفيسور حتي :

The surgical part (of Al-Zahrawi) was translated into Latin by Gerard of Cremona and various editions were published at Venice in 1497 at Basel in 1541 and at oxford in 1778. It held its place for centuries as the manual of surgery in Saleron, Montpellier and other early schools of medicine.

P.K.Hitti, History of the Arabs, 1979, p.577

« إن شخصاً من سكان مدينة كريمونا ويدعى (غيرارد) ترجم من العربية إلى اللاتينية الجزء الخاص بالجراحة من كتاب (التصريف لمن أعجز عن التأليف) للزهراوي ، ولقد صدرت طبعات عديدة من هذا الكتاب كانت الأولى منها في البندقية سنة ١٤٩٧ وأخرى في بازل سنة ١٥٤١ وثالثة بأكسفورد سنة ١٧٧٨ . ويضيف حتي قائلاً : إن المدارس الطبية بساليرنو ومونتبيلييه وغيرهما من الأماكن ظلت تستخدم هذا الكتاب كمرجع للجراحة لعدة قرون » .

ولو دخلت مستشفى أو كلية طبية اليوم فستجد أن كل شيء بها مدين للحضارة الغربية ، لكنك لو كنت قد دخلت مدرسة أو مستشفى قبل بضعة قرون فحسب لوجدت أن كل شيء به مدين للحضارة الإسلامية .. وهذا هو الفرق الأساسي الذي طرأ على ماضي المسلمين وحاضرهم .

٢ - الجغرافيا من العلوم الهامة ولها علاقة بكثير من شعب الحياة ، وكان مسلمو العصور الأولى قد اكتسبو مهارة عظيمة في هذا الفن . وكان الإدريسي أكبر عالم جغرافي في عصره ، وقد وصفه البروفيسور حتي بأنه كان « أكثر جغرافي العصور الوسطى امتيازاً » وكان روجر الثاني ملك صقلية في عصر الإدريسي ، وحين احتاج هذا الملك إلى خريطة أعدها له هذا العالم

الجغرافي . ويضيف حتي قائلاً : « كان الإدريسي ألمع مؤلف جغرافي ووضاع خرائط في القرن الثاني عشر ، بل العصور الوسطي كلها ، وكان ينحدر من أسر أندلسية عربية مالكة ، وكان قد تلقى تعليمه بالأندلس » (المصدر السابق ، ص ٥٦٨) .

وتقول دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٨٤) عن الخريطة العالمية التي أعدها الإدريسي للملك روجر الثاني سنة ١١٥٤ أنها كانت تحوي معلومات أفضل عن المناطق الآسيوية التي لم تكن متوفرة حتى ذلك الوقت (ج ١١ ، ص ٤٧٢) . ونجد اليوم البلاد الإسلامية تكتظ بالخبراء الغربيين . وكان المسلمون يمدون العالم بالخبراء في زمن ليس ببعيد ، والمسلمون يأخذون من العالم بينما كانوا يعطونه قبل بضعة قرون فحسب ... فما أغرب هذا الفرق بين الماضي والحاضر .

٣ - تصنع البلاد الغربية نقود البلدان الإسلامية اليوم ولو صنع بلد إسلامي نقوده الورقية أو المعدنية فيتم ذلك بفضل التكنولوجيا التي حصل عليها من الغرب ، وكان المسلمون في زمن من الأزمنة يتمتعون بهذه المكانة على المستوى العالمي . وقد نشر البروفيسور ديفيز **H.W.C. Davis** في كتابه انجلترا القرون الوسطى (**Medieval England**) صورة وجهي عملة ذهبية انجليزية قديمة ، وقطعة من هذه العملة محفوظة اليوم بالمتحف البريطاني . ويحمل أحد وجهي هذه العملة كلمة الشهادة بالخط العربي ويحمل الوجه الآخر اسم أوفاريكس **Offa Rex** (المتوفى سنة ٧٩٦م) الذي كان يحكم انجلترا في ذلك الوقت ، كما يحمل الوجه الآخر اسم الخبير البغدادي المسلم الذي كان قد ضرب القطعة النقدية الأصلية . ويقول البروفيسور ديفيز في شرحه لهذه الصورة : « إنها عملة ذهبية انجليزية سكسونية تقلد الدينار العربي للعام ٧٧٤م » وهذه شهادة تاريخية تقول بأن

مسلمي القرن الثامن الميلادي كانوا على درجة عظيمة من الرقي الصناعي لدرجة أن الملك الانجليزي أوفاريسكس كان يأتي بالخبراء المسلمين من بغداد ليضربوا له النقود ، والقطعة النقدية التي ضربت بانجلترا في ذلك الوقت كانت تقليداً للنقد الإسلامي (الدينار) لدرجة أنها كانت تحوي كلمة الشهادة بالخط العربي . ويمكننا أن نتخيل في ضوء هذا هيمنة الحضارة الإسلامية على سائر العالم قبل ألف سنة من الزمان .

٤ – كان فاسكو داغاما (١٤٦٩ – ١٥٢٤) ملاحاً برتغاليا ، يعزى إليه الفضل في اكتشاف الطريق البحري الذي يربط أوربا بالهند عبر رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، ولكنه أحرز هذا النجاح العظيم بمساعدة الملاح العربي أحمد بن ماجد . وتقول دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٨٤) أن فاسكو داغاما حين وصل إلى أفريقيا ، أعطاه سلطان موزمبيق ملاحين مسلمين ، وهجره أحدهما حين اكتشف أن البرتغالين مسيحيون (ج ٧ . ص ٨٦١) . وكان ابن ماجد ملاحاً ماهراً لدرجة أنه كان قد ألف كتاباً في علم الملاحة وكان هذا الكتاب دليله خلال رحلته هذه .

لقد كان اكتشاف العالم الجديد (أمريكا) من الاكتشافات التي تحققت في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . وينسب هذا الاكتشاف العظيم إلى كريستوفركولمباس (1451-1506)صحيح أن كولمباس الايطالي هو الذي قاد هذه الرحلة الا ان المسلمين هم الذين اعطوه الفكرة بأن يبحر بسفينته عبر المحيط الأطلنطى على أمل أن يصل إلى البر بعد المرور عبر هذا المحيط الضخم الذي لايبدو أن له شواطيء على الجانب الآخر .

ويقول البروفيسور حتي : إن العرب حافظوا على النظرية القديمة القائلة بكروية الأرض والتي لم يكن اكتشاف العالم الجديد ممكناً بدونها ، وكان أبو عبيدة مسلم البلنسي من المنادين بهذه النظرية وقد عاش بالأندلس خلال

النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، وترجمت هذه النظرية العربية إلى اللاتينية في كتاب نشر سنة ١٤١٠ ، واطلع كولباس على هذه النظرية بقراءة هذا الكتاب ، وكانت هذه النظرية تقول بأن الأرض مثل الكمثري ، وأن هناك مركزاً مرتفعاً على النصف الغربي من الكرة الأرضية مماثلاً للمركز المرتفع على النصف الشرقي منها (حتي : المصدر السابق ، ص ٥٧٠) .

ترى ما الذي يمكن أن نفعله الآن ؟

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد كل هذا هو : ما الذي يمكن أن نبادر به الآن ؟ لا شك أن المسلمين الأوائل قدموا خدمات جبارة في مجالات العلوم والتقنية بينما يعيش مسلمو العصر الحاضر على هامش الحياة العلمية والتقنية مقارنة بالأمم الأخرى ، كما فقدوا مكانتهم والاعتبار الذي يجعلهم نافعين لأهل الدنيا من منظور العلم والتقنية الخالص . والمؤسف أن مسلمي العصر الحاضر لم يقرعوا بعد باب العصر الصناعي والتقني بينما اقتحمه الآخرون حتى بلغوا قمة التطور والرقي ، وصاروا كما يقول الفين توفلر : في عصر ما فوق الصناعي[1] (Super-industrial age) .

إلا أن المسلمين هم حملة كتاب سماوي محفوظ ، وبهذا الاعتبار فهم أمة محفوظة أيضاً ، وتقضي هذه الصفة أن تفتح إمكانات جديدة أمامهم رغم انعدام كل الإمكانات في ظاهر الأمر ، وقد سن الله للإنسانية عامة وللأمة المسلمة خاصة قانوناً يقضي بأن الإمكانات الجديدة تكمن في اللاإمكانات ، تلك هي سنة الله التي عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ **إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً** ﴾ الانشراح .

وقد برزت هذه السنة في العصر الحديث بكل وضوح ، فالعلم رغم

---

(١) Alvin Tofler, Future shock, NewYork, 1971

بلوغه قمة الرقي يواجه أعقد المسائل وقد استعصى عليه حلها . والمسلمون حملة الكتاب هم وحدهم يمكنهم أن يقدموا حلاً لهذه المعضلة ، ولكي نتبين عمق هذه القضية نقتطف نصاً من دائرة المعارف البريطانية :

Untill recently, the history of science was a story of success The triumph of science represented a cumulative process of increasing knowledge and a sequence of victories over ignorance and superstiton; and from science flowed a srteam of inventions for the improvement of human life. The recent realization of deep moral problems within science, of external forces and constraints on its development, and of dangers in uncontrolled technological change has challenged historians to a critical reassessement of his earlier simple faith (366/16).

« لقد سجل تاريخ العلم إلى وقت قريب قصة مثيرة من الانتصارات ، وألحق آفاقاً شاسعة متزايدة إلى ملكة العقل البشري ، وفرض هيمنته على الجهل والخرافة ، ورفع مستوى حياة الإنسان بدفق هائل من المخترعات ، غير أن الأزمات الأخلاقية الحادة التي ظهرت كنتيجة لهذه التطورات ، وكذلك التناقض الحاصل في العلائق مع القوى الغيبية ، ومخاطر التقدم التكنولوجي الخارج عن السيطرة كل هذا يتحدى المؤرخين ويحثهم بشدة إلى إعادة النظر في مصير القيم ، والذي اعتقدوه في بداية الأمر أنه أمر بسيط » .

هذا هو الفراغ الذي يفسح المجال أمام المسلمين ليبرهنوا على أنهم أمة نافعة لغيرها من الأمم ، وبالتالي يصبح بوسعهم أن يحرزوا تلك المكانة التي ضيعوها في هذه الحياة . إن العلم في مراحل انتصاراته الأولى ترك أثراً عميقاً في أرواح الكثيرين ، حيث بدأوا يتوهمون أن العلم سيغنيهم عن الأشياء

الأخرى، وأنه سيسد كل احتياجاتهم، ولقد ألفت كتب كثيرة في هذا الصدد، حيث كتب جوليان هكسلي مدافعاً عن وجهة النظر تلك ، في مؤلفه الذي أطلق عليه اسم ، « الإنسان يقوم بنفسه Man stands alone » . ولقد عارضه الباحث كريسي مريسون « ١٨٨٤ – ١٩٤٦ » في مؤلفه الذي أطلق عليه اسم : « الإنسان لا يقوم بنفسه Man does not stand alone » .

وحتى النصف الأول من القرن العشرين كأنت تسيطر على عقل الإنسان دعوى أن العلم يكفي وحده ، إلا أن هذا الادعاء قد تلاشى في النصف الثاني من نفس القرن ، وأصبحت وجهة النظر الشاذة – كوجهة كريسي مريسون – تسيطر على عامة الشعب . تلك هي الحقيقة التي تم الاعتراف بها في النص الذي أوردته عن دائرة المعارف البريطانية .

ما هو الموقف الذي تتسم به عقلية الإنسان الجديد ؟ إننا نجد لها نموذجاً في برتراند راسل (١٨٧٢ – ١٩٧٠) لقد حظي برتراند راسل برغد من العيش ، حيث نشأ في أسرة غنية ، وكان نجماً لامعاً في آفاق العلم والفلسفة ، كما حاز على جائزة نوبل قمة الشرف العلمي في العصر الحديث ، لكنه يرفض الدين ويبحث عن طمأنينة نفسية في غمرة العلوم المادية ، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في رؤية بصيص من نور الطمأنينة ، وفي العثور على راحة نفسية . ولقد أقر راسل في سيرته الذاتية بذلك :

The inner failure has made my mental life a perpetual battle (p. 727).

« إن الفشل الداخلي جعل حياتي العقلية تتورط في حرب مستمرة » .

غاليلو والعلم :

إذا أمعنت النظر في موضوع غاليلو في أي كتاب يتناول العلم فإنك

تعثر على هذا النمط من العبارات :

His use of observation, experiment and mathematics helped lay foundation of modern science.

« إن استخدام غاليلو للمشاهدة والتجربة والرياضيات ساعد على وضع أسس للعلم الجديد » . ترى ما هو الإنجاز الذي يخص غاليلو في مجال العلم ؟ إن إنجازه الخاص هو أنه فصل صفات الأشياء الأولية والتي هي عبارة عن الأبعاد (Dimensions) والوزن (Weight) والتي يمكن قياسها ببساطة ، عن الصفات الثانوية التي تتمثل في الشكل واللون والرائحة ، والتي لا يمكن قياسها ، وفي عبارة أخرى ، أنه فصل الكم عن الكيف .

وبسبب هذا العمل الذي أنجزه غاليلو أصبح بإمكان الإنسان أن يستخدم (المتر) من أجل الحصول على المعلومات الضرورية الموجودة حوله . وهكذا تفتحت أمام الإنسان أساليب تسخير الطبيعة ، ونالت التكنولوجيا حظها من الرقي والازدهار ، وبدأت الابتكارات الجديدة تلوح للإنسان فاستخدمها وانتفع بها ، ولم تمض إلا أيام قلائل على هذا الوضع حتى برزت ظاهرة عدم الطمأنينة الروحية لدى الإنسان ، استوى في ذلك العالم الخبير مع العجوز التي تقطع الخشب لتصنع منها أثاث بيتها رغم أنها تجهل كيمياء الخشب تماماً . وقد أثبتت التجارب والتحقيقات مؤخراً بأن الصفات الظاهرية للأشياء والتي فصلها غاليلو ليجعلها موضوع بحث العلم ظلت معلومات الإنسان قاصرة فيها أيضاً ، فالإنسان لا يجهل (ريح الورد) فقط بل إنه قلما يستطيع إدراك كيمياء الورد أيضاً ، فالشيء الذي اعتبره إنسان العالم المتحضر طيلة ثلاثمائة سنة بأنه علم ثبت أخيراً أنه ليس هو العلم . يقول راسل في سيرته الذاتية :

As is natural when one is trying t ignore a profound casue of unhappiness, I found impersonal reasons for gloom, I

had been very full of personal misery in the early years of the century, but at that time I had a more or less platonic philosophy which enabled me to see beauty in the extra-human univirse. Mathematics and the stars consoled me when the human world seemed empty to comfort. But changes in my philosophy have robbed me of such consolation. Solipsism oppressed me, particularly after studying such interpretations of physics as that of Eddington. It seemed that what we had thought of as laws of nature were only linguistic convention, and that physics was not really concerned with an external world. I do not mean that I quite believed this, but that it became a haunting nightmare, increasingly invading my imagination. Bertrand Russell, Autobiography, Unwin Paperbacks, London, 1978, pp 392-93.

« كما هو طبيعي عندما يحاول المرء أن يتجاهل الأسباب الرئيسية لتعاسته ، وجدت الأسباب الموضوعية لتعاستي فقد عشت بؤساً شديداً في بداية القرن ، غير أنه أثناء ذلك كنت أؤيد الفلسفة الأفلاطونية والتي أعطتني بعض التأمل ورؤية الجمال في العالم غير البشري ، حينما افتقدتها في عالم الإنسان ، لكن التغير الذي طرأ على فلسفتي سلبني حتى تلك الراحة أيضاً . لقد أخذت بنظرية الأنانة(*) وخاصة بعد دراسة التفسيرات الفيزيائية كالتي قدمها ادينغتون . فقد ظهر أن ما اعتقدنا أنه قوانين للطبيعة لا تعدو أن تكون اصطلاحات لغوية ، وأن الطبيعيات هي ليست حقاً ذلك العالم الخارجي . إنني لا أقصد أنني أعتقد بصحة هذه التفسيرات غير أنها تسبب لي كابوساً يؤرق نومي ، ويغزو خيالي » .

(*) الأنانة : نظرية تقول بأن لا وجود لأي شيء غير الأنا (المترجم) .

الطمأنينة الروحية:

إن العالم قد أثبت فشله في الإحاطة بالعالم الخارجي، فأنّى له أن يحيط بالعالم الباطني الذي أعلن العلم إزاءه عن فشله العملي حتى في زمن غاليلو. لقد أخفق العلم في أن يقدم حتى ذلك العزاء الكاذب الذي يحصل عليه الإنسان، في باديء الأمر، على المستوى المادي، ولم يكن بمقدوره أبداً أن يزود الإنسان بالطمأنينة الروحانية والعقلية ولم يدّع بأنه قادر على ذلك. لقد ورد في القرآن: ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ والكتاب المقدس ينص على نفس الأمر في قوله: «إن الإنسان لا يعيش على الخبز فقط بل إنه مع تلك الكلمات التي تخرج من فم الرب» الاستثناء ٨ : ٣. وعبر عنه سيدنا المسيح في قوله: «إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بالخبز ولكنه يعيش بكل الكلمات التي تخرج من الرب» متى ٤ : ٤.

إن الإنسان يحمل في كيانه نفسية خاصة لا تنفك عنه، وهذه النفسية تتطلع دائماً إلى الطمأنينة، لذا فالإنسان في حاجة ملحة إلى أرضية عقائدية وأصول حياة خاصة، بالإضافة إلى حياته المادية التي توفر له الرفاهية والتأنق الظاهري، وكل ما قدمه العلم لأهل الدنيا ليس إلا زخرفة مادية، وليس بوسعه أن يزود الإنسان بعقيدة يمكنه الركون إليها. تلك هي نقطة الضعف التي تركت الكثيرين في متاهات التعاسة والكآبة، فإذا نظرت إليهم من الخارج حسبتهم في قمة السعادة، إلا أن داخلهم قد احترق بنار التعاسة وأرواحهم صارت خاوية تفتقر إلى الطمأنينة.

مشكلة القيم:

إن المشكلة التي أضحت لغزاً بالنسبة للإنسان المعاصر هي ما يطلق عليه وفقاً للمصطلح الفلسفي (مشكلة القيم)، فالمثقف المعاصر تنتابه مشكلة ذات حدين، فهو متعلم وفي نفس الوقت يتسم باللاعلمية، فرغم

أنه مغمور وسط ركام من المعلومات إلا أنه يشعر بأنه يسير في وضع لا يمكنه من أن يفرق بين الخير والشر ، وفطرته هي التي تضيء أمامه الطريق ليفرق بين ما هو خير وما هو شر ، وهذا الاستعداد الفطري لا ينفك عن الإنسان أبداً ولو حاول ذلك ، أما إذا حاول تحديد ما هو الخير وما هو الشر من منظور العقل والعلم فإنه يخفق في ذلك تماماً .

إن (جوزيف وود كرتش) تناول هذه المسألة بالبحث العقلاني والموضوعي في مؤلفه (عقلية العصر الحديث) ، ووصل إلى استنتاج مفاده أن الإنسان رغم ميله – بحكم الفطرة – إلى اليقين بأن هناك هدفاً للحياة كما أن هناك معياراً يقاس بواسطته الخير من الشر ، فإن العلم لا يملك إجابة حتمية على ذلك ، فكل ما يقرره التطور العلمي في هذا الصدد هو أننا في عالم لا توجد فيه للقيم أية « منزلة موضوعية Objective status » . إن الإنسان يحس بحاجة إلى المعايير الأخلاقية التي يمكنه أن يسير حياته وفقاً لها . ووجدانه متعطش للحصول عليها ولكن العالم الذي اكتشفه العلم لا يوجد فيه لفكرة الخير والشر أي مكان ، وكأن الإنسان يبدو فيه حيوان أخلاقي يقطن الكون الذي لا يضم في طياته أي عنصر أخلاقي .

" Man is an ethical animal in a univers which contains no ethical element ".

Joseph Wood krutch, The Modern, New York, 1929,p. 16

إن الإنسان يتطلع إلى معرفة حقائق الأشياء بينما العلم يخبره عن هيكل الأشياء فقط ، والإنسان حريص على معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة : كيف بدأ الكون ؟ وما هو المصير الذي يتجه إليه ؟ بينما العلم يزوده ببعض المعلومات عن المراحل الوسطى بين هذين السؤالين ، والإنسان يريد أن يسبر غور ماهيات الأشياء في حين أن العلم ينبئه عن حقائقها الخارجية فقط ،

ويرغب الإنسان في معرفة ريح الورد بينما يفسر له العلم كيمياء الورد ، والإنسان يريد أن يسبر أغوار عقله وروحه بينما العلم يقدم له التشريحات حول الأجزاء المادية للجسم . وخلاصة القول أن الإنسان يتطلع إلى معرفة الخالق بينما يحدثه العلم عن المخلوق فحسب . هذا هو الأمر الذي عبر عنه باحث غربي ، وبكل حسرة ، بهذه العبارة :

« الشيء المهم غير معروف والشيء المعروف غير مهم » .

The importatn is unkowunable, and the kowunable is unimportant.

وهذا اللون من الفراغ وعدم الطمأنينة يطارد كل إنسان ذو إحساس وشعور في العصر الحديث ، فرغم أن لديهم نفسية رفض الدين إلا أنهم اضطروا للاعتراف بأن التقدم العلمي الذي اعتبروه حلاً لكافة عقد الحياة الإنسانية ، هو في الحقيقة لم يكن كذلك . وقد ألف برتراند راسل كتاباً ضخماً تناول فيه تاريخ الفلسفة الغربية والفكر الغربي ، ونلحظ أن راسل قد اعترف بهذه الحقيقة في آخر كتابه فقال :

(Westren philospohers) confess frankly that the human intellect is anable to find conclusive answers to many question of profound importance to mankind, but they refuse to believe that there is some ' higher ' way of knowledge, by which we can discover truth hidden from science and the intellect.

Bertand Russell, a History of Westren Philosophy, 1979, p,789.

« إن الفلاسفة الغربيين يعترفون اعترافاً سافراً بأن العقل الإنساني ليس بمقدوره أن يعثر عن الإجابة الحاسمة عن تلك التساؤلات التي تعد ذات أهمية

بالغة بالنسبة للجنس البشري ، إلا أنهم يرفضون الاعتراف بأن هناك طريقاً أعلى للمعرفة يمكن بواسطته أن نكتشف تلك الحقائق الخارجة عن متناول يد العلم والعقل » .

إن أكبر هبة يمكن أن نقدمها للإنسان المعاصر هي أن نخبره بأن هناك طريقاً أعلى منزلة يمكن أن نعرف بواسطته ما لا نعرفه ، ألا وهو الوحي الإلهي ، الذي ظل وسيظل محفوظاً إلى الأبد في شكل كتاب يدعى « القرآن الكريم » فالقرآن هو كتاب محفوظ في صورته الأصلية منذ أن أوحى الله به إلى رسوله ، وهو لا يزال يثبت مصداقيته طيلة ألف وخمسمائة سنة ، وقد تناولت هذا الموضوع بالبحث والدراسة في كتابي : (عظمة القرآن) فمن أراد التفصيل فليرجع إليه ..

الشهادة الداخلية :

إن للأحاسيس الأخلاقية والدينية وقعاً كبيراً في النفس الإنسانية ، وقد أثبتت التجارب أن الشعور بالحاجة إلى الدين والأخلاق لا ينفك عن روع الإنسان أبداً ، ناهيك عن كونه داخلاً ضمن خصائص الإنسان الخالصة ، فلا تجد حيواناً ثبت أنه يشعر بالحاجة إلى الأخلاق أو الدين .

الفرد رسل ويلسن (١٨٢٣ - ١٩١٣) عالم شهير من أنصار نظرية « النشوء والارتقاء » ، إلا أنه لا يقول مثل دارون بأن الخصائص الراقية والنادرة في العقل البشري لا يمكن أن تكون إلا نتيجة للاختيار الطبيعي المحض (Natural selection) ويقول أيضاً ما نصه :

The urilitrian hypothesis, which is the theory of natural selection applied to mind, seems inadequate to account for the development of the moral sense. Such being the difficulties with which virtue (or the moral sense) has had to struggle, with so any exceptions to its practice, with so

many instances in which it brought ruin or death to its too ardent devotee, how can we believe that considerations of utility could ever invest it with the mysterios sanctity of the highest virtue- could ever induce men to value truth for its own sake, and practice it regardless of consequences.

« إن الفرضية النفعية التي هي في حد ذاتها تطبيق لنظرية (الاختيار الطبيعي) على العقل يبدو أنها قاصرة عن إعطاء تفسير لنشوء الشعور الأخلاقي في الإنسان ، وإن الشعور الإنساني يواجه أصعب المشاكل في خضم الحياة ، فهو يكافح الحالات الإستثنائية العديدة ويحدث كثيراً بأن من يعمل تحت شعور أخلاقي يلاقي الموت أو الدمار ، فكيف لنا السبيل إلى اليقين أن اعتبار النفعية يمكن أن يخلق في الإنسان القداسة الغامضة من أجل قيم عليا ، وهل يمكن للنفعية أن تخلق في الإنسان مزاجاً ينظر به إلى الحق على أنه مطلوب ومقصود لذاته وبالتالي يبدأ في العمل دون مراعاة النتائج » .

يقول الفريد هايل مؤلف كتاب : (الكون العاقل) في خاتمة بحثه القيم :

If the Earth is to emerge as aplace of added consequence, with man of some relevance in the cosmic scheme we shall need to dispense entirly with the philosophy of opportunism. While it would be no advantage I believe to return to older religious concepts, we shall need to understand why its that the mysterious sanctity described by wallace persists within us, beckoning us to the Elysian fields, if only we will follow.(*)

(*) Fred Hoyle, The Intelligent Univers. Michael Joseph, London, 1983 p. 251

« إن الأرض إذا كان لها أن تظهر للعيان بمزيد من الأهمية ، والإنسان إذا كان له أن يجد مكاناً في التصور الكوني ، فلا بد من أن نترك كلياً فلسفة النفعية ، رغم أنني أومن أن التقهقر والعودة إلى الأفكار الدينية من الطراز القديم غير مفيد إلا أنه يلزم علينا أن نفهم كيف تتواجد بداخلنا القداسة الغامضة ، طبقاً لتفسير ويلسن ، وتدعونا إلى عالم فردوسي إذا ما اتبعناه » .

الحقيقة أن الدين داخل في بنية كيان الإنسان ، فلا يمكن له أن يحيا بمعزل عن الدين ، وإنسان اليوم بحاجة إلى الدين بنفس الدرجة التي كان عليها الإنسان القديم ، ناهيك عن اليأس الذي وصل إليه بعد تجربة العلم والذي جعله أكثر اشتياقاً وتلهفاً إلى الدين . ولكن المشكلة التي يواجهها الإنسان المعاصر هي أن ما يجده أمامه باسم الدين ما هو إلا بعض الصور المشوهة للدين ، ولا يمكن أن تنسجم الأديان المشوهة مع فطرة الإنسان النقية ، والإنسان المعاصر حين يضطر إلى التفكير في الدين نزولاً تحت إلحاح الفطرة وتعشطها إليه ، فإن صوراً من الأديان المشوهة تلوح أمام ناظريه ، فيبتعد عن الدين مرة أخرى بعد أن اقترب منه .

والإسلام هو الدين الوحيد الذي ظل محفوظاً من تلك التشوهات والتحريفات التي نلحظها في أديان أخرى ، وإن الدين الذي تتعطش إليه الفطرة الإنسانية هو الإسلام فقط . ومن المؤسف أن المسلمين قد جعلوا دينهم عنواناً للمشاجرات المصطنعة ، فلم يعودوا يقدمون الإسلام للعالم ، وإذا قدموه فإنهم يقدمونه في الصورة التي صنعتها مخيلتهم وهي صورة غير أصلية للإسلام . فلو تم إظهار الإسلام أمام العقلية المعاصرة في صورته الأصلية ، فإنها سوف تحصل على ما تتطلع إليه وسوف تروي ظمأها . إن المسلمين رغم أنهم غير قادرين على مواكبة العصر فيما يتصل بالعلوم والتقنية غير أنهم بمثابة الأئمة فيما يتصل بالعقيدة – نظرية الحياة – وبوسعهم أن

يزودوا العالم بشيء هو في أمس الحاجة إليه ، وهو الدين الخالص الذي أنعم الله به على البشرية ، الدين الذي يمكن أن تبني عليه صرح حياتها بكل ثقة . هذا هو المنصب الذي لا يزال شاغراً ينتظر المسلمين ليثبتوا على أنهم نافعون لأهل الدنيا . ومن تم يمكن أن يبرهنوا على أنهم جديرون بالثبات والبقاء ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ .

الإسلام والعلم

ـ ١ ـ

إن بعض الناس يقولون : إن سبب تخلف المسلمين هو دينهم الذي يقف حجر عثرة أمام تحصيلهم العلمي ، فهو يثبط هممهم أو لا يحثهم على مثل هذا العمل على أقل تقدير . إن هذا القول ليس له أساس من الصحة ، فنحن نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الناس — في صراحة — إلى التنقيب والبحث العميق في أسرار الكون ، كما نجد في السنة روايات عديدة عن الرسول محمد ﷺ تحث الناس على ذلك أيضاً ، وإذا كان هذا هو شأن التعاليم الواردة في كتب المسلمين المقدسة فيما يتعلق بالبحث العلمي والكشف عن أسرار الكون ، فلماذا لم يوجّه المسلمون اهتمامهم إلى دراسة الطبيعة والكشف عن أسرارها ؟ ونحن نعلم أن نتيجة تلك الدراسة هي الحصول على المعرفة ، لاستخدامها في الأعمال الدنيوية ، وهو ما يعبر عنه اليوم بالعلم ، كما أن هناك نتيجة أخرى وهي النتيجة العظيمة لتلك الدراسة والبحث ألا وهي اكتشاف الخالق في خلقه وبديع صنعه .

إن تاريخ الإسلام يتناقض تماماً مع الادعاء القائل بأن الإسلام هو العقبة الأولى أمام البحث والتحصيل العلمي ، بل إننا نجد عكس ذلك تماماً ، حيث يشهد التاريخ أن الحقبة الأولى للإسلام قد شهدت تقدماً عظيماً في فروع مختلفة من العلم والمعرفة ، ففي الوقت الذي تتقدم فيه أوربا ببطء شديد كان المسلمون قد حققوا تقدماً ملحوظاً في مختلف المجالات ، وقد اعترف برتراند رسل بتلك الحقيقة في هذه العبارة :

Our use of the phrase " the Dark ages " to cover the period, from 600 to 1000 marks our undue concentration on western Europe. In china, this period includes the time of the Tang dynasty the greatest age of Chinese poetry, and in many other ways a most remarkable epoch. From India to Spain, the brilliant civiliation of Islam flourished. What was lost to Christendom at this time was not lost to civilization, but quite the contrary.

Bertrand Russell, A History of Western Philosophy, p, 395

« إن استخدامنا لعبارة : (العصور المظلمة) لتغطية الفترة الزمنية ما بين القرن السادس والقرن العاشر يشير بوضوح إلى تركيزنا المفرط على أوربا الغربية . فالصين مثلاً – في عهد السلالة الحاكمة (TANG) مرت بأعظم عصورها الشعرية ، وأعظم العصور الجديرة بالذكر هي تلك التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية الرائعة التي امتدت من حدود الهند شرقاً إلى أسبانيا غرباً ، وهو ما فقدته أوربا المسيحية آنذاك » .

تجاوزوا عصرهم :

إن الانجازات التي تحققت في العصور الوسطى على أيدي العلماء المسلمين والأطباء منهم خاصة ، كانت مدهشة حقاً نظراً لمجالاتها الواسعة ، لقد تجاوز الطبيبان الرازي (٨٦٥ / ٩٣٢) وابن سينا (٩٨٠ / ١٠٣٧) عصرهما ، حيث نال كتاب : (القانون) لابن سينا شهرة واسعة ، وظل يدرس في جامعات الطب في العالم حتى نهاية ١٦٥٠م ولعل أعظم مساهمة للطب العربي كانت في مجال الكمياء وعلم المستحضرات الطبية ، فكثير من العقاقير الطبية المستخدمة حديثاً هي من أصل عربي ، وكذلك بعض العمليات الكيميائية كعملية التقطير والتكرير ، وإنه لمن الصعب جداً أن نفهم كيف تم تحقيق مثل هذه الإنجازات في زمن تعرّفه الموسوعة البريطانية بهذه العبارات :

The greatest contribution of Arabian medicine was in Chemistry and in the knowledge and preparation of medicines; many drugs now in use are Arabic origin, as also are such processes as distillation and sublimation. Often the chemistry of that time was mainly a search for the philosopher's stone, which supposedly would trun all common metals to gold. Astronomers were astrologers and chemists were alchemists. It is, therefore, surprising that, despite all this, the physicians of the Muslim empire did make a noteworthy contribution to medical progress.

« كانت كيمياء ذلك الزمان غالباً ما تتمثل في شيء أساسي واحد وهو البحث عن فلسفة الحجارة الكريمة والتي تفترض تحويل كل المعادن المعروفة إلى ذهب ، فعلماء الفلك كانوا عبارة عن منجمين والكيميائيون كانوا هم الخيميائيون ، أي الذين يشتغلون بالكيمياء القديمة ، وبهذا فإنه من المدهش – رغم هذا كله – أن أطباء العالم الإسلامي قد أسهموا إسهاماً رائعاً في تقدم الطب « الموسوعة البريطانية ١١ – ٨٢٨ » .

ولقد اعترف كافة المؤرخين في العالم بهذه الحقيقة ، ولكن ليس هذا كل ما في الأمر ، بل علينا أن نتقدم خطوة إلى الأمام لنضيف أن العلوم الحديثة هي من صنع الإسلام ، ولا نعني بذلك أن الإسلام قد أنزل لغرض علمي ، ولكن ليس هناك أدنى شك في أن الثورة العلمية هي نتيجة ثانوية (By-product) لثورة الإسلام . ولقد اعترف بريفولت بهذه العلاقة بين الإسلام والعلم حين قال : « إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس في اكتشافه لنظريات ثورية مبتكرة ، بل يدين هذا العلم للثقافة العربية بأكثر من ذلك ، إنه يدين لها بوجوده أيضاً . إن العالم القديم – كما رأينا – هو عالم ما قبل العلوم ، فعلوم الفلك والرياضيات عند اليونان مثلاً كانت عناصر غريبة لم تجد لها مكاناً ملائماً في الثقافة اليونانية . لقد نظّم اليونانيون المذاهب

ووضعوا النظريات غير أن طرق البحث المتأنية ومناهج البحث العلمي الدقيقة والملاحظة العميقة والبحث التجريبي ، كلها كانت غريبة على المزاج اليوناني ، باستثناء بعض المحاولات المحدودة في الإطار العلمي والتي كانت تجري في الإسكندرية الهلينية في بيئة تقليدية قديمة . أما ما نسميه بالعلم الحديث فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح البحث الجديدة ، والمناهج المستحدثة في البحث والاستقصاء ، والمنهج التجريبي ، وتطور الرياضيات في شكل لم يكن يعرفه اليونانيون من قبل ، وقد تّم تقديم ذلك كله للعالم الأوربي عن طريق العرب » .

The debt of our science to that of Arabs does not consist in startling discoveries of revolutionary theories; science owes a great deal more to Arab culture, it owes its existence. The ancient world was, as we saw, per-scientific. The Astronomy and Mathematics of the Greeks were a foreign importation never thoroughly acclimatized in Greek culture. The Greeks systematized, genralized, and theorized, but the patient ways of investigation, the accumulation of positive knowledge, the minute method of science, detailed and prolonged observation and experimental inquiry were altogther alien to the Greek temperament. Only in Hellenistic Alexandria was any approach to scientific work conducted in the ancient classical world. What we call science arose in Europe as a result of a new spirit of inquiry of new mehtods of investgation, of the methold of experiment, observation, measurement, of the development of Mathematics in a form unknown to the Greeks. That spirit and those methods were introduced into the European world by the Arabs.

Briffault, Making of humanity, p. 190

عبادة الطبيعة :

من الحقائق التاريخية أن الإسلام هو صانع العلم الحديث .. فما هو هذا العلم يا ترى ؟ إنه ببساطة علم على دراسة الطبيعة . فمنذ زمن بعيد والإنسان يعيش على هذه الأرض ويراقب طبيعتها ولكنه تأخر في دراسة الطبيعة والكشف عن أسرارها ، فما هو السبب في ذلك يا ترى ؟ إذ أن معظم الكشوفات العلمية قد ظهرت منذ ألف سنة فقط ، وكان من المفترض أن تظهر إلى الوجود منذ ملايين السنين !

الجواب على ذلك السؤال هو أن عقيدة الشرك في الزمن القديم كانت مانعاً للإنسان من دراسة الطبيعة واكتشاف مصادر الطاقة الكامنة فيها ، وهي عبارة عن عبادة الطبيعة وتقديسها ، كما يصفها توينبي حين قال : « إن الإنسان القديم لم تكن الطبيعة بالنسبة إليه مجرد مصدر للكنوز والأحجار الكريمة ، وإنما كانت إلهه المعبود ، فالنباتات التي كانت تنمو وتزدهر والحيوانات التي تطوف وتتجول على سطح الأرض والمعادن المدفونة في باطن الأرض كلها كانت بالنسبة إليه معبودة ومقدسة ، وكذلك الظواهر الطبيعية كالشلالات والأنهار والبحار والجبال والزلازل والرعد والصواعق » .

For the ancient man, Nature was not just a treasure-trove of natural resources, but a goddess, Mother Earth. And the vegetation that sprang from the earth, the animals that roamed the earth's surface, and the minerals hiding in the earth's bowels, all partook of nature's divinity, so did all natural phenomenon-earthquakes and lightening and thunder.

كل شيء — في الأرض كان أم في السماء — الأشجار والنجوم والشمس وغير ذلك مما يبدو خارقاً للعادة ، كان قد اصطبغ بالألوهية ،

وذلك هو قوام وجوهر الوثنية (Paganism) وكانت أفكار من هذا النوع هى السائدة والمسيطرة على التفكير البشري في جزء كبير من أرجاء المعمورة قبل الإسلام ، حيث كانت الطبيعة بالنسبة لإنسان العصور القديمة موضوع تقديس ، فكيف يمكن أن تصبح موضوع بحث ودراسة ؟ وهنا يكمن السبب الحقيقي وراء نفور الإنسان القديم من دراستها ، فإعطاء الطبيعة منزلة الألوهية قد دفع بالإنسان إلى أن يتخذها معبودة ، وبذلك أصبح هذا التقديس هو العائق الأول أمام البحث والدراسة ، وبالتالي بات من المستحيل تسخير الطبيعة لأهداف حضارية . ولقد اعترف أرنولد توينبي بأن عبادة الطبيعة التي سادت العصور السحيقة قد أبطلت لأول مرة عن طريق التوحيد ، إذ أن عقيدة التوحيد قد دلت الإنسان على فهم وإدراك أن الطبيعة أبعد من أن تكون الخالق ، فهي مجرد مخلوق معد للتسخير والبحث وليس للتقديس والعبادة .

إن مفهوم التوحيد الذي ظل مهجوراً لفترة من الزمن كان مصدر انبعاثه الإسلام ، والثورة التي وقعت في فكر الإنسان الحديث هي أثر مباشر من آثار الإسلام . لقد جاء جميع الأنبياء برسالة تشتمل على التوحيد الخالص ، وكان كل نبي في كل زمان يدعو إلى التوحيد الخالص ، ولكن لم يتيسر لهم على مدى التاريخ البشري تفجير ثورة على هذا المستوى الذي حدث مع نبي الإسلام ، ولعل هذا هو السبب الذي حرم الإنسان من الاستمتاع بثمار التوحيد حتى ظهر الإسلام . لقد دعا جميع الأنبياء إلى التوحيد الخالص إلا أن أتباعهم قد أخفقوا في الحفاظ على تلك التعاليم في شكلها الأصلي ، وكان خطؤهم الأساسي هو خلط التوحيد بالشرك ، فمثلاً : كان عيسى عليه السلام قد بين عقيدة التوحيد من جديد إلا أن أتباعه من بعده حرفوا هذه العقيدة ، وألبسوا عيسى نفسه ثوب الألوهية . إن هذه العقيدة المحرفة قد وقفت عائقاً أمام التقدم العلمي بشتى الطرق ،

فحين قام بعض علماء الفلك بإجراء أبحاث على النظام الشمسي توصلوا إلى استنتاج علمي خلاصته أن الأرض تدور حول الشمس ، لكنهم واجهوا معارضة شديدة من قبل رجال الدين والكنيسة ، ولعل السبب في ذلك يكمن من ضلال عقائدهم ، فإذا كانت الأرض حقاً هي المكان الذي ولد فيه ابن الله ، فإن هذه النظرية بالنسبة لهم شيء لا يمكن مجرد التفكير فيه ، لأن ذلك يعني أن الأرض هي عبارة عن كوكب صغير فحسب بدل أن تكون مركز المجموعة الشمسية ، وبدافع الإخلاص وحماية لهذه العقيدة المحرفة رفضوا الاعتراف بالحقيقة العلمية .

دور الإسلام :

لم يذهب الأنبياء السابقون في القديم إلى أبعد من الدعوة للحق ، ولم يتمكنوا من الوصول إلى مرحلة إحداث ثورة على أساس التعاليم التي جاءوا بها ، بينما جعل نبي الإسلام وأصحابه التوحيد فكرة حية ، فكانوا أول مجموعة من نوعها قد أحدثت مثل هذا الازدهار في التاريخ ، وكانت الخطوة الأولى التي قاموا بها هي استئصال صورة الشرك والخرافات من أنحاء الجزيرة العربية ، وبنوا حياتهم من جديد على أسس التوحيد الخالص ، ثم نهضوا لتغيير شاكلة الشرك إلى شاكلة التوحيد في كافة أرجاء المعمورة ، فحطموا كافة الأصنام والمباني التي كانت تحميها في كل مكان دخلوا إليه فاتحين في آسيا وأفريقيا وغيرها . وهكذا أعطوا للتوحيد المكانة اللائقة به على المستوى العالمي ، وهذه حقيقة قد اعترف بها المستشرقون أيضاً ، يقول مايكل هارت في كتابه : (المائة) "The hundred" الذي نشر في نيويورك ، عن رسول الإسلام : « إنه الإنسان الوحيد الذي حقق أعظم نجاح في التاريخ على المستوى الديني والدنيوي » .

إن ثورة التوحيد العالمية التي قام بها الإسلام قد قضت على عصر

الخرافة بشكل نهائي وأقصت الظواهر الطبيعية من مكانها كمعبود للإنسان ، كما أصبح كل شيء مخلوقاً فحسب ، وهذا ما تؤكده الموسوعة الأمريكية المشهورة عن الإسلام ، وكان مما ورد فيها : « إن ظهور الإسلام قد غير مجرى التاريخ البشري » . ولعله بعد إقصاء الطبيعة من مكانها أخذت دورها الحقيقي كموضوع للبحث والاستكشاف ، وذلك هو التقدم الذي بدأ خطواته الأولى في المدينة في القرن السابع الميلادي ثم وصل إلى المراكز الكبرى في الدولة الإسلامية كدمشق وبغداد وأخيراً عبر البحر ودخل إلى أسبانيا وصقلية وتوغل حتى بلغ إيطاليا وفرنسا ، وهكذا واصل التقدم سيره عبر التاريخ حتى وصلت الثورة العلمية الحديثة إلى مرحلة النضج . إن الثورة العلمية الحديثة تعد أوج الثورة الإسلامية .

مسلمو اليوم :

قد يثار سؤال هنا ، وهو كيف أصبح مسلمو اليوم متخلفين كثيراً في مجال العلوم الحديثة ، وهم أتباع ذلك الإسلام الذي درس العلم وقدمه للعالم في مراحله الأولى ؟ ولعل السبب الجوهري لذلك هو أن الثورة العلمية التي جاء بها الإسلام في مراحله الأولى قد انتقلت إلى الغرب عبر أسبانيا ، حتى استطاع الغرب دفع عجلة التقدم العلمي ، واستمر ذلك في أوربا الغربية بعد الحروب الصليبية رغم أن جزءاً كبيراً ما زال تحت سيطرة المسلمين السياسية آنذاك .

إن التطورات الأساسية الكبرى التي حققها المسلمون في المجال العلمي في مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية قد أخذت في النهاية شكلاً ملموساً في انتصاراتهم في الحروب الصليبية ، تلك الحروب التي استمرت حوالي مائتي سنة (١٠٩٥ - ١٢٧٠) وقد تحالف فيها الأوربيون على مهاجمة المسلمين ، واسترداد أراضيهم المقدسة ولكن بدون جدوى . وقد كتبت إحدى

الموسوعات حول هذا الموضوع تقول : « لقد تمت تلك المغامرات عن طريق التضحية بملايين من البشر وبكميات هائلة من الكنوز ، ورغم ذلك كله ظلت القدس في أيدي (الكفار) » . لقد كانت الحروب الصليبية تعني الغلبة الكاملة للمسلمين ، والهزيمة الساحقة للمسيحيين في أوربا . ولكن من التناقضات العجيبة أن ذلك النصر لا يعد فوزاً عظيماً للمسلمين ، بل ثبت - عكس ذلك - أنه هزيمة كبيرة لهم ، والمسيحيون رغم هزيمتهم الساحقة كانوا هم أعظم المنتفعين بها ، وذلك بسبب وقوع المسلمين في شباك الفخر والغرور المفرط لما حققوه من انتصارات ، وبذلك ظلوا راضين على أنفسهم وعلى ما وصلوا إليه غاية الرضا ، فأهملوا قضية عدوهم ولم ينتبهوا إلى تحركاته ، فكان ذلك الرضا وتلك الطمأنينة الناتجان عن النجاح والغلبة كافيين لإعاقة وتحطيم كل الجهود التقدمية التي وصلوا إليها .

ومن جهة أخرى فإن المسيحيين قد أفادوا كثيراً من هزيمتهم ، وبدأوا يعيدون النظر في أنفسهم ، فظهر لهم ضعفهم وحاجتهم إلى تفادي تلك العقبات ، وبمزيد من الوضوح : كان أصحاب تلك النظرية ينادون بتعلم اللغة العربية لغة المسلمين ، وترجمة جميع الكتب المهمة إلى اللغة اللاتينية ، وسرعان ما توسعت هذه الحركة ووجدت لها أتباعاً قاموا بترجمة معظم كتب علماء المسلمين إلى اللغة اللاتينية ، اللغة الرسمية في أوربا آنذاك ، مما دفع عملية التقدم ، بينما ظل المسلمون يستمتعون ويفتخرون بانتصاراتهم الباهرة ويضيعون جهودهم وإمكانياتهم بدون جدوى . لقد اعتبرت أوربا المسيحية ذلك الأمر تحدياً ، وأخذته مأخذ الجد ، فقامت بحملات من نوع جديد سمتها (الصليبية الروحية) ووضعت على عاتقها هذه المهمة وانشغلت بها بكل همة وتفاؤل وسخرت كل طاقاتها لها ، حتى حققت تقدماً باهراً قائماً على أسس متينة ، واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ، فثبت بذلك بما لا يدع مجالاً للشك أن أوربا قد تقدمت وتركت من ورائها المسلمين والأمم

الأخرى في المؤخرة . وظلت أوربا تقود العالم في مجالات العلوم الحديثة والتقنية ، فأحلت الميكنة محل العمل اليدوي ، وصنعت الأسلحة بعيدة المدى والتي تختلف تماماً عن الأسلحة القديمة تلك التي لا يتهيأ القتال بها إلا يداً بيد ووجهاً لوجه .

وبذلك تمكنوا من السيطرة على العالم براً وبحراً وجواً ، فأحلوا الآلة محل الإنسان والحيوان في العمل ، والبخار بدل الأشرعة ، كما رفعوا الأشياء الثقيلة وجعلوها في الهواء واستخدموها للطيران في الجو ، وعن طريق هذه القوة البرية والبحرية والجوية أصبح الغرب قوة لا يمكن للمسلمين مقاومتها بكل ما أوتوا من عتاد وثروات ، فدخل الغرب للعالم الإسلامي بأحدث ما يمكن من عتاد ومعدات ، وفي المقابل كان المسلمون يعيشون حالة من الجمود ، فعجزوا عن مواجهة هذا التحدي أو مواكبة التقدم . وبذلك تمكن الغرب – بطريق مباشر أو غير مباشر – من إحكام السيطرة على العالم الإسلامي كله وتطويقه في وقت قصير .

موقف سلبي :

لقد تأخر المسلمون كثيراً في العصور الماضية بسبب جمودهم ورضاهم بالوضع الذي وصلوا إليه بعد أن تحقق لهم الانتصار الباهر على المسيحية على المستوى السياسي . وفي العصر الحديث أخذ هذا الانحطاط والتأخر شكلاً آخر ، فالانتصار السياسي الذي حققه الغرب على العالم الإسلامي منذ عصر الاستعمار وحتى الآن قد جلب معه رد فعل سلبي للمسلمين ضد أعدائهم ، بحجة أن الغرب قد سلب منهم مجدهم وفخرهم ، فحقدوا عليه وحملوا الكراهية والازدراء له ، وبسبب هذه النفسية السلبية – أيضاً – فإنهم لم يكتفوا بمعارضة الأمم الغربية والوقوف في وجهها فحسب ، بل امتد الأمر إلى رفض لغاتهم وعلومهم أيضاً ، وهذه الحالة ما زالت قائمة حتى الآن وعلى

نطاق واسع .

لقد ضاع القرن كله طوال فترة الاستعمار في المواجهة ، ولكن بدون جدوى ، إذ واصل المسلمون احتقارهم للأمم الغربية وشنوا ضدهم الحروب تلو الحروب ، التي انتهت بتقديم الخسائر والتضحيات الجمة بسبب عدم الإعداد الكافي من قبل المسلمين ، ومن جانب آخر نرى باقي الأمم قد تعلمت علوم الغرب ولغاته ، فاتسعت بذلك الفجوة بين المسلمين وباقي الأمم . فمثلاً حدث في الهند أن كتب (المستر كولديب ناير) يقول : « إن المسلمين قد تخلفوا مائتي سنة في مجال التعليم مقارنة بأبناء الهندوس » . ورغم أن المستر كولديب قد بالغ إلا أنه لزاماً علينا أن نعترف بأن المسلمين قد تخلفوا ما يقرب من مائة سنة على الأقل .

إن العلوم التي نشأت وتطورت على أيدي الغرب لم تكن في مجال العلوم الطبيعية فحسب ، بل كانت أساساً لكافة أشكال التقدم والرقي في العصر الحديث أو ما يعرف بقوة العصر ، فكل الأمم التي صرفت اهتمامها إلى هذه العلوم قد حققت التقدم والرقي ، فأصبحت الأمم الغربية ومن اقتفى سبيلها أعلى وأرفع مقاماً في الثقافة والحضارة من المسلمين . وفي نفس الوقت كان قد ظهر (السيد أحمد خان) وكثير من المصلحين المسلمين ، الذين تأثروا للحالة السيئة التي وجدوا عليها إخوانهم من المسلمين ، فبدأوا ينادون - بكل قوة - باتباع الغرب واللحاق بهم ، ولكن طريقة تعاملهم مع هذه المسألة أوقعهم في خطأ ثالث وهو انبهارهم بالحضارة الغربية وبريقها الخلاب ، فلم يتمكنوا من التعمق في فهم حقيقة ومصدر هذه الحضارة ، ولم يدركوا مصدر هذه القوة التي يتمتع بها الغرب وكيفية الحصول عليها ، فانطلقوا نحو ثقافتهم بدل علومهم التي كانت المصدر الحقيقي لهذه القوة الجديدة . وهكذا حتى بعد أن دعوا المسلمين إلى اللحاق بالغرب فشلوا في

الإفادة منهم . على سبيل المثال : عندما سافر (السيد أحمد) إلى بريطانيا ، كانت الهدية التي اختارها وأحضرها معه (أريكة صوفية) بدلاً من بعض الكتب العلمية أو الآلات الحديثة التي كان من الممكن أن تفيد المسلمين في الهند . وهكذا حتى بعد تأخرهم الهائل في دخول دنيا العلم وقعوا في خطأ كبير حين أعطوا الفلسفة والآداب والفنون والثقافة الغربية الأهمية القصوى بدل العلوم .

خلاف لفظي :

وهكذا وفي وقت متأخر أدرك المصلحون المسلمون الحاجة الماسة لنشر العلوم الحديثة ، وحاجة المسلمين إلى تعلم علوم الغرب ، واستناداً إلى بعض النصوص من القرآن والسنة أكدوا على اهتمام الإسلام بالعلم ، وبدل أن يصلوا إلى رأي حاسم في القضية ثار خلاف بين علماء الدين والعلماء الآخرين ، فرأى علماء الدين أن الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذكر العلم والذي أكد النبي على تحصيله إنما يقصد به علوم الدين وليس العلوم الدنيوية . أما المصلحون الآخرون فقد أكدوا على أن ما ورد من مادة العلم والدراسة في النصوص القرآنية ونصوص السنة إنما يشير إلى العلم بفرعيه الديني والدنيوي . لقد بدأ هذا الخلاف منذ قرن تقريباً ، ولم تظهر حتى الآن مؤشرات تدل على الوصول إلى حل في هذه القضية . والحقيقة أن النصوص القرآنية التي تتناول موضوع العلم إنما تحتمل التفسيرين ، ولكن الجدير بالاهتمام في هذا الصدد ليس أن تتبنى جماعة الرأي الأول أو تتبنى أخرى الرأي الثاني بل المهم هنا هو ألا يستخف الجميع بالعلوم الحديثة وألا يغفلوا عنها ، ربما كانت العلوم موضوع خلاف وجدال محتدم ، ولكن أخذها بعين الاعتبار أمرٌ هام بالنسبة للمسلمين وسائر الأمم والشعوب.

ومن جهة أخرى فإننا نجد آية قرآنية تؤكد على أهمية اكتساب العلوم

الحديثة بل ترفعها إلى مستوى الفرض ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ [الأنفال : ٦٠] . لقد أمرنا الله في هذه الآية بإعداد القوة لإرهاب الأعداء ، وأمر القوة وإعدادها يعني – بلا ريب – كل ما يمنح القوة للآخذين بأسبابها ، ويختلف ذلك باختلاف الزمن فيمكن أن يكون الفكر هو القوة في زمن ما ، ويمكن أن تكون الأسباب المادية هي القوة في زمن آخر ، ويمكن أن يكون كل من الفكر والأسباب المادية قوة في زمن ما ، وهكذا يختلف الأمر باختلاف الزمن .

ومن الحقائق الثابتة أن دراسة وتعلم العلوم الحديثة هي قوة العصر لا سيما في أيامنا هذه ، والأمم المتقدمة في مجال العلم والتكنولوجيا هي التي تملك القوة الحقيقية مقارنة بالدول المتخلفة عن ركب التقدم ، والواقع الذي لا مناص من قبوله هو أن الأمة التي تتمتع بالقوة المرهبة والمؤثرة في مقابل الآخرين هي تلك التي اكتسبت العلوم الحديثة وأخذت بأسبابها ، وإذا لم نجد التأكيد على تعلم تلك العلوم في الآيات التي تناولت موضوع العلم فإننا سنجدها حتماً في آيات أخرى تؤكد على أهمية تحصيل المسلمين لأسباب القوة وضرورة إعدادها . وسواء أخذ المسلمون بالآيات التي تدعوا إلى العلم أو الآيات التي تحث على الأخذ بأسباب القوة ، فإن الأمر لا يختلف ، لأن الحكمة من وراء تلك الآيات هي أن يأخذ المسلمون على عاتقهم مهمة خلق الظروف والأحوال التي تساعد على نشر العلوم الحديثة بين صفوف الأمة وأن يستمروا على ذلك .

الوعي العلمي :

إن السبب الرئيسي وراء تخلف المسلمين في مجال العلم يكمن في عبارة واحدة ، هي « غياب الوعي » . وكما هو الحال لطبقة « ملاك الأراضي »

في الهند الذين تمت إزاحتهم وإنزالهم إلى مستوى أدنى بسبب نقص وعيهم في مجال التجارة ، كذلك الأمر بالنسبة للمسلمين ، حيث إنهم تخلفوا عن ركب التقدم بسبب فقدان الوعي العلمي وكان متوقعاً أن يظهر ويترعرع بينهم وذلك لعدة أسباب . ولعل قلة اهتمامهم بالعلم يعود إلى موقفهم من التعليم الديني والتعليم العلمي حيث كانوا في تعارض واختلاف حول هذا الأمر ، فحين أدركوا أهمية التعليم الديني دعوا إلى نشره على أوسع نطاق بطرق مدروسة ومتقنة ، ولكنهم حين لم يدركوا أهمية التعليم العلمي قاموا بجهود لا تكاد تذكر من أجل بناء أساس لنظام يقوم على نشر هذا التعليم والذي لا يمكن لأمة بدونه أن تتعلم بجدارة .

وأخيراً . وبعد فترة طويلة من الركود أدرك زعماؤنا ومفكرونا أهمية هذا التعليم ، لتنهض الأمة من حالة الجمود التي غرقت فيها ، فشيدوا الجامعات والمعاهد إلا أنهم أخفقوا في إنشاء شبكة من المدارس الابتدائية والإعدادية التي تساهم بدورها في إعطاء أساس قوي للمراحل الأولى من التعليم ، وتغذية المؤسسات والمعاهد العلمية العليا . إن أسلافنا لم يهملوا إقامة المدارس الدينية على مستوى المراحل الابتدائية والإعدادية ، ولكن أحفادهم نسوا إتمام هذا الواجب بالنسبة للمدارس العصرية بشكل كلي . وعندما تم إنشاء المؤسسات الدينية الكبرى كان المسلمون يتطلعون إلى إنشاء شبكة من المدارس على نطاق واسع لتغطية حاجة العدد الهائل من الطلاب ، فاحتضنت كل قرية أو مدينة نموذجاً أو أكثر من هذه المدارس .

لقد بات واضحاً أن غياب مثل هذه الإمكانات التعليمية على مستوى التعليم العلمي يجعل جامعاتنا خالية تماماً ، ولكن زعماءنا المسلمين قد فقدوا الرؤية الصحيحة ولم ينتبهوا إلى مثل هذه المتطلبات الأساسية ، وهذا أمر مدهش للغاية لا سيما إذا بسطنا النظر إلى ما يبذله الهندوس والمسيحيون

من جهود صخمة في هذا السبيل .

إن عدم قدرة الطلاب على الوصول بأنفسهم إلى الدراسات المتقدمة ، كان بسبب غياب المدارس ذات المستوى الرفيع لدى العالم الإسلامي ، ولعل هذا النقص في البنية التعليمية الذي يعاني منه المجتمع الإسلامي هو نتيجة للإهمال من قبل قادتنا مما أسفر عن القضاء على كثير من الشباب المتألق في المهد ، وكان هذا أيضاً أهم عامل من عوامل تأخر المسلمين في حقل التعليم على باقي الأمم .

إهمال الأساسيات :

إن الذين وقعوا تحت سيطرة الانجليز مثلاً ، ظلوا يضمرون الكراهية لهؤلاء المستعمرين حتى تطور الأمر إلى كراهية لغتهم ، دون أن يفرقوا بين الانجليز كمستعمرين وبين لغتهم ، وأصبحوا يحتقرون القوم أنفسهم ، وهذا ما حدث للمسلمين تماماً إنهم لم يميزوا بين المستعمرين وبين علومهم ، فكرهوا المستعمرين ورفضوا علومهم أيضاً ، ولو أدركوا الفارق بين الأمرين لتغير تاريخهم في محيط الإنجازات العلمية ، ومن الخطأ الاعتقاد بأن العلم وسيلة ضغط يستخدمها المستعمر لقبول فكرة أو عقيدة معينة ، إنه دراسة الطبيعة وهو عالمي من حيث غايته وتطبيقه ، والطبيعة هي المصدر الحقيقي لكل ما ينفع الإنسان وليست من التقاليد أو السياسة في شيء .

لقد مرت الأمم الغربية خلال الحروب الصليبية بنفس المرحلة التي يمر بها المسلمون اليوم ، حيث كان المسلمون حملة لواء البحث العلمي ، بينما كان أعداؤهم يعيشون في عصور مظلمة ، وحقق المسلمون – بفضل أخذهم بأسباب التعليم والبحث العلمي – انتصاراً باهراً على الصليبيين ، في الحروب الدامية التي استمرت بين الفريقين قرنين من الزمن ، إلا أن الأمم الغربية التي حملت الكراهية للمنتصرين عليها لم ترتكب حماقة رفض العلوم الطبيعية ،

بل رأت هذه العلوم متميزة عن أصحابها ، ولم يقفوا عند ذلك الحد بل اجتهدوا وأضافوا حتى استطاعوا أن يسهموا مساهمة فعالة في تقدم العلوم ، وأصبحوا في القرون التالية هم قادة العالم في مجال العلم ، ونجحوا في تغيير مجرى التاريخ البشري . إن الظروف التي يمر بها المسلمون لا سيما في هذا العصر هي نفس الظروف التي مرت بهم في القرون الأولى للإسلام ، إلا أن المسلمين اليوم أغمضوا أعينهم عن كل ما جاء به الغرب بسبب مقتهم وكراهيتهم لأعدائهم ، وبذلك فشلوا في إدراك أن ما جاء به الغرب ليس قضية قومية أو تقليداً خاصاً بالغرب بل هو أمر عالمي يعد اكتسابه بمثابة اكتساب القوة .

ولو أدرك القادة المسلمون هذا الأمر في الوقت المناسب لكان حال أتباعهم مختلفاً تماماً عما هم عليه الآن ، وهذا خطأ كبير يسفر عن عواقب غير محمودة يستمر أثرها لعدة قرون قادمة . إن هذه القضية واحدة من أكبر القضايا المثيرة للعجب في التاريخ الإسلامي ، فالمسلمون نتيجة غياب وعيهم ظلوا خاسرين ليس في الهزيمة فقط بل في الانتصار أيضاً .

* * *

– ٢ –

إن الإنسان المعاصر متورط في معضلة مستعصية ، فهو يملك التكنولوجيا المتقدمة ويجهل فلسفة الحياة ، وهو يملك وسائل النقل المتطورة التي يسافر عبرها مقتحماً الفضاء لكنه يجهل العقيدة التي تتم عن طريقها الرحلات الروحية . هذه هي الثغرة التي أخفقت العلوم في سدها ، لقد كتب برتراند رسل (١٨٧٣ / ١٩٧٠) أثناء دراسته لهذا الموضوع :

What do we want to know about electricity? Only how to make it work for us. To want to know more is to plunge into usleess metaphysics.

The Impact of Science on Society, p, 93

« ترى ما الذي نريد أن نتعرف عليه فيما يتصل بالكهرباء ؟ إن كل ما نريده هو كيف يمكننا أن نوظفها في خدمتنا . وإذا كنا نحرص على مزيد من المعلومات ، فهذا يعني التهور غير المجدي فيما وراء الطبيعيات » .

إن مشكلة برتراند رسل وأمثاله هي أن تساؤلهم يدور في دائرة ما هي الكهرباء ؟ بينما يغضون الطرف عن سؤال هام وهو لماذا الكهرباء ؟ إلا أن الفطرة الإنسانية ترفض مثل هذا الموقف رفضاً قاطعاً ، وتحث الإنسان على أن يتعمق في حقيقة الكهرباء فضلاً عن توظيفها في خدمته ، وهذا النوع من حب الاستطلاع ومعرفة ماهيات الأشياء شيء من طبيعة الإنسان وكامن في فطرته فلا يمكن إغفاله أبداً .

نعم . إن الكهرباء تدير مصانعنا وتضيء مدننا دونما حاجة إلى الإجابة عن تلك التساؤلات النظرية ، إلا أن فطرة الإنسان لا ترضى الوقوف عند

هذا الحد ، بل تحس بضرورة البحث في ماهية الكهرباء ، والإنسان مضطر نظراً لإلحاح الفطرة أن يتساءل : لماذا الكهرباء يا ترى ؟ ومن ثم فهو يبحث عن الجواب المقنع والحل الشافي .

إنها العقيدة . ولا يمكن لإنسان أن يعيش بدون عقيدة (Faith) ونقطة ضعف الإنسان المعاصر هي أنه فقد تلك العقيدة ، ولو وضعنا أمام الإنسان ذي العقلية الفاحصة حقيقة أن الإسلام هو العقيدة الصحيحة والأصلية فسوف نلقى منه الإستجابة الكاملة . إن الإسلام وحده الذي يملك القدرة على ملء ذلك الفراغ العقائدي لدى الإنسان .

المعيار العلمي :

الإسلام دين العصر الحديث ، وليس هناك أي دين آخر يستطيع أن يبرهن على انسجامه الكامل مع عصر التكنولوجيا المتطورة ، ومن ثم لا يصح لنا أن نطلق على أي دين آخر بأنه يلائم معايير العصر ومستجداته المتلاحقة ، فإنسان اليوم يختبر الأشياء طبقاً للمعيار العلمي ويعترف بكل ما يتوافق وهذا النمط من المعايير وينبذ كل ما لا يتطابق مع هذا المعيار . إن كافة الأديان السماوية كانت صحيحة في انطلاقتها . لكن الخلط والتحريف الذي اعتراها بفعل الأيدي البشرية أفقدها القدرة على الصمود والتحدي أمام وابل منهمر من العلوم والتكنولوجيا ، والإسلام هو الدين الوحيد الذي ظل محفوظاً ومتمسكاً بأصالته لا يعتريه تغيير أو تبديل ، لذا فهو يملك الاستعداد والقدرة الكاملة على الانسجام والتلاؤم مع المعايير العلمية . لقد ظل الإسلام في العصر الحديث صامداً في حلبة السباق بلا منافس ، وهذا ما يضمن له الفوز والانتصار حتماً شريطة أن يتم عرضه في صورة تناسب العقلية الجديدة .

فما هو المعيار العلمي إذاً ؟ دعونا نضرب لكم مثالاً على ذلك . فقد ذهب برتراند رسل أثناء تناوله لهذا الموضوع إلى القول :

To modern educated people, it seems obvious that matters of fact are to be ascertained by observation, not by consulting ancient authorities. But this is an entirely modern conception, which hardly existed before the seventeenth century. Aristotle maintained that women have fewer teeth than men; although he was twice married, it never occurred to him to verify this statement by examining his wives mouths. (*)

« يبدو واضحاً لدى المثقفين العصريين بأن الحقيقة هي ما يمكن إدراكه عن طريق المشاهدة ، لا أن يعترف بها جدلاً طبقاً للمسلمات العقيمة ، إلا أن هذه فكرة جديدة بكل معنى الكلمة ، وهي قلما كانت تتواجد في عصر ما قبل القرن السابع عشر . فقد أكد أرسطو على أن أسنان المرأة أقل عدداً من أسنان الرجل وهذا بالرغم من أنه تزوج مرتين ، إلا أنه لم يحدث له أن فتح أفواه زوجاته ليؤكد صحة نظريته » .

فالمعيار العلمي في المثال المذكور هو معيار واقعي ، والمعيار غير العلمي هو معيار قياسي تخميني ، فقد بنى أرسطو توهمه على أساس القياس ، وذهب إلى أن المرأة ما دامت أحط منزلة من الرجل فيقتضي ذلك أن تكون أسنان المرأة أقل عدداً من أسنان الرجل ، وفي المقابل فإن عقلية برتراند رسل عقلية من تكوين العصر الحديث ، وهي لا تطمئن إلا بإجراء التجربة الواقعية الموضوعية ، فذهب يقول : لا تقفوا عند التوهم بأن أسنان المرأة أقل عدداً من أسنان الرجل بل افتحوا فم الرجل وفم المرأة كليهما وعدوا أسنانهما لتكشفوا ما إذا كانت أسنان المرأة أقل أم لا .

إن المعايير القياسية كانت هي السائدة في الزمن القديم ، فكان الاستناد

(*) B. Russell, The Impact of Science on Society, p. 17

إلى أسس القياس والتخمين لإثبات صحة أي دين أمراً سهلاً وميسوراً ، أمّا العقلية الجديدة فأصبحت لا تقتنع إلا بعد أشواط من البحث والتقصي والتمحيص المباشر أو غير المباشر لإثبات معقولية شيء ما أو عدم معقوليته . وهذا هو المعيار الذي إذا ما وضعناه في حسباننا فان كل دين من الأديان يصبح مغلوباً على أمره إلا الإسلام الذي أثبت تطابقه وانسجامه الكامل مع المعايير العلمية .

دين الوحدانية :

إن الكون الذي اكتشفه العلم يتسم بالوحدة المدهشة ، فهو يسير بكامله وفقاً لهذا النظام الكوني الموحد ، فقد قال البروفيسور آين راكس برك (Ian Roxburg) العالم البريطاني في إحدى مقالاته تحت عنوان : لماذا هذا التناسق المدهش في الكون؟

(Why is the universe so uniform?

The universe is astonishingly uniform. No matter which way we look, the universe has the same constitunets in the same proportions. The laws of physics discovered on earth contain arbitrary nubers, like the ratio of the mass of an electorn to the mass of a proton, which is roughly 1840 to one. But these trun out to be the same in all places at all times. Why? Did a creator arbitrarily choose these numbers? Or must these numbers have the particular uniform value we observe for the Universe to exist?

Sunday Times (London) December 4 1997

« إنك لو نظرت إلى الكون – من أية زاوية – فستجده في صورة مدهشة من التناسق ، إنه يتكون من الأجزاء نفسها والنسب ذاتها . فقوانين الفيزياء التي اكتشفناها تحوي أرقاماً عشوائية ، مثل النسبة بين كتلة الإلكترون إلى كتلة البروتون والتي تساوي ١٨٤٠ إلى ١ ، لكن هذه النسب تبقى ثابتة في أي مكان وأي زمان . لماذا ؟ هل اختار الخالق هذه الأرقام عشوائياً ؟ أم أن هذه الأرقام بالذات هي التي تخرج الكون إلى الوجود ؟ » .

إذا كان الكون الذي اكتشفه العلم هو كون يتسم بالتناسق والانسجام والوحدة الشاملة ، فإنه لا يمكن أن يصمد أمام ذلك سوى فكرة الوحدانية التي تعلن عن مواكبتها وسيرها وفق نظم كونية موحدة ، أما فكرة الشرك فلا يمكن أن تنسجم مع هذا الكون العلمي الذي يرفضها رفضاً قاطعاً .

فإذا ما ألقيت نظرة فاحصة على الأديان التي توجد على وجه الأرض في الوقت الراهن ، فإنك تجدها كلها قد انبثقت من عقيدة الشرك ، وجعلتها أساساً لا تقوم إلا به ، فالدين الفارسي مثلاً يؤمن بإلهين في الكون ، والمسيحية تقر بآلهة ثلاثة ، وفي الهندوسية يصل عدد الآلهة إلى (٣٣٠) مليون إله ، أما الديانة البدائية الأفريقية فإن كل شيء لديها يعتبر إلهاً سوى الإنسان فلا يدخل ضمن آلهتهم . وفي المقابل نرى الإسلام يعلن بصوت صارخ أنه (لا إلٰه إلا الله الواحد الأحد) .

فإذا وضعنا في الحسبان هذا الفارق الذي نلحظه بين الإسلام والأديان الأخرى ، نصل إلى نتيجة مؤداها أنه إذا كان لدين أن يصمد ويبقى على قيد الحياة وسط هذا السيل المنهمر من التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يشهده العالم المعاصر ، فهو الإسلام دون سواه ، وهو دين التوحيد الخالص ، أما ما عداه من الأديان فلا تتوافق ولا تنسجم مع العصر العلمي التكنولوجي ، لأنها تروج لعقيدة الشرك التي ينبذها هذا العصر ويرفضها

رفضاً قاطعاً ، فهي ليست متسقة مع الكون الذي يسير وفق خطى النظم الموحدة .

دين الشرك :

إن صفة الشرك هي الصفة الغالبة على الأديان عدا الإسلام ، ويقرر دين الشرك أن مظاهر الكون والظواهر الطبيعية آلهة يقدسها الإنسان ويخضع أمامها . فالشرك في الأصل ليس إلا عبادة مظاهر الطبيعية . وحين تم إخضاع تلك الظواهر الطبيعية للبحث والدراسة ، استشفت دقائقها وتفاصيلها وتم التوصل إلى نتائج قطعية تجعل من فكرة ألوهية تلك الظواهر أمراً مضحكاً . فالهندوس مثلاً اعتبروا أن القمر إلهاً فقدسوه وعبدوه منذ أقدم العصور ، بينما أجريت في العصر الحديث دراسات وتجارب كثيرة على القمر ، حيث تم رصدها بواسطة التلسكوب وأجريت على تربتها دراسات واختبارات ، كما هبط على سطحها الصاروخ الروسي في سبتمبر ١٩٥٩م ، وليس هذا فحسب بل إن رائد الفضاء الأمريكي نيل أرم سترانغ قد تمكن من وضع قدميه على سطح القمر في يوليو ١٩٦٩م . وهكذا ثبت أخيراً أن القمر لا يمكن أن يكون إلهاً بل إنه عبارة عن كتلة من الرمال والأحجار .

واتضح الآن جلياً أن الدين الذي يدعو الناس إلى عبادة القمر لا يمكن أن يكون ديناً مقبولاً لدى العقلية المعاصرة ، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي بقي في الحلبة بدون منافس ، منادياً ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن** ﴾ [فصلت : ٣٧] . الحقيقة أن القمر قد فقد مكانة الألوهية في العصر العلمي الحديث ، لأن العقلية الجديدة التي تؤمن إيماناً راسخاً بوجهة النظر العلمية لا يمكنها أن تعتنق الدين الذي يؤمن بألوهية القمر . إنه الإسلام فقط الذي يخلو من هذا النوع من الخرافات ، فهو يعد الأجرام السماوية مسخرة للإنسان وليست معبودة أو خالقة .

سمة البساطة في الإسلام :

إن من خصوصيات الإسلام أنه يتسم بالبساطة الفطرية التي تتلاءم مع العقلية العلمية الحديثة ، إذ أن عقلية الإنسان الجديد قد نشأت من دراسة الطبيعة ، والبساطة التي اكتشفها الإنسان في الطبيعة قد أصبحت شيئاً محبباً إليه ، فإذا أمكن لدين أن يلقي قبولاً لدى هذا النمط من العقليات فلابد أن يكون ديناً يتسم بالبساطة الفطرية ، والذي يفقد تلك السمة الفطرية فهو منبوذ لدى العقلية الجديدة . إنها حقيقة يصدقها الواقع أن كافة الأديان – عدا الإسلام – قد حرمت من سمة البساطة الفطرية ، كما أنها بمنأى عن البساطة العملية أيضاً .

إن الفلسفة العقدية التي قامت على أساسها المسيحية هي فلسفة التثليث ، أي فلسفة الواحد من الثلاثة والثلاثة في الواحد ، ومثل هذه العقدة الفكرية لا يمكن فهمها على ضوء القوانين الرياضية ، إذ ليس معقولاً من الناحية الرياضية أن يكون الشيء ذاته واحداً وثلاثة في نفس الوقت . وسنروي لكم حادثة عملية في هذا الصدد : فقد وجه سؤال إلى أستاذ مسيحي بجامعة دلهي يقول : « ماذا تعنون بالتثليث أيها الأستاذ ؟ » فأجاب :

If you ask me I don't know, if you don't ask I know.

« إذا كنت تسألني فأنا لا أعرف الإجابة ، وإن كنت لا تسألني فأنا أعرفها » .

وفي اليهودية أيضاً نرى صورة – من نوع آخر – للتعقيد وعدم البساطة . فقد ذكرت في الكتاب المقدس بكثرة أنواع من العبادات والطقوس وتقديم القرابين ، بحيث يصبح من المحال للإنسان العادي أن يأتي بهذه العبادات وتلك الطقوس ويواظب عليها ، فكثير من أسفار العهد القديم تحفل بذكر التفاصيل من ذلك النوع من الطقوس الجزئية ، ونذكر هنا على سبيل

المثال :

سفر الأحبار .

سفر العـدد .

وعلى عكس ذلك نرى أن الإسلام يخلو تماماً من ذلك النوع من التعقيد وذلك الجانب من الطقوس، بل إنه يتسم بالبساطة سواء أكان ذلك في الميدان النظري أو العملي، وقد عبر (سير دانس راس– E. Denison Ross) عن هذه البساطة بقوله :

The simplicity of Islamic creed was probably a more potent factor in the spread of Islam than the sword of Ghazis.

Introduction of George Sale's translation of the Quran p.VII

« لعل بساطة الإسلام هي العنصر الذي كان أكثر فعالية في عملية التوسع الإسلامي مقارنة بسيوف الغزاة » .

إن سمة البساطة هذه ، والتي كانت سبباً في فتح قلوب الكثيرين في الزمن القديم ، وبصورة أكثر فاعلية ، تمثل باعثاً هاماً لجذب نفوس الكثيرين في العصر الحديث . وعقلية الإنسان الجديد التي تمثل الفطرة لا يمكنها أن تجد العزاء والطمأنينة إلا في الإسلام .

بدون وساطة :

إن لدى الإنسان المعاصر ذوقاً خاصاً ، فهو يرغب في إقامة صلة مباشرة مع الحقائق ، والإنسان في العصر العلمي الحديث يبذل جهوداً مضنية لإقامة صلة مباشرة بينه وبين جميع الأشياء ، فمن البديهي أن يكون لديه الرغبة لإقامة صلة مباشرة مع الله ، وعلى ضوء تلك التجارب تنشأ لديه عقلية لا تطمئن إلا إذا لمست الحقائق مباشرة . ومن تلك الزاوية نلحظ أيضاً أن

الإسلام وحده الذي يمكنه إقناع العقل الجديد ومخاطبته باللغة المألوفة لديه ، بينما وضعت الأديان الأخرى وسطاء بين الله والإنسان ، إذ يمثل الأئمة الدينيون الوسطاء في بعض الأديان ، والأرواح في دين آخر ، والملائكة أو ابن الله المزعوم في غيرها .

إن الإنسان الجديد يتوخى ربط علاقة مباشرة مع الله ، والأديان الأخرى تعلن بأن الصلة مع الله لا تكون إلا عن طريق الوسطاء ، بينما الإسلام هو الدين الوحيد الذي يربط الإنسان بربه مباشرة ودونما أية وساطة . فإذا أراد الإنسان أن يقيم صلة مع الله فإن الله قريب منه دوماً ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ .

المعيار التاريخي :

يرتبط تاريخ مصر القديمة بذكريات سيدنا يوسف وموسى عليهما السلام . وقد ورد ذكرهما في القرآن والكتاب المقدس أيضاً ، إلا أن الكتاب المقدس حين يستعرض قصة يوسف وذكرياته التي ارتبطت بتاريخ مصر يذكر أن الملك الذي كان يحكم مصر آنذاك هو فرعون (Pharoah) وكذلك حين يتحدث عن موسى يذكر الحاكم الذي كان على عرش مصر في عصر موسى باسم فرعون أيضاً . وهذا يعني أن ملك مصر الذي كان معاصراً ليوسف وموسى فيما بعد هو فرعون .

إلا أن الدراسات والأبحاث التي أجريت مؤخراً تثبت خطأ ما يذهب إليه الكتاب المقدس ، فهي تؤكد أن الأسرة الحاكمة في مصر آنذاك كان يطلق عليها ملوك الهكسوس (hyksos Kings) وهؤلاء لم يكونوا مصريين أصليين بل إنهم ينحدرون من أصل عربي ، فلقد جاءوا من خارج مصر وتربعوا على عرش مصر ، كما استولى الانجليز على الهند وحكموها فترة غير قصيرة ، وبعد أن استولت تلك الأسرة على مقاليد السلطة في مصر سنة

٢٠٠٠ ق م ، ظلت مسيطرة عليها حتى أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وبعد أن توفي سيدنا يوسف كانت هذه الأسرة هي المسيطرة على الحكم فترة من الزمن ، حتى تمرد عليها المصريون وأرغموها على الخروج من مصر ، وحلت محلها أسرة مصرية ، وهي التي اتخذ ملوكها لقب فرعون (Pharoah) لأول مرة .

ومن هنا يتضح بجلاء هذا التناقض بين ما يورده الكتاب المقدس وما توصلت إليه الدراسات التاريخية مؤخراً ، ففرعون هو الذي عاصر موسى فقط ، أما الذي عاصر يوسف فليس هو فرعون ، بينما يذكر الكتاب المقدس الملكين باسم (فرعون) . فالذي يؤمن بمصداقية الدراسات التاريخية المنهجية ، لا يمكنه قبول الكتاب المقدس بل يجد نفسه مضطراً لرفضه إلا إذا طرح عقليته العلمية جانباً . وهذا يعني أن الكتاب المقدس لا يملك الكفاءة التي تضعه في مواجهة تحديات العصر . بينما نجد القرآن يذكر يوسف والملك الذي كان يحكم مصر آنذاك ، كما يذكر موسى والملك المعاصر له . إلا أن القرآن يفرق بينهم وبدقة بالغة ، فهو يطلق على الملك الذي كان معاصراً ليوسف لقب (العزيز) وهي اللفظة التي تطلق على الحاكم أو من بيده السلطة ، وحين يذكر الملك الذي كان يحكم مصر في عصر موسى ، يذكره باسم (فرعون) . ومن هنا يمكننا القول بأن القرآن يفرق بين الملكين ، الملك الذي كان معاصراً لسيدنا يوسف والملك الذي كان معاصراً لسيدنا موسى .

وهكذا فإن القرآن يملك القوة الكافية التي تمكنه من مواجهة تحديات العلوم المعاصرة ، والبحوث العلمية الجديدة تعلن عن توافقها التام مع القرآن . فالإنسان الذي يؤمن بالقرآن ليس بحاجة إلى نبذ ما توصلت إليه العلوم والدراسات المعاصرة ، وكذلك من يؤمن بمصداقية العلم الحديث لا يضطر إلى رفض القرآن .

عظمة الإسلام :

كانت (مريم جميلة) المسلمة الأمريكية الجديدة ، قد ولدت لأسرة يهودية أمريكية ، وبعد اعتناقها للإسلام خرجت في زيارة إلى دول إسلامية حتى تزوجت من مسلم باكستاني ، وهي تقيم الآن في باكستان . ولديها كتاب أسمته (الإسلام في مواجهة الغرب Islam Versus The West) وقد كتبت تقول فيه : « حين كنت طالبة في الجامعة اخترت موضوع (اليهودية في الإسلام) وكان أستاذ المادة يحاول إقناع الطلبة – وكلهم ينتمون إلى الديانة اليهودية – بأن اليهودية هي مصدر الإسلام ، وكان كتابنا المدرسي يتضمن آيات من القرآن حاول المؤلف فيه إثبات أنها تعتمد في أصلها على اليهودية ، وكانت هناك أشرطة تعرض علينا أثناء الدرس تثبت سلطان اليهودية والصهيونية على الإسلام ، وبالرغم من أن الأستاذ كان يهدف إلى إثبات أفضلية اليهودية على الإسلام إلا أن تأثيره عليّ كان عكسياً .

فقد أجريت دراسة مقارنة بين العهد القديم والقرآن ، فبدا لي الفرق واضحاً بين القرآن والعهد القديم ، فالعهد القديم عبارة عن تاريخ اليهود شعب الله المختار كما يزعمون ، بينما القرآن رغم أنه نزل بلغة عربية على بني إسماعيل فهو رسالة عالمية تخاطب بني البشر جميعاً . وحين قال أستاذي : إن الحق الرباني لليهود على فلسطين يمثل جزءاً مركزياً في الشريعة اليهودية ، فقد شعرت في نفسي بالحيرة والارتياب إزاء هذه النظرة الضيقة للإله . أليس القرآن يقول : ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ ! أليس النبي محمد ﷺ يقول : « **وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً** »! بينما الصهيونية تقول : إن أرض اليهود هي فلسطين فقط ، وأن إقامة اليهود في مكان آخر يعني العيش حياة المنفى في تلك الأماكن . والأستاذ يدعي بأن اليهود لا يمكنهم أن يلعبوا دوراً في الحضارة الإنسانية إلا إذا أخذوا من

فلسطين موطناً لهم . إن تلك الدعوى لا يؤيدها الواقع خاصة إذا لاحظنا أن الوحي إنما نزل على موسى في مصر ، وأن أهم جزء في التلمود تم تأليفه في منطقة يطلق عليها العراق . (ص ٤) .

الإسلام دين صادق إلى حد أنه يكفي المقارنة البسيطة بينه وبين أي دين آخر لإثبات عظمته وهيمنته على الأديان الأخرى . فبينما يبدو الكتاب المقدس تاريخ أمة معينة نلمس في القرآن رسالة عالمية ، وفلسطين مقدسة وتحمل الاعتبار الأساسي بالنسبة لليهود ، بينما يقول الإسلام : إن الأرض كلها لله . وليس هناك أي انفصام لدى اليهود بين ديانتهم وأرض فلسطين في حين أن الله قد خاطب موسى خارج فلسطين ، وأن كتاباً دينياً مقدساً لدى اليهود قد تم إعداده أيضاً خارج فلسطين . الحقيقة أن الإسلام دين شامل ويتمتع بالمصداقية إلى درجة أنه يكفي عرضه أمام الآخرين في صورته المبسطة شريطة أن يتم عرضه في صورته الأصلية الخالية من كل أنواع الإضافات البشرية .

مقتضى العصر :

يقول مفكر معاصر : إنه إذا أمكن لدين أن يلقي قبولاً لدى الإنسان الجديد فلابد من أن يكون :

« عالمياً في توجهه ، عقلياً في مضمونه » .

Universal in content and rational in thought.'

وأنا أؤيد ما قاله الباحث وأضيف بأن كلا الصفتين لا يمكن أن نتصور وجودهما إلا في الإسلام ، فهو وحده الذي يتلاءم مع معايير العصر . إن الإسلام ظل محفوظاً في صورته الأصلية التي نزل عليها قبل خمسة عشرة قرناً في حين أن الأديان الأخرى صارت خليطاً من الإضافات البشرية حتى فقدت سمة العالمية والعقلانية أيضاً . وهذا هو السبب الذي جعل الأديان الأخرى

تنطوي على مبادىء تفرق بين إنسان وآخر ، فالتمييز العنصري له اعتبار لدى أمم تلك الأديان . ومن ثم أرادوا أن يضفوا إليها الصبغة النظرية فأدخلوا في كتبهم المقدسة آيات تخدم وجهة نظرهم وترضي أهواءهم . إن كل ما نرى من تمييز بين الحكام والمحكومين والأحرار والعبيد والسود والبيض ، أو فرق بين الطبقة العليا وبين الطبقة الدنيا ، وبين الأغنياء وبين الفقراء أو الزعماء الدينيين وعامة الشعب ، كل ذلك يمكن إرجاعه إلى خطأ التحريف والإضافة البشرية إلى النصوص الإلهية .

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على العقلانية ، إذ أن عقل الإنسان يتسم بالمحدودية وليس بوسعه أن يتجاوز دائرة حدوده ، وقد حدث مع الأديان الأخرى أن أضاف إليها أصحابها ما راق لعقولهم ، فنجم عن ذلك أن أصبح الدين خليطاً من كلام البشر وكلام الله ، فانقضت بذلك سمة الأبدية التي كان يتسم بها دين من الأديان ، فالذي كان يؤيده العقل صار اليوم يرفضه رفضاً قاطعاً .

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ظل محفوظاً في صورته الأصلية ، مما جعله قادراً على الاحتفاظ بهاتين الصفتين ، فكما احتفظ بسمة العالمية احتفظ أيضاً بصفة العقلانية .

الإمكانيات الجديدة للدعوة الإسلامية

– ١ –

إن معظم الاختراعات في حقل العلوم كانت نتيجة حوادث صدفية ، وإن تاريخ العلم لينبيء في بعض الأحايين عن انفجار فجائي أو حادثة صدفية ، وتلك الحوادث تبدو في ظاهرها حوادث غير مرضية ولكن سرعان ما يكشف عن جانب مرض فيها . فهي تعبر عن إمكان رباني ، إذ يتمكن العلماء من استكشاف قوة فطرية من خلال تلك الصدفة ، فيدفعون – باستخدامها – عجلة الحضارة إلى الأمام .

يقال : إن المادة المتفجرة (Explosive) قد تم اكتشافها من خلال حادث صدفي أيضاً وبالرغم من أن تجربة الاختراع قد أدت إلى خساة في بعض الأرواح إلا أنها كشفت عن ثورة علمية جديدة في ساحة العلم . لقد وقعت في الهند حادثة مماثلة إلا أنها حادثة دينية لا علاقة لها بالعلم ، وذلك في شهر أيار سنة ١٩٨٥م ، في المحكمة العليا بـ (كلكتة) وهي محاولة فاشلة للقضاء على نشاطات نشر رسالة القرآن . إنها تبدو حادثة غير مرضية ولكنها في الحقيقة تضمنت جانباً مرضياً أيضاً ، لقد كشفت عن حقيقة لم تكن بادية لأنظار الكثيرين ، إنها كشفت عن أبواب الإمكانيات الجديدة التي فتحت أمام الدعوة الإسلامية ، إنها تشير إلى أن عالم اليوم قد تجاوز مرحلة التشدد الديني ودخل مرحلة جديدة ، ألا وهي مرحلة الحرية الدينية . إن هذه الحادثة تبدو على جانب كبير من الأهمية وخاصة عند دراسة تاريخ العرب القديم ومقارنته بهذه الحادثة .

مكة القديمة والهند الجديدة :

وكما هو معلوم فإن عصر بداية الإسلام كان خاضعاً لسيطرة الشرك ، حيث كانت الغلبة في مكة للمشركين ، وحين أصبح النبي ﷺ يتلو القرآن أمسى المشركون يخالفونه ، ومارسوا الضغوط عليه من أجل أن يترك تبليغ القرآن . لقد ورد في سيرة ابن هشام : أن عبد الله بن مسعود حين اعتنق الإسلام شعر بدافع يدفعه إلى تبليغ القرآن للآخرين ، فاتجه إلى الكعبة ووقف قرب مقام إبراهيم ، وبدأ يقرأ القرآن (سورة الرحمـٰن) بصوت رفيع ، فهرع المشركون إليه بعد أن سمعوه ، وحين عرفوا أن القارىء يقرأ القرآن شرعوا يضربونه على وجهه ، يقول ابن هشام : (فجعلوا يضربون في وجهه) وقد احمر وجهه من جراء ذلك كما برزت علامات الضرب عليه . وما أكثر تلك الحوادث في مكة القديمة ، وذلك لأن تعاليم القرآن كانت تخالف طبائعهم كلية ، حتى أنهم أرغموا النبي على مغادرة مكة ، والرحيل بعيداً عنها .

تلك الحوادث التي واجهها النبي ﷺ في مكة القديمة ، لو عبرنا عنها بلغة العصر قلنا : إن المشركين قد فرضوا حظراً على نشر القرآن ، لقد تم فرض الحظر بالكامل واثبت فعاليته إلى حد أن النبي قد أجبر على مغادرة مكة مع القرآن ، فاتجه ﷺ مع صحابته إلى المدينة .

لنأخذ حادثة أخرى من تلك النوعية وإن كانت تختلف عنها في نتائجها ، فلقد حدث في الهند سنة ١٩٨٥م أن رجلاً من حيدر اباد يدعى (مستر تشارمل تشوبرا) قد رفع دعوى ضد القرآن تنص على أن القرآن يضم تعاليم متشددة ، ومن ثم يجب فرض حظر على نشر القرآن وتبليغه ، فقبل قاضي المحكمة (باد ماخستغير) تلك الدعوى فور سماعها ، ولكن سرعان ما علت أصوات الاحتجاج ضد هذه الدعوى حتى أن رئاسة حكومة البنغال الغربية المركزية أعلنت عن رفضها الصارم لفرض القيود على القرآن ،

ولقد حضر وزير القانون المركزي (مستر شوك سينكه) فور سماعه إلى كلكته ، كما أن كلا من المحامي الكبير في كلكته (مستر بارش رام) والمحامي العام للبنغال الغربية (مستر اشك يشاريا) قد دفعا عن القرآن دفعاً شديداً . وقد نتج عن ذلك أن القاضي (باد ماخستغير) قد ألغى القضية من سجل المحكمة الذي كان يشرف عليه .

وبعد ذلك تولى القضية القاضي (مستر ب . س . باسك) واستمع إليها – وقد تم ذلك تحت إشراف قاضي قضاة المحكمة العليا بكلكته – ثم أعلن عن قراره الأول في الثالث عشر من أيار / مايو ، وحين وصل إلى القرار النهائي في السابع عشر من نفس الشهر ألغى الدعوى بكاملها ، وكتب في قراره : لا يحق أن تجلس المحاكم من أجل محاكمة كتاب مقدس كالقرآن مثلاً . ومما كتب في قراره – والذي اشتمل على ثماني عشرة صفحة – قوله : إن فرض القيود على القرآن يعني تضييق الخناق على الديانة الإسلامية نفسها ، إذ لا يمكن تصور وجودها بدون القرآن ، فمثل هذا العمل مخالف للبند الخامس والعشرين من الدستور ، والذي ينص على حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر وما يتبع ذلك من طقوس ونشاطات دينية .

تغير العصر :

لنمعن النظر هنا . لماذا هذا الفارق بين مكة القديمة والهند الحاضرة ؟ ما الذي جعل أهل مكة القديمة يفرضون حظراً على القرآن ، ويحققون نجاحاً في سبيل ذلك ، بينما حين رفعت – في الهند – الدعوى ضد القرآن ، وقفت الدولة والمحكمة للدفاع عن القرآن وأخيراً رفضت تلك الدعوى رفضاً قاطعاً ؟

لعل السبب هو تغير العصر . إن العصر القديم كان عصر التشدد الديني بينما العصر الحديث هو عصر الحرية الدينية . هذا هو السبب في أن

المرء في العصر القديم كان يرفض وجود دين آخر غير الدين الذي كان يعتنقه ، أما إنسان العصر الحديث فقد أصبح يعترف بحق الحرية لكل الديانات ، وفي العصر القديم كان من الجائز أن تفرض الضغوط ويعرقل سبيل كل من يعتنق ديناً آخر غير الذي يؤمن به ، ويمكن أن يحكم عليه بالإعدام أيضاً ، إلا أن النهضة الفكرية والعلمية التي يشهدها العصر الحديث ، قد بلغت بنظرية قدسية المعتقدات الشخصية إلى نهايتها ، إنها تعترف – بدون أدنى شرط – بأن كل فرد حر ويجب أن يتمتع بالحرية التامة لقبول الدين الذي يرضاه ، ليمارسه ويتمسك به ويبلغه إلى الآخرين . وأصبح ذلك حقاً ثابتاً لكل فرد من الأفراد في العصر الحديث . إن الدور الذي كان يسوده جو الاضطهاد الديني كان قد فرض حظراً على القرآن ، أما العصر الحديث فقد رفض الاعتراف بمثل تلك النظرية لأنها فشلت فشلاً ذريعاً .

مما تقدم يظهر بوضوح الفارق بين العصر القديم والعصر الحديث ، ولكي يتبين هذا الفارق بمزيد من الوضوح ، نورد حادثة أخرى ، وهي ما حدث في أسبانيا في السنة نفسها – أي في مطلع سنة ١٩٨٥م – ونشرت هذه الحادثة مصورة في مجلة (العربي) وهي مجلة أدبية ثقافية تصدر عن وزارة الأعلام بالكويت ، وقد نشرت في عدد شهر يونيو سنة ١٩٨٥ تحت عنوان « عبد الرحمٰن الداخل يعود إلى الأندلس » وقد كتب الموضوع الدكتور عفيف عند عودته من زيارة قام بها إلى أسبانيا .

إن عبد الرحمٰن الداخل كان أميراً أموياً ، ولد سنة ٧٣٢م ، وعندما استولى العباسيون على الخلافة الأموية في دمشق كان عبد الرحمٰن يناهز من العمر ثلاثين سنة ، وفي تلك الأثناء كان العباسيون يطاردون كل أموي ويقتلونه ، وقد لجأ عبد الرحمٰن إلى بستان على ضفة الفرات بعد فراره من دمشق ، ولكنه حين علم بمقدم جيوش العباسيين نحوه ، رمى بنفسه إلى النهر

واجتازه إلى الضفة الأخرى سباحة ، ثم بدأ يتنقل من بلد إلى آخر فوصل من دمشق إلى فلسطين ومنها إلى تونس حيث استقل سفينة أبحرت به إلى « المونييكر » إحدى ضواحي أسبانيا ، وقد استغرقت رحلته من دمشق إلى أسبانيا مدة خمس سنوات ، حيث نزل أسبانيا سنة ٧٥٧م .

هذا هو عبد الرحمٰن الذي أقام دولة إسلامية في الأندلس وهو الذي صدر إلى أوربا أصداء عهد الحضارة والتقدم . صحيح أن فاتح أسبانيا هو طارق بن زياد ، ولكن الذي أقام فيها سلطة الإسلام بالمعنى الحقيقي هو عبد الرحمٰن ، وقد حكم المسلمون أسبانيا مدة ثمانمائة سنة (٨٠٠ سنة) ، ثم استولى المسيحيون على الأندلس بعد أن استغلوا فرصة تناحر المسلمين الداخلي ، وبدأوا يقتلون المسلمين أو يضطرونهم للهروب إلى الخارج ، وقد تم طمس كل المعالم الإسلامية بشكل سافر ، إلا أنه في سنة ١٩٨٥م – أي بعد مضي ألف ومائتي سنة (١٢٠٠ سنة) على وفاة عبد الرحمٰن الداخل – تم عقد مؤتمر تذكاري في « المونييكر » الواقعة على البحر قرب غرناطة آخر عاصمة للحكومة الإسلامية في أسبانيا ، وقد شارك في هذه المناسبة التاريخية شخصيات بارزة من أسبانيا والدول العربية ، وقد ترأس هذه الجلسة ملكة أسبانيا « صوفية » .

إن عبد الرحمٰن الداخل قد حكم الأندلس مدة اثنين وثلاثين سنة (٣٢ سنة) . وفي هذه المناسبة التي عقدت احتفاء بذكراه تم تحقيق بعض المشاريع من بينها إقامة تمثال لعبد الرحمٰن على ضاحية البحر بـ (المونييكر) ، وقد نشرت صورة هذا التمثال في (العربي) وقد بدا عبد الرحمٰن في الصورة ممسكاً سيفه بيده اليمنى، محدقاً بكل ثقة إلى أرض الأندلس ، وقد كتبت (العربي) تحت صورة التمثال الكلمات الآتية : (تمثال عبد الرحمٰن الداخل في المنكب من الخلف) .

لقد انتهت سيطرة المسلمين على أسبانيا سنة ١٤٥٢م ، وقد اضطهد المسلمون من قبل المسيحيين اضطهاداً بالغاً ، فأعدم عدد كبير ، واضطر الآخرين إلى الفرار ، فكانت تلك نهاية المسلمين في أسبانيا بعد أن استمر حكمهم لها ثمانمائة سنة (٨٠٠ سنة) . ومنذ ذلك الحين اصبحت أسبانيا عدواً لدودواً للمسلمين ، إلا أن الوضع – الآن – تغيّر غير الوضع ، فأسبانيا هي نفسها التي يقام فيها مؤتمر بمناسبة ذكرى بطل مسلم ، وقد ترأسته (الملكة صوفية) نفسها ، ويقام له تذكار مستقل .

المنظور العلمي والتاريخي :

إن حادثة كهذه تدعونا إلى الدهشة ، فهي تعبر على أن التاريخ يعيد نفسه ، فتلك الأيدي التي كانت قد محت التاريخ بدأت تسطره من جديد . فما الذي جعل الوضع ينقلب رأساً على عقب ؟ إن السبب يرجع إلى النهضة الفكرية الحديثة ، التي محت كل ألوان التعصب القديم ، فالماضي الذي كان موضوع الاستنكار والسخرية ، أصبحت النفوس تتوق إليه بشغف تحت تأثير عقلية العصر الحديث . وقد أورد الكاتب في مجلة (العربي) – فيما يخص هذا الموضوع – الكلمات الآتية : (ونظراً لأهمية عبد الرحمٰن وعهد الخلافة في تاريخ حضارة الأندلس ، رأى المسؤولون في الأندلس اليوم أنه من الأهمية بمكان توضيح أعمال وشخصية هذا الحاكم الأموي الشجاع والعظيم) .

في العصر الحديث تحظى النظرة الموضوعية بالغلبة ، حيث بدأ إنسان اليوم يحترم وجهة النظر الموضوعية ، وقد كان لها تأثير عميق في الفكر المعاصر ونشاطاته ، ومن أمثلة ذلك التحول الذي شهدته الهند والأندلس ، وقد ظهر ذلك جلياً من خلال الأمثلة السالفة الذكر . وحين حققت وجهة النظر الموضوعية تلك الغلبة بدأ الإنسان يشعر بأنه لا معنى لنسيان تاريخ

المسلمين الذي استمر طيلة ثمانية قرون متتالية ، علاوة على أن تلك الفترة من تاريخ المسلمين في الأندلس لم تكن فترة سيطرة فحسب بل كانت تزخر بالحضارة والتقدم ، حتى أن الحضارة الأوربية كانت وليدة تلك الحضارة التي ازدهرت في الأندلس . لقد أدرك الجيل الأسباني الجديد أن إغفال تاريخ المسلمين يعني حذف جزء كبير من تاريخهم ، فالأمر الذي أغفلته النظرة القديمة رحبت به النظرة الجديدة وجعلته جزءاً من تاريخها .

هذا الأمر نفسه نلاحظه في الهند ، حيث حاول أفراد متعصبون فرض حظر على القرآن ، ولكن الطبقة المثقفة رفضت ذلك وتصدت له ، إذ أنهم أدركوا أن فرض حظر على القرآن يكشف للرأي العام العالمي أنهم متخلفون عقلياً في عصر يتسم بالعقلانية . كما أن حرية الاعتقاد والتدين أصبحت حقاً ثابتاً للجميع ، فالضغوط الفكرية العالمية أجبرت المحكمة على الامتناع عن إصدار حكم على مثل هذه الدعوى .

ما نحتاجه اليوم :

ومثل هذه الوقائع إنما تشير إلى أن إمكانيات جديدة قد طرأت على طريق الدعوة الإسلامية ، فاليوم وقد هبت ريح جديدة وأصبح الجو مواتياً إلى حد كبير ، وبات بإمكان كل فرد تبليغ رسالة الله حيثما شاء ، والأعمال التي أنجزها الدعاة في العصر القديم في حالة فرض الحظر والقيود على الدين يمكن إنجازها اليوم في جو خال من تلك القيود تماماً ، والأنشطة الدعوية التي تم إنجازها في البيئة المتعصبة التي كانت عقبة في طريق الدعوة آنذاك يمكن إنجازها اليوم في وضع هادىء خال من كل تعصب أو عقبات .

والحقيقة أن الحركة الفكرية المعاصرة قد فتحت أبواباً جديدة أمام الدعوة الإسلامية ، حيث نشأت إمكانيات مواتية للدعوة لم تكن موجودة من قبل ، فأصبحت الحاجة ملحة اليوم لأن نعرف تلك الإمكانيات

ونستخدمها بكل دقة وحذر . فالتسهيلات التي قدمها لنا العصر الحديث الدين أحق بها وأولى أن تستخدم في طريق الدعوة إليه .

مسئولية المسلمين :

إن المسلمين بعد ختم النبوة في مقام النّبوة وواجبهم هو تبليغ رسالة الله إلى البشرية قاطبة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لو لاحظنا الأوضاع التي يعيشها المسلم المعاصر اليوم لوجدنا أن الأبواب كلها مغلقة أمامه سوى باب واحد هو باب الدعوة إلى الله ، والمسلمون في أنحاء العالم يبذلون كل جهودهم ، ولكن حبذا أن تبلغ جهودهم إلى نتائج مشجعة ! لقد انصبت جهود المسلمين في بعض الدول في الاحتجاجات والمطالبات السياسية ، فهم يتطلعون إلى السلطة الداخلية أو الخارجية وإلى مقاعد في البرلمان ، إلا أن كل تلك المطالب لم تجن سوى احتجاجات خاوية ، وفي دول أخرى يتطلع المسلمون إلى التقدم عن طريق الصناعة والتقنية إلا أن ذلك الطريق ليس مفتوحاً أيضاً ، فالمسلمون لم يطرقوا بعد عهد التكنولوجيا بينما تقدم العالم حتى بلغ القمة في التكنولوجيا ، وهذا يعني أنه لا مناص للمسلمين من تقليد الآخرين واتباعهم ، لكن الحقيقة المرة هي أن سر الحياة يكمن في الإبداع وليس في التقليد والعمليات الاحتجاجية .

والحقيقة أن المسلمين في وضع لا يمكنهم فيه طرق باب التقدم إلا بطريقة واحدة ألا وهي طريقة الدعوة ، والمسلمون مخيرون بين أمرين ، إما أن ينهضوا بمهمة الدعوة وإما أن يظلوا في وضع لا يؤهلهم لنفع الآخرين ، ناهيك عن أن الله منح المسلمين عصراً حافلاً بكافة إمكانيات الدعوة ، والمطلوب الآن فهمها واستخدامها فحسب .

* * *

— ٢ —

قال تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً** ﴾ [الشرح : ٤ ، ٥] إنما يشير ذلك إلى أن خالق الكون قد خلق الكون في وضع تظهر فيه الحلول إلى جانب المشاكل ، فكما أن الأشواك تحيط بالورود فإن الإخفاق ينطوي على إمكان النجاح أيضاً ، وذلك يعني أنه مهما ازداد الوضع تأزماً وقساوة فلا داعي للقلق أو خيبة الأمل ، إذ يمكن للإنسان أن يغير مجرى أوضاعه بالعمل من جديد. والدنيا في الحقيقة هي موضع اختبار العقل ، والنجاح إنما يكمن في الفراسة ، والناجح هو من يمكنه اكتشاف اليسر الكامن وراء الأزمات ، أو من يدرك الجانب المواتي في الأوضاع غير المواتية ، وفي الحديث : « **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** » ونظرة الله بعيدة المدى لكل ما يحدث في الكون من صغيرة أو كبيرة ، ومن يمكنه أن يرى بهذه الطريقة فإنه لا حدود لقوته . والحقيقة أن هناك نوعين من النظر ، نظر إنساني ، ونظر رباني ، والنظرة الإنسانية تحدها الحدود بينما لا حدود للنظرة الربانية .

إن الإنسان الذي لا يتمتع بفيض الله يشعر بكآبة الحرمان ولا يرى إلا الجوانب السطحية في الكون ، فإذا وجد نفسه في مأزق يفتح ملف الشكوى أمامه فيقع فريسة خيبة الأمل ، في حين أن المؤمن يتمتع بفيض الله ، وبذلك يحصل على نظرة ربانية ، يكتشف بها الحقائق ، ولا يسلط نظره على الأشياء من جانبها الظاهري بل يصل بنظره إلى الأعماق . ولو نظرنا إلى الآية القرآنية : ﴿ **إن مع العسر يسراً** ﴾ يمكن أن نقول : إن المؤمن يكتشف اليسر في العسر ، وهو يدرك اليسر الكامن

في الأزمات والمشاكل ، وهذا سبب ما ذكرنا من أن حملة الاحتجاج ورفع الشكوى ليست من أعمال المؤمن ، لأن عمله هو اكتشاف بصيص نور في الظلام الحالك ، وهو بذلك يتوجه إلى هدفه بكل ثقة ، وما يعاني منه المسلمون اليوم هو فقدانهم النظرة الربانية ، فهم ينظرون إلى الأشياء نظرة إنسانية فحسب ولا يعرفون حقيقة النظرة الربانية ، وهذا ما يجعلهم يدركون العسر دون اليسر ، وظاهرة المطالبات والاحتجاجات التي برزت في أوساط المسلمين تثبت أنهم فقدوا ما يسمى بفراسة المؤمن .

عندما رفعت الدعوى ضد القرآن في المحكمة العليا بكلكتة ، لم تبخل أقلام الكتاب ولا ألسنة الخطباء عن التنديد بها ، وكل منهم قد رأى الجانب المظلم فحسب ، فأطلقوا الصيحات معلنين أن ذلك هو دليل الظلم والتعصب ، ولا أعرف أحداً لاحظ الجانب المضيء في الحادثة أو اكتشف أن المحكمة العليا بعد مباحثات وتشاور أصدرت قانوناً ينص على أن حرية التدين مكفولة للجميع ، فكل قد رأى القضية على أنها تعصب ديني ولم يستطع أن يرى الجانب المضيء فيها وهو حرية التدين . وهذا الأمر ينطبق على الأندلس أيضاً ، إذ أنها بدأت تستقبل المسلمين ، وفتحت أبوابها أمام السلطان عبد الرحمٰن الداخل ليدخلها من جديد . هذه الواقعة أخبرت بها بعض مثقفي المسلمين ، فكانت إجابتهم : « يبدو أن هذه خدعة جديدة من قبل المسيحيين » . يا للعجب ! كيف أنهم لا يرون الجانب المضيء واللامع ، بينما يظهر لهم جانب المكر والخداع المزعوم ، إنما يشير ذلك إلى أن المسلمين يعانون من « فراغ فكري **Intellectual Starvation** » وضعف عقلي ، إنهم فقدوا القدرة على الفحص العميق للوقائع الذي يمكن بواسطته الوصول إلى نتائج صحيحة وإلى إدراك جانب ظاهر كامن وراء الوقائع البادية ، فيحصل على معلومات كافية يرسم بها مخططاته وأهدافه بكل ثقة .

إن خلاصة ما يقوله أو يكتبه المسلمون اليوم هو إطلاق الصرخات في وجوه الآخرين ، فلو أنك اطلعت على أية مقالة مما يكتبه المسلمون أو أجريت مقابلات أو شاركت في ندوات لرأيت نفس النظرة أو العقلية ، إن عقول المسلمين سيطرت عليها فكرة مفادها أن هناك أقواماً بمثابة أعداء للإسلام يعملون على حرمان المسلمين من حقوقهم . فاضطهاد الآخرين وتعصبهم ومكرهم وخداعهم ، هذه هي مجموعة الأشياء التي يعرفها المسلمون اليوم ولا يدركون شيئاً سواها .

إن الأمير شكيب أرسلان ألف كتاباً بعنوان : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » ورغم هذه الفترة الطويلة التي مضت على هذا السؤال ، فإن حكام المسلمين أخفقوا في الإجابة عليه ووضعوا كل مسئوليات التخلف على عاتق الآخرين . إن مسلمي اليوم يملكون نفسية تلمح العسر دون اليسر ، لكن الأمر على عكس ذلك تماماً ، إذ أن سبب التخلف لا يرجع إلى ظلم الظالمين ، بل السبب هو الفراغ الفكري لدى المسلمين ، وبسبب فراغهم الفكري فهم يفقدون تلك النعم التي أحاطهم الله بها ، ورغم الامكانيات الفائقة التي يملكونها يشعرون بخيبة الأمل في طريق التقدم ، إنهم يرون الأوضاع ويغمضون أعينهم عن الإمكانيات . يقص علينا القرآن ما حدث بين موسى وفرعون فيذكر أنه حين أحضر فرعون السحرة في الساحة ألقوا حبالهم وعصيهم ، وبفعل السحر بدأت هذه الحبال والعصى تتحرك مثل الثعابين ، وحين رأى سيدنا موسى هذا المشهد أوجس خيفة ، وأحس – كما هي فطرة الإنسان – بأنه لن يتسنى له تحدي هذه الثعابين فأوحى الله إليه : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ [طه : ٦٩] .

وطبقاً لهذه الإرشادات ألقى سيدنا موسى عصاه على الأرض فإذا هي

حية كبيرة تزحف في الساحة فالتهمت الثعابين ﴿ **فإذا هي تلقف ما يأفكون** ﴾ [الشعراء : ٤٥] . هذه القصة تنطبق على حال المسلمين تماماً فرغم أنهم يملكون عصا موسى إلا أنهم يخافون من الحيات ، كمثل من منحه الله قدرة المعجزة لكنه يخاف حين يرى سحر السحرة وشعوذة المشعوذين ، أو كمن يمنحه الله الحماية الفائقة لكنه يضطرب لمجرد أشياء تافهة تأتي من قبل الناس .

التغييرات الضخمة :

إن العلماء المسيحيين بعيد الحروب الصليبية كانوا يقدمون الإسلام بشكل مشوه ، لكن القرن التاسع عشر شهد انقلاباً جديداً في حقول العلم ، فالأشياء التي يبحثها العلم أصبح يراعي فيها الدقة والقطعية ، وهكذا تحت طور جديد من العلم تطورت فكرة القطع '' Exact thinking '' ونشأت عقلية تميل إلى معرفة الحقائق ، وقد أثرت هذه العقلية في كافة حقول المعرفة وفروعها حتى في فرع دراسة الإسلام ، حيث نشأت عقلية تنادي بضرورة أخذ تعاليم الإسلام من مصادرها ونقلها كما هي ، فبدأ دور جديد للاستشراق يقدم الإسلام في صورة أقرب إلى الموضوعية .

إن النظرية الشيوعية عند ظهورها الأول في الصين وروسيا ، حاربت الدين محاربة ضارية ، إلا أنه اليوم وتحت ضغوط عالمية ، هدأ الوضع وبدأت السلطات تمنح رعاياها حرية التدين . والناس في العصر القديم كانوا منصرفين في جدال بين دين وآخر ، لكن اليوم قد بدأت اللقاءات بين أصحاب الديانات على المستوى العالمي ، يطرح فيها أصحاب كل دين تعاليم دينهم ، والجميع يستمعون بشغف رغم اختلاف دياناتهم ، وقد شاركت في بعض تلك اللقاءات العالمية .

كما فتحت شعبة للغة العربية في سائر جامعات العالم وعلى نطاق

واسع ، يدرس فيها الإسلام بشكل موضوعي ومنهجي ، وكثير من العلماء الغربيين يدرسون اللغة العربية ويترجمون القرآن إلى لغاتهم وينشرون كتب التراث الإسلامي ، ويؤلفون كتباً عن الإسلام معتمدين في ذلك على القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي إلى غير ذلك .

إن العصر الحديث كما أحدث تطوراً في وسائل الاتصال والتقنية المتنوعة ، أحدث كذلك تطوراً في مجالات الفكر والمعرفة ، وهذا التحول موات للإسلام تماماً ، حيث أصبحت الأوضاع ميسرة للغاية ، فما كان ينجز من قبل تحت عقبات وعراقيل ، أصبح اليوم سهلاً يمكن إنجازه دون أية عقبات أو عراقيل ، وما كان يجري في بيئة غير مواتية يمكن إجراؤه اليوم في بيئة مواتية . إنها لحقيقة بأن العصر الحديث فتح أمام الإسلام أبواب الإمكانات الهائلة ، والله سبحانه وتعالى - بفضله الخاص - منح المسلمين بيئة مواتية سهلة يستطيع المسلمون بواسطتها أن يسيروا بالدعوة إلى الأمام دون مواجهة أدنى نوع من العقبات ، ويمكنهم أن يبلغوا بها إلى منتهى غاياتها مستخدمين كافة أنواع الوسائل الحديثة . إن المسلمين يشكون الظلم والاضطهاد من الآخرين ، وهذه النفسية إنما خلقت في المسلمين عقلية لا يمكن أن تكتشف وجهاً آخر في هذا الكون نفسه ، والذي يمكننا بواسطته أن نحس بالأمل من جديد .

ومن تلك المظاهر التي تبعث على الأمل ، ما نراه من إقبال الناس على الإسلام واعتناقه بشكل هائل ، ففي رواندا ذلك البلد الأفريقي كان عدد الذين اعتنقوا الإسلام فيها - خلال خمس سنوات - « ٢٥ » ألف شخص ، وفي فرنسا يحتل الإسلام المرتبة الثانية بعد المسيحية الكاثوليكية ، وفي كل مكان من بريطانيا واليابان ومواضع أخرى ، تردنا أخبار عن اعتناق عدد كبير للإسلام ، وبدأت المراكز الإسلامية تنهض في سائر المدن الكبرى في

العالم ، وروما التي كانت عدواً لدوداً للإسلام قد أقيم فيها مسجد كبير ومركز إسلامي أيضاً . كما يصدر المسلمون الجدد في أسبانيا صحيفة بعنوان « صوت الإسلام » . كذلك أدى الدكتور عمر الفاروق عبد الله ، وهو مسلم أسباني جديد ، فريضة الحج سنة ١٩٨٤م ومن هذا الموقع أدلى بتصريح في مقابلة أجريت معه يؤكد فيها على أن الأوضاع في أسبانيا قد تغيرت تماماً بعد الجنرال « فرنكو » ، حيث تم تأسيس مركز إسلامي كبير في غرناطة ، وبدأ المسلمون يظهرون في أنحاء أسبانيا ، وخلال تلك الفترة اعتنق الإسلام « ٥٠٠ » شخص وقال أيضاً : إن الرئيس الأسباني الجديد يتمتع بعقلية متفتحة كما أنه يراعي مصالح رعاياه ويوليها اهتماماً بالغاً .

والخلاصة : أن الإسلام في توسع مستمر في أنحاء العالم ، وهذا يعني أن الإسلام في تطور مطرد من الناحية النظرية ، ففي الوقت الذي أصبح فيه المسلمون مغلوبين في مكان ، تقدم فيه الإسلام في مكان آخر بفرض سيطرته على قلوب الناس . فلو اكتشف المسلمون هذا الجانب من تاريخهم لأدركوا أن الحالات التي تبدوا غير مواتية لهم هي حالات مشجعة تحثهم على الإقبال على العمل .

في إحدى أسفاري إلى الخارج اتفق أن التقيت بمسلم ياباني جديد ، ودار بيني وبينه حوار فقال : إن اليابان حافلة بالإمكانيات الجديدة لنشر الإسلام ، إلا أنه لم يتم استغلالها بعد ، إذ لو تم تقديم الإسلام أمام اليابانيين بلغتهم وببساطة لاعتنق أغلبيتهم الإسلام . وقال : إن اليابانيين مسلمون بالإمكان .

وفي مؤتمر عالمي التقيت مع بروفيسور مسلم — محاضر في إحدى جامعات كندا — قال لي : إن كندا حافلة بالإمكانيات الهائلة لنشر رسالة الإسلام ، حتى إنه يمكن اجراء أنشطة الدعوة بمساعدات مادية كبيرة من

قبل الحكومة نفسها ، إذ أن حكومة كندا تدعم سكانها في أي مشروع سلمي ، وعلاوة على ذلك فالحكومة لا تمن علينا بتلك المساعدات بتدخل غير ضروري في شؤوننا ، وأضاف قائلاً : إن أصحاب الديانات الأخرى ينتهزون هذه الفرصة إلى حد بعيد بينما المسلمون محرومون منها ، فهم منصرفون إلى الاحتجاجات والهتافات السياسية .

رسالة صلح الحديبية :

إن النبي ﷺ غادر مكة بعد معاناة الظلم والاضطهاد من أهل مكة ، إلى المدينة المنورة ، ومع ذلك لم تنطفيء نار الحقد والغضب في نفوس أهل مكة ، فبدأوا يخوضون الحرب لطمس معالم الإسلام ، وظلت الحرب بين المشركين والمسلمين تشتعل بين الحين والآخر ، وسادت الحرب كل الجهات ، مما أوقف نشاط الدعوة الإسلامية ، وفي السنة السادسة للهجرة كان يبدو أن العرب ليسوا سوى حاقدين على الإسلام ونافرين منه ، مما أوقف تاريخ الإسلام نتيجة حروب متتالية ، وكان لا يبدو أي إمكان مشجع لصالح الإسلام ، إلا أن النبي بفضل الفيض الإلهي الخاص ، أدرك أن هناك شيئاً كامناً وراء هذا الذي يبدو للعيان .

فرغم أنه على سطح الأحداث يظهر التشدد والنفور إلا أنه في أعماقها تكمن إمكانات مضيئة لصالح الإسلام ، وكشفت له النظرة الربانية عن أن إيقاف حالة الحرب سيظهر تلك الإمكانيات الكامنة في ما وراء المظاهر البادية ، ويكون ذلك بداية انطلاقة جديدة لتاريخ الإسلام الذي كاد أن ينتهي ، والأمر الذي حدث استجابة لذلك الوضع هو صلح الحديبية ، وهي اتفاقية هدنة لمدة عشر سنوات ، فالنبي ﷺ من أجل إيقاف الحرب هذه قبل بجميع الشروط التي أملاها عليه المشركون ، فإذا كان الفريق الأول صارماً في موقفه فلا مناص للفريق الثاني من الاعتراف بجميع مطالب الفريق

الأول إذا أراد الأمن والنصر .

إن وضع الإسلام في العصر الحديث قد وصل إلى الحد الذي وصل إليه في السنة السادسة للهجرة ، فالمسلمون اليوم في أنحاء العالم هم فريسة للتشدد والرفض من الآخرين ، والمسلمون إزاء ذلك يبدون ردود فعل مضادة ، مما أسفر عن نشوء جو التناحر بينهم وبين الآخرين في أرجاء العالم ، وهذا التناحر يظهر في صورة احتجاج لفظي أحياناً أو في صورة مواجهة بالسلاح أحياناً أخرى . ويبدو أن الإسلام في العصر الحديث أصبح موضع سخرية ونفور ، ولكننا لو أمعنا النظر لرأينا أن الوضع الحقيقي على عكس ذلك تماماً ، إنه نفس الوضع الذي كان في زمن الحديبية ، وأوضح مؤشر على ذلك إقبال عدد كبير من الناس على الإسلام .

العصر الجديد :

إن الوضع المناسب للإسلام في العصر الحديث يكمن في الوضع غير المواتي له ، إلا أن المهم هو اكتشافه والاستفادة منه ، فلو استطعنا أن نثبت تلك الحكمة العملية التي أثبتها النبي وصحابته في الدور الأول عند صلح الحديبية يمكن أن نؤكد على أن النتائج التي سنحققها هي نفس النتائج التي تحققت عند صلح الحديبية ألا وهي إقبال الناس أفواجاً على الإسلام .

وللاستفادة من هذا الوضع نحتاج إلى تضحيات بالغة ، ومن المعروف أن تغيير وضع ما يتطلب تضحيات جمة ، والوضع – الآن – يتطلب من المسلمين تلك التضحيات نفسها التي قدمها النبي وصحابته عند صلح الحديبية ، وهذا يعنى إنهاء جميع أنواع الخصومات والتناحرات بشكل كلي وإيجاد جو هادئ غير متوتر .

إن المسلمين في أنحاء العالم اليوم منصرفون للعمل بنفسية رد الفعل ،

إذ أنهم في حرب مادية ومعنوية مع الآخرين ، وهذه هي العقبة الأصلية في طريق الدعوة ، والتي جعلت علاقة الداعي بالمدعو تتحول إلى علاقة الند بالند ، ولذلك فعلى المسلمين أن ينهوا كافة أنواع المصادمات مع الآخرين تماماً لكي تعود علاقة الداعي والمدعو من جديد ، وينشأ بينهم وبين الآخرين جو هادئ تقدم فيه دعوة الإسلام ويسمعها الآخرون ويعونها بذهن مفتوح .

إن العصر الحديث قد خلق للإسلام إمكانات جديدة مواتية له من جهة ، ومن جهة أخرى ثمة جو من التناحر والصدام يجري بين المسلمين والآخرين في ربوع العالم ، وفي هذا الوضع ينبغي للمسلمين أن يعملوا على إحياء تلك السنة التي ظهرت في السنة السادسة للهجرة وذلك بإنهاء التناحر وجو الصدام بين المسلمين والآخرين وبشكل كامل ، والصبر على المصائب التي تحدث بفعل الآخرين ، فلو تبنى المسلمون هذا المنهج لانطفأت نار العداوة التي تشتعل بينهم وبين الآخرين نهائياً ، والأمر الذي يبقى بعد ذلك هو الذي أسميناه « الإمكانيات الجديدة للدعوة الإسلامية » فبمجرد إنهاء جو النفور والصدام تظهر تلك الإمكانيات المخبأة ، وفي اليوم الذي يتحقق فيه ذلك سيبدأ تاريخ جديد للإسلام ينطلق قدماً إلى الأمام - كما قدر الله - حتى يصل إلى هدفه المنشود .

العصر الحديث :

كان صلح الحديبية معاهدة هدنة لمدة عشر سنوات ، وقد أغمد النبي ﷺ سيفه بواسطة هذه الهدنة ، واتجه إلى القوة الفكرية للإسلام ، إنها أول حادثة في التاريخ تحول فيها مجرى الصراع من ساحة المعركة إلى ساحة الفكر وكان السائد قبل ذلك ، أن الحرب هي الفيصل بين الفريقين المتنازعين لا غير ، غير أن النبي ﷺ أثبت عملياً بأن القضية قد تحسم في ساحة الفكر

أيضاً ، بل إن حسم القضية في ساحة الفكر أشد وأقوى من ساحة المعركة .

إن صلح الحديبية لم يكن تدبيراً مؤقتاً تم اللجوء إليه اتقاء فتنة قريش بل إنه كان أعلى قدراً من ذلك ، إنه فتح جديد في التاريخ الإنساني فقد أظهر النبي بواسطته القوى الفكرية للإسلام من جهة وبدأ من جهة أخرى عصر جديد لأول مرة في التاريخ ، ثم بلغ إلى الكمال في العصر الحديث .

كان مباحاً في الزمن القديم بأن ينخرط حاكم بجيشه في منطقة حاكم آخر عاملاً فيها سيفه قتلاً وتدميراً واستيلاء عليها ، بينما يعتبر في العصر الحديث مثل هذا التدخل انتهاكاً للأعراف الدولية ، وأن المشاكل بين الأمم تسوى عبر الحوار والنقاش السلمي .

إن استخدام الفكر ، بدل السلاح ، في الحياة الدولية هو ما نادى به دين نبي الإسلام ، وأن العقلية السائدة في العالم اليوم هي نتاج تلك الثورة التي انطلقت مع صلح الحديبية قبل أربعة عشر قرناً من الآن .

فلقد استعمل النبي ﷺ أسلوباً فكرياً في الشئون الدولية لأول مرة في التاريخ وطبقه تطبيقاً عملياً ، ومن هنا امتزج هذا النمط مع موجات التاريخ وما برح يتعاظم ويتعاظم إلى أن بلغ ذروته في صورة الثورة الفكرية الحديثة .

إن هذه الثورة التاريخية لصالح الإسلام تماماً ، فالفرصة التي وجدت مؤقتاً أثناء صلح الحديبية ، أصبحت الآن طابع العصر ، إن هذه الثورة فتحت أمامنا مجالاً أرحب وأوسع للعمل من أجل نشر الإسلام في أجواء مواتية ، حتى نجعل الإسلام ديناً عالمياً باستعمال القوى الفكرية التي يملكها الإسلام .

(دلهي ١ سبتمبر ١٩٨٥)

عصر الإسلام

إن أعجب ما في تاريخ الأديان هو أن الأنبياء بداية من سيدنا نوح إلى سيدنا المسيح ظلوا مستمرين في الدعوة إلى التوحيد ، إلا أن رسالة التوحيد لم تلق قبولاً واسعاً في أي عصر من العصور . لقد غادروا الدنيا دون أن يستجيب لدعوتهم إلا قلة ضئيلة ، ولكن الوضع انقلب رأساً على عقب بعد النبي محمد ﷺ ، حيث بدأ الناس يدخلون في دين الإسلام أفواجاً من كل حدب وصوب حتى ساد الدين أرجاء المعمورة ، وتبوأ دين التوحيد مكان الصدارة بدل الشرك .

والسبب في هذا الفرق هو أن الزمن القديم كان زمن الاضطهاد والقهر الديني ، وقد ولى هذا الزمن دون رجعة بعد النبي محمد ﷺ وسادت حرية العقيدة ، فالله قد حمّل النبي مسئولية القضاء على الفتنة ، والمقصود بالفتنة الاضطهاد والقهر الديني كما أسلفنا ، إذ ساد في الزمن القديم أن أصحاب السلطة كانوا يضطهدون أتباع الدين الذي لا يروق لهم ، وكان يعد ذلك حقاً مشروعاً لأصحاب السلطة . تلك هي البيئة التي كانت تمثل سداً منيعاً دون تبليغ دين جديد أو نشره .

إن أهم جوانب الانقلاب العظيم الذي فجره النبي محمد ﷺ وأصحابه هو القضاء لأول مرة في التاريخ على بيئة القهر الديني ، فبدأ حينئذ نشاط نشر الدين في جو فسيح خال من تلك المعوقات وبذلك حقق الدين خلال مئة سنة نجاحاً وانتشاراً واسعاً لم يحققه منذ آلاف السنين .

إن مهمة القضاء على الفتنة التي أنجزها النبي محمد ﷺ ظل تأثيرها

مستمراً في التاريخ حتى ساد الفكر العالمي ، حيث ظهر مؤخراً في صورة قرار صدر عن الأمم المتحدة ينص على حرية الديانة ويثبتها لجميع الأمم .

لقد ألقى الدكتور (غوبال سينغ) الحاكم السابق لمنطقة (غوا) محاضرة في بومبي بتاريخ ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٨٨م تحت إشراف (جمعية الإسلام) بمناسبة ذكرى معين الدين الحارث ، كان عنوان المحاضرة :

Prophet Mohammad, his life and mission

وكان من بين ما تضمنته المحاضرة حسب تقرير مجلة (Times of India) بتاريخ ٣١ من ديسمبر ١٩٨٨م : « إن القضايا التي يعاني منها المسلمون ويتأوهون من أجلها هم أنفسهم المسئولون عنها كل المسئولية ، إذ ينبغي عليهم أن يدركوا كيف وصلوا إلى القمة في ماضيهم ، ولماذا انحدروا إلى السفح في حاضرهم ؟ فالأمة التي حكمت نصف العالم رغم قلتها هي اليوم في خوف لأنها تمثل الأقلية في الهند » .

They have to reflect high they had soared in past how low they have fallen today. The people woh ruled half the world as a minority are afraid of being a minority in India (p.8).

ويضيف الدكتور قائلاً : « إن المسلمين في وضع يظنون فيه أن مفهوم العلمانية يمثل خطراً على دينهم في حين أنه يدخل في صميم الإسلام الذي قدم للإنسانية هذه الهدية الثمينة » .

Afaith is today afraid of the concept of secularism which is its own gift to humanity. p,8.

إن ما أشاد به الدكتور لا يعتريه شيء من الخطأ ، فالعلمانية ليست

فكرة عدائية للدين ، بل هي بعبارة أخرى عدم التطرف الديني ، أي هي المبدأ الذي بموجبه لا تتدخل الحكومة في شؤون الدين ، أو بعبارة أصح العلمانية هي حرية ممارسة الأديان على حد سواء ، وبهذا الاعتبار فالعلمانية هي حصيلة مباشرة لانقلاب القضاء على الفتنة الذي أثاره الإسلام على مستوى عالمي .

معنى العلمانية :

جاء في قاموس (ويبستر) أن المراد بالعلمانية « الاعتقاد بعدم تدخل الدين في شؤون الدولة » .

The belief that religion should not enter into the functions of the state.

هذا المفهوم للعلمانية قد توسع بصورة خاطفة بعد النشأة الثانية في أوربا فالذين دافعوا عن هذا المفهوم وتحمسوا له هم أولئك الذين مروا بتجربة مريرة مع المسيحية ، فنشأ لديهم تصور مفاده أن عدم تدخل الدين في شؤون الدولة كفيل بأن يدفع الحضارة إلى الأمام . وقد أخطأ المسيحيون بدورهم حين توهموا أن العلمانية هي نظرية مضادة للدين (anti-religion) ومن ثم عارضوها بشدة ، إلا أن حدة معارضتهم قد فترت إلى حد ما فمسئولية جعل العلمانية نظرية معادية للدين تقع على كاهل العلماء المسيحيين وليس على النظرية العلمانية نفسها .

إن المنادين الأوائل بالنظرية العلمانية قد شددوا على هذا المفهوم للعلمانية وهو عدم تدخل الدين في شؤون الدولة ، إلا أن ذلك التشديد أسفر عن رد فعل المسيحية حتى إذا انحسرت سيطرة الكنيسة وانكسرت شوكتها بدأ المنادون بالعلمانية يؤكدون على الجانب الآخر وهو ألا تتدخل الدولة في شؤون الدين ، هذه هي حقيقة العلمانية وماهيتها . إن العلمانية

في واقعها ليست معادية للدين بل هي معارضة للتطرف والتشدد ، وبهذا الاعتبار فهي هدية ثمينة في سبيل نشر الدين والدعوة إليه ، فالتوهم أو اليقين بأنها معادية للدين ليس إلا تعبيراً عن الجهل بحقيقة الدعوة وحقيقة العلمانية أيضاً .

وضع الهند :

على عكس ما يعتقد البعض ممن ليست لهم دراية ، فليس في الهند سيادة الكفر بل العلمانية هي السائدة . ورغم أن التعريف العلمي للعلمانية ليس واضحاً إلا أن التعريف الذي نجده في الموسوعة الدينية هو أقرب ما يكون إلى مفهومه العام ، فقد كتب تحت عنوان العلمانية « إن العلوم الدينية تقدم التفسير عن عالم ما وراء الطبيعة في حين أن العلمانية بمنأى عن ذلك العالم وتفسيراته » .

Secularism is wolly unconcerned with that world and its interpretation.

وطبقاً لما ورد في الموسوعة فإن العلمانية لا تعارض الدين بل لا تمت للدين بأية صلة والحقيقة أن المفهوم التطبيقي للعلمانية هو عدم التدخل (Non-interference) والعلمانية الهندية هي كما ورد في الدستور ، حرية المواطن في شؤون المعتقدات والطقوس الدينية ، ولا يحق للدولة أن تتدخل في شؤون طائفة من الطوائف الدينية إلا إذا خاضت هذه الطوائف تناحراً فيما بينها أو أحدثت قلاقل واضطرابات .

صحيفة المدينة :

إن العلمانية المعروفة لدينا هي نفسها التي تم اختيارها في مطلع الدور المدني ، ونجد الدليل على ذلك في صحيفة المدينة أو لنقل دستور المدينة ، فهو يعكس لنا بكل وضوح أسلوب تعايش المسلمين إذ كانوا في مجتمع تقطنه

جماعة غير إسلامية ، وليس للمسلمين فيه الخيار الكلي .

اقرؤا هذه القطعة من الصحيفة : « وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه ، وأهل بيته وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ؛ إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ؛ وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ؛ وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم ؛ وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ؛ وإن بطانة يهود كأنفسهم ؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ؛ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ؛ وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ؛ وإن الله على أبر هذا ؛ وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ؛ وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ؛ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ – »[2] .

إن اليهود طبقاً لوجهة نظر الإسلام كانوا كفرة . فرغم ذلك قرر في

---

(١) يهلك .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٤/١٤٥ .

الصحيفة أنهم أمة واحدة مع المسلمين ، بالإضافة إلى أنه أعلن بأن « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » . أنها نفس الحقوق التي تحصل عليها كل أمة أو طائفة تحت نظريات الحرية أو الديمقراطية أو العلمانية ، مع فارق بينهما وهو أن الصحيفة ذكرت هذه الحقوق بألفاظ عصرها ، وإنسان اليوم يذكرها بألفاظ مختلفة تناسب العصر الجديد .

النظام الملكي والنظام الديمقراطي :

في الزمن القديم كانت الملكيّة هي النظام الرائج ، وكانت تدعي حقاً مقدساً في السلطة (Divine Right of Kings) مستمداً من مصدر إلٰهي ، مع فروق بين أشكال متنوعة من حيث الظاهر ، فمنهم من كان يتشبث بالسلطة الملكية بدعوى أنه ينحدر من الرب الشمس أو الرب القمر كما كان الشأن في مصر والعراق ، ومنهم من ادعى أنه مندوب الله السياسي على وجه الأرض ، وأن ندبه هذا مستمد من الله مباشرة ، فليس لأحد الحق في نسخه أو إلغائه كما كان الشأن بالنسبة للصين وإيران ، ومنهم من يقدم نفسه كمسئول مقدس عن إرادة الله في هذه الأرض ، وبالتالي فرضت على الشعوب قبضة صارمة كالروم قديماً . هذه هي البيئة السياسية التي كانت تسود العالم في الزمن القديم ، حيث أحكم كل ملك سيطرته مستنداً على عقيدة رمزية ليثبت أحقيته في الحكم .

وقد أسفر هذا النوع من الحكومات عن بيئة القهر والاضطهاد الديني ، حيث ظل الملوك بغية التشبث بسلطانهم يضعون القيود الحديدية على الأديان الأخرى عدا دينهم ، ويقومون بقمع واضطهاد أفرادها . إن الملك يدعي صلته المباشرة بالله مستمداً منه قوة ملكه ، مما يجعله مقدساً في عيون الشعب ، ومثل هذا لا ولن يقبل دعوى أن الله خالق وما عداه مخلوق وأنه لا فضل لهذا على ذاك باعتبارهم خلق الله ، لأن تلك الدعوى تسقط حقه

في الحكم وتجعل ادعاءه بلا أساس .

في مثل هذه البيئة المتأزمة تقدم الإسلام بنظرية التوحيد الخالصة ، أي أن الله هو إلـه واحد أحد لا إلـه سواه ، ولا يحق لأحد ادعاء مكانة الألوهية بأي اعتبار ، وقد نجحت الحركة الفكرية الإسلامية إلى درجة أنها استأصلت جذور الشرك من العالم كله ، وقدم الإسلام فكرة (الشورى) التي تعطي للشعب حق اختيار الحاكم ، فهم الذين يتولون انتخابه بمشورتهم الحرة ، وقد حقق الإسلام نجاحاً باهراً في هذه الساحة أيضاً ، حيث لم تبق فكرة الشورى في إطار نظري فحسب بل قدم لنا النبي ﷺ وأصحابه نموذجاً عملياً لها ، وبالرغم من أن نظرية الشورى ظلت فيما بعد بين ارتقاء وانحدار إلا أن فيضها الفكري تدفق عبر مراحل التاريخ كلها حتى إذا ما وصلت إلى أوربا اتخذت شكل الديمقراطية الحديثة (Democracy) . إن الديمقراطية هي الوجه الغربي لنظرية الشورى في الإسلام كما أن العلمانية هي حصيلة هذه الحركة السياسية الحديثة .

تغيير الدور :

إن المسلمين المعاصرين – لقلة درايتهم – رأوا وجهاً واحداً للعلمانية ، ولم يتمكنوا من رؤية الوجه الآخر فيها . إن العلمانية في أصلها أن تظل الدولة في موقف محايد إزاء الشؤون الدينية ، فهي ثورة فكرية بعيدة المدى تخدم مصالح الإسلام وتتفق معها بينما لم تكن السلطة في الزمن القديم قد تبنت هذا الموقف المحايد من الأديان ، وقد نجم عن ذلك أن أتباع دين معين قد عانوا الاضطهاد وقسوة المعاملة من أتباع دين آخر فالبوذية مثلاً وقعت تحت وطأة البرهمية ، والمسيحية كانت تئن تحت اليهودية ، وكل طائفة كانت تكابد ألواناً من الاضطهاد من طائفة أخرى ، وغير ذلك مما تزخر به كتب تاريخ الأديان القديمة . كما واجهت دعوة التوحيد معارضة صارمة من قبل قوى

الشرك ، فالداعي إلى التوحيد كان يلقى في النار المستعرة ، وكان يمزق جسده في بعض الأحيان . إلا أن الحركة الفكرية الحديثة ، والتي كانت في حقيقتها نتيجة للانقلاب الإسلامي ، قد فرضت قيوداً على أصحاب السلطة كي يلتزموا الحياد إزاء الشؤون الدينية .

وقد أصبح هذا المبدأ ، عن طريق الأمم المتحدة ، مبدأ عالمياً معترفاً به وذلك في سبتمبر سنة ١٩٤٨م حيث تم الاتفاق على بيان عالمي لحقوق الإنسان (Univesl Declaration of human Rights) وطبقاً للبند رقم (١٨) من البيان ، والبند رقم (١٩) والبند رقم (٢٠) فإنه يثبت لكل فرد الحق في التمسك بدين معين ولكل فرد كامل الحرية في تغيير دينه ، وممارسة طقوسه الدينية جهرة وعلانية ، كما يحق لكل واحد أن يقدم دينه ويشرح معتقداته أمام الآخرين ويباشر ذلك بكل الوسائل السلمية المتاحة .

وهناك وجه آخر لهذه الحرية ، وهو أن المرء له الحرية المطلقة لأن يتبنى النظرية الإلحادية المنكرة للدين ، إلا أن الجانب الأهم في هذا هو أنه أصبح بإمكان كل شخص اعتناق دين بعينه والقيام بتبليغه ونشره دون أن يعترض أحد طريقه أو يحول دون تحقيق أهدافه . وهذا الجانب ما هو إلا حصيلة العلمانية الحديثة .

إن تلك الحرية إنما تمثل نجاحاً باهراً بالنسبة للإسلام ، وتعني تغيير ساحة المواجهة ، فهي تقود المواجهة الدائرة بين الأديان من ساحة المواجهة المسلحة إلى ساحة المواجهة الفكرية ، والإسلام بدون شك يتمتع بتلك الكفاءات التي تضمن انتصاره فيها . إنها تغيير لمسار المواجهة إلى ساحة يصبح الإسلام فيها فاتحاً منتصراً دونما قوة السلاح . والقرآن يوجه عقل الإنسان لرؤية (اليسر) في (العسر) إلا أن حال المسلمين اليوم ينبيء عن إخفاقهم وعجزهم حتى عن رؤية (يسر) في (اليسر) .

الفتح المبين :

يتبين من خلال دراسة سيرة النبي ﷺ أن الجو السائد بينه ﷺ وبين معارضي الإسلام كان جو الحرب والقتال المستمر وبعد عشرين سنة تقريباً عقدت اتفاقية هدنة بين الطرفين عرفت باسم : (صلح الحديبية) ، وقد سمّاها القرآن (فتحاً مبيناً) .

ترى ما الذي جعل هذا الصلح فتحاً مبيناً ؟ إن نفسية الإنسان تغمرها العصبية والحماس لأخذ الثأر في حالة الحرب ، فإذا ما سادت بين الفريقين علاقة الود والإخاء تكون نفسية المرء مهيأة لقبول الأدلة المقنعة دونما تعصب .. ولما كان الإسلام دين الفطرة ، فهو دين لا تلائمه حالة الحرب والقتال أبداً ، إذ أن حالة الحرب تكون فيها أعين الناس مغطاة بأغشية العصبية والتطرف ، مما يجعل الناس بمعزل عن الإحساس بمحاسن الإسلام وعلو قيمه ، وحتى لو أحسوا بذلك فإنهم نظراً لحقدهم ونفسيتهم العدائية سوف لن يعترفوا بذلك . فإذا ساد بين الفريقين جو هادئ خال من التوتر فإن قوة جاذبية الإسلام لا تلبث أن تبدأ في تأثيرها في النفوس فتنفذ دلائل الإسلام وقيمة إلى الفطرة السليمة فتنشرح لها نفسية الإنسان وتستقبلها ثم تضطر إلى الاعتراف بها ، والخضوع أمامها .

إن منهج الإسلام هو عدم أخذ الأشياء على ظاهرها ، بل ينبغي الخوض في أعماقها واستشفاف حقيقتها . والمثال الحي لذلك هو (صلح الحديبية) ، الذي وضع المشركون شروطه ، متوهمين أنهم بذلك قد حصلت لهم الغلبة على المسلمين إلا أن البصيرة النافذة والتي تجاوزت سطح تلك الشروط ونفذت إلى أعماقها ، قد انتزعت الحقيقة التي كانت لصالح المسلمين ، وهي أنه بفضل تلك الشروط قد تحولت ساحة المواجهة إلى غير الساحة ، فالمواجهة التي كانت تتم في ميدان المعركة كان الفريق الثاني يتفوق فيها بما

يملك من عدة وعتاد ، بينما تحولت المواجهة إلى ميدان جديد ألا وهو ميدان المواجهة الفكرية ، الذي نشأ بعد الصلح ، ولا شك أن المسلمين هم المتفوقون في هذا المجال مما يضمن نجاحهم في هذه المواجهة .

ومن هذه الزاوية ينبغي أن ننظر إلى العلمانية أيضاً ، إذ قرر الفريق الثاني التمسك بهذا المبدأ حتى يستتنى له تحقيق مخططاته الحضارية دون تدخل الدين فيها أو اعتراض لطريقها . إلا أننا نستطيع أن ننتزع من أعماق هذا المبدأ جانباً يخدم مصالحنا بالذات ، وهو أن المواجهة مع الفريق الثاني قد انتقلت من ساحة القوة إلى ساحة النظر والفكر . فإذا أمعنت النظر في ذلك فإنك تجد أن العلمانية المعاصرة هي صلح الحديبية أبدية في أحد جوانبها .

إن اتفاقية الهدنة (صلح الحديبية) كانت قد أوقفت الحرب بين الإسلام وبين القوى غير الإسلامية لمدة عشر سنوات فقط ، في حين أن العلمانية المحدثة قد قضت على جو الصراع والتناحر بين السلطة والدين للأبد . ونقل صلح الحديبية المواجهة من ساحة الحرب إلى ساحة السلم في شكل مؤقت ، بينما تحمّلت العلمانية هذه المسئولية للمرة الثانية بوضع قيود على الحكومات المعاصرة والتزمت بعدم خوض الحرب ضد الدين ، وقد حصل الدين بذلك على تلك الفرصة السانحة من جديد ، وبصورة أرق من تلك التي حصل عليها في الدور الأول بعيد صلح الحديبية ألا وهي إيصال دعوة الحق إلى كافة الناس دون أن تتعرض لها السلطة أو تحول دون القيام بها ، حتى يحين الوقت الذى لن يكون فيه فريقان بل فريق واحد هو (فريق الإسلام) وتقوم على وجه الأرض الحكومة الإلـٰهية التي قامت في نفوس الناس .

الخلاصة :

إن الإسلام رسالة دعوية خالدة ، والوضع الأكثر ملاءمة له هو ألا

تتدخل قوة عسكرية أو سياسية للحيلولة دون انتشاره ، أو القيام بمهامه . وقد سنحت بفضل الحديبية الفرصة لعدم استخدام الفريق المعارض القوة ضد الإسلام طيلة عشر سنوات ، فتوسعت بذلك دائرة الإسلام وبدأ ينتشر ويتدفق كالسيل في أنحاء المعمورة . وهذا الأمر نفسه قد حدث بصورة أوسع حين قيدت السلطات الحكومية نفسها بالتزامات تفرض عليها عدم التدخل في شؤون الدين . إن هذا إمكان عظيم لعملية الدعوة . وقد وقف الإسلام بفضله على باب فتح مبين جديد ، فأصبح لزاماً أن ينهض بعض عباد الله لينتهزوا هذه الفرصة الذهبية ، ويجعلوا هذا الإمكان العظيم واقعاً تاريخياً .

وطبقاً للقرآن الكريم فقد مّر تاريخ الأديان بمرحلتين : مرحلة ما قبل الانقلاب الإسلامي حيث كانت الفتنة تسود العالم ، ومرحلة ما بعد الانقلاب الإسلامي حيث تمت إزالة الفتنة ، أي الاضطهاد والقهر الديني (Persecution) ، وكان في الزمن القديم – زمن الفتنة – من حق أرباب السلطة أن يأمروا الناس باعتناق عقيدة ما أو رفضها ، تلك هي الصورة السائدة عبر مراحل التاريخ في الزمن القديم .

(إن المجتمع القديم في أساسه ، كان مجتمع التعصب)[1] .

Ancient society was essentielly intolerant.

وذلك الوضع كان مخالفاً لخطة الله الكونية ، لأن الدنيا – طبقاً لخطة الله – هي موضع اختبار ، والشرط اللازم لهذا الاختبار أن يتمتع الإنسان بحرية الاختيار (Choice) . إذ ليس للاختبار أي معنى دون وجود هذا النوع من الحرية .

والوضع السائد في الزمن القديم هو بمثابة التدخل في خطة الله

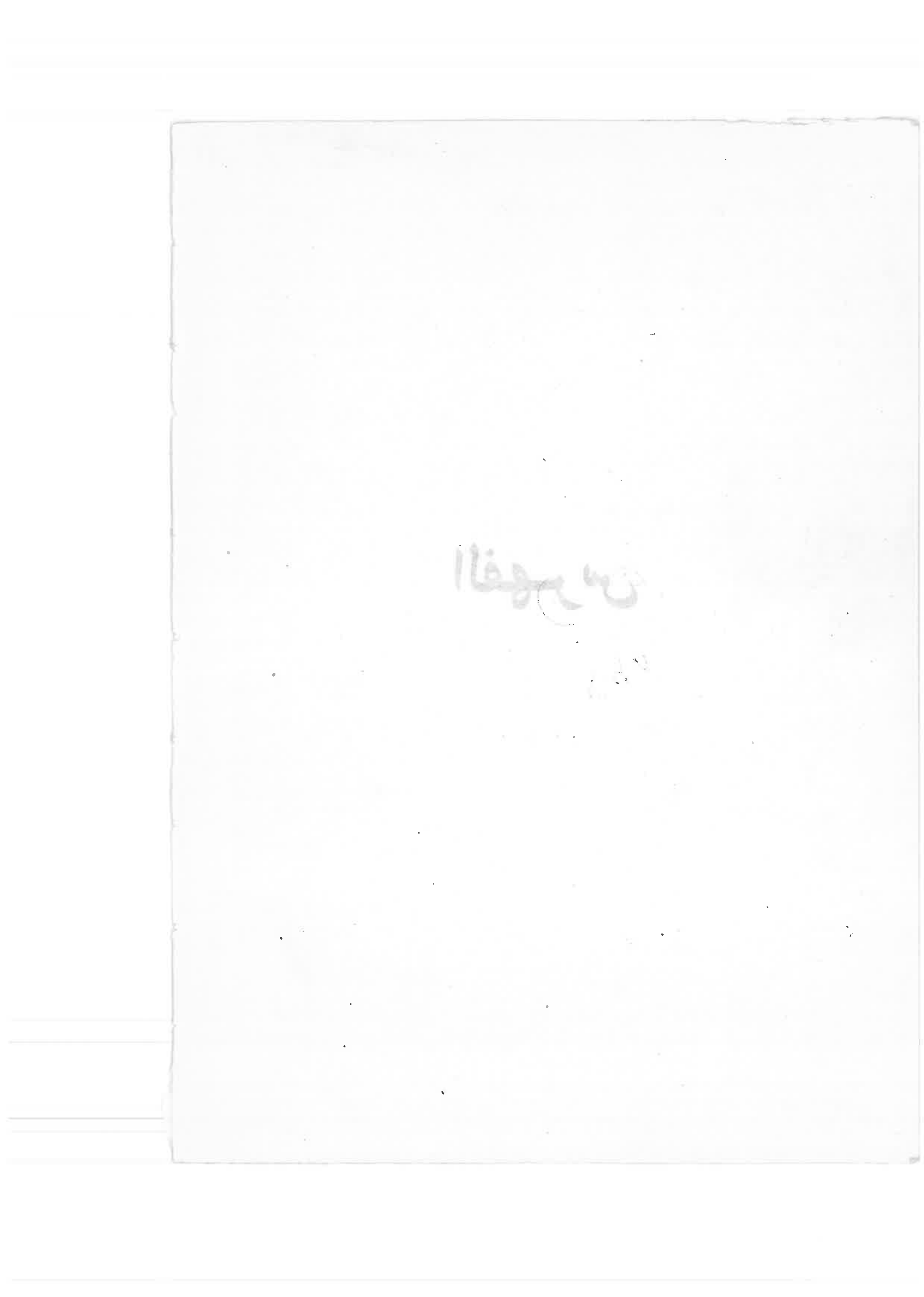
(١) دائرة معارف الأديان والأعراق .

الكونية . ومن أجل ذلك أمر النبي ﷺ وأصحابه بشن حرب ضد أرباب الفتنة لإزاحتها ، وبعبارة أخرى للقضاء على الاضطهاد الديني وفتح الباب على مصراعية ليتمتع الناس بالحرية الكاملة في اختيار دين أو رفضه . وهذا هو معنى الآية : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ [البقرة : ١٩٣] . والمراد بالآية بعبارة أخرى ، حتى تنتهي حالة التدخل الإنساني في خطة الله وتبقى الحالة الطبيعية الفطرية التي فطر الله الكون عليها .

وهكذا قضى الانقلاب الإسلامي على القهر الديني وفتح الباب على مصراعيه ليكفل حرية التدين للجميع . إن فقدان حرية التدين في الصين والاتحاد السوفيتي يلائم النظام الاشتراكي القائم فيها ، ولكن حين تقوم الحرية فيها تصبح حرية التدين ملائمة تماماً لهذا النظام الجديد . وهكذا في الزمن القديم كان عدم توفر جو الحرية لصالح دين الشرك وحين نشأت تلك الحرية أصبح الوضع ملائماً للإسلام .

وهكذا حين ينشأ وضع فطري ، فإن الإنسان لا يقبل إلا ديناً فطرياً فحسب . فمن يدرك هذا السر فقد أدرك إمكاناً عالمياً عظيماً لنجاح الدعوة .

الفهرس



الفهرس

الجزء الأول

عنوان المؤلف

ISLAMIC CENTRE

C - 29 NIZAMUDDIN WEST

NEW DELHI - 110013 INDIA

TEL 697333 / 611128



دار الحرمين للطباعة

٧٢ ش مصر والسودان - حدائق القبة

القاهرة ت : ٨٢٠٣٩٢



ينص القرآن على أن الإسلام دين كامل ، أى دين مستحكم ، إذ يمثل ظهور الإسلام نهاية مرحلة وانطلاقة مرحلة جديدة في تاريخ الدين الإلهي ، حيث تمّ القضاء على طور التدخل البشري في دين الله بعد ظهور الإسلام ، وأصبح الدين الإلهي ديناً كاملاً مستحكماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لتظل عظمته باقية إلى يوم القيامة ، ويضمن لأتباعه هداية ونهضة أبديتين .



الناشر
الرسالة للإعلام الدولي
٧ ش الشيخ محمد النادي ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر
✆ ٢٦٢٣١٠٥ - ٢٦٢٨٤٩٩ - ٢٦٢٢٨٤٠